شرح
كتاب التوحيد
من صحيح البخاري

تأليف
الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان
رئيس قسم الدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الجزء الأول

الدرر السنية www.dorar.net

المقدمة

أحمد الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ألوهيته وربوبيته، ولا ند له في أسمائه وصفاته.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى، ودين الحق، فدعا إلى توحيد الله الخالص من كل شائبة شرك، في حقه، أو فعله، أو أسمائه وصفاته، وجاهد في هذا السبيل حتى وضح الحق، واستبان وكمل به الدين، وتمت النعمة، فترك الأمة على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وسار على نهجه صحابته، فلم يغيروا، أو يبدلوا، بل بذلوا جهدهم في دعوة الخلق إلى عبادة الله وحده، حتى مضوا لسبيلهم.

فصلاة الله وسلامه على عبده ورسوله محمد بن عبد الله، إمام الحنفاء وسيد الأصفياء، ورضي الله عن صحابته أجمعين، وعمن سلك نهجهم إلى يوم الدين.

كمال الهداية وتمام النعمة على هذه الأمة

أما بعد، فقد علم أن الله – تعالى – بعث رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم – على حين فترة من الرسل " وفي جاهلية لا تعرف من الحق رسماً، ولا تقيم به في مقاطع الحقوق حكماً "[1]، وإنما ينتحلون ما تهواه نفوسهم، وما تزينه لهم شياطينهم، وما وجدوا عليه آباءهم، فجاهدهم وجادلهم باللين والحكمة، وقارعهم بالسنان والحجة، لمن كابر وعاند، وكان نصر الله حليفه، فاستقام أمره، وانتصر على عدو الله، وظهر دينه، فجاء نصر الله ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وبعد تمام نعمة الله – تعالى – عليه وعلى أمته، وظهور ما جاء به من الحق، ووضوح الطريق، توفاه الل ه إليه، فقام بعده صحابته بأمره خير قيام، فجاهدوا في الله القريب والبعيد، حتى تحقق ما أخبر به رسولهم – صلى الله عليه وسلم- فيما رواه مسلم في "صحيحه" عن ثوبان، قال: قال رسول الله –

ص 6

صلى الله عليه وسلم-: " إن الله زوى[2] لي الأرض فرأيت مشارقها، ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين، الأحمر، والأبيض[3]، وأني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم[4]، وإن ربي قال: يا محمد،

---

[1] () انتزاعاً من خطبة " الاعتصام" للشاطبي (ص 2).

[2] () معناه : جمعها لي فرأيت أقصاها من الشرق ومن الغرب .

[3] () المقصود بالكنزين: كنز الفرس ، والروم ، الأحمر: الذهب ، و الأبيض: الفضة .

[4] () أي : يهلكهم جميعاً ، ويستولي على بلادهم ، وذراريهم ، وأموالهم .

إني إذا قضيت قضاء فـإنه لا يـرد، وإنـي أعطيتـك لأمتـك أن لا أهلكهـم بسـنة عامة[5]، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، يسـتبيح بيضـتهم، ولـو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلـك بعضـاً، ويسـبي بعضـهم بعضاً"[6].

ففتحت بلاد الروم وفارس في عهد الخليفة الثاني، وأنفقـت كنوزهـا فـي سبيل الله – تعالى- وواصلت جحافل التوحيد إلـى مشـارق الأرض ومغاربهـا، تفتح القلوب إلى معرفة الله وتوحيده قبل البلاد، حتى تمت نعمـة اللـه علـى أكثر أهل الأرض، فـاتجهوا إلـى عبـادة اللـه وحـده، بعـدما كـانوا يعبـدون كـل شيء، وكانت تستعبدهم شياطين الجن والإنس.

ولكن كثيراً من الناس لا يعجبهم ذلك، بل يسوؤهم ويحزنهم.

ومن حكمة الله -تعالى – أن جعـل للباطـل جنـوداً يناصـرونه، ويـدافعون الحق ويردونه، كما جعل للحق أنصاراً يتفانون في الذياد عنه، والدعوة إليه.

وقد كان ذلك منذ باء إبليس اللعين بالطرد عن رحمة الله، والبعد عن كل خير، فأقسم بعزة الله ليغوين بنى آدم أجمعين، إلا عباد الله المخلصـين، كمـا قال الله تعالى عنه: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ {82} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [7].

ومن المعلوم أن الله – تعالى – لم يقبض نبيه محمـداً – صـلى اللـه عليـه وسلم- حتى أكمل له دينه، وأظهره على من عاداه بالحجج والبراهين، وبقـوة القتال لمن وقف في وجهه وعاند الحق، كما قال – تعالى – في آخر ما أنزلـه الله عليه: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا} [8]، فإذا كان الله قد أكمل لهـم دينهـم، فلا بـد من أنه وضحه لهم بحيث لا يبقى فيه أي التبـاس أو اشـتباه، ولا بـد مـن أنهـم فهموه واعتقدوه على ما أريد منهم وعملوا به، ولا بد من الاستغناء به عن كل ما سواه، فلا يحتـاجون معـه إلـى غيـره، وأعظـم مـا يحتـاجونه وأشـرفه هـو معرفتهم ربهم بأسمائه وصفاته، وما يجب له ويسـتحقه، ويحمـد ويمجـد بـه، ويثنى به عليه؛ لأن هذا من أفضل العبادة التي أوجبها اللـه عليهـم، كمـا قـال تعالى: {وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِـي أَسْـمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [9].

---

[5] () أي: لا أرسل عليهم عذاباً يعمهم ، ويستأصلهم.

[6] () "صحيح مسلم" (4/2215) رقم (2889).

[7] () الآيتان 82، 83 من سورة ص.

[8] () الآية 3 من سورة المائدة .

[9] () الآية 180 من سورة الأعراف .

قد أوضح الله ورسوله العقيدة وضوحاً جلياً

فلا بد من إيضاح الواجب لله – تعالى – والممتنع عليه، والجائز عليه، حتى يكونوا على بينة من دينهم، ومعبودهم، لأنه لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا من الوحي، إذ هو من الغيب، الذي لا يعلم بالقياس، ولا بالعقل.

وقد بين الله لنا طريقة الأنبياء التي كانوا يدعون بها أممهم، كما قص الله تعالى عنهم في القرآن، فقد اتفقت طريقتهم في الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده، وخاتمهم جاء مقتفياً أثرهم في ذلك، فدعا أمته إلى ما دعت إليه الرسل قبله، من توحيد الله ومعرفته، فلم يفارقهم حتى وضح لهم الطريق، واستبان الحق من الباطل.

روى ابن ماجه عن أبي الدرداء، قال: خرج علينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ونحن نذكر الفقر ونتخوفه، فقال: " أالفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده لتصبن عليكم الدنيا حتى لا يزيغ قلب أحدكم إلا هيه، وايم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء".

قال أبو الدرداء: صدق والله رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: " تركنا على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء"[10].

ص 8

وقال الله تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [11]، وقال تعالى: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [12]، وقال تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [13].

فالإيمان بالله وأسمائه وصفاته أعظم الأشياء، وكذلك عبادته، فلا بد أن يبين الكتاب – الذي هو تبيان لكل شيء – ذلك أوضح البيان.

ولا بد أن يدل على أعظم الهدى الذي هو معرفة الله – تعالى – بأسمائه وصفاته، كما أن من أعظم ما وقع فيه الخلاف في الأمة هو في هذا الباب، فلا بد أن يكون قد بينه، لأنه تعالى أخبرنا أنه نزله ليبين لنا ما اختلفنا فيه، ولا بد أن نجد فيه ما يزيل كل شك ولبس؛ لأنه هدى ورحمة، لكن ليس لكل أحد بل للمؤمنين فقط.

وأعظم ما أنزل إلينا هو الإيمان بالله، ومعرفته، وقد أخبرنا تعالى أنه أنزل الكتاب ليبين للناس ما نزل إليهم، فكيف يترك أعظم الأشياء المنزلة إلينا بدون بيان؟

---

[10]() "سنن ابن ماجه" (1/4) رقم (5).
[11]() الآية 89 من سورة النحل .
[12]() الآية 64 من سورة النحل .
[13]() الآية 44 من سورة النحل .

فعلم بهذا ونحوه أن الله – تعالى – بين على لسان رسوله – صلى الله عليه وسلم- للأمة كل ما تحتاج إليه في دينها، ومعرفة ربها، ولم يكل ذلك إلى عقولهم، أو قياساتهم.

قال ابن عباس في قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا} [14]: " أخبر الله نبيه والمؤمنين، أنه أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً"[15].

ص 9

فإذا كان الله – تعالى – قد أكمل لهم الإيمان، فكل ما لم يقله رسول الله –صلى الله عليه وسلم- في باب الإيمان ولم يأمر به ويبينه للأمة فهو باطل، وليس من الدين الكامل الذي جاء به.

وأصل الدين وأساسه: معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، ومعرفة ما يجب له على عباده.

ولا يجوز لمسلم يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن يظن برسول الله – صلى الله عليه وسلم- أنه لم يبين ما يعتقده العبد في ربه؛ لأن هذا هو الذي أمر بتبليغه.

قال شيخ الإسلام: " من المحال في العقل والدين أن يكون الرسول الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل عليه الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبساً مشتبهاً، ولم يميز بين ما يجب لله، من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وما يجوز عليه، وما يمتنع عليه، فإن معرفة هذا أصل الدين، وأفضل الأعمال، فكيف يكون القرآن والرسول والصحابة – وهم أفضل الخلق بعد النبيين – لم يحكموا هذا الباب اعتقاداً وقولاً؟".

ومحال أن يعلم النبي –صلى الله عليه وسلم – أمته أدب الأكل والشرب، وقضاء الحاجة، ونحو ذلك، ويترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم، وما يعتقدونه في قلوبهم، في ربهم ومعبودهم، مع كون ذلك غاية المعارف، وأشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، مع قوله –صلى الله عليه وسلم: "ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلم ه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم"[16].

ومحال أن يكون الذين كان فيهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم- والذين يلونهم غير عالمين للحق في باب معرفة الله، وغير قائلين به.

---

[14]() الآية 3 من سورة المائدة .

[15]() رواه ابن جرير بسنده ، انظر " تفسيره" (9/518) ط المعارف .

[16]() انظر "صحيح مسلم" (12/233) شرح النووي، في الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ، وابن ماجه في الفتن ، انظر (2/1306) رقم (3956) ، والنسائي في البيعة (7/153).

ومعلوم أن من في قلبه حياة ومحبة للعبادة، أنه يحرص أشد الحرص على معرفة ذلك.
ص 10
وقد صح عنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: [17]" خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته"[18].

بدء الانحراف

لما سيطر حكم الإسلام على أكثر البلاد، في آسيا، وأفريقيا، وغيرهما، دخل تحت حكمه أمم كثيرة، رغبة ورهبة، وكان لها أديان مختلفة، من يهودية، ومجوسية، ونصرانية، ووثنية، وغير ذلك، وقد كان لكثير من هذه الأمم سلطان كبير، مثل المجوس، والرومان، فسلبهم المسلمون ذلك، وكان عند هؤلاء من الكبر والاستعلاء ما يجعلهم يأنفون من كونهم تحت سلطان المسلمين، ولا سيما وقد كانوا يرون العرب من أحقر الأمم، وأقلها شأناً، كما أن اليهود واجهوا الإسلام ورسوله من أول أمره بالعداء، وحاولوا القضاء عليه بأنواع من المكائد، والمؤامرات، ولما يئس هؤلاء جميعاً من قدرتهم في مجابهة الإسلام بالقوة وجهاً لوجه انصرف جهدهم وكيدهم إلى الدسائس، والمؤامرات، والاغتيالات لرجاله العظام.
ودخل في الإسلام ظاهراً من هؤلاء من قصده إفساده، وتمزيق وحدة أهله، ولا بد أن يكون ذلك عن دراسة، وإعمال فكر وتخطيط. وربما يكون هناك جمعيات متعاونة، من المجوس واليهود، والنصارى والهنود، وغيرهم، وقد تكون لكل طائفة مؤسسات تعمل لإفساد عقائد المسلمين؛ لتيقنهم أنه لا يمكن هزيمة المسلمين، إلا بإفساد عقيدتهم، فبدأت آثار تلك المؤامرات تظهر، شيئاً فشيئاً، فقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بأيد مجوسية، وربما بمؤامرة مجوسية يهودية.
ثم قتل الخليفة بعده، بأيد مشبوهة، من غوغاء، يدفعهم بعض دهاة اليهود والمجوس.
ثم ظهر القول بنفي القدر، وأول من عرف بذلك رجل مجوسي يقال له: سيسويه، من الأساورة، وإن كان قد اشتهر أن أول من قال به
ص 11
معبد الجهني[19].

---

[17] () البخاري ، انظر "الفتح" (7/2) و (11/244، 543).
[18] () الفتوى الحموية ، ملخصاً ، انظر "مجموع الفتاوى" (5/706).
[19] () معبد الجهني البصري: تابعي، كان داعية في ضلال ، قال الدارقطني : حديثه صالح ومذهبه رديء. تكلم فيه كثير من السلف من أجل قوله بنفي القدر ، قتله عبد الملك سنة ثمانين. انظر " تهذيب التهذيب" (10/225).

ثم أوقدت نار الفتنة بين المسلمين، وقتال بعضهم بعضاً.

ثم خرجت الخوارج بجهلهم، وعتوهم، وتكفيرهم المسلمين، وقتلهم إياهم.

ثم نجم التشيع الشنيع، من قبل يهود ومجوس يوقدون ناره، وأظهروا القول بأن للرسول –صلى الله عليه وسلم- وصياً، هو علي بن أبي طالب، ولكن الصحابة تمالؤوا على ظلمه، وكتمان الوصية على حد زعمهم الكاذب.

ولم يزل التشيع يتطور بتطرفه، وتشعبه، حتى صار ملجأ لكل من يريد أن يحارب الإسلام والمسلمين، وظهر فيه القول بأن القرآن مبدل ومحرف، ومزيد فيه، ومنقوص منه، وأن أعظم الصحابة ارتدوا بعد إسلامهم إن لم يكونوا كلهم، ما عدا علي بن أبي طالب ونفراً قليلاً معه.

وقد يصل الضلال ببعضهم والجرأة على الله – تعالى – إلى أن يقول بخيانة جبريل للرسالة، وأنه أرسل إلى علي فعدل بها إلى محمد.

ولم يزل الرفض يبتعد أهله عن الدين والعقل والفطرة إلى يومنا هذا.

ثم ظهر القول بإنكار الصفات لله – تعالى -، وأنه لا يحب أحداً من عباده ولا يحبه أحد، ولا يتكلم، وليس له يد، ولا وجه، ولا شيء مما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله.

وكان أول من عرف بذلك، رجل يقال له: الجعد بن درهم[20].

قال شيخ الإسلام: " أصل مقالة تعطيل الصفات، مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين، وضلال الصابئين، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في

الإسلام – أعني أن الله ليس على العرش حقيقة، وأن الاستواء بمعنى الاستيلاء، ونحو ذلك – هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان، وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه.

وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت عن لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر، الذي سحر النبي –صلى الله عليه وسلم –"[21].

وهذه سلسلة يهودية لها سوابق في محاربة الإسلام.

وقال البخاري: " حدثنا قتيبة، حدثني القاسم بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حبيبة، عن أبيه، عن جده، قال: شهدت خالد بن عبد الله القسري بواسط في يوم أضحى... وقال: ارجعوا فضحوا تقبل الله منكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم

---

[20]() عداده في التابعين ، قتله خالد بن عبدالله القسري على الزندقة ، يذكر أنه جعل في قارورة ماء وتراباً ، فاستحال دوداً ، فقال: أنا خلقته . وهو فارسي ، قتل سنة 124، انظر " البداية والنهاية" (9/394).

[21]() " مجموع الفتاوى" (5/20).

يكلم موسى تكليماً، تعالى الله علـواً كـبيراً عمـا يقـول ابـن درهـم، ثـم نـزل فذبحه".

قال أبو عبدالله: قال قتيبة: " بلغني أن جهماً كان يأخذ الكلام من الجعـد بن درهم "[22].

فتبين أن هذا الإلحاد جاء من قبل اليهود الذين أرادوا إفساد دين الإسلام، كما أن الرفض أول من عرف من دعاته يهـودي مـاكر حاقـد، وهـو ابـن سـبأ، يقال له: ابن السوداء، واسمه: عبد الله بن وهب بن سـبأ، مـن يهـود صـنعاء، ولا بـد أن هـؤلاء الأفـراد الـذين شـهروا بـدعواتهم المنحرفـة، وراءهـم مـن يدعمهم، ويخطط لهم، وهذا الموضوع بحاجة إلى دراسة فاحصة، تبين الأمـر بوضوح، وهـذا الـذي أشـرت إليـه تـدل عليـه كـثير مـن الوقـائع، والآثـار عـن السلف، وغيرهم.

فكان هذا هو سبب التفرق الحقيقي، إذ هو تفرق في الاعتقاد، وهو منشأ الخلافـات، والحـروب الكلاميـة الممزقـة، الـتي لـم تـزل تنخـر فـي كيـان المسلمين إلى يومنا هذا.

ص 13

وقد ينضم إلى ذلك عوامل جديدة في كل فترة زمنية، مـن أنـواع الإلحـاد ومحاربـة الإسـلام بأسـاليب شـتى وأسـلحة مختلفـة، مقـروءة ومرئيـة ومسموعة، ولولا أن الله – تعالى – تكفل ببقاء هذا الدين إلى آخـر وقـت مـن الدنيا، لقضي عليه منذ زمن بعيد، وهذا بالإضافة إلى ما هـو كـامن فـي طبـاع البشر مما يبعدهم عن الحق، مثل التقليد، واتباع المألوفات، وما يكـون عليـه رؤساء القوم وعظماؤهم، كما ذكر الله تعالى عن الأمم السابقة مع أنبيـائهم، قال تعالى:

{أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ {21} بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ {22} وَكَـذَلِكَ مَـا أَرْسَـلْنَا مِـن قَبْلِـكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَـى آثَـارِهِم مُّقْتَدُونَ {23}قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْـهِ آبَـاءكُمْ قَـالُوا إِنَّـا بِمَـا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ} [23].

فهذا يدل على أن الإنسان يصعب عليه ترك المألوف لـه، كمـا أن شـيخه ومـن يعظمـه قـد يسـيطر علـى تـوجيهه إلـى مـا يعتقـده، كمـا هـي طريقـة المتكلمين حيث يأخذون بآراء شيوخهم ومعظميهم، مع مخالفتها لكتـاب اللـه وسنة رسوله.

---

[22]() "خلق أفعال العباد" (ص 29-30) ورواه عثمان بن سعيد في "الرد على الجهمية" (ص 25).

[23]() الآيات 20-24 من سورة الزخرف .

ومن ذلك الجهل، واتباع الهوى، كما هو حال أكثر الخـوارج، فـإنهم جهلـوا معاني الكتاب، وأرادوا مـن عمـوم الأمـة أن لا يكـون لهـم ذنـوب، وإلا أصـبح عندهم كافراً مخلداً في النار.

و أما الهوى فبابه واسع، وقد قال اللـه تعـالى: {أَفَرَأَيْـتَ مَـنِ اتَّخَـذَ إِلَهَـهُ هَوَاهُ} [24].

وقال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ} [25]

إلى غير ذلك من الدوافع نحو الانحـراف، وسـأذكر شـيئا ممـا ذكـره أهـل العلم يؤيد ما ذكر هنا:

ص 14

قال شيخ الإسلام – رحمـه اللـه تعـالى -: " وقـد روي أن أول مـن ابتـدع {القول بنفي القدر} بالعراق رجل من أهل البصرة يقال لـه: سيسـويه، مـن أبناء المجوس، وتلقاه عنه معبد الجهني"[26].

وقال الإمام ابن حزم: " الأصل في أكثر خروج هذه الطوائـف عـن ديانـة الإسلام: أن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم، وجلالـة الخطر في أنفسهم، حتى إنهـم يسـمون أنفسـهم: الأحـرار، والأبنـاء، وكـانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهـم، علـى أيـدي العـرب، وكـانت العـرب أقـل الأمـم عنـد الفـرس خطـراً، تعـاظمهم الأمـر، وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة، فـي أوقـات شـتى، ففي كل ذلك يظهر الله – سبحانه وتعالى – الحق، وكان من قائمتهم "منقاذ" و"المقنع" و"اسـتابين"، و"دبابـك"[27]وغيرهـم، وقبـل هـؤلاء رام ذلـك عمـار الملقب "خداشا"، و"أبو مسلم السراج".

فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قـوم منهـم الإسـلام، واسـتمالوا أهل التشيع بإظهار محبـة أهـل بيـت رسـول اللـه –صـلى اللـه عليـه وسـلم- واستشناع ظلم[28]علي- رضي الله عنه- ثم سلكوا بهم مسـالك شـتى، حـتى أخرجوهم عن الإسـلام، فقـوم منهـم أدخلـوهم إلـى القـول بـأن رجلاً ينتظـر يدعى المهدي، عنده حقيقة الدين، إذ لا يجوز أن يؤخذ من هؤلاء الكفار.

وقوم خرجوا إلى نبوة من ادعوا له النبوة.

ص 15

---

[24]() الآية 23 من سورة الجاثية .

[25]() الآية 50 من سورة القصص .

[26]() "مجموع الفتاوى" (7/384)، وذكره المقريزي في "الخطط" (3/360) ، وسيأتي ، وأما ما ذكره أبو لبابه حسين في كتابه "موقف المعتزلة من السنة" أن معبداً أخذ مقالته عن نصراني من أهل العراق أسلم ثم تنصر، نقلاً عن أدب المعتزلة ، ففيه نظر ، إذ هو خلاف المشهور.

[27]() هذه الأسماء فيها اختلاف بين النسختين من "الفصل" المحققة والمطبوعة سابقاً ، ففي القديمة "ستقادة" و "استاسيس" والملقب بـ " خداش" و "أبو مسلم السراج" ولم يشر المحققان إلى هذا الاختلاف .

[28]() لم يقع على علي بن أبي طالب ظلم من الصحابة كما زعمته الرافضة ، وإنما هو شيء اختلق للتشنيع والوصول إلى المقصد الخبيث.

وقوم سلكوا بهم المسلك الذي ذكرنا، من القول بالحلول، وسقوط الشرائع. وآخرون تلاعبوا بهم، فأوجبوا عليهم خمسين صلاة في كل يوم وليلة.

وآخرون قالوا: بل هي سبع عشرة صلاة، في كل صلاة خمس عشرة ركعة.

وهذا قول عبدالله بن عمرو بن الحارث الكندي: قبل أن يصير خارجياً صفرياً[29].

وقد سلك هذا المسلك أيضاً عبدالله بن سبأ الحميري اليهودي[30]، فإنه لعنه الله، أظهر الإسلام ليكيد أهله، فهو كان أصل إثارة الناس على عثمان – رضي الله عنه- وحرق علي بن أبي طالب طوائف أعلنوا بإلهيته.

ومن هذه الأصول الملعونة، حدثت الإسماعيلية، والقرامطة، وهما طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة، قائلتان بالمجوسية المحضة، ثم مذهب مزدك الموبذ، الذي كان على عهد أنو شروان بن قباذ، ملك الفرس، وكان يقول بوجوب تساوي الناس في النساء، والأموال.

قال أبو محمد: " فإذا بلغ الناس إلى هذين الشعبين أخرجوهم عن الإسلام كيف شاؤوا إذ هذا هو غرضهم فقط"[31].

وهذا الذي ذكره أبو محمد ابن حزم – رحمه الله – ظاهر في أنه كان هناك جمعيات تنظيمية تخطط لهدم عقيدة المسلمين، بشتى الوسائل.

قال البخاري – رحمه الله تعالى -: " حدثنا محمد بن عبدالله – أبو جعفر البغدادي- قال: سمعت أبا زكريا، يحيى بن يوسف الزمي، قال: كنا عند عبدالله ابن إدريس، فجاءه رجل، فقال: يا أبا محمد، ما تقول في قوم يقولون: القرآن مخلوق؟ فقال: أمن اليهود؟ قال: لا، قال: فمن النصارى؟ قال: لا، قال: فمن المجوس؟ قال: لا، من أهل التوحيد، قال: ليس هؤلاء من أهل التوحيد، هؤلاء

ص 16

الزنادقة من زعم أن القرآن مخلوق، فقد زعم أن الله مخلوق، يقول الله – تعالى-: بسم الله الرحمن الرحيم، فالله لا يكون مخلوقاً، والرحمن لا يكون مخلوقاً، والرحيم لا يكون مخلوقاً.

وهذا أصل الزندقة، من قال هذا فعليه لعنة الله، لا تجالسوهم، ولا تناكحوهم"[32].

---

[29]() يجوز أن يكون عبدالله هذا يهودياً ، لم يشف حقده ما فعله من إفساده دين من أفسد دينه ، فدخل في الخوارج ليروي ظمأ حقده بدماء المسلمين ، فالله أعلم.

[30]() إن فعل هذين الرجلين يدلنا على أن هناك منظمات تتعاون على حرب الإسلام من اليهود والمجوس وغيرهم، كما أشرت إليه قبل ذلك.

[31]() "الفصل" (2/115-116) وانظر "المحققة" (2/273-274).

[32]() "خلق أفعال العباد" (ص 30).

وقال أبو سعيد الدارمي – رحمه الله تعالى -:" لـم يـزل {أهـل الباطـل} مقموعين أذلة، مدحورين، حتى كان الآن بآخرة، حيث قلـت الفقهـاء، وقبـض العلماء، ودعا إلى البدع دعاة الضلال، فشد ذلك طمع كل متعوذ في الإسـلام من أبناء اليهود، والنصارى، وأنباط العراق، ووجدوا فرصة للكلام، فجدوا فـي هدم الإسـلام، وتعطيـل ذي الجلال والإكـرام،وإنكـار صـفاته وتكـذيب رسـله، وإبطال وحيه، إذ وجدوا فرصتهم، وأحسوا من الرعاع جهلاً، ومن العلماء قلة، فنصبوا عندها الكفر للناس إماماً، بدعوتهم إليه، وأظهروا لهم أغلوطـات مـن المسائل، وعمايات من الكلام، يغالطون بها أهل الإسلام، ليوقعوا في قلوبهم الشك، ويلبسـوا عليهـم أمرهـم ويشـككوهم فـي خـالقهم، مقتـدين بـأئمتهم الأقدمين"[33].

وقال البخاري: " حدثني أبو جعفر، حدثن يحيى بن أيـوب، قـال: سـمعت أبا نعيم البلخي، قال: كان رجل من أهـل "مـرو" صـديقاً للجهـم، ثـم قطعـه وجفاه، فقيل له: لم جفوته؟ فقال: جاء منه ما لا يحتمل، قرأت يوماً آية كـذا وكذا – نسيها يحيى- فقال: ما كان أظرف محمداً، فاحتملتها، ثـم قـرأ سـورة طه، فلما قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [34]، قال: أما والله لو وجدت سبيلاً إلى حكها لحككتها من المصحف، فاحتملتهـا، ثـم قـرأ سـورة القصـص فلما انتهى إلى ذكر موسى، قال: ما هذا؟ ذكر قصته في موضـع فلـم يتمهـا، ثم ذكرها هاهنا فلم يتمهـا، ثـم رمـى المصـحف مـن حجـره برجليـه، فـوثبت عليه"[35].

ص 17

فهذه الوقائع – ومثلها كثير جداً – تدل على حقد دفيـن علـى هـذا الـدين، وأنـه دخـل فـي المسـلمين الـدخيل ذو القلـب الموتـور، والصـدر الموغـور، والنفس التي تأكلها نار عداوة الإسـلام، ونـبي الإسـلام، وأن هـؤلاء يحـاولون اجتثاث الإسلام من قلوب الناس، بالتشكيك في أصوله، وأن كثيراً من علماء السـلف علمـوهم، وعرفـوا أن مرادهـم صـد النـاس عـن الإسـلام، وإفسـاد عقائدهم: وأن تعاوناً يهودياً، ومجوسياً، ونصـرانياً، وإلحاديـاً لـم يـزل ينتهـز الفرص، جاهداً في إطفاء نور الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

ولا شـك أن الصـراع بيـن الحـق والباطـل قـديم، وأنـه لا يخلـو زمـان ولا مجتمع من ذلك، وأن اللـه – تعـالى – جعـل للباطـل هـواة ومحـبين، ينفقـون أموالهم ويبذلون نفوسهم في الدفاع عنه، كما جعل للحق أنصاراً، وهـذا أمـر ظاهر، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللّـهِ وَالَّـذِينَ كَفَـرُواْ

---

[33]() "الرد على الجهمية" (ص 259) "عقائد السلف" .

[34]() الآية 5 من سورة طه .

[35]() "خلق أفعال العباد" (ص 46)، وانظر : "عقائد السلف" (128-129).

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْـدَ الشَّـيْطَانِ كَـانَ ضَعِيفًا} [36].

و إذا كان الإنسان متظاهراً بمساندة الباطل ونصرته، فأمره أسهل ممـن يخفي ذلك، ويتظاهر بالخير والإيمـان، وهـو مـن أبعـد النـاس عنـه، وأشـدهم عداوة له، وإنما مقصده معرفة مواطن الضعف من الإسلام وأهله، والمداخل التي تنفذ سمومه منها فيهم، ثم يرميهم بكل ما يستطيع.

وربما يكـون هنـاك تنظيمـات تلبـس لبـاس العلـم والمعرفـة، والإصـلاح، والتجديد، والمقصود منها القضاء على الدين، وهم ينوعون أساليبهم فـي كـل وقت بما يناسبه، وإن مصائب الإسلام بهؤلاء وأمثالهم، من فجـره إلـى يومنـا هذا تتوالى، وقد وصف ذلك المقريزي- رحمه الله – وصفاً مفيداً ألخصه فيما يلي:

قال: " لما بعث الله محمداً –صلى الله عليه وسلم- إلى النـاس، وصـف لهم ربهم بما وصف به نفسه، فلم يسأله أحد مـن العـرب بأسـرهم، قرويهـم وبدويهم، عن معنى شيء مـن ذلـك، كمـا كـانوا يسـألونه عـن أمـر الصـلاة، وشرائع الإسلام، إذ لو سأله أحد منهـم عـن شـيء مـن الصـفات لنقـل، كمـا نقلت أحاديث الأحكام وغيرها.

ص 18

ومن أمعن النظر في دواوين الحديث والآثار عن السلف، علم أنه لم يـرد قـط لا مـن طريـق صـحيح ولا سـقيم عـن أحـد مـن الصـحابة علـى اختلاف طبقاتهم، وكثرة عددهم، أنه سأل النبي-صلى اللـه عليـه وسـلم- عـن معنـى شيء[37]، مما وصف الرب- سبحانه- به نفسه في القرآن وعلى لسـان نـبيه، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا سكوت فاهم مقتنع، ولم يفرقوا بين صـفة وأخرى، ولم يتعرض أحد منهم إلى تأويل شيء منها، بل أجروا الصـفات كمـا ودرت بأجمعهم، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به سوى كتاب اللـه وسـنة رسوله.

ومضى عصرهم – رضي الله عنهم- على هذا، وحدث القول بنفـي القـدر في عهد آخرهم.

وكان أول من فاه بذلك معبد الجهني، أخذه عن رجل من الأساورة، يقال له: أبو يونس سيسويه، ويعرف بالأسواري، وتبرأ من هذه المقالـة الصـحابة. ثم خرجت الخوارج، وكفروا بالذنوب، فقاتلهم أميـر المـؤمنين علـي بـن أبـي طالب.

---

[36]() الآية 76 من سورة النساء .

[37]() مقصوده: أنهم لم يسألوا عن مثل اليدين والوجه والنزول والاستواء ونحو ذلك، مما يدل على أنهم فهموا أن هذه الصفات على ظاهرها المفهوم من لغتهم ، مع علمهم انتفاء المماثلة فيها لصفات الخلق.

وحدث التشيع لعلي، وغلا فيه طائفة بدعوة ابن سبأ اليهودي، فحرقهم في النار، كما أحدث ابن سبأ القول بالوصية لعلي بالإمامة من بعد الرسول – صلى الله عليه وسلم- والقول بالرجعية، أي رجعة علي بعد موته، وأن فيه جزءاً من الإلهية.

ومن دعوة هذا اليهودي تشعبت الغلاة من الرافضة، كالإمامية الاثنى عشرية، والإسماعيلية، والقرامطة، والنصيرية، وغيرهم، وهو الذي أثار الفتنة على أمير المؤمنين عثمان حتى قتل، ولم يزل مذهب الرفض يستفحل حتى ملأ الدنيا فساداً.

ثم حدث مذهب الجهمية، وتعطيل الرب- تعالى – عن صفاته، والقول بخلق القرآن، وغير ذلك من العظائم، وعربت كتب الفلاسفة في عهد المأمون، فعظمت الفتنة والضلال.

ثم ظهر الأشعري، وكان أخذ عن الجبائي الاعتزال، ولازمه دهراً طويلاً، ثم سلك طريق ابن كلاب في الصفات، والقدر، وغير ذلك.

ص 19

وسلك طريقه جماعة من العلماء، مثل الباقلاني، وابن فورك، والاسفراييني، والشيرازي، والغزالي، والشهرستاني، والرازي وغيرهم، ملأوا الدنيا بتصانيفهم، يحتجون، ويدعون أن طريقتهم هي طريقة أهل السنة والجماعة، فانتشر هذا المذهب في البلاد الإسلامية، وجاءت دولة بني أيوب، وكانوا على هذا المذهب، ثم مواليهم الأتراك، وأخذه ابن تومرت إلى المغرب، ونشره هناك، فصار هذا المذهب هو المعروف في الأمصار، بحيث نسى ما عداه من المذاهب، أو جهل، حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه، إلا أن يكون مذهب الحنابلة.

حتى جاء تقي الدين –أبو العباس ابن تيمية-، فتصدى للانتصار لمذهب السلف، ورد على الأشاعرة، والرافضة، والصوفية، فافترق الناس فيه فريقان: فريق يقتدي به، ويعول على أقواله، ويرى أنه شيخ الإسلام حقاً، ومن أجل حفاظ أهل الملة الإسلامية.

وآخر يبدعه، ويضلله، ويزري عليه إثبات الصفات وغيرها".

ثم قال المقريزي:

"فهذا- أعزك الله- بيان ما كانت عليه عقائد الأمة من ابتداء الأمر إلى وقتنا، قد فصلت فيه ما أجمله أهل الأخبار، وأجملت ما فصلوا، فدونك طالب العلم تناول ما قد بذلت فيه جهدي، وأطلت بسببه سهري وكدي، في تصفح دواوين الإسلام، وكتب الأخبار فقد وصل إليك صفواً".[38]

---

[38]() "الخطط" للمقريزي ملخصاً (3/309-314).

وقال أحمد أمين في كلامه على ابن سبأ: "والذي يؤخذ من تاريخه، أنه وضع تعاليم لهدم الإسلام، وألف جمعية سرية لبث تعاليمه، واتخذ الإسلام ستاراً يستر به نياته".[39]

وذكر الطبري: "أن ابن السوداء لما وصل إلى الشام لقي أبا ذر – رضي الله عنه – فقال له: يا أبا ذر، ألا تعجب لمعاوية، يقول: المال مال الله، ألا إن كل شئ لله، يريد أن يحتجبه دون المسلمين، فذهب أبو ذر إلى معاوية وقال له: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله؟". ثم أتى ابن السوداء أبا الدرداء، فقال له أبو

ص 20

الدرداء: من أنت؟ أظنك – والله – يهودياً. وأتى عبادة بن الصامت فأخذه عبادة، وذهب به إلى معاوية، وقال له: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر".[40]

فإذا كان هذا اليهودي قد طمع بالصحابة، فكيف بغيرهم؟

ومن استقرأ التاريخ يرى أن أعداء الإسلام لم يدخروا وسعاً في محاولة القضاء عليه، إلى يومنا هذا.

كبريات الفرق الإسلامية

كان من نتائج التآمر على عقيدة المسلمين من جهات متعددة، كما سبقت الإشارة إليه، أن انشطر من الأمة الإسلامية عدة فرق، انحرفت عن الطريق الصحيح، الذي رسمه لها نبيها-صلى الله عليه وسلم – وأخذت بنيات الطريق، كما سبق في حكم الله القدري الكوني، قال تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ {118} إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}.[41]

روى ابن جرير عن الحسن"قال:الناس مختلفون على أديان شتى، إلا من رحم ربك، فمن رحم غير مختلفين".

وروي عن مجاهد: قال: "ولا يزالون مختلفين" أهل الباطل، "إلا من رحم ربك"أهل الحق".[42]

وقال:"معنى ذلك: ولا يزال الناس مختلفين في أديانهم، وأهوائهم، على أديان وملل، وأهواء شتى، إلا من رحم ربك، فآمن وصدق رسله، فإنهم لا يختلفون في توحيد الله، وتصديق رسله، وما جاءهم من عند الله".[43]

ص 21

---

[39]()"فجر الإسلام" (ص 269).

[40]()"تاريخ الطبري"(4/283).

[41]()الآيتان 118،119 من سورة هود.

[42]()"تفسير الطبري" (15/534) ط المعارف.

[43]()المصدر السابق، (ص 534).

وقال ابن كثير:"يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران، كما قال تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}.[44]

وقوله:" ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك" أي: ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم، واعتقاداتهم في مللهم ونحلهم، ومذاهبهم، وآرائهم، إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين الذي جاءت به رسل الله إليهم، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة، لأنهم الفرقة الناجية".[45]

وقد أخبر النبي-صلى الله عليه وسلم – بوقوع هذا الاختلاف، محذراً منه، فروى أبو داود، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم -: "افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة".[46]

ورواه أيضاً من حديث معاوية بن أبي سفيان- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم -: "ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب، افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة".[47]

قال ابن كثير: "روي هذا الحديث في "السنن" و"المسانيد" من طرق يشد بعضها بعضاً".[48]

وأصل الفرق الذي ترجع إليه أربع كما قال طائفة من السلف، وهم الروافض، والخوارج، والقدرية{المعتزلة}، والمرجئة، وبعض العلماء يجعلها خمساً ويدخل أهل السنة، كما قال أبو محمد بن حزم: "فرق المقرين بملة الإسلام

ص 22

خمس، وهم: أهل السنة، والمعتزلة، والشيعة، والخوارج، والمرجئة، ثم افترقت كل فرقة من هذه على فرق".[49]

ومراده: غير أهل السنة، فإنهم فرقة واحدة، وهم الذين تمسكوا بكتاب الله واتبعوا سنة رسوله-صلى الله عليه وسلم -.

---

[44]()الآية 99 من سور يونس.

[45]()"تفسير ابن كثير" (4/290-291) ملخصاً، ط الشعب.

[46]()"السنن" (5/4) رقم (4596)، ورواه الترمذي ، "التحفة" (7/397)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (2/1321) رقم (3991).

[47]()"السنن" (5/5)، والترمذي من حديث عبد الله بن عمرو مع بعض الاختلاف في اللفظ، وقال: حديث حسن مفسر، انظر "تحفة الأحوذي" (7/399).

[48]()"تفسير ابن كثير" (4/291).

[49]()"الفصل"(2/265).

وقال الطرطوشي:"اعلم أن علماءنا قالوا: أصـول البـدع أربعـة، وسـائر الأصناف الاثنتين والسبعين فرقة عن هؤلاء تفرقوا، وتشعبوا. وهم: الخوارج: وهي أول فرقة خرجـت علـى علـي بـن أبـي طـالب، والروافـض، والقدريـة، والمرجئة".[50]

ومن هذه الفرق تشعبت سائر الفـرق، وقـد ألـف فيهـا وفـي بيـان نحلهـا مؤلفات قديماً وحديثاً.

وكان من أول هذه الفرق الشيعة، فإنها حدثت في آخـر عصـر الصـحابة، ثم تطور التشنيع إلـى الرفـض، ومبـدأه مـن ابـن سـبأ اليهـودي، وغيـره مـن المجوس ممن دخل في الإسلام ظاهراً وفي الباطن هم إما يهود ماكرون، أو مجوس موتورون، قصدهم إفساد الدين الإسلامي، كما تقدم.

فكان الرفض في أوله يسمى التشيع، فاشتهروا بالشيعة-أي شـيعة علـي بن أبي طالب- وكانوا في زمنه ثلاث فرق:

فرقة تقول: إنه إله، وقـد صـرحوا لـه بـذلك، فحـرق الـذين تمكـن منهـم بالنار.

والثانية: الذين يسبون أبا بكر وعمر- رضي الله عنهما- وقد توعد علـي – رضي الله عنه- من فعل ذلك بأن يقيم عليه الحد- قيل: إنه القتل.

والثالثة: المفضـلة، الـذين يفضـلون علياً علـى أبـي بكـر وعمـر، وبقيـة الصحابة، وقد روي عنه أنه قال:"لا أوتي برجل يفضلني على أبي بكـر وعمـر إلا جلدته الحد".[51]

ص 23

ولما خرج زيد بن علي بن الحسين في أوائل المائة الثانية، سأله الشـيعة عن أبي بكر وعمر، فترضى عنهمـا، وبيـن أنـه يتولاهمـا، تـبرأ منـه عنـد ذلـك أكثرهم، فقال: رفضتموني. فسموا: الرافضة، والذين اتبعوه سموا زيدية.

وأما القدرية: فأصلهم-فيما يبدو، والله أعلم- من المجوسية المتعاونة مع اليهودية والنصرانية على حرب الإسلام.

وحدثت هذه الضلالة أيضاً في آخر عهد الصحابة- رضـي اللـه عنهـم- ثـم تطورت إلى الاعتزال.

وقد أغتر بهذا المبدأ كثير من الناس، الذين عجزت عقولهم عن استيعاب الإيمان بقدر الله، وأمره ونهيـه، ووعـده ووعيـده، وظنـوا امتنـاع الجمـع بيـن ذلك، فنفوا علم الله بالمستقبل، لظنهم أنه لا يحسن أن يـأمر مـن يعلـم أنـه يعصي أمره ثم يعذبه على ذلـك، حيـث جعلـوا هـذا ظلمـاً لا يجـوز، فقـابلتهم

---

[50]()"الحوادث والبدع"(ص 31).

[51]()انظر:"فضائل الصحابة" للإمام أحمد(1/83).

الجبرية، الذين هم صنو منهم، ثم تطورت إلى التجهم، والتعطيل، بتغذية اليهودية المفسدة في الأرض.

وأما الخوارج: فهم الذين خرجوا عن الحق من جيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وهم كذلك كان ظهورهم في آخر عهد الصحابة رضي الله عنهم. وهم إنما أتوا من سوء فهمهم للنصوص، ولم يقصدوا مخالفة القرآن، ولكن فهمهم أداهم إلى ما لم يدل عليه القرآن، وهو تكفير أهل الذنوب، والقول بخلودهم في النار، ولابد أنه اندس في صفوفهم من يضللهم من منظمات الموتورين، والحاقدين على دين الله وعباده المؤمنين.

وأما الإرجاء: فإنه وإن كان أخف هذه البدع، ومعتنقوه من أقربهم إلى أهل السنة، ففيه من الضلال والمخالفة لشرع الله تعالى ما هو معروف في مواطنه.

الأشعرية

من نتائج الافتراق والتشتت، برزت الأشعرية، وهي عبارة عن خليط من مذاهب عدة فرق، كالمعتزلة، والكلابية، والجهمية، وقد كان إمام هذه النحلة- أبو الحسن الأشعري- تلميذاً لأبي علي الجبائي، قرأ عليه أصول المعتزلة، ولازمه ما يقرب من أربعين عاماً، ولهذا كان خبيراً بمذاهب المعتزلة، ثم انتقل إلى طريقة

ص 24

عبد الله بن سعيد بن كلاب، وهي أقرب إلى مذهب أهل السنة من طريقة المعتزلة، وجعل يبين فساد مذهب الاعتزال ويرد عليهم، ويوضح فساد أصولهم، وتناقضهم، وبعدهم عن الحق، ومثلهم الرافضة والفلاسفة، ولهذا صار له ذكر حسن وقدر عند المسلمين.

والذين ينتسبون إليه من المتأخرين ليسوا على طريقته، مع أنه لم يكن من أهل السنة المحضة، إذ لم يستطيع أن يتخلص من بعض مسائل أهل الكلام.

قال شيخ الإسلام: "لا ريب أن الأشعرية إنما تعلموا الكتاب والسنة من أتباع الإمام أحمد، ونحوه، ولهذا يوجد أكثر ألفاظه التي يذكرها عن أهل السنة والحديث، إما ألفاظ زكريا بن يحيي الساجي، التي وصف بها مذهب أهل السنة، أو ألفاظ أصحاب الإمام أحمد، وما ينقل عن أحمد في رسائله الجامعة في السنة، وإلا فالأشعري لم يكن له خبرة بمذهب أهل السنة، وأصحاب الحديث، وإنما يعرف أقوالهم من حيث الجملة، لا يعرف تفاصيل أقوالهم، وأقوال أئمتهم، وقد تصرف فيما نقله عنهم باجتهاده في مواضع يعرفها البصير.

وأما خبرته بمقالات أهل الكلام فكانت تامة على سبيل التفصيل.
ولهذا لم يذكر عن أهل السنة في كتاب "مقالات الإسلاميين" إلا جملة مقالاتهم، مع أن لهم في تفاصيل تلك ما ليس لأهل الكلام.
ولا ريب أن للآشعري في الرد على أهل البدع كلاماً حسناً، هو من الكلام المقبول، الذي يحمد قائله إذا أخلص فيه النية.
وله أيضاً كلام خالف به بعض السنة هو من الكلام المردود، الذي يذم قائله إذا أصر عليه بعد قيام الحجة"[52] والله يغفر لنا وله.
وقد انتسب إلى الأشعري أكثر العالم الإسلامي اليوم من أتباع المذاهب الأربعة، وهم يعتمدون على تأويل نصوص الصفات تأويلاً يصل أحياناً إلى التحريف، وأحياناً يكون تأويلاً بعيداً جداً، وقد أمتلأت الدنيا بكتب هذا المذهب، وادعى أصحابها أنهم أهل السنة، ونسبوا من آمن بالنصوص على ظاهرها إلى التشبيه والتجسيم.
ص 25
هذا ولابد لعلماء الإسلام-ورثة رسول الله صلى الله عليه وسلم – من مقاومة هذه التيارات الجارفة، على حسب ما تقتضيه الحال، من مناظرات، أو بالتأليف، وبيان الحق بالبراهين العقلية والنقلية، وقد يصل الأمر أحياناً إلى شهر السلاح.
وقد أكثر علماء السنة من التأليف في الرد على أهل الأهواء والانحراف، كما ظهر بعض الطوائف المقابلة لتلك البدع كالسالمية والكلابية، الذين تولوا أيضاً الرد على أهل تلك الانحرافات، غير أنهم كثيراً ما يردون البدع ببدع مماثلة لما يرد أو قريباً منها، يزداد من أجل ذلك التباس الحق على كثير من الناس، بخلاف ما إذا كان الرد بما دل عليه كتاب الله- تعالى- وسنة رسوله- صلى الله عليه وسلم – كما هو نهج أهل السنة، بالإضافة إلى المعقول الصريح.
ومن كبار علماء السنة الذين ردوا على أهل البدع، الإمام البخاري-رحمه الله تعالى – في كتاب أفرد لذلك سماه "خلق أفعال العباد"، ولم يقتصر فيه على ما يفهم من الاسم، بل رد فيه على الجهمية والقدرية وغيرهم، كما رد على المرجئة في كتاب الإيمان من "الجامع الصحيح"، ورد على الجهمية والمعتزلة ومن سلك طريقهم في كتاب "التوحيد"، الذي ختم به كتابه "الجامع الصحيح"، وسلك فيه طريقاً واضحاً في الرد، إذ اقتصر على ذكر النصوص، من الكتاب والسنة، التي فيها بيان بطلان مذاهب هؤلاء المشار إليهم، فكأنه يقول: هذا كتاب ربنا الذي أنزله علينا وأمرنا باتباعه، وحضنا على تدبره وفهمه، وجعله هدى ونوراً وشفاءً للمؤمنين به، وهذه سنة نبينا

---

[52]()"التسعينية" (5/286-287)من الفتاوى المصرية، ملخصاً.

الذي كلفنا بطاعته، ومتابعته، وفيهما العصمة عن الخطأ، وهما صريحان في بيان الحق، الذي ضل عنه هؤلاء المبتدعة، ففيهما تكفلا برد ما جاؤوا به، فلا يسع المسلم إلا الأخذ بهما، ورد ما خالفهما، ففيهما الهدى والنور، وفي تركهما الضلال والهلاك، والله-تعالى- لم يكلنا إلى عقولنا، بل أرسل إلينا رسولاً بين لنا كل ما نحتاج إليه من أمور ديننا، وأنزل عليه كتابه، فيه تبيان لكل شيء فرق فيه بين الحق والباطل، فلسنا نحتاج معه إلى غيره، فإن تمسكنا به أوصلنا إلى الله من أقرب طريق وأهداه، وإن أعرضنا عنه تخطفتنا الشياطين من كل

ص 26

جانب، كما قال الله –تعالى-:{ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ {36}وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ {37} حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ}. [53]

[53]()الآيات 36-38من سورة الزخرف.

ص 27

الإمام البخاري

هو أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه.(54)

قال النووي:"اتفق العلماء على أنه ولد بعد صلاة الجمعة، لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال، سنة أربع وتسعين ومائة، وتوفي ليلة السبت، عند صلاة العشاء ليلة الفطر، سنة ست وخمسين ومائتين، ودفن يوم الفطر بعد الظهر".(55)

طلب العلم من صغره، وتبينت نجابته، وذكاؤه،وفطنته،وحفظه، ونبله من صغره، وقد طوف البلاد مراراً لطلب الحديث، وأخباره مشهورة، واتفق العلماء على جلالته، وإمامته في الحديث، وفقهه، وتميز بذلك عن غيره، وقد كتب في ترجمته كثيراً، في كتب الرجال، والشروح، وأفرد لذكر فضائله وشمائله كتب خاصة، فلا نطيل في ذلك.

وأما كتابه "الجامع الصحيح"فقال النووي-رحمه الله-: "اتفق العلماء على أن أصح الكتب المصنفة:صحيحا البخاري ومسلم، واتفق الجمهور على أن "صحيح البخاري" أصحهما صحيحاً، وأكثرهم فوائد".(56)

قلت: هو كتاب عظيم ونافع جداً لمن قرأه، وتدبره، وقد أودعه من التراجم التي تعين على الفهم الشيء الكثير، وهي تدل على عظيم فقهه في الحديث، ودقة استنباطه، وقد بلغت ثلاثة آلاف وثمانمائة واثنتين وثمانين ترجمة، وتزيد على ذلك في بعض النسخ.

ص 28

هذا، وقد اعتنى به العلماء عناية فائقة، قراءة، وحفظاً،وتدريساً،وشرحاً.

فحظي بشروح كثيرة جداً،فذكر في "كشف الظنون" ما يقرب من ثمانين شرحاً للبخاري(57)، وله أكثر من ذلك بكثير.

ومع هذا، فإن كتاب التوحيد منه بحاجة إلى شرح يبين مقاصد البخاري-رحمه الله تعالى – ووجه الرد منه على أهل البدع، لأن غالب من قام بشرحه، على المذهب الأشعري، ولا سيما الشروح المتداولة اليوم، ولهذا تجد أحدهم يوجه الكلام من النصوص، ليتفق مع ما يعتقده، ولو بالتعسف.

وكثير من الصفات التي يثبتها البخاري، مستدلاً عليها بنص من كتاب الله، أو عن رسوله، يحاولون ردها، إما بالتحريف الذي يسمونه تأويلاً، أو

---

(54)"هدي الساري" (2/250)، و" تاريخ بغداد" (2/4).

(55)" شرح النووي"للبخاري(ص 4).

(56)"شرح النووي"للبخاري(ص 7).

(57) انظر: "كشف الظنون"(1/545).

بدعوى الإجماع على خلافها، كما ذكر الحافظ-رحمه الله تعالى- عن ابن بطال، في قوله-صلى الله عليه وسلم -: "لا شخص أغير من الله".
قال: "أجمعت الأمة على أن الله-تعالى- لا يجوز أن يوصف بأنه شخص".[58]

وذكر عن الخطابي: أنه رد وصف الرب –تبارك وتعالى- بالأصابع، كما في حديث عبد الله بن مسعود في ذكر الحبر الذي سأل رسول الله-صلى الله عليه وسلم – ونسب ذلك إلى تخليط اليهود، وتشبيههم، وقال في قوله في الحديث: "فضحك رسول الله-صلى الله عليه وسلم – تصديقاً لقوله" إنه ظن من ابن مسعود،وحسبان، وحاول عكس الأمر، وأن الضحك من جرأة اليهود على التشبيه[59]، وأمثال ذلك كثير، مما هو خلاف ما أراد إثباته مؤلف الكتاب.
ولذلك أرى من الواجب أن يتولى شرح هذا الكتاب العظيم، الذي ألفه ذلك الرجل السلفي الفاهم للحق تمام الفهم، من هو على نهج المؤلف في العقيدة، ويفهم مقصده، وماذا يريد من إيراده للنصوص.
ولما أعوزني وجود شرح على هذا الوصف، ولم يسعفني من طلبت منه القيام بذلك من مشائخنا، تطفلت على كتب العلماء، وقمت بجمع ما أراه مناسباً لشرح
ص 29
ما أورده البخاري-رحمه الله تعالى- وأرجو من الله الإمداد بالعون والسداد، فإنه لا يخيب سائله، ولا يحرم آمله، ولست أزعم أنني أفهم من كتاب البخاري-رحمه الله- ما لا يفهمه شارحوه، أمثال ابن حجر والعيني والخطابي وابن بطال والقسطلاني وغيرهم، ولكن لكل منهم نهجه الخاص، وعقيدته التي تملي عليه مسلكاً معيناً.
وطريقتي فيه أني:
1- أذكر نص الحديث بسنده، ثم أتبعه بترجمه لراويه من الصحابة موجزة جداً.
2- أحاول بيان مراد البخاري-رحمه الله- من إيراده النص،وبيان وجه استدلاله بذلك، حسب المستطاع.
3- أعزو الكلام إلى قائله، مبيناً مكانه من المصدر، بالجزء والصفحة، واذكر رقم الآية واسم السورة، ومكان الحديث في المصدر، وأما"صحيح البخاري" فغالباً أعزو ما فيه إلى "الفتح".

---

[58]() انظر: "الفتح" (13/400) وسيأتي-إن شاء الله- الكلام عليه وذكر من رواه.
[59]() انظر: "الفتح" (13/398) . وسيأتي-إن شاء الله – ذكر ذلك في موضعه، وإبطاله بالبراهين المعتمدة على الحق اليقيني، لا ظنون المتكلمين وشكوكهم، والله المستعان.

4- لا أتطرق إلى الكلام على رجال السند، إذ هو أمر مفروغ منه، فكل ما في البخاري ثابت، عن المصطفى-صلى الله عليه وسلم -، وقد تلقته الأمة بالقبول، فلا يطعن فيه إلا من كان له غرض، أو في قلبه مرض، خلا بعض المعلقات، وقد تولى الحافظ –رحمه الله- وصل أسانيده، والإجابة عما قيل فيها في كتابه: "تغليق التعليق".

5- أحاول جهدي بيان مذهب السلف، في أسامي الله –تعالى-، وأوصافه، ومدى تمسكهم بالكتاب والسنة، مستعيناً على ذلك بنقل ما تيسر لي من كلامهم على سبيل الإيجاز.

6- أحاول رد القول الباطل، أو الضعيف، الذي تؤيده النصوص، إذ إن مبنى أوصاف الله –تعالى- على ثبوت النص في ذلك، ولا دخل لقياس وعقل في ذلك، وكل ذلك حسب المستطاع.

ص 30

قال البخاري - رحمه الله تعالى-:

"باب ما جاء في دعاء النبي-صلى الله عليه وسلم -أمته إلى توحيد الله- تبارك وتعالى-"

مقصده بهذا أن يبين أن النبي-صلى الله عليه وسلم- قد أوضح ما يجب على المسلم أن يعتقده في حق الله-تعالى- نفياً وإثباتاً، وأوضح ما يجب لله على عباده، من توحيد القصد والنية، لأن قوله:"توحيد الله" يعم أنواع التوحيد، فلم يترك الأمر مشتبهاً، بل بينه، فيجب أن يتبع بيانه في ذلك، فلا يصار إلى رأي متكلم، أو عقل متفلسف، أو قول مؤول.

وقوله: "دعاء النبي-صلى الله عليه وسلم – أمته" أي الدعوة التي كلفه الله بها وأمره بإبلاغها.

يعني: أن هذا مقصود الرسالة، فلابد أن يبينه، ويبلغه أمته، البلاغ المبين، بحيث لا يبقى فيه التباس، أو اشتباه.

وقد قام-صلوات الله وسلامه عليه- بهذا الواجب خير قيام، فأوضحه غاية الإيضاح، فلا عذر لمن انحرف عنه، وتلقى توحيده من الفلاسفة والمتكلمين الذين كثر في هذا الباب اضطرابهم، وغلظ عن معرفة الله-تعالى- حجابهم.[60]

وبهذا يبين أن معرفة التوحيد، الذي جاء به رسول الله –صلى الله عليه وسلم – ودعا أمته إليه، لا يمكن الوصول إليها إلا بما جاء به –صلى الله عليه وسلم – من كتاب الله- تعالى-، وسنته التي هي شارحة ومبينة لكتاب الله- تعالى-.

والأمة هنا يقصد بها: الأمة المطلقة، أي أمة الدعوة.

---

[60]()اقتباس مكن كلام شيخ الإسلام في أول الحموية، انظر (ص 5) بتعليقات محمد عبد الرزاق حمزة.

ص 31

1- "حدثنا أبو عاصم، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن يحيى بن عبد الله بن صيفي، عن أبي معبد، عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن النبي-صلى الله عليه وسلم – بعث معاذاً إلى اليمن".

2- وحدثني عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا الفضل بن العلاء، حدثنا إسماعيل ابن أمية، عن يحيى بن عبد الله بن صيفي، أنه سمع أبا معبد مولى ابن عباس يقول: سمعت ابن عباس يقول:" لما بعث النبي-صلى الله عليه وسلم – معاذاً إلى نحو أهل اليمن، قال له: إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم، إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فاخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك، فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس".

عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، الهاشمي، ابن عم رسول الله- صلى الله عليه وسلم -، وحبر هذه الأمة، من المكثرين عن النبي-صلى الله عليه وسلم -، وجل ما يرويه بواسطة أحد الصحابة، دعا له النبي-صلى الله عليه وسلم – بأن يفقهه الله في الدين، ويعلمه التأويل، فظهرت عليه آثار دعوته-صلى الله عليه وسلم – حتى عرف بأنه ترجمان القرآن.

توفي النبي-صلى الله عليه وسلم – وهو ابن خمس عشر سنة، على الراجح.

وقد توفي سنة ثمان وستين في الطائف. [61]

ومعاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، الأنصاري، الخزرجي، من علماء الصحابة وساداتهم، قال له رسول الله-صلى الله عليه وسلم – فيما رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح: "والله يا معاذ إني أحبك"[62].

وقال ابن مسعود: "إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، ولم يكن من المشركين، إنا كنا لنشبه معاذاً بإبراهيم، عليه السلام".[63]

ص 32

شهد العقبة، والمشاهد كلها مع رسول الله- صلى الله عليه وسلم – توفي في الشام بطاعون عمواس، سنة ثماني عشرة، وكان عمره ثمان وثلاثون سنة. [64]

---

[61]()انظر: "الإصابة" (4/141)، "تذكرة الحفاظ" (1/37)، "أسد الغابة" (3/290)، "أسير أعلام النبلاء" (3/331)، وغيرها كثير.

[62]()"السنن" (2/180)، الحديث رقم (1522)، وانظر: "المجتبى" (3/53).

[63]()انظر: "الإصابة" (6/137).

[64]()"سير أعلام النبلاء" (1/443)، "أسد الغابة" (5/194)، "الإصابة" (6/136).

قوله: "بعث معاذاً إلى اليمن" أي أرسله مبلغاً عنه، وداعياً إلى عبادة الله وتوحيده.

"وأصل البعث: إثارة الشيء، وتوجيهه. ويختلف باختلاف ما علق به.

فبعثت البعير: أثرته من مبركه، وسيرته،وقوله تعالى: {وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ} [65] أي يخرجهم من الأرض أحياء، ويسيرهم إلى المحشر.

وقوله تعالى: {وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ}[66] أي: توجههم، ومضيهم معك. وقوله تعالى: {فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ } [67] أي: قيضه لذلك.

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً} [68] أي: أرسلناهم لدعوة قومهم إلى الله تعالى، فالبعث ضربان: أحدهما: يتعلق بفعل المخلوق، كبعث البعير، وبعث الإنسان في حاجة.

والثاني:إلهي، وهو قسمان:

الأول: إيجاد الأعيان، والأجناس، والأنواع، من العدم، على غير مثال سابق، وهذا خاص بالله تعالى.

والثاني: إحياء الموتى، وهذا قد أعطى،جل وعلا- بعض من يشاء من عباده شيئاً منه، كعيسى-عليه السلام- ليكون آية على صدقه"[69] ولا يقع ذلك إلا بإذن الله تعالى وإرادته.

ص 33

و"اليمن" اسم البلاد المعروفة الواقعة في الجنوب الغربي من جزيرة العرب.

قال في "القاموس": "اليمن ما كان عن يمين القبلة من بلاد الغور"[70]، وفي "المراصد": "سميت اليمن لتيامنهم إليها، لما تفرقت العرب من مكة، كما سميت الشام لأخذهم الشمال".[71]

قلت: وفيه نظر، وذلك أن اليمن قديم، قبل وجود مكة على يدي إبراهيم وابنه إسماعيل-عليهما السلام-إلا أن تكون التسمية حادثة. وقال قطرب: "سمى اليمن ليمنه".[72]

قال الحافظ: "كان بعث معاذ إلى اليمن سنة عشر،قبل حجة الوداع"[73]، وعند أهل المغازي، أن ذلك في ربيع الآخر، من سنة تسع، والصحيح ما قاله

---

[65]()الآية 36 من سورة الأنعام.

[66]()الآية 46 من سورة التوبة .

[67]()الآية 31 من سورة المائدة.

[68]()الآية 36 من سورة النحل.

[69]()"المفردات"للراغب، بتصرف (ص 52).

[70]()" القاموس" (4/279).

[71]()"المراصد" 03/1483).

[72]()"تاج العروس" (9/371).

[73]()"الفتح" (3/358).

الحافظ، وقد أشار البخاري-رحمه الله- إلى ذلك بقوله:باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع".[74]

وقيل: كان ذلك في أواخر سنة تسع، عند منصرفه-صلى الله عليه وسلم – من تبوك، رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك، وحكى ابـن سـعد أنـه كان في ربيع الآخر سنة عشر"[75] فالله أعلم.

قوله: "إنك تقدم علـى قـوم مـن أهـل الكتـاب". تقـدم-بفتـح الـدال-لأن ماضيه ثلاثي مكسور العين، ومصدره قدوماً، لأنه يدل على معالجة.

"القوم" الجماعة مـن الرجـال والنسـاء، أو مـن الرجـال خاصـة، وتـدخل النساء على التبعية. قاله في "القاموس".[76]

ص 34

"وأهل الكتاب" هم اليهود والنصارى، "والمقصود هنا اليهود، وكان ابتـداء دخولهم اليمن في زمن "أسعد ذي كـرب" تبـع الأصـغر، كمـا ذكـر ذلـك ابـن إسحاق في السيرة"[77].

والمقصود بالكتاب: الجنس، والمراد: التوراة، والإنجيل.

وسمى اليهود، والنصارى:أهل الكتاب، لأن الله تعالى أنزل عليهم التوراة والإنجيل، فيهمـا أوامـر اللـه، ونـواهيه، ليعملـوا بهمـا، وهـدى مـن الله ونـور يخرجهم من ظلمـات الغـي والشـهوات، قـال اللـه تعـالى: {وَأَنـزَلَ التَّـوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ {3}ـ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ} [78]. فتوارثوه جيل عن جيـل، ثـم إنهـم حرفوه، وغيروا فيه وزادوا ونقصوا، فاختلط حقه في باطلهم، ثم نسـخه اللـه تعالى بالقرآن الذي أنزله على خاتم الرسل-صلى الله عليه وسلم -.

قال الحافظ:"قوله: "إنك تقدم" الخ، كالتوطئة للوصية، لتسـتجمع همتـه عليها، لكون أهل الكتاب علم في الجملة، فلا تكون مخاطبتهم كمخاطبة أهل الجهل من عبدة الأوثان"[79]. ولا يدل على أن كل من يقـدم عليهـم مـن أهـل الكتاب، بل أغلبهم من عبدة الأوثان، كما هو معلوم.

قوله: "فليكن أول ما تدعوهم إلـى أن يوحـدوا اللـه تعـالى" اللام للأمـر، وإذا اقترنت بالفاء أو الواو فهي ساكنة في الغالب الأكثر.

وقوله:"إلى أن يوحدوا الله تعالى" ذكره في الزكاة بلفـظ:" ادعهـم إلـى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله"[80].

---

[74]()انظر: "البخاري" (5/204).

[75]()انظر:"الفتح" (3/358) .

[76]()انظر: "القاموس" (4/168).

[77]()"فتح الباري" (13/348).

[78]()الآيات 3-4 من سورة آل عمران.

[79]()"الفتح" (3/358).

[80]()انظر: "الفتح" (3/261).

وفي رواية" "فليكن أول ما تـدعوهم إليـه عبـادة اللـه، فـإذا عرفـوا اللـه فأخبرهم..." الخ[81].

ص 35

وفي أخرى: " فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشـهدوا أن لا إلـه إلا اللـه، وأن محمداً رسول الله"[82].

وفي رواية لمسلم: "فليكن أول ما تدعوهم إليـه عبـادة اللـه-عـز وجـل- فإذا عرفوا الله فأخبرهم ..."الخ[83].

وهذه الروايات متفقة في المعنى.

فمعنى شهادة أن لا إله إلا الله: توحيد الله بالعبادة، والبعد عن عبـادة مـا سواه، وهذا هو الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، الذي قـال اللـه تعـالى فيـه" {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا} [84].

والطاغوت: كل ما عبد من دون الله- كما قال مالك رحمه الله-[85]سـواء كان من البشر، أو من الحجر، أو الشجر، أو الحيوان، أو الأضرحة والعتبات.

والكفـر بـه: الابتعـاد عـن عبـادته، الـتي هـي طلـب البركـات منـه، أو الشفاعات، أو دفع البليات، أو إنالة الحاجـات، أو التـوجه إليـه بالـدعاء، ولابـد من بغضه وعداوته، وعداوة عابديه ومقـاطعتهم، والتـبري منهـم؛ لقـول اللـه تعالى:{ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّهَ وَرَسُـولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} [86].

والإيمان بـالله-تعـالى- هـو: إفـراده بالعبـادة، الـتي تتضـمن غايـة الحـب ومنتهاه مع غاية الذل وأقصاه، والانقياد لأمره والتسليم له.

ص 36

وهذا هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، كما قال - صلى الله عليه وسـلم – لوفد عبد القيس:"آمركم بالإيمـان بـالله وحـده، أتـدرون مـا الإيمـان بـالله وحده؟" قالوا: الله ورسوله اعلم، قال: "شهادة أن لا إله إلا الله ..." الخ[87].

---

[81]()المصدر نفسه (ص 322).

[82]()المصدر السابق، (ص 357)، (8/64) "الفتح" .

[83]()انظر: "مسلم بشرح النووي" (1/199) .

[84]()الآية 256من سورة البقرة.

[85]()قال ابن جرير: " الطاغوت: كل ذي طغيان على الله لمن عبده من دونه، إما بقهره لمن عبده أو بطاعة من العباد له، إنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو وثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من أي شيء" انظر "تفسير الطبري" (5/419) تحقيق : أحمد ومحمود شاكر.

[86]()الآية 22 من سورة المجادلة.

[87]() انظر: "الفتح" (1/129)، و"مسلم بشرح النووي" (1/188).

وقال-تعالى-: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [88]، أخذ البخاري- رحمه الله- من هذه الآية وجوب العلم قبل العمل، فقال: باب العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ} [89].

فالعلم بمعنى هذه الشهادة التي لابد لكل داخل في دين الإسلام أن يشهد بها هو الإيمان المطلوب من العباد، وهو معرفة حق الله على عباده، الذي لا يجوز الإخلال بشيء منه، وإلا استحقوا عذابه.

و أما معنى شهادة أن محمداً رسول الله، فهو: العلم اليقيني بأنه رسول من الله كلفه إبلاغ العباد أوامر الله ونواهيه، وطاعته في كل ما أمر به، واجتناب ما نهاهم عنه، وأن لا يعبد الله إلا بما جاء به، وأن كل من سلك طريقاً غير سنته فمصيره إلى النار، وأنه بلغ العباد ما أرسل به، وبين لهم دينهم أتم بيان، وأنه عبد الله أكرمه بالرسالة، وليس له من العبادة شيء، بل العبادة كلها لله تعالى.

وهاتان الشهادتان متلازمتان، لا تقبل إحداهما دون الأخرى، فمن شهد أن لا إله إلا الله، ولم يشرك به شيئاً، ولم يشهد أن محمداً رسول الله، فهو كافر بالله وخالد في النار، وإن جاء بعبادة أهل الأرض.

ومن شهد أن محمداً رسول الله، وأشرك بالله شيئاً شركاً كبيراً، فهو كافر خالد في النار، فلا بد من اجتماع هاتين الشهادتين في العبد حتى يكون موحداً.

و أما مجرد النطق بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، مع عبادة غير الله، وتعلق القلب بمن يعتقدهم أولياء، وطلب الحاجات منهم التي لا يقدر عليها إلا الله، ومع مخالفة أوامر رسول الله – صلى الله عليه وسلم- وارتكاب ما نهى عنه، فإن ذلك لا يفيد شيئاً، ولا يكون الإنسان به مسلماً.

ص 37

قال النووي- رحمه الله-: "واتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء، والمتكلمين على أن المؤمن الذي يحكم بأنه من أهل القبلة، ولا يخلد في النار، لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام، اعتقاداً جازماً خالياً من الشكوك، ونطق مع ذلك بالشهادتين، فإن اقتصر على أحدهما لم يكن من أهل القبلة أصلاً، بل يخلد في النار، إلا أن يعجز عن النطق لخلل في لسانه"[90].

وهذه الشهادة أيضاً تتضمن الإيمان بأسماء الله وصفاته؛ لأن ذلك من عبادة الله التي تعبد الخلق بها.

---

[88]() الآية 19من سورة محمد.

[89]() انظر: "الفتح" (1/159).

[90]() "شرح النووي للبخاري" (ص 113)، ولا بد مع اعتقاد القلب ، ونطق اللسان ، من العمل مع التمكن ، فلابد من إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع ، وغير ذلك من الواجبات.

وهذا الحديث دليل ظاهر على أن التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله وحده، والبعد عن عبادة ما سواه، والإيمان بأسمائه وصفاته، كما جاء في وحيه إلى رسله، هو أول واجب على العباد.

لا كما يقول أهل الكلام، من المعتزلة، والأشعرية، وغيرهم: إن أول ما يجب على العبد: النظر في الأدلة العقلية على وجود الله تعالى، أو القصد إلى النظر أو الشك، فهذا الحديث وأمثاله من نصوص الكتاب والسنة يبطل هذا الزعم الخاطيء.

"وذلك أن أصل العلم الإلهي ومبدأه، هو الإيمان بالله ورسوله، والاهتداء بوحيه، كما قال – تعالى -: {يُعِيدُ {49}قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} [91]. وقال تعالى -: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا} [92]

ص 38

وقال- صلى الله عليه وسلم-:" أمرت أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم، إلا بحقها".[93]

ولهذا ابتدأ البخاري – رحمه الله تعالى – "صحيحه" ببدء الوحي ونزوله، الذي يحصل به الهدى، والنور، ثم أتبعه بكتاب الإيمان، الذي هو الإقرار بالوحي والانقياد له، ثم اتبعه كتاب العلم الذي هو معرفة ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم-، وفقهه، فهذا هو الترتيب الحقيقي.

والمطلع على أقوال أهل الكلام يعجب مما جعلوه أصل الدين الإسلامي، وبنوا عليه أن من لم يعرفه فليس بمسلم.

قال القرطبي:" لو لم يكن في الكلام إلا مسألتان، هما من مبادئه، لكان حقيقاً بالذم.

إحداهما: قول بعضهم: إن أول واجب: الشك إذ هو اللازم لوجوب النظر، أو القصد إلى النظر.

والثانية: قول جماعة منهم: من لم يعرف الله بالطرق التي رتبها أهل الكلام، لم يصح إيمانه.

والقائل بهاتين المسألتين كافر؛ لجعله الشك في الله – تعالى – واجباً، ومعظم المسلمين كفاراً، حتى يدخل في عموم كلامه السلف الصالح، من

---

[91]() الآية 50 من سورة سبأ .

[92]() الآية 52 من سورة الشورى .

[93]() رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر ، "الفتح" (1/75) ، وانظر: "مسلم بشرح النووي" (1/212)، وروى من حديث جماعة من الصحابة في "الصحيحين" وغيرهما.

الصحابة والتابعين، وهذا معلوم الفساد من الدين بالضرورة، وإلا فلا يوجد في الشرعيات ضروري"[94].

وقال الغزالي:" أسرفت طائفة فكفروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لم يعرف العقائد الشرعية بالأدلة التي حرروها فهو كافر، فضيقوا رحمة الله الواسعة، وجعلوا الجنة مختصة بشرذمة يسيرة من المتكلمين"[95].

ص 39

وقوله: " فإذا عرفوا ذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم".

أي إذا عرفوا توحيد الله، وعملوا به، بأن أخلصوا عبادتهم لله وحده، واجتنبوا عبادة كل معبود سواه، عند ذلك يخبرون بفرائض الإسلام، ويؤمرون بها، وأعظمها – بعد التوحيد – الصلوات الخمس.

وفي هذا دليل على أنه لا يجب على العبد من الصلاة غير الخمس المذكورة.

ومعلوم أن بعث معاذ إلى اليمن في آخر حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم- كما سبق.

كما فيه: أنه يجب على إمام المسلمين بعث الدعاة إلى توحيد الله تعالى، وتعليم الناس شرائع الإسلام، وأمرهم بالتزامها، وجباية الزكاة، ودفعها إلى مستحقيها، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ} الآية [96].

وفيه: أن الإنسان لا يصير مسلما إلا إذا وحد الله -تعالى – بالعبادة، بأن لا يقصد بعبادته غير الله، بل تكون عبادته كلها لله وحده، وهذا هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وأما معنى شهادة أن محمداً رسول الله هو: أن يعبد الله بما جاء به الرسول-صلى الله عليه وسلم-، والإيمان بأن الله أوحى إليه أوامره، ونواهيه، وكلفه إبلاغ الثقلين ذلك.

وفيه: أن أي تعبد يتعبد به العبد غير معتبر، ولا معتد به بدون التوحيد.

وفيه: أن أخذ خيار المال في الزكاة ظلم يجب اجتنابه.

وقصد البخاري – رحمه الله – بيان أن النبي –صلى الله عليه وسلم- قد بين للناس التوحيد بأنواعه، وأنه أول واجب، وأول ما يدعى إليه، فلا حاجة بعد بيانه إلى بيان أحد من الناس، كما تقدم.

قال شيخ الإسلام:" وقد علم بالاضطرار من دين الرسول –صلى الله عليه وسلم- واتفقت عليه الأمة، أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلماً،

---

[94]() من " الفتح" (13/350) بتصرف.

[95]() نفس المصدر ، (13/349) بتصرف أيضاً .

[96]() الآية 60 من سورة التوبة .

والعدو ولياً، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال، ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان.

ص 40

و إن قال بلسانه دون قلبه، فهو في ظاهر الإسلام، دون باطن الإيمان"[97] والبخاري – رحمه الله – في بدئه كتاب التوحيد بهذا الحديث، يشير إلى الرد على المتكلمين الذين جعلوا عمدتهم، في إثبات ما يثبتون، ونفي ما ينفون: العقل.

فهذا الحديث دل على أن أول ما يجب على العبد: عبادة ربه تعالى بامتثال أوامره، واجتناب ما نهى عنه، وأن المقصود من الدعوة: وصول العباد إلى ما خلقوا به، من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

ولا سبيل إلى ذلك إلا باتباع الوحي الذي جاء به محمد –صلى الله عليه وسلم- فيجب أن يتبع، وأن يكون هو الأصل المعول عليه في معرفة عبادة الله، والإيمان به، وبرسله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والإيمان بأسمائه وصفاته وعبادته بها، خلافاً لطريقة المتكلمين، الذين جعلوا عمدتهم عقولهم في إثبات وجود الله تعالى، بناء على حدوث الكون، ثم إثبات صفاته نفياً وإثباتاً بالقياس العقلي، ثم إثبات النبوات، ثم بعد ذلك يتكلمون في السمعيات.

وهذه طريقة المعتزلة، والكرامية، والكلابية، والأشعرية، غير أن الأشعرية سلكوا هذه الطريقة في الأصول الاعتقادية العلمية، دون العملية.

و أما المعتزلة فلم يفرقوا بين العقيدة والعمل في القياس العقلي، حتى إنهم ينظرون إلى القدر المشترك في الأفعال بين الرب والعباد، فما كان حسناً من العباد في نظرهم، فهو عندهم حسن من الله تعالى، وما كان قبيحاً منهم، فهو من الله تعالى قبيح، ولهذا سماهم أهل السنة: مشبهة الأفعال، نفاة الصفات.

ص 41

3-"حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن أبي حصين، والأشعث بن سليم، سمعا الأسود بن هلال، عن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: " يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟" قال: الله ورسوله أعلم، قال: " أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً أتدري ما حقهم عليه؟" قال: الله ورسوله أعلم، قال:" أن لا يعذبهم ".

جاء بصيغة الاستفهام ليكون أوقع في النفس، وأبلغ في التعليم؛ لأن الإنسان إذا سئل عن شيء لا يعلمه، ثم أخبر به بعد الامتحان بالسؤال صار ذلك أدعى لفهمه وحفظه.

---

[97]() نقلاً من "تيسير العزيز الحميد" (ص 101).

وهذا من حسن تعليمه، وإرشاده –صلى الله عليه وسلم-، وهذا الأسلوب ورد عنه –صلى الله عليه وسلم- كثيراً.

يقال: درى يدري دراية: إذا عرف، فالدراية هي المعرفة.

و"الحق": كل موجود متحقق، أو ما سيوجد لا محالة، ويقال للكلام الصدق: حق؛ لأن وقوعه متحقق، لا تردد فيه، ولأنه مطابق للواقع، وكذا المستحق على الغير، إذا كان لا تردد فيه، فهو حق.

والمراد هنا " ما يستحقه الله تعالى على عباده، مما جعله متحتماً عليهم، وألزمهم إياه بخطابه"[98].

فحقه تعالى على عباده: أن يعبدوه، مخلصين له العبادة، ممتثلين ما أمرهم به وأوجبه عليهم،وأعظمه التوحيد، ومجتنبين ما نهاهم عنه، وحرمه عليهم، وأعظمه الشرك، فإذا فعلوا ذلك، فحقهم عليه أن يغفر لهم، ولا يعذبهم، وأن يدخلهم الجنة، وقد وعدهم ذلك، ووعده حق لا يخلف.

قوله: " الله ورسوله أعلم" يؤخذ منه حسن الأدب في التعلم، وأنه لا ينبغي لمن سئل عما لا يعلمه أن يتكلف الجواب بدون يقين، ولكن يكل العلم إلى عالمه.

" ذكر يعقوب بن سفيان بإسناده، عن ربيعة قال: قال ابن خلدة: إذا جاءك الرجل يسألك، فلا يكن همك أن تخرجه مما وقع فيه، وليكن همك أن تتخلص مما

ص 42

سألك عنه"[99].

قوله: " أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً " المراد بالعبادة: فعل الطاعات، واجتناب المعاصي.

والعبادة في اللغة هي: الذل، والخضوع.

قال الأزهري: " معنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع، يقال: طريق معبد، إذا كان مذللاً بكثرة الوطء وبعير معبد إذا كان مطلياً بالقطران"[100].

وقال الجوهري: " أصل العبودية: الخضوع والذلة، والتعبيد: التذليل، والعبادة: الطاعة، والتعبد: النسك"[101].

---

[98]() "فتح الباري" (11/339).

[99]() "تهذيب التهذيب" (7/443).

[100]() " تهذيب اللغة" (2/234).

[101]() "الصحاح" (2/503) ، هذا متفق عليه كتب اللغة .

وأما العبادة الشرعية فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية:" العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"[102].

وقيل: هي كمال الحب مع كمال الخضوع؛ لأن الحب الكامل مع الذل التام يتضمن طاعة المحبوب، والانقياد له، فالعبد هو الذي ذلله الحب والخضوع لمحبوبه، فطاعة العبد لربه تكون بحسب محبته وذله له.

وعطف على العبادة عدم الشرك؛ لأن العبادة لا تنفع عند الله ولا تعتبر إلا إذا كانت خالصة من الشرك.

والمشركون كانوا يعبدون الله، ويعبدون معه غيره، ولهذا اشترط نفي الشرك. والجملة حالية، والتقدير: يعبدونه في حال عدم الإشراك به.

قال ابن حبان: عبادة الله: إقرار باللسان، وتصديق بالقلب، وعمل بالجوارح.

ولهذا قال في الجواب:" فما حق العباد إذا فعلوا ذلك؟ فعبر بالفعل، ولم يعبر بالقول"[103].

ص 43

قوله: " أتدري ما حقهم عليه؟" فسره بقوله:" أن لا يعذبهم".

وفي الرواية الأخرى:" أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً"[104]، والتقدير: أن لا يعذب من يعبده، ولا يشرك به شيئاً؛ لأن عدم الشرك مع عدم العبادة لا ينفع، وهذا معلوم من نصوص الشرع.

قال الحافظ: " اقتصر على نفي الشرك؛ لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذب رسول الله فقد كذب الله، ومن كذب الله فهو مشرك، أو هو مثل قول القائل: من توضأ صحت صلاته، أي مع سائر الشروط، فالمراد: من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به"[105].

وحق العباد على الله تعالى هو من فضله وكرمه، وليس استحقاق عوض وجزاء، كما تقول المعتزلة.

والناس في هذه المسألة ثلاث فرق:

منهم " من يقول: للمخلوق على الله حق يعلم بالعقل.

فهم يقيسون الخالق تعالى على المخلوق – كما تقدمت الإشارة إليه -.

---

[102]() انظر أول فقرة من رسالة العبودية .

[103]() "فتح الباري" (11/339).

[104]() انظر : " الفتح" (6/58).

[105]() "فتح الباري" (1/228).

ومنهم من يقول: لا حق للمخلوق على الله تعالى بحال، ولكن يعلم ما يفعله بعبده بحكم وعده وخبره.وهذا قول أتباع جهم، وبعض من ينتسب إلى السنة.

ومنهم من يقول: بل أوجب الله تعالى على نفسه حقاً لعباده المؤمنين، كما حرم الظلم على نفسه، ولم يوجب ذلك عليه مخلوق.

ص 44

ولا يقاس بمخلوقاته تعالى، بل هو برحمته، وحكمته، وعدله، كتب على نفسه الرحمة، وحرم على نفسه الظلم، كما في الحديث الذي في "صحيح مسلم" وغيره[106] "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا".

وقال تعالى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [107]، وقال تعالى: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [108].

فمن قال: ليس للمخلوق على ربه حق، فهو صحيح، إذا أراد أنه ليس عليه حق بالاعتبار والقياس على خلقه، كما يجب للمخلوق على مثله، وكما يظن جهال العباد أن لهم على الله حقاً بعبادتهم؛ لأن النفوس الجاهلة تتخيل أن الإنسا ان بعبادته وعلم ه يصير له على الله حق، من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق[109]، كمن يطيع سيده ورئيسه فيجلبه له منفعة، أو يدفع عنه مضرة، ويبقى يتقاضى العوض، والمجازاة على ذلك، ويقول عند الجفاء والإعراض: ألم أفعل كذا؟ يمن عليه بما فعل معه، وإن لم يقله بلسانه، كان ذلك في قلبه، وتخيل مثل هذا في حق الله من جهل الإنسان وظلمه.

ولهذا بين الله تعالى أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه، وأن الله غني عن الخلق.

قال – تعالى -: {وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [110]

ص 45

وقال –تعالى-: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ} [111].

---

[106] () انظر : " صحيح مسلم" (4/1994) الحديث رقم (2577).

[107] () الآية 54 من سورة الأنعام .

[108] () الآية 47 من سورة الروم .

[109] () ولهذا نجد الجهال وأنصاف المتعلمين يلهجون إلى الله تعالى بسؤاله بحق فلان وفلان ، ويعتقدون أن هذا أقرب إلى حصول مطلوبهم ، وهو من جهل الإنسان بربه ، وعدم تقديره حق قدره ، وأكثر ما يقع الشرك في المسلمين من هذا الباب .

[110] () الآية 40 من سورة النمل .

[111] () الآية 46 من سورة فصلت .

ومن قال: للمخلوق على الله حق، فهو صحيح، إذا أراد به الحق الذي أخبر الله بوقوعه، فإن الله لا يخلف الميعاد، وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته"[112].

وهذا القول: هو الحق الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وأما القول الأول فهو ضلال بين، حيث لم يفرق قائله بين ما يجب على الخالق – تعالى – وما يجب على المخلوق.

"والفروق بين الخالق والمخلوق لا تخفى إلا على من عميت بصيرته"

منها: أن الرب- تعالى – غنى بنفسه عن كل ما سواه، ويمتنع أن يكون محتاجاً إلى غيره، بوجه من الوجوه، وأما الخلق فسادتهم وملوكهم ومن دونهم محتاجون إلى غيرهم، حاجة ضرورية.

ومنها: أن الرب – تعالى – وإن كان يحب الأعمال الصالحة، ويفرح بتوبة التائبين، فهو الذي يخلق ذلك، وييسره، فلا يحصل ما يحبه ويرضاه إلا بقدرته ومشيئته، والمخلوق كثيراً ما يحصل له ما يحبه بغير فعله بل بفعل غيره.

ومنها: أن الرب- تعالى – أمر العباد بما يصلحهم، ونهاهم عما يفسدهم.

قال قتادة: " إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً عليهم، بل أمر بما ينفعهم، ونهاهم عما يضرهم" بخلاف المخلوق الذي يأمر غيره بما يحتاج إليه هو، وينهاه بخلاً عليه.

ومنها: أنه – سبحانه – هو المنعم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهو المنعم بإيجاد القدرة والحواس، وغير ذلك مما يحصل به العلم والعمل الصالح، وهو الهادي لعباده، والمخلوق لا يقدر على شيء من ذلك.

ص 46

ومنها: أن نعمه – تعالى – على عباده أعظم من أن تحصى، فلو قدر أن العبادة جزاء لنعمه لم نقم بشكر قليل منها، فكيف والعبادة من نعمه؟

ومنها: أن العباد لا يزالون مقصرين في حقه، محتاجين إلى عفوه، ومغفرته، فلن يدخل أحد الجنة بعمله[113]، وما من أحد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة ربه، {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ} [114].

فمن ظن أنه قائم بما يجب عليه، وأنه غير محتاج إلى مغفرة ربه وعفوه وهدايته وتوفيقه، فهو ضال"[115].

---

[112]() "مجموع الفتاوى" (1/213) بتصرف .

[113]() في" صحيح مسلم" عن جابر، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار ، ولا أنا ، إلا برحمة من الله" (4/2171) رقم الحديث (2817). وأخرجه البخاري في عدة مواضع من "صحيحه" من حديث أبي هريرة وعائشة. انظر : "الفتح" (11/294).

[114]() الآية 45 من سورة فاطر .

[115]() "مجموع الفتاوى" (1/216).

والمقصود من الحديث هنا: بيان أن حـق اللـه علـى عبـاده هـو عبـادته – تعالى – الخالصة من الشرك، وهي: طاعته بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهـى عنه، فلا يخالف ما جاء عن الله، أو جاء عن رسوله، لغرض أو منفعة عاجلة أو آجلة، وغير ذلك.

ومن ذلك – يعني حق الله على عباده-: اتباع ما وصف اللـه بـه نفسـه، أو وصفه به رسوله من غير تحريف، ولا إلحاد فيه، ولهذا ترجم على هذا الحديث في كتاب الرقاق بقوله: باب من جاهد نفسه في طاعة الله.

ومراده: أن الرسول –صلى الله عليه وسلم- قد بين مـا يجـب للـه علـى عبـاده مـن عبـادته باتبـاع أمـره، واجتنـاب نهيـه، وعبـادته بأسـمائه وصـفاته، وتنزيهه عن مشابهة المخلوق، وما يستحقه من فعل ذلك.

ص 47

4-"حـدثنا إسـماعيل، حـدثني مالـك، عـن عبـدالرحمن بـن عبـدالله بـن عبدالرحمن ابن أبي صعصعة، عن أبيـه، عـن أبـي سـعيد الخـدري:" أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} يرددها، فلما أصبح جاء إلى النـبي –صـلى الله عليه وسلم- فذكر له ذلك، وكأن الرجل يتقالها، فقال رسول الله –صـلى الله عليه وسلم-:" والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن ".

زاد إسماعيل بن جعفر، عن مالك، عن عبـدالرحمن، عـن أبيـه، عـن أبـي سعيد: أخبرني أخي قتادة بن النعمان، عن النبي –صلى الله عليه وسلم-.

أبو سعيد الخدري هو: سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بـن الأبجـر –وهـو خدرة- الذي ينسب إليـه، أنصـاري خزرجـي، بـايع تحـت الشـجرة، وغـزا مـع رسول الله-صلى الله عليه وسلم- غزوات عدة، وكان أبوه من شـهداء أحـد. وأبو سعيد من علماء الصحابة وفقهائهم، والمكثرين الحديث عن رسول اللـه –صلى الله عليه وسلم-.

توفي رضي الله عنه سنة أربع وسبعين[116].

قـوله: " أن رجلاً سـمع رجلاً" السـامع هـو أبـو سـعيد راوي الحـديث، والقارىء هو قتادة، كما بينه البخاري بقوله: "زاد إسـماعيل" الـخ. وقـد جـاء مصرحاً به في مسند أحمد، ولفظه:

"بات قتادة بن النعمان يقرأ من الليل كله {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} فـذكر ذلـك للنبي-صلى الله عليه وسلم-، فقال- صلى الله عليه وسلم-:" والـذي نفسـي بيده: لتعدل نصف القرآن أو ثلثه"[117].

"وقتادة هو أخو أبي سعيد لأمه، وكانا متجاورين في السكن"[118]

---

[116]() "الإصابة" (3/78) ، "أسد الغابة" (2/365).

[117]() "المسند" (3/15) ، وانظر: "الفتح الرباني" (18/346).

[118]() "فتح الباري" (9/61).

قوله: " وكأن الرجل يتقالها" بتشديد اللام، أي: يعدها قليلة بالنسبة إلى غيرها من سور القرآن "يقال": تقلل الشيء واستقله وقاله: إذا رآه قليلاً. والمراد أنه رآها قليلة في العمل، لا أنه عدها ناقصة"[119].

ص 48

قوله: " والذي نفسي بيده" كان-صلى الله عليه وسلم- كثيراً ما يحلف بهذه الصيغة، وقد ذكر البخاري- رحمه الله – في الأيمان والنذور في باب: كيف كانت يمين النبي-صلى الله عليه وسلم- عدة أحاديث بهذا اللفظ.

وقد روى الطبراني، وابن ماجة، عن رفاعة بن عرابة:" كان النبي –صلى الله عليه وسلم- إذا حلف قال: والذي نفسي بيده".

وروى ابن أبي شيبة، عن أبي سعيد: كان النبي-صلى الله عليه وسلم- إذا اجتهد في اليمين قال: " لا والذي نفس أبي القاسم بيده". ورواه ابن ماجه من وجه آخر، بلفظ: "كانت يمين رسول الله التي يحلف بها – أشهد عند الله- والذي نفسي بيده"[120].

قلت: وحديث أبي سعيد رواه أبو داود في "السنن"[121].

فقوله: " والذي نفسي بيده" أي روحي، وحياتي وموتي، يتصرف في كيف يشاء. وسيأتي، إن شاء الله تعالى – الكلام على صفة اليد، وأنها من صفات الله الثابتة قطعاً، وأنها يد حقيقية تليق بعظمة الرب وقدره، تعالى وتقدس عن مشابهة الخلق، وعن الظنون السيئة التي أوجبت لأصحابها تعطيل الله- تعالى- عن صفاته، ودعتهم إلى الإلحاد في أسمائه وصفاته.

قوله: " إنها لتعدل ثلث القرآن " عدل الشيء بفتح العين: ما عادله من غير جنسه، والعدل بكسر العين: المثل، تقول: عندي عدل شاتك، أو عدل مالك، إذا كان عندك شاة مثل شاة من تخاطبه، ومال مثل ماله، فإن أردت ما يعادل ذلك من غير جنسه فتحت العين، ذكر ذلك بعض أهل اللغة. [122]

ومعنى كونها تعدل ثلث القرآن: أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام: ثلث منه الأحكام وبيان الحلال من الحرام.

وثلث منه الوعد والوعيد، والجزاء، وما وقع بمن كذب الله ورسله، وما سيقع بهم في الآخرة، وكذا من أطاعه.

ص 49

وثلث منه في أسماء الله تعالى وصفاته. وهذه السورة خالصة في الأسماء والصفات، قاله أبو العباس ابن سريج، وغيره من السلف.

---

[119]() "المنهل العذب المورود" (8/113).

[120]() "فتح الباري" (11/526).

[121]() انظر: الحديث رقم (3264).

[122]() انظر : " ترتيب اللسان" (3/707).

واعتراض ابن عبدالبر على هذا: بأن في القرآن آيات كثيرة اشتملت على أكثر مما في هذه السورة من التوحيد، كآية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وأول سورة الحديد، قد أجاب عنه القرطبي في شرحه لمسلم: بأن سورة الإخلاص قد اشتملت على اسمين من أسماء الله متضمنين جميع أوصاف الكمال، ولم يوجدا في غيرها من السور، وهما "الأحد" و"الصمد".

" والقرآن باعتبار معانيه ثلاثة أقسام: توحيد، وقصص، وأمر ونهي، وكله كلام الله تعالى، والكلام إما إنشاء، وإما إخبار.

فالإنشاء: هو الأمر والنهي، وما يتبع ذلك كالإباحة.

والإخبار: أما عن الخالق – تعالى -، أو عن المخلوق، فالإخبار عن الخالق هو التوحيد وما يتضمنه من أسماء الله وصفاته.

والإخبار عن المخلوق، هو القصص، وهو الخبر عما كان، وما يكون.

و{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} هي صفة الرحمن خالصة لذلك، وبهذا الاعتبار عدلت ثلث القرآن؛ لما فيها من التوحيد، الذي هو ثلث معاني القرآن، وليس معنى ذلك أنه يكتفي بها عن سائر القرآن، بمعنى أن من قرأها ثلاثاً كفاه عن قراءة القرآن؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال:" إنها تعدل ثلث القرآن ".

وقد تقدم أن عدل الشيء- بالفتح- يطلق على ما ليس من جنسه، كما قال تعالى: {أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا} فجعل الصيام عدل الكفارة، وهما جنسان.

فثواب قراءة {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} وإن كان يعدل ثواب قراءة ثلث القرآن في القدر، فلايلزم أن يكون مثله في النوع والصفة؛ لأنها لا تغني عما اشتمل عليه القرآن من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وسائر ما يحتاج إليه العباد. فالناس محتاجون إلى جميع القرآن، ومنتفعون به لا تغني عنها سورة الإخلاص، وإن كانت تعدل ثلث القرآن "[123].

ص 50

وفي هذا الحديث دلالة ظاهرة على تفاضل كلام الله – تعالى -، وصافته، وهو المأثور عن السلف، وعليه أئمة الفقهاء وغيرهم، ونصوص الكتاب والسنة تؤيد ذلك.

قال الله – تعالى –:{ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [124] فأخبر- تعالى – أنه يأتي بخير منها أو مثلها، فدل على أن الآيات تتماثل مرة، وتتفاضل أخرى، والتوراة، والإنجيل والقران كلها كلام الله – تعالى – وقد أجمع المسلمون على أن القرآن أفضلها، كما قال – تعالى – {وَأَنزَلْنَا

---

[123]() "مجموع الفتاوى" (17/207-208) بتصرف .

[124]() الآية 106 من سورة البقرة .

إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [125]أي هو المؤتمن، والشاهد، والحاكم، على ما سبقه من الكتب.

و أما الأحاديث فكثيرة، من جملتها هذا الحديث، ومن تأمل كلام السلف، ومن سار على نهجهم، علم أن هذا من الأمور المستقرة في نفوسهم، ولم يعرف من السلف من قال: لا يكون كلام الله بعضه أشرف من بعض؛ لأنه كله من صفات الله، وإنما حدث ذلك لما ظهرت البدع من المعتزلة، والجهمية، ومن سلك طريقهم، الذين اختلفوا في القرآن، وجعلوه عضين.

وتفاضل الكلام من جهة المتكلم فيه – سواء كان خبراً أو إنشاء – أمر معلوم بالفطرة، والشرع، فليس الخبر المتضمن حمد الله والثناء عليه بأسمائه الحسنى، كالخبر المتضمن لذكر إبليس، وفرعون وأبى لهب، ونحوهم، وإن كان الكل كلاماً عظيماً تكلم الله به.

وكذلك ليس الأمر بالتوحيد، والإيمان بالله ورسله، والنهي عن الشرك وقتل النفس بغير حق، والزنا، وغير ذلك مما أمرت به الشرائع كلها، أو حرمته، كالأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد، أو الأمر بالإنفاق على الحامل، والنهي عن قول: "راعنا" وإن كان لكل واجباً.

وليس تفاضل الكلام باعتبار نسبته إلى المتكلم به، فإنه سبحانه واحد، ولكن باعتبار معانيه التي يتكلم بها، وباعتبار ألفاظه المبينة لمعانيه.

ص 51

قال شيخ الإسلام:" الكلام له نسبتان: نسبة إلى المتكلم به، ونسبة إلى المتكلم فيه، فهو يتفاضل باعتبار النسبتين، وباعتبار نفسه أيضاً، فـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} و{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} كلاهما كلام الله – تعالى -، وهما مشتركان من هذه الجهة، ولكنهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه، المخبر عنه، فـ{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} كلام الله وخبره الذي يخبر عن نفسه، وصفته التي يصف بها نفسه، وكلامه الذي يتكلم به عن نفسه.

و {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} كلام الله الذي يتكلم به عن بعض خلقه، ويصف به حاله، فهما من هذه الجهة متفاضلان"[126].

ولا يلزم من كثرة الحروف أفضلية ذلك، كما توهمه بعض العلماء؛ لأن الفضل يتبع تفاضل المعاني.

فحروف الفاتحة لقارئها بكل حرف حسنة أعظم من حسنات {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}

---

[125]() الآية 48 من سورة المائدة .

[126]() " مجموع الفتاوى" (17/57).

فلا يلزم من مماثلة الشيء مساواته في الفضل، كما أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم- "أنه لو أنفق من جاء بعد السابقين مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحد السابقين إلى الإسلام، ولا نصيفه"[127].

قال شيخ الإسلام: " فإذا قرأ الإنسان {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} حصل له من الثواب بقدر ثلث القرآن، لكن لا يلزم أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل بقراءة ثلث القرآن؛ لأن الإنسان يحتاج إلى ما يحصل له من ثواب الأمر والنهي والقصص، وغير ذلك، و{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} لا تسد مسد ذلك، ولا تقوم مقامه، مع أن فضل القراءة والذكر والدعاء وغير ذلك، يختلف باختلاف حال الإنسان، فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا تدبر، والصلاة بخشوع وحضور

ص 52

قلب، أفضل من الصلاة بدون ذلك، فإذا كانت {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} يعدل ثوابها ثواب ثلث القرآن، فلا بد من اعتبار التماثل في سائر الصفات، وإلا فقراءة غيرها مع التدبر والخشوع أفضل من قراءتها مع الغفلة والجهل.

والناس متفاضلون في فهم هذه السورة، وما اشتملت عليه، كما هم متفاضلون في فهم سائر القرآن"[128].

وهذا الحديث يدل أيضاً على تعدد صفات الرب تعالى، وتفاضلها؛ لأن القرآن كله، وكلامه من صفاته.

والتفاضل إنما يقع بين شيئين فصاعداً، إذ الواحد لا يعقل فيه شيء أفضل من شيء، وقد دلت النصوص الكثيرة على تعدد أسمائه تعالى وصفاته، وأن لها معاني متعددة، وهذا المعنى هو الذي قصده البخاري بهذا الحديث، فيما ظهر لي، ولا شك أن فضل هذه السورة لما اشتملت عليه من أوصاف الله تعالى، ولهذا أعقب ذلك بأن ترجم بقوله تعالى: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [129].

وقال الحافظ: " مراده ما فيه من التصريح بلفظ الأحدية في وصفه تعالى، كما في الذي بعده"[130].

وقول ابن بطال: " ومذهب الأشعري، وأبي بكر بن الطيب الباقلاني، وابن أبي زيد، والداودي، وأبى الحسن القابسي، وجماعة علماء السنة: أن القرآن لا يفضل بعضه بعضاً، إذ كله كلام الله وصفته، وهو غير مخلوق، ولا يجوز التفاضل إلا في المخلوقات ".

---

[127]() رواه البخاري في "فضائل الصحابة" ولفظه : " لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه" انظر: " الفتح" (7/21) ، ورواه مسلم في "الفضائل" (4/1967).

[128]() " مجموع الفتاوى" (17/138-140) بتلخيص وتصرف .

[129]() الآية 110 من سورة الإسراء .

[130]() "الفتح" (13/355) بالمعنى .

ص 53

ومثله قول ابن الدراج: "أجمع أهل السنة على أن ما ورد مما ظاهره المفاضلة بين آي القرآن وسوره، ليس المراد به تفضيل ذوات بعضها على بعض، إذ هو كله كلام الله، وصفة من صفاته"[131].

فهذا النقل عمن ذكرهم، والزعم بأن هذا مجمع عليه من أهل السنة هو بحسب ظن هؤلاء- يعني ابن بطال ومن يقول ذلك – لأنهم ظنوا: أن هذا القول الذي هو عدم المفاضلة لازم لمن يقول: إن القرآن كلام الله، فهو من صفاته، والتفاضل لا يكون إلا في المخلوقات، والقرآن عندهم غير مخلوق.

وهو ظن خطأ، فلم ينقل عن أحد من السلف أنه نفى المفاضلة بين آيات القرآن وسوره، ونحن نطالب مدعي الإجماع على نفي ذلك بالدليل، ولن يجد ذلك، والنصوص من الكتاب والسنة تبطل هذه الدعوى كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، وابن بطال –عفا الله عنا وعنه- كثيراً ما يدعي الإجماع على مسائل، الحق خلافها، كما ستأتي الإشارة إلى بعضها، إن شاء الله تعالى.

ص 54

5- "حدثنا محمد، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، حدثنا عمرو، عن ابن أبي هلال، أن أبا الرجال محمد بن عبد الرحمن حدثه، عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن- وكانت في حجر عائشة زوج النبي –صلى الله عليه وسلم – عن عائشة: " أن النبي –صلى الله عليه وسلم – بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته، فيختم بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي-صلى الله عليه وسلم – فقال: "سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ " فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي-صلى الله عليه وسلم – "أخبروه أن الله يحبه".

عائشة بنت أبي بكر الصديق، وزوجة رسول الله –صلى الله عليه وسلم – وحبيبته، كانت فقيهة ربانية، وعالمة بأشعار العرب وأنسابهم، وأيامهم.

أكثرت عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم – الرواية، فلذلك صارت مرجعاً للصحابة في كثير من أمور الدين، فهي من حفاظ الصحابة وعلمائهم.

روى عنها خلق كثير من الصحابة والتابعين.

ولدت-رضي الله عنها- سنة أربع من البعثة النبوية، وتزجها رسول الله- صلى الله عليه وسلم – بعد موت خديجة-رضي الله عنها- بثلاث سنوات، ودخل بها في المدينة، وهي أبنة تسع سنوات، وتوفي عنها ولها من العمر ثماني عشرة سنة، ومات-صلى الله عليه وسلم – وهي حاضنته على صدرها.

---

[131]()انظر"مجموع الفتاوى" (17/73).

مناقبها كثيرة، توفيت في المدينة سنة سبع-أو ست- وخمسين، وقيل: ثمان وخمسين، وصلى عليها أبو هريرة، ودفنت في البقيع، -رضي الله عنها-[132].

قوله: "بعث رجلاً على سرية" هذا غير الرجل المتقدم ذكره في باب الجمع بين السورتين في ركعة واحدة؛ للفروق الواضحة بين القصتين.

والسرية قطعة من الجيش، يقال: خير السرايا أربعمائة رجل، وفي "اللسان" "ما بين خمسة أنفس إلى ثلاثمائة، سميت سرية؛ لأنها تسري ليلاً في خفية؛ لئلا ينذر بهم فيحذر الأعداء ويمتنعوا"[133].

ص 55

قوله: "فيختم بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}قال ابن دقيق العيد: يدل على أنه كان يقرأ بغيرها، والظاهر أنه كان يقرأ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} مع غيرها في ركعة واحدة، ويختم بها في تلك الركعة، وإن كان اللفظ يحتمل أن يكون يختم بها في آخر ركعة يقرأ فيها السورة"[134].

وقوله:" لأنها صفة الرحمن" قال ابن دقيق العيد: "يحتمل أن يراد: أن فيها ذكر صفة الرحمن، كما إذا ذكر وصف، فعبر عن ذلك الذكر بأنه الوصف، وإن لم يكن ذلك الذكر نفس الوصف، ويحتمل أن يراد به غير ذلك، إلا أنه لا يختص ذلك بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} ولعلها خصت بذلك لاختصاصها بصفات الرب-تعالى- دون غيرها"[135].

قلت: يريد بيان قول الصحابي لها بما ذكر، أنها خالصة لذكر وصف الرحمن تعال وتقدس.

وقوله: إلا أنه لا يختص ذلك بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}. يعني أن أوصاف الرحمن-تعالى- موجودة في آيات كثيرة من القرآن.

وهذه السورة وسائر سور القرآن هي صفة الرحمن؛لأنها كلامه، وكلامه من صفاته، ولكن تميزت هذه السورة بأنها خالصة لذكر أوصاف الرحمن-تعالى- وهذ هو المتبادر إلى الفهم من مراد الصحابي-رضي الله عنه- أي أنها خالصة لوصف الرحمن-تعالى- دون غيره.

"قال ابن التين: إنما قال: لأنها صفة الرحمن؛ لأن فيها أسماؤه مشتقة من صفاته. وقال غيره: يحتمل أن الصحابي قال ذلك مستنداً إلى شيء سمعه من النبي-صلى الله عليه وسلم – إما بالنص، أو بالاستنباط. وروى

---

[132]()انظر: "الحلة" (2/43)، "أسد الغابة" (7/188)، "الاستيعاب" (4/1881)، "الإصابة" (4/359)، "سير أعلام النبلاء" (2/135).

[133]()"ترتيب اللسان" (2/141).

[134]()"شرح العمدة" (1/246).

[135]()المصدر نفسه(1/247).

البيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس-رضي اللـه عنهمـا- أن اليهـود أتوا النبي-صلى الله عليه وسلم – فقالوا: صف لنا ربك؟
ص 56
فأنزل الله-عز وجل- {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} إلى آخرها، فقـال: "هـذه صـفة ربي-عز وجل-"[136]
وفي الحديث حجة لمن أثبت أن لله صفات، وهو قول الجمهور، وشذ ابن حزم فقال: " هذه لفظة اصطلح عليها أهل الكلام، من المعتزلة، ومن تبعهم، ولم يثبت عن النبي-صلى الله عليه وسلم – ولا عـن أحـد مـن أصـحابه، فـإن اعترضوا بحديث الباب، فهو من أفراد سعيد بن أبي هلال، وفيه ضعف، وعلى تقدير صحته فـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} صفة الرحمن، كمـا فـي هـذا الحـديث، ولا يزاد عليه، بخلاف الصفة التي يطلقونهـا، فإنهـا فـي لغـة العـرب لا تطلـق إلا على جوهر، أو عرض"[137].
وسعيد متفق على الاحتجاج به، فلا يلتفـت إلـى تضـعيفه، وكلامـه الأخيـر مردود، باتفاق الجميع على إثبات الأسماء الحسنى، قـال اللـه تعـالى: {وَلِلَّـهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَـا} [138]، وقـال تعـالى: {لَـهُ الأَسْـمَاء الْحُسْـنَى} [139]، والأسماء المذكورة فيها صفات، ففي إثبات أسمائه إثبات صفاته"[140].
قلت: كلام ابن حزم – رحمـه اللـه – باطـل، ولا حجـة لـه فيمـا ذكـر، لأن الصفة: مصدر وصفت الشيء أصفه وصفاً، وصفة، مثل: وعد، وعداً، وعدة.
فإذا قيل: إن الله بكل شيء عليم، وهو رحمـن رحيـم، وعلـى كـل شـيء قدير، فالمعاني القائمة بالرب – تعالى – التي دل عليها هذا الكلام، من العلم، والرحمة والقـدرة، هـي الصـفات المقصـودة، وإنكـار ذلـك مكـابرة، أو عنـاد وضلال، وإلحاد.
وقد دلت نصوص كتاب اللـه –تعـالى – وسـنة رسـوله –صـلى اللـه عليـه وسلم- والفطرة والعقل على ذلك، قـال اللـه تعـالى: {وَلاَ يُحِيطُـونَ بِشَـيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} [141].
وقال – تعالى -: {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ} [142]، وقال –تعالى-: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِيـنُ} [143]. وقـال تعـالى: {وَلِلَّـهِ الْعِـزَّةُ وَلِرَسُـولِهِ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ} [144].

---

[136]() انظر" الأسماء والصفات" للبيهقي(ص 279)، وفيه تسمية بعضهم، وقد ذكر عدة أحاديث بمعناه.
[137]() انظر: "الفصل" (2/284)، وقد أطال الكلام على هذا المعنى، واحتج بأشياء لا تدل على مراده.
[138]() الآية 180 من سورة الأعراف .
[139]() الآية 8 من سورة طه .
[140]() "فتح الباري" (13/356-357).
[141]() الآية 255 من سورة البقرة .
[142]() الآية 166 من سورة النساء .
[143]() الآية 58 من سورة الذاريات.
[144]() الآية 8 من سورة المنافقون .

وقال – تعالى-: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا} [145].

وفـي الحـديث الصـحيح: " اللهـم إنـي أسـتخيرك بعلمـك، وأسـتقدرك بقدرتك"[146].

وفي حديث عمار بن ياسر، عن النبي –صلى اللـه عليـه وسـلم-:" اللهـم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق"[147].

وفي "صحيح البخاري" في قصة أيوب:" قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنـى بي عن بركتك"[148].

وقال البخاري:" بـاب الحلـف بعـزة اللـه وصـفاته، وكلمـاته"، وقـال ابـن عباس: كان النبي –صلى الله عليـه وسـلم- يقـول: أعـوذ بعزتـك، وقـال أبـو هريرة: عن النبي –صلى الله عليه وسـلم-:" يبقـى رجـل بيـن الجنـة والنـار، فيقول: يارب، اصرف وجهي عن النار، لا وعزتك

ص 58

لا أسألك غيرها. ثم ذكر حـديث أنـس: " لا تـزال جهنـم تقـول: هـل مـن مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فتقول: قط قط، وعزتك".[149]

وفي هذا الحديث الذي نحن بصدد الكلام عليه:" لأنها صفة الرحمن".

وقال الله – تعالى -: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِـزَّةِ عَمَّـا يَصِـفُونَ} [150] وهـذا من إضافة الموصوف إلى صفته.

فثبت بهذه النصوص، وغيرها كثير، أن لله صفات، وأن كـل اسـم تسـمى الله به يدل على الصفة؛ لأن الأسماء مشتقة من الصفات.

وبهذا يتبين بطلان قول المعتزلة، الذين ينفون أن يكون للـه علـم وقـدرة ومشيئة، ويجعلون هذه الصفة هي الأخـرى، أو الصـفة هـي الموصـوف، كمـا يتبين بهذا أيضاً الفرق بين الأسماء والصفات.

1- فالأسماء تدل على الذات، والصفات تدل علـى معـان قائمـة بالـذات، وهذه المعاني القائمة بالذات هي الصفات.

2- وتقدم أن الأسماء مشتقة من الصفات.

وقوله:" أخبروه أن الله يحبه" قد يكون سبب محبة الله له: محبتـه لهـذه السـورة، أو لمحبتـه ذكـر صـفات الـرب – عـز وجـل -، وحسـن فهمـه وعقيدته.في ذلك، أو لمجموع الأمرين، وهو الأولى.

---

[145]() الآية 7 من سورة غافر .

[146]() هو حديث جابر ، انظر "البخاري" (2/50) وسنن " أبي داود" رقم (1538) ، والترمذي رقم (480) ، وسيأتي .

[147]() انظر : " سنن النسائي" (3/54، 55) في السهو في باب نوع آخر من الدعاء .

[148]() "صحيح البخاري" كتاب التهجد ، باب (20) ، (1/54) وفي مواضع أخرى ، وسيأتي .

[149]() "الصحيح" ، كتاب الأيمان والنذور ، باب (12)، (8/114) ، وسيأتي ذلك .

[150]() الآية 180 من سورة الصافات .

وفيه ثبوت محبة الله – تعـالى – لأهـل طـاعته مـن عبـاده، والأدلـة عليـه كثيرة جداً، فلذلك صار إنكاره ضلالاً بيناً.
قال المازري، ومن تبعه: محبة الله لعباده: إرادته ثوابهم، وتنعيمهم.
وقيل: هي نفس الإثابة، والتنعيم.
ومحبتهم له، لا يبعد فيها الميل منهم إليه، وهو مقدس عن الميل.
وقيل: محبتهم له: استقامتهم على طاعته.
والتحقيق: أن الاستقامة ثمرة المحبة.
وحقيقة المحبة له: ميلهـم إليـه؛ لاسـتحقاقه سـبحانه المحبـة مـن جميـع الوجوه.
قال الحافظ: " وفيه نظر، لما فيه من الإطلاق في موضع التقييد"[151].
ومقصده من الإطلاق، قوله:" لاستحقاقه- سـبحانه – المحبـة مـن جميـع الوجوه" لأنه قد يدخل فيه الحب المتضمن للشهوة، ونحو ذلك.
وقول المازري: إن محبة الله لعبـاده: إرادتـه ثـوابهم، وتنعيمهـم، أو هـي نفس الثواب والنعيم، ظـاهر البطلان، والنصـوص فيـه لا تقبـل هـذا التأويـل؛ لكثرتها، وتواطئها على أن الحب فيها هو ما يفهمه المخاطب الذي لم تفسـد فطرته بالعقائد المنحرفة عن الحق.
وهذه طريقة أهل التأويل في صفات الله – تعالى – المستلزمة للثواب أو العقـاب؛ إمـا أن يجعلوهـا إرادة الثـواب أو العقـاب، أو هـي نفـس الثـواب والعقاب.
ومعلوم أن الثواب والعقاب ونحوهما مخلوق.
والإرادة التي يرجعون المحبة والرحمة ونحوهما من صفات الله –تعـالى- إليها، يلزمهم فيها نظير ما فروا منه فـي المحبـة والرحمـة، حيـث قـالوا: إن المحبة هي: الميل إلى المحبوب، فيقال: والإرادة هي: ميل المريـد إلـى مـا يوافقه في إرادته.
وأما تفسـيرها بـالثواب والعقـاب، فيلـزم منـه أن تكـون صـفته –تعـالى- مخلوقة، ثم نقول: لسنا بحاجة إلى مثل هذا التأويل السخيف البارد؛ لأن الله – تعالى- ليس كمثله شيء في صفاته، كما أنه لا مثل له في ذاته.
ومحبته – تبارك وتعالى – لعبده المـؤمن شـيء فـوق إنعـامه، وإحسـانه، وعطائه، وإثابته، فإن هذا أثر المحبة وموجبها، أما هي فأعظم من ذلك، وهي التي يتسابق إليها أنبيـاؤه وملائكتـه وأوليـاؤه، وعبـاده الصـالحون، وكـم فـي كتاب الله وسنة رسوله – من نص صريح بأنه يحب عباده المؤمنين ويحبـونه، كقوله – تعالى –{ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِـرْ لَكُـمْ

---

[151]() "الفتح" (13/357).

ذُنُوبَكُمْ} [152]، وقوله –تعالى- {اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [153]، {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ

ص 60

الْمُتَّقِينَ} [154]، {وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [155]، {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [156]، والآيات في هذا كثيرة.

و أما الأحاديث عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- التي تنص على أن الله يحب عباده المؤمنين فإحصاؤها عسير، كقوله – صلى الله عليه وسلم-:" لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله"[157]، وقوله –صلى الله عليه وسلم-: " إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي"[158].

وأما محبة العباد لربهم فعجيب إنكارها، إذ هي من الضروريات الثابتة بالشرع، والعقل، والفطرة، وإنكارها إنكار للواقع المحسوس.

كما أن تأويل المحرفين بأنها الاستقامة على الطاعة، كما ذكره المازري، أو أنها إرادتهم أن ينفعهم، كما نقله الحافظ عن ابن التين[159]، مخالف للشرع، والعقل، والواقع المحسوس، بل قد يؤول ذلك إلى إنكار أصل دين الإسلام؛ لأن مبنى دين الإسلام على شهادة لا إله إلا الله.

ومعنى الإله: المحبوب الذي تألهه القلوب، وتحبه، وتعظمه، وتجله، وتقصده بالإنابة والخضوع والذل، والافتقار إليه، والخوف منه، ورجائه.

فمن أنكر ميل القلوب إليه تعالى بالحب والتأله، فقد أنكر حقيقة الإسلام، وهل الشرك- الذي حرمت الجنة على صاحبه – إلا أن يجعل للمخلوق نصيباً مع الله –تعالى- في هذا الحب؟ كما قال –تعالى-: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ} [160].

ص 61

فبين – تعالى- أن الذي يحب المخلوق كحب الله أنه مشرك قد اتخذ لله نداً، وأخبر – تعالى- عن هؤلاء أنهم سيقولون لأندادهم وهم في النار:{تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ {97} إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [161]، ولا يجوز أن

---

[152]() الآية 31 من سورة آل عمران .
[153]() الآية 222 من سورة البقرة .
[154]() الآية 76 من سورة آل عمران .
[155]() الآية 134، 148، من سورة آل عمران ، و الآية 93 من سورة المائدة .
[156]() الآية 159 من سورة آل عمران .
[157]() رواه صاحبا "الصحيحين" ، انظر : "الفتح" (6/111) وأماكن أخرى، و "مسلم" (4/1871، 1872).
[158]() رواه مسلم في "الزهد" (4/2277) رقم (2965).
[159]() انظر : " الفتح" (13/357).
[160]() الآية 165 من سورة البقرة .
[161]() الآية 97-98 من سورة الشعراء .

تكون تسويتهم لهم برب العالمين إلا في الحب؛ لأنه لا يمكن أن يقول عاقل إن أحداً من الخلق يساوي الله –تعالى- في الفعل والتصرف.

وقول ابن التين الذي نقله الحافظ: " إن معنى محبة المخلوقين له: إرادتهم أن ينفعهم"[162] من أبطل الكلام المخالف للواقع وللشرع والعقل ولولا أن هذا مسجل في الكتب المتداولة بين المسلمين، لم يجز ذكره، وهل يوجد أحد من الخلق لا يريد أن ينفعه الله، حتى إبليس، ومن دونه من دعائم الكفر والإلحاد، من الأولين والآخرين؟ بل كلهم يريد أن ينفعهم الله، فهل يقال: إنهم يحبون الله المحبة المأمور بها شرعاً؟ ولا شك أن مثل هذا القول نتيجة نقص العلم بكلام الله وكلام رسوله، ونقص الإيمان بذلك.

"وإلا فإن من تيقن أن الله أصدق القائلين، وأن قوله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وأن قوله الفصل، ليس بالهزل، وأنه الهدى، والنور، والشفاء لما في الصدور من الجهل والشكوك، وأنه –تعالى- أعلم بنفسه وبغيره من خلقه.

وعلم أن الرسول –صلى الله عليه وسلم- أعلم الخلق بالحق، وأفصح الخلق في النطق والبيان، وأنه أنصح الخلق للخلق- من علم ذلك تيقن أنه قد اجتمع له كمال العلم بالحق، وكمال القدرة على بيانه، وكمال الإرادة له، ومع كمال العلم والقدرة والإرادة، يجب وجود المطلوب على أكمل وجه.

فيجب أن يعلم أن كلام الله ورسوله، أبلغ ما يمكن، وأتم ما يكون وأعظمه بياناً لأمور الدين، من حقوق الله وأسمائه، وصفاته، وغير ذلك.

فمن وقر هذا في قلبه لم يجرؤ على تحريف النصوص بمثل هذه التأويلات التي إذا تدبرها العاقل المنصف، وجدها أبعد شيء عن كتاب الله، وعن صفات الرسول

ص 62

-صلى الله عليه وسلم- وعلم أن من سلك هذا المسلك فإنما هو لنقص في علمه، وإيمانه بكلام الله، وكلام رسوله –صلى الله عليه وسلم-[163].

وقد علم المؤمنون أن محبة العباد لربهم هي حياة القلوب، ونعيم الروح، بل هي أعلى نعيم في الدنيا والآخرة، وهي فوق كل محبة تفترض، ولا نسبة لسائر المحاب إليها، وهي حقيقة لا إله إلا الله، وبتمامها وكمالها تتفاوت منازل العباد عند الله في الدنيا والآخرة، وقد جاء في الحديث عنه –صلى الله عليه وسلم- أنه قال:" أحبوا الله من كل قلوبكم"[164]. يعني: لا يبقى في القلب موضع لغير محبة الله تعالى.

---

[162]() "الفتح" (13/357).

[163]() "مجموع الفتاوى" (17/129) بتصرف وزيادة .

[164]() رواه ابن إسحاق في "السيرة" مختصرها لابن هشام (2/147).

وفي "الصحيحين": مرفوعاً: "ثلاث من كن فيه، وجد بهن حلاوة الإيمـان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكـره أن يقـذف فـي النار"[165].

و أصل التأله: التعبد، والتعبد هو آخر مراتـب الحـب، يقـال: عبـده الحـب وتيمه: إذا ملكه، وذللـه لمحبوبه.

فالمحبة هي حقيقة العبودية، ولا يمكـن وجـود العبـادة الـتي يريـدها اللـه ويأمر بها عباده بدونها أبداً، بل لا يوجد أي نوع مـن أنـواع العبـادة المطلوبـة شرعاً بدونها، مثل الإنابة، والخشية، والخـوف، والرجـاء، والحمـد، والشـكر، والصبر، والدعاء، والاستغاثة، والاستعانة، وغير ذلك من أنواع العبادة، فمنكر المحبـة فـي الحقيقـة منكـر لجميـع مقامـات الإيمـان والإحسـان، وهـؤلاء المحرفون مثل هذا النص في المحبة، يغالطون أنفسهم. وهذا الحديث يـدل على حسن فهم الصحابة لمعاني القرآن، حيث قالوا عن سورة الصمد: أنهـا صفة الرحمن، ووجه ذلك: أن هذه السورة تضمنت أنواع التزيه لله – تعالى- والتحميد، ونفي النقائص كلهـا، وإثبـات الكمـال جميعـه، ولهـذا عـدلت ثلـث القرآن – كما تقدمت الاشارة إليه.

ص 63

[165]() انظر : " الفتح" (1/72) ، (10/463) و "مسلم" (1/66).

(الكلام على معنى أحد وصمد)

فالصمدية تثبت الكمال المنافي لكل نقص وعيب، والأحدية تثبت الانفراد بذلك الكمال، فهي تدل على أنه – تعالى- أحد، ليس من جنس شيء من المخلوقات، " وأنه صمد ليس من مادة، بل هو صمد لم يلد ولم يولد، وإذا نفى عنه أن يكون مولوداً من مادة الوالد؛ فلأن ينفي عنه أن يكون من سائر المواد أولى وأحرى، فإن المولود من نظير مادته أكمل من المولود من مادة أخرى "[166].

وقال شيخ الإسلام:" وقد فسر السلف الصمد بأنه: الذي لا جوف له، كما فسروه: بأنه السيد الذي يصمه إليه في الحوائج؛ والأول قول أكثر السلف، من الصحابة والتابعين وطوائف من أهل اللغة، والثاني: قول جمهور أهل اللغة، وطوائف من السلف والخلف.

قال الجوهري: صمده يصمده صمداً إذا قصده، والصمد بالتحريك: السيد؛ لأنه يصمد إليه في الحوائج[167].

وقوله – تعالى -: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {1}اللَّهُ الصَّمَدُ} [168]أدخل اللام في "الصَّمَد" ولم يدخلها في "أحد" لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحداً في الإثبات مفرداً غير مضاف إلا الله –تعالى-، بخلاف النفي وما في معناه، كالشرط، والاستفهام.

قال أهل اللغة: تقول: لا أحد في الدار، ولا تقول: فيها أحد.

ص 64

و أما "الصَّمَد" فأدخل عليه الألف واللام، ليبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه، فإنه المستوجب لغايته على الكمال.

فالمخلوق وإن كان قد يطلق عليه بأنه صمد، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه، فإنه يقبل التجزئة، وهو محتاج إلى غيره، فإن كل ما سوى الله فقير محتاج إلى الله، وليس أحد يصمد كل شيء إليه [169]وهو لا يصمد إلى شيء إلا الله –تعالى-. وليس في المخلوقات شيء إلا ويقبل التجزئة، ويتفرق، وينفصل بعضه من بعض؛ والله سبحانه هو الصمد، الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة ولازمة، لا يمكن عدمها

---

[166]() "مجموع الفتاوى" (17/452) .

[167]() انظر :" الصحاح" (2/499) وتمامه :" قال:

علوته بحسام ثم قلت له : خذها حذيف فأنت السيد الصمد

وبيت مصمد –بالتشديد – أي : مقصود ".

[168]() الآيتان 1-2 من سورة الإخلاص .

[169]() الصمود هنا هو : الطلب والقصد والتوجه إلى المصمود إليه بالحاجة .

بوجه من الوجوه، كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه؛ فهو أحد لا يماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه"[170].

فقوله –تعالى-:" أحد" مع قوله: " لم يكن له كفوا أحد" ينفي المماثلة، والمشاركة.

وقوله –تعالى-:"الصمد" يتضمن إثبات جميع صفات الكمال، فالنقائص منتفية عن الله- تعالى-، وكل ما يختص له المخلوق فهو من النقائص التي تنزه ربنا عنها – جلا وعلا-.

و أما ما يوصف به العبد من بعض الكمالات، مثل العلم، والقدرة، والرحمة، ونحو ذلك، فالذي يثبت لله –تعالى- من هذه المعاني يكون على وجه لا يقاربه فيه أحد من الخلق، فضلاً عن أن يماثله فيه.

وقد ثبت أن ما خلقه الله في الجنة من المآكل وغيرها، لا يماثل ما خلقه في الدنيا، وإن اتفقا في الاسم، مع أن كليهما مخلوق، فالخالق- تعالى وتقدس-، أبعد عن مماثلة المخلوقات.

والمعنى الصحيح الذي هو نفي المثل، والشريك، والند، قد دل عليه قوله- سبحانه-: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [171]، وقوله: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [172].

ص 65

وقوله-تعالى-: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [173]، وأمثال ذلك، فالمعاني الصحيحة لصفات الله نفياً وإثباتاً، ثابتة بالكتاب والسنة، والعقل يدل على ذلك. وقول بعض أهل الكلام: الأحد، والصمد، هو الذي لا ينقسم، ولا يتفرق، أو ليس بمركب، ونحو ذلك من العبارات، إن عني بها أنه لا يقبل التفرق والانقسام فهو حق، وإن عني بها أنه لا يشار إليه بحال، فهذا يمتنع وجوده، وإنما يقدر وجوده في الذهن تقديراً.

وقد علمنا أن العرب حين أطلقوا لفظ الواحد والأحد، نفياً وإثباتاً، لم يريدوا هذا المعنى.

ولهذا لما قالوا الذين جادلوا الإمام أحمد، في نفي الصفات-مستدلين باسم الواحد-: لا تكونون موحدين أبداً حتى تقولوا: كان الله ولا شيء.

قال أحمد: "قلنا: نحن نقول: كان الله ولا شيء، ولكن إذا قلنا: إن الله لم يزل بصفاته كلها، أليس إنما نصف إلهاً واحداً؟

---

[170]() "مجموع الفتاوى" (17/237) ملخصاً.

[171]() الآية 4 من سورة الإخلاص .

[172]() الآية 1 من سورة الإخلاص .

[173]()الآية 65 من سورة مريم.

وضربنا لهم في ذلك مثلاً، فقلنا: أخبرونا عن هذه النخلة، أليس لها جـذع، وكرب، وليف، وسعف، وخوص، وجمار؟ واسمها شيء واحـد؟ سـميت نخلـة بجميع صفاتها؟ فكذلك الله-وله المثل الأعلى- بجميع صفاته إله واحد.

ولا نقول: إنه كان في وقت من الأوقات ولا قدرة له، حـتى خلـق لنفسـه قدرة، أو كان ولا علم له، حتى خلق له علمـاً، ولكـن نقـول: لـم يـزل عالمـاً، قادراً، مالكاً، لا متى، ولا كيف" انتهى[174].

وقال أيضاً: "ودل قـوله-تعـالى-: {قُـلْ هُـوَ اللَّـهُ أَحَـدٌ {1}اللَّـهُ الصَّـمَدُ} [175]على أنه لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ولهذا فسر الصـمد بـأنه الذي لم يلد، ولم يولد.

ص 66

فإن الصمد: هو الذي لا جوف لـه، ولا أحشـاء، فلا يـدخل فيـه شـيء؛ فلا يأكل ولا يشرب، كما قال –تعالى-: {وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ} [176]، وفي قراءة بفتح الياء الأخيرة".

وفسر بعـض السـلف "الصـمد" بـأنه الـذي لا يخـرج منـه شـيء، وليـس مرادهم أنه لا يتكلم، فإنه يقال في الكلام: خرج منـه، كمـا فـي الحـديث:"مـا تقرب العباد إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه" انتهى[177].

ودل الحديث على استحباب قراءة الآيات التي تشتمل على صـفات اللـه تعـالى، خلافـاً للمبتدعـة الـذين يكرهـون آيـات الصـفات عنـد العامـة، وفيـه التصريح بأن الله يحب ذلك ويحب من يحبه.

ص 67

---

[174]()"مجموع الفتاوى" (17/449)،وانظر: رد الإمام أحمد، في "مجموع عقائد السلف" (ص 91).

[175]() الآيتان 1-2من سورة الإخلاص.

[176]()الآية 14من سورة الأنعام.

[177]()المصدر السابق، والحديث خرجه الترمذي (4/249)، وعبد الله ابن الإمام أحمد في "السنة" (ص 20).

"باب قوله –تعالى-: {قُلِ ادْعُواْ اللّـهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [178]".

قال الطبري-رحمه الله تعالى-: "يقول –تعالى ذكره- لنبيه:قل يا محمد لمشركي قومك المنكرين دعاء الرحمن: {ادْعُواْ اللّـهَ} أيها القوم، {أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} بأي أسمائه-جل جلاله- تدعون ربكم فإنما تدعون واحداً، وله الأسماء الحسنى، وإنما قيل ذلك له- صلى الله عليه وسلم – لأن المشركين،فيما ذكر- سمعوا النبي-صلى الله عليه وسلم – يدعو ربه: يا ربنا الله، ويا ربنا الرحمن، فظنوا أنه يدعو إلهين، فأنزل الله الآية، ثم روي ذلك عن ابن عباس، وعن مكحول"[179].

قال ابن حجر: "كأنه لمح في هذه الترجمة بهذه الآية إلى ما ورد في سبب نزولها، وهو ما أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف، عن ابن عباس: أن المشركين سمعوا رسول الله-صلى الله عليه وسلم – يدعو: يا الله، يا رحمن، فقالوا: كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد، وهو يدعو إلهين. فنزلت، وأخرج عن عائشة بسند آخر نحوه"[180].

قلت: يظهر لي أن مقصود البخاري-رحمه الله- بالترجمة بهذه الآية، بيان اختصاص الله-تبارك وتعالى- بالأسماء الحسنى، وأن أسماءه كاملة المعاني، لا يلحقها نقص، أو عيب، وأن اتصاف المخلوق ببعض ما يتصف الرب تعالى به من المعاني، لا يلزم منه نقص أو عيب في أسمائه وصفاته- تعالى- لأنها حسنى كاملة تناسب عظمته، فلا يتوهم أن في ذلك تشبيهاً كما يتزعمه أهل البدع الذين ظنوا أن مجرد المشاركة في الاسم أو المعاني يفيد التشبيه، فنفوا صفات الله-تعالى- من أجل ذلك.

وأما المخلوق فأسماؤه وصفاته ليست حسنى، ولا كاملة، فهي تناسب ضعفه وعجزه، والذي يوضح مراد البخاري بذلك الحديثان اللذان ذكرهما"لا يرحم من لا يرحم الناس"، وفي الآخر "إنما يرحم الله من عباده الرحماء"، فإذا كان المخلوق يرحم، ويسمى رحيماً، والله-تعالى- يرحم ويسمى رحيماً، فليس ما

ص 68

يخص الله- تعالى- من هذا الاسم أو الفعل مماثلاً أو مقارباً لما يخص المخلوق، فلا يجوز تأويل أو نفي رحمة الله-تعالى- وغيرها من صفاته، من أجل توهم أن مجرد المشاركة في المعنى يلزم منها التشبيه، والله أعلم.

---

[178]()الآية 110من سورة الإسراء.
[179]()"تفسير الطبري" (15/182).
[180]()"الفتح" (13/360).

قال ابن القيم: "أسماؤه-تعالى- كلها مـدح وثنـاء وتمجيـد، ولـذلك كـانت حسنى وصفاته كلها صفات كمال"[181].

وما ذكره بعض الشراح: مم أن البخاري ذكر هـذا البـاب ليكـون كالأصـل لما بعده مـن الأبـواب، ومـا بعـده كـالفرع عليـه، وقـال: إنـه قصـد الاسـمين المذكورين في الآية، وهما "الله"، "والرحمن"؛ لأنهما خاصـان بـالله-تعـالى-، فليس بظاهر، وهذان الاسمان جاء ذكرهما كـثيراً فيمـا بعـد، والظـاهر لـي – والله أعلم- ما أشرت إليه فيما سبق قبل قليل، يوضح ذلك ما جاء في سـبب النزول كما قال الحافظ، "والرحمن" يـأتي تابعـاً "للـه" كغيـره مـن الأسـماء الحسنى.

فهو أراد بهذا الباب ما دلت عليه الآيات الأخرى كقوله-تعالى-: {هُـوَ اللَّـهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْـمَاء الْحُسْـنَى} [182]، وقـوله: {وَلِلّـهِ الأَسْـمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [183]، وقوله: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْـمَاء الْحُسْـنَى} [184].

---

[181]() "مدارج السالكين" (1/125).

[182]()الآية 24 من سورة الحشر.

[183]()الآية 180 من سورة الأعراف.

[184]()الآية 8 من سورة طه.

ص 69
6- قال: "حدثنا محمد، أخبرنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، وأبي ظبيان، عن جرير بن عبد الله، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم -: "لا يرحم الله من لا يرحم الناس".
جرير هو: أبو عمرو، جرير بن عبد الله بن جابر البجلي، الأحمسي، وأحمس بطن من بجيلة، وبجيلة وخثعم أخوان، وهما من قحطان، وقيل: من ربيعة بن نزار.
قدم جرير على النبي-صلى الله عليه وسلم – في آخر حياته، فبشر به أصحابه، وبسط له رداءه.
وكان –رضي الله عنه- صادق الإيمان، صادعاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان يقول كما في "الصحيحين"، وغيرهما: "بايعت النبي-صلى الله عليه وسلم – على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم"[185].
وبعثه النبي-صلى الله عليه وسلم – لهدم ذي الخلصة، وهو صنم كبير كان لدوس، فهدمه.
ودعا له النبي-صلى الله عليه وسلم – ولخيل أحمس ورجالها.
وكان حسن الوجه، حيث كان يقال له: يوسف هذه الأمة، وكان طويلاً إذا ركب الفرس تكاد تخط رجلاه في الأرض.
نزل الكوفة، فأرسله علي رسولاً إلى معاوية، ثم اعتزل الحروب بينهما وتحول إلى جزيرة ابن عمر، توفى بقرقيسيا سنة إحدى وخمسين، وقيل: بعدها، -رضي الله عنه-[186].
"قوله: "لا يرحم الله من لا يرحم الناس" في رواية لمسلم: "من لا يرحم الناس، لا يرحمه الله".
وعند الطبراني: "من لا يرحم من في الأرض، لا يرحمه من في السماء" ورواته ثقات.
ولأبي داود، والترمذي، والحاكم: "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".
وفي الطبري: "من لا يرحم المسلمين لم يرحمه الله"[187].
ص 70
قلت: ومعنى هذه الروايات واحد، ففي هذه الأحاديث وأمثالها كثير، دليل على أن الرحمة صفة تقوم بمن يشاء الله من عباده، الذين يريد-جل وعلا- رحمتهم، وتتخلف عن الأشقياء، الذين لا يرحمهم الله –تعالى-.

---

[185]()انظر" الفتح" (1/137) وغيره، و"مسلم" (1/75) في "الإيمان" رقم (56).
[186]()انظر: "أسد الغابة" (/333)، و"الاستيعاب" (1/236)، و"الإصابة" (1/475)، و"سير أعلام النبلاء" (2/530).
[187]()"الفتح" (10/440).

وقد روى البخاري في " الأدب المفرد"، من حديث أبي هريرة، أن النبي- صلى الله عليه وسلم – قال: " لا تنزع الرحمة إلا من شقي"[188].

وقد علم من دين الرسل، وكتب الله تعالى، أن الله متصف بالرحمة، وليست رحمته ثوابه وجزاءه، كما يقوله أهل التحريف والمؤولة، من الأشعرية وغيرهم.

وقد قال الله-تعالى-: {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [189].

فعطف الرحمة على الفضل يدل على المغايرة، وفضل الله-تعالى- الذي هو الثواب والجزاء-مخلوق، ليس من صفات الله – تعالى- القائمة به، وإن كان الفضل في الآية غير متعين إرادة الثواب به، بل يجوز أن يراد به التفضل الذي هو فعل الله –تعالى-.

وإذا كان الإجماع حاصلاً بين الأمة، بأن الله - تبارك وتعالى- ليس كمثله شيء في ذاته المقدسة، فيجب أن تكون صفاته كصفات خلقه؛ لأن الصفة تتبع الموصوف، فصفات الله-تعالى- من الرحمة، والرضا، والغضب، وغير ذلك، تليق بعظمته، وتناسبه، وصفة المخلوق من ذلك وغيره تليق بضعفه، وعجزه وفقره.

و إن من الضلال، والبعد عن كتاب الله، وهدي رسوله، وسبيل المؤمنين حقاً، نفي صفات الله –تعالى- وتعطيله منها اعتلالاً بأنها تفيد التشبيه؛ لأن المخلوق

ص 71

يوصف بتلك الصفات، وهل هذا إلا مثل من يقول: أنا لا أقر بوجود الله- تعالى- لأن المخلوق موجود؟

وقد تقدمت الإشارة إلى أن مجرد الاشتراك في الاسم أو في المعاني العامة لا يقتضي تشبيهاً، وسيأتي لذلك مزيد إن شاء الله- تعالى-.

---

[188]()انظر: "الأدب المفرد" (ص 136)، قال محققه : أخرجه الترمذي (25)، كتاب البر والصلة (16) بابك ما جاء في رحمة المسلمين، و أبو داود، كتاب الأدب(58)، باب في الرحمة، و أحمد في " المسند" رقم(7988، 9700، 9941، 9946، 1064) وغيرهم، وسنده صحيح.

[189]()الآية 58من سورة يونس.

ص 72
7- قال: حدثنا أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم الأحول، عن أبي عثمان النهدي، عن أسامة بن زيد، قال: كنا عند النبي –صلى الله عليه وسلم – إذ جاءه رسول إحدى بناته تدعوه إلى ابنها في الموت، فقال النبي- صلى الله عليه وسلم -: "ارجع فأخبرها، أن لله أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر، ولتحتسب".
فأعادت إليه الرسول، أنها أقسمت لتأتينها، فقال النبي-صلى الله عليه وسلم – وقام معه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، فدفع الصبي إليه، ونفسه تقعقع كأنها في شن، ففاضت عيناه، فقال له سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: "هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء".
أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل، الكلبي،حب رسول الله-صلى الله عليه وسلم – وابن حبه ومولاه، وابن مولاته أم أيمن.
أمره رسول الله-صلى الله عليه وسلم – على جيش فيه كبار المهاجرين، والأنصار، منهم أبو بكر وعمر، وقال فيه –صلى الله عليه وسلم -: "وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة"[190].
وفي البخاري، وغيره أنه –صلى الله عليه وسلم – قال له، وللحسن: "اللهم إني أحبهما، فأحبهما"[191].
وزوجه فاطمة بنت قيس- وهو ابن خمس عشرة سنة، وتوفي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو ابن تسع عشرة سنة، وفضله عمر- رضي الله عنهما- في العطاء على ابنه عبد الله، وحين راجعه قال له: إنه أحب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم – منك.
واعتزل الحروب بين أهل الشام وأهل العراق، ومات بوادي القرى سنة أربع وخمسين، وقيل غير ذلك[192].
قوله: "إحدى بناته" قال الحافظ: "هي زينب، كما جاء في "مصنف ابن أبي شيبة"[193].
ص 73
قلت: يشير إلى ما رواه ابن أبي شيبة بالسند المذكور هنا، قال: "دمعت عين رسول الله-صلى الله عليه وسلم – حين أتي بابنة زينب، ونفسها تقعقع

---

[190]()أخرجه البخاري في مواضع من "الصحيح"، انظر: "الفتح" (7/498، 86) و (11/521).
[191]()انظر: "الفتح" 7/88، 94) و (10/434).
[192]()انظر: "الإصابة" (1/49) تحقيق البجاوي، و"سير أعلام النبلاء" (2/496) وغيرها.
[193]()انظر: "الفتح" (3/156).

كأنها في شن، قال: فبكى، قال: فقال له رجل: تبكي وقد نهيت عن البكاء..." فذكر بقية الحديث كما ذكره البخاري[194].

ثم قال الحافظ: "ووجدت في الأنساب للبلاذري، أن عبد الله بن عثمان بن عفان من رقية بنت النبي-صلى الله عليه وسلم – لما مات، وضعه النبي –صلى الله عليه وسلم – في حجره وقال: "إنما يرحم الله من عباده الرحماء".

وفي "مسند البزار"، عن أبي هريرة، قال: ثقل ابن فاطمة، فبعث إلى النبي-صلى الله عليه وسلم - ... فذكر نحو الحديث المذكور هنا، فعلى هذا، فالابن هو محسن بن على بن أبي طالب، وقد اتفق أهل العلم بالأخبار أنه مات صغيراً، في حياة النبي-صلى الله عليه وسلم -، فهذا أولى أن يفسر به الابن، لكن الصواب أن المرسلة؛ زينب، وأن الولد صبية، كما ثبت في "مسند أحمد" بالسند المذكور، ولفظه: "أتي النبي- صلى الله عليه وسلم- بأمامة بنت زينب، ونفسها تقعقع كأنها في شن ..." وذكر بقية الحديث[195].ومثله في "معجم الطبراني"، وقد شفاها الله- تعالى- فعاشت زمناً بعد وفاة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتزوجها علي ابن أبي طالب، بعد وفاة فاطمة، وقتل وهي عنده، -رضي الله عنهم- جميعاً"[196].

قوله: "إن لله ما أخذ، وله ما أعطى"، قال النووي-رحمه الله-: "هذا أحسن ما يعزى به" ثم قال:" وهذا الحديث من أعظم قواعد الإسلام؛ لاشتماله على مهمات كثيرة من أصول الدين، وفروعه، والآداب، والصبر على النوازل كلها، والهموم، والأسقام وغير ذلك، ومعنى قوله: "إن لله ما أخذ" أن العالم كله ملك لله –تعالى-، فلم يأخذ ما هو لكم، بل أخذ ما هو له عندكم، في معنى العارية.

ومعنى: "وله ما أعطى" أن ما وهبه لكم ليس خارجاً عن ملكه، بل هو له يفعل فيه ما يشاء، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلا تجزعوا فإن من قبض فقد

انقضى أجله المسمى، فمحال تأخره أو تقدمه عنه، فاعلموا ذلك، واصبروا، واحتسبوا ما نزل بكم"[197].

وقوله: "وكل شيء عنده بأجل مسمى" من فقد محبوب، أو حصول مرغوب، وتصرف في هذا الكون الذي هو بأسه ملك لله يفعل فيه ما يريد، وأجل المسمى: هو المقدر بوقت معين لا يتأخر عنه، ولا يتقدم.

---

[194]()انظر: "مصنف ابن أبي شيبة" (3/392).
[195]()انظر: "المسند " (5/204).
[196]()"الفتح" (3/156).
[197]()انظر: "الأذكار" (ص 212-213).

وفي هذه الجملة من الحديث دليل واضح على أن الله تعالى قدر كل شيء وكتبه، وعلم وقته وحاله، وأن الحوادث كلها تقع على تقدير دقيق، لا تتأخر عن ذلك لحظة ولا تتقدم، وهذا أصل عظيم من أصول الدين الإسلامي، يجب أن يعلم. والإيمان به من أركان الدين لابد منه، والأدلة عليه من الكتاب والسنة كثيرة.

قوله: "فلتصبر، ولتحتسب" الصبر: حبس النفس عن الجزع، والتسخط، وحبس الجوارح عما نهى عنه الشرع من شق الثياب، وخمش الوجوه ولطمها، والكلام الذي ينافي التسليم لرب العالمين، وما أشبه ذلك مما يدل على تسخط الأقدار، والاعتراض على القضاء الذي قضاه الله قبل وجود الخلق.

والاحتساب: هو نية طلب الثواب من الله على الإيمان بالقدر، والتسليم لأمر الله –تعالى-، والإيمان بوعد الله –تعالى-، فإنه وعد على الصبر الجزاء.

قال ابن القيم: "حقيقة الصبر: أنه خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن، ولا يجمل"[198].

قوله: "فأعادت إليه الرسول، أنها أقسمت لتأتينها" جاء في بعض الروايات أنها راجعته ثلاث مرات، وإنما ذهب إليها بعد الثالثة.

والحامل لها ما علمت من أن حضور النبي –صلى الله عليه وسلم – فيه الخير والبركة، وأنه يتوقع أن يرفع الله ببركة دعائه وحضوره ما هي فيه وابنتها من ألم وتوجع، وقد حقق الله – تعالى – أملها ورغبتها، فشفا مريضها كما سبق.

ص 75

ولا يعترض على هذا أن القدر لابد من وقوعه، فكيف يتخلف من أجل الدعاء أو غيره، فإن الله تعالى جعل لكل شيء سبباً، ورتب المسببات على أسبابها، فقدر أن هذا الشيء يقع في وقت معين مع سببه، فالدعاء المأمور به لا يلزم أن يكون قدراً مكتوباً، بل إذا أمر الله عباده بالدعاء، فمنهم من يطيعه فيستجيب له دعاءه إن شاء الله أو يمن عليه بما طلبه، فيدل ذلك على أن المعلوم لله –تعالى- المقدر له هو الدعاء والإجابة.

ومنهم من يعصي أمر الله تعالى فلا يدعو، فلا يحصل ما علق على الدعاء، فيدل على أن المعلوم لله- تعالى – المقدر: عدم الدعاء وما رتب عليه من الإجابة.

فما يحصل بالدعاء قدر الله حصوله بالدعاء لا بدونه، وهو-جل وعلا- يبتلي خلقه بالمصائب، تأديباً لهم، وتكفيراً لذنوبهم، رحمة منه بهم.

---

[198]()"عدة الصابرين" (ص 12).

قوله: "ونفسه تقعقع كأنها في شن" القعقعة: صوت الشيء اليابس الجاف الخفيف إذا حرك، يعني بذلك: صوت نفسه عند صعوده ونزوله في صدره من شدة الألم.
والشن: بفتح الشين وتشديد النون: القربة الخلقة اليابسة.
قوله: "ففاضت عيناه"أي ذرفت عينا رسول الله –صلى الله عليه وسلم – بالدموع رحمة لهذا الضعيف، وتوجعاً لما نزل به من ألم شديد.
"فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟" كان –صلى الله عليه وسلم – ينهى عن البكاء على الميت، فظن سعد-رضي الله عنه- وغيره أن النهي يدخل فيه دمع العين، وحزن القلب، فبين لهم النبي –صلى الله عليه وسلم – أن المنهي عنه هو التسخط من المقدور، ودعوى الجاهلية من العويل والنوح، وتعداد محاسن الميت، وما أشبه ذلك من لطم الوجه وشق الثياب ونحوه، مما يدل على السخط من الواقع، وعدم الصبر.
وأما دمع العين وحزن القلب، فهو من الرحمة للضعفاء التي هي سبب رحمة أرحم الراحمين-جل وعلا-.
قوله: "هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده" أي " الدمع الذي رأيته من أثر الرحمة التي جعلها الله – تعالى – في قلوب عباده، الذين أراد -تعالى –رحمتهم؛ لأن الجزاء من جنس العمل، والإضافة هنا خاصة، أي الذين عبدوه باتباع أمره، واجتناب نهيه، وقد تكون عامة، فإن الكافر قد يرحم الصغير، فيبكي عليه رحمة.
ص 76
قوله: "إنما يرحم الله من عباده الرحماء" أي: رحمة الله-تعالى- للمحسنين إلى عباده برحمتهم، والرحماء من صيغ المبالغة، ولهذا قال بعض الشراح: "المعنى: أن الله –تعالى- لا يرحم من عباده إلا كثير الرحمة، فالرحماء جمع رحيم، وهو من صيغ المبالغة"[199].
قلت: هذا الحصر لا ينبغي، وإن كان التركيب في الحديث يفيده، ولكن فيما يظهر لي-والله أعلم- أنه غير مقصود؛ للأدلة على أن رحمة الله وسعت كل شيء، وإنما المقصود هنا رحمة خاصة بمن هذه صفتهم.
وهذا القدر من الحديث هو محل الشاهد الذي سيق الحديث من أجله، مع قوله "هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده" وذلك أن القدر المشترك بين أسماء الله –تعالى- وصفاته، وبين أسماء المخلوقين وصفاتهم في اللفظ والمعنى لا يقتضي المشابهة؛ لأن أسماء الله –تعالى- حسنى، لا يلحقها نقص، ولا عيب، بخلاف أسماء المخلوقين-و إن كان منها الحسن- فليست بحسنى، ولأن الصفات تابعة للموصوف، وكذلك الأسماء، فالرحمة

---

[199]()"المنهل العذب المورود" (8/277).

اسمه-تعالى-، والرحمة صفته، والمخلوق يتصف بالرحمة التي يرحم بها، وهي تابعة له في الخلق والمعنى، فهي مخلوقة فيه؛ لأنه مخلوق فصفاته مخلوقة، وهو ضعيف فقير محتاج، وصفاته تناسبه في ذلك مع أنه يسمى "رحيماً" و"راحماً" والله-تعالى موصوف بالرحمة ويسمى "رحيماً"، ولا يكون في ذلك تشبيه؛ لأن المخلوق اسمه وصفته يختص به، والله-تعالى- اسمه وصفته يختصان به، فرحمة الله صفه له عليا، صفة الكمال، وسالمة من كل نقص أو عيب يمكن أن يلحق المخلوق، فليست رحمته-تعالى- عن ضعف أو عجز، بل عن كمال فضله وإحسانه، ولا يجوز أن تؤول بالثواب أو العطاء، أو إرادة ذلك، وما أشبهه مما يقوله أهل التأويل، كما ذكر الحافظ ابن حجر عن شراح البخاري وغيرهم، كقول ابن بطال:"إن المراد برحمته: إرادته تقع لمن سبق في علمه أنه ينفعه، وأما الرحمة التي جعلها في قلوب عباده، فهي من صفات الفعل[200]=

ص 77

وصفها بأنه خلقها في قلوب عباده، وهي رقة على المرحوم، وهو سبحانه منزه عن الوصف بذلك، فتتأول بما يليق به"[201].

وذكر من هذا النوع أشياء تخالف نصوص كتاب الله، ونصوص سنة رسوله،صلى الله عليه وسلم – كما هي عادته؛ لأنه- عفا الله عنا وعنه- على المذهب الأشعري الذي يعتمد على تأويل صفات رب العالمين، وإن كان أحياناً يذكر مذهب السلف فيما ينقله، ولكنه لا يتبناه، بل يخلط بينه وبين ما يخالفه.

وهذا المذهب- أعني مذهب الأشعرية الذي عليه أكثر المتأخرين- مخالف لما عليه رسل الله صلى الله عليهم وسلم، ومخالف لكتبه، ولما عليه أتباع الرسل، كما أعترف بذلك بعض كبار علماء هذا المذهب، كالفخر الرازي، والجويني، والغزالي، والشهرستاني، وغيرهم، كما يأتي ذكر ذلك، إن شاء الله-تعالى-.

وهكذا تبرر الأشعرية تأويل صفات رب العالمين بما تعرفه من صفات المخلوقين، فكأنهم لم يعرفوا من الرحمة إلا أنها العطف والرقة على المرحوم، ولا من الغضب إلا أنه غليان دم القلب ثم طلب الانتقام، وما أشبه ذلك، ولهذا لجأوا إلى التحريف الذي يسمونه تأويلاً، وجعلوه واجباً ضرورياً، حتى لا يلزم التشبيه، فيسلم المسلم من التشبيه والتجسيم على ما زعموا.

هذا مع أنهم ينكرون على الفلاسفة تأويلهم نصوص المعاد، وعلى الباطنية تأويلهم الشرائع أشد الإنكار، فما الذي سوغ لهم تأويل نصوص

---

[200]()صفات الفعل عند الأشعرية: ما فعله-تعالى- منفصلاً عنه- يعني مخلوقاته التي وجدت بصفة الخلق-وليس هناك اشتباه بين ما يسميه ابن بطال صفات فعل، وبين صفات الله، حتى يلزم ما ذكره.

[201]()"الفتح" (13/358).

الصفات مع كثرتها ووضوحها؟ وما ادعوه أن العقل يوجب ذلك، بإمكان كل مبطل أن يدعيه.

فليس هناك عاصم من الضلال، إلا الوقوف مع نصوص كتاب الله وسنة رسوله-صلى الله عليه وسلم -، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في المقدمة.

قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن على بن المرتضى اليماني-رحمه الله تعالى-:"الأمر الثاني: وهو النقص في الدين، برد النصوص والظواهر، ورد حقائقها إلى المجاز، من غير حجة قاطعة، تدل على ثبوت الموجب للتأويل، إلا مجرد التقليد لبعض أهل الكلام في قواعد لم يتفقوا عليها، وأفحش ذلك مذهب القرامطة الباطنية في تأويل الأسماء الحسنى كلها، وفيها عن الله-تعالى-، على سبيل التنزيه

ص 78

له عنها، وتحقيق التوحيد بذلك، ودعوى أن إطلاقها يقتضي التشبيه، حتى قالوا: لا يقال" إنه موجود، ولا معدوم.

فكما أن كل مسلم يعلم أن هذا كفر صريح، فكذلك المحدث الذي طالت مطالعته للآثار، وقد يعلم أن تأويل بعض المتكلمين مثل ذلك.

ومن الضروري ورود أسماء الله الحسنى في كتابه على سبيل التمدح بها والثناء العظيم عليه بها، ألا ترى-مثلاً- أن الرحمن الرحيم متلوان في جميع الصلوات، مذكوران في أكثر محافل المسلمين، مجمعين على أنهما أحسن الثناء على الله- تعالى- متقربين إلى الله-تعالى- بمدحه بهما؟

وكرر-تعالى- التمدح بالرحمة في كتابه أكثر من خمسمائة مرة، باسم الرحمن أكثر من مائة وستين مرة، وباسمه الرحيم أكثر من مائتي مرة، وجمعهما مائة وستين مرة. وجاء الرحيم مقترناً مع التواب مراراً، ومراراً مع الرؤوف، والرأفة أشد الرحمة، مراراً مع الغفور، وهي كثيرة، عرفت منها سبعة وستين موضعاً.

وقد فطر الله العقول على معرفة رحمة الله، وسعة علمه، وكمال قدرته.

فما هو المانع من إثبات صفة الرحمة ونحوها مما أثبته الله ورسوله، مع نفي النقائص المتعلقة بصفات المخلوقين في حياتهم، وكذلك كل صفة يتصف بها الرب-تعالى- ويوصف بها العبد. فإنه –جل وعلا- يوصف بها على أكمل وجه، خالية عن جميع النقائص، والعبد يوصف بها على ما يناسبه، من نقص وضعف، وبهذا فسر أهل السنة نفي التشبيه، ولم يفسروه بنفي الصفات كما فعل المعطلة.

ومما يدل على بطلان التأويل: كون المعتزلة يسخرون من تأويل الأشعرية للحكيم، والأشعرية تسخر من تأويل بعض المعتزلة للسميع البصير،

وأهل السنة يسخرون من تأويل الفريقين للرحمن الرحيم، وما أشبههما، والكل يسخر من تأويل القرامطة. فيجب إثبات ما وصف الله به ذاته الكريمة، من غير تأويل، ولا تعطيل.

ولا يجوز القول بأن ظاهر هذه الأسماء كفر، وضلال، وأن الصحابة والسلف الصالح لم يفهموا ذلك، أو أنهم فهموه ولم يقوموا بالواجب من نصح المسلمين وبيان التأويل الحق؛ لأمرين:

ص 79

الأول: قاطع ضروري، وهو أن العادة توجب أن ما كان كذلك أن يظهر التحذير منه، من رسول الله-صلى الله عليه وسلم – ومن أصحابه، ويتواتر أعظم من تحذيرهم من الدجال الكذاب، ولا يجوز-مع كمال عقولهم وأديانهم- أن يتركوا صبيانهم ونساءهم وعامتهم يسمعون ما ظاهره كفر، منسوباً إلى الله- تعالى- ورسوله ويسكتون عليه، مع بلادة الأكثرين.

ولو تركوا بيان ذلك، ثقة بنظر العقول الدقيق، لتركوا التحذير من فتنة الدجال، فإن بطلان ربوبيته أظهر في العقول من ذلك، ألا ترى أن المتكلمين لما اعتقدوا قبح هذه الظواهر، تواتر عنهم التحذير عنها، وتأويلها، فصنفوا في ذلك، وأيقظوا الغافلين، وعلموا الجاهلين، وكفروا المخالفين، وأشاعوا ذلك بين المسلمين، بل بين العالمين، فكان أحق منهم بذلك سيد المرسلين وقدماء السابقين، وأنصار الدين، لو كان ذلك حقاً.

الثاني: أنه ثبت تحريم الزيادة في الدين، فلا يصح سكوت الشرع عن النص على ما يحتاج إليه، من مهمات الدين، فالإسلام متبع، لا مخترع، ولذلك كفر من أنكر شيئاً من أركان الدين؛ لأنها معلومة ضرورة، فأولى وأحرى أن لا يجيء الشرع بالباطل منطوقاً متكرراً من غير تنبيه على ذلك، لاسيما إذا كان ما سموه باطلاً، هو المعروف في جميع كتب الله، ولم يأت ما يعارضه من طريق شرعي، ولا عقلي، حتى يجب التأويل.

وكثير منهم يزعم أنه ما جاء التصريح بالحق في آية واحدة تكون هي المحكمة التي رد إليها جميع المتشابه، والله-تعالى- ذكر أنه أنزل في كتابه آيات محكمات، ترد إليها المتشابهات، ولم يذكر أن جميع كتابه متشابه، فبطل ما يقولون.

وقد اعترف الرازي- في كتابه "الأربعين"[202]- وهو من أكبر خصوم أهل السنة- أن جميع الكتب السماوية جاءت بصفات الله –تعالى- ولم ينص الله- تعالى- في آية واحدة على أنه منزه عن الوصف بالرحمة والحلم والحكمة، وما أشبه ذلك. والأمر ظاهر وإن لم يعترف به، وهذه الكتب السماوية موجودة.

---

[202]()كتاب "الأربعين في أصول الدين في علم الكلام" .

ص 80

وهبك تقول: هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء"[203]

قلت: دعوى المجاز في اسمه –تعالى- "الرحمن" وغيره من الأسماء الحسنى، من أبطل الدعاوى؛ لأن ذلك يتضمن إنكار حقيقة صفة الرحمة، وهو أعظم من إنكار الكفار لاسمه تعالى "الرحمن"، كما ذكر الله –تعالى- عنهم ذلك، قال –تعالى-: {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} [204].

وقال –تعالى-: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ} [205].

فهؤلاء الذين كفروا بالرحمن، وأنكروه، لم يكفروا بذاته-تعالى- وربوبيته، ولم ينكروا ما يدعيه المؤولة أن معنى اسمه الرحمن هو الإحسان والإنعام إلى خلقه، وإنما أنكروا اسمه-تعالى- "الرحمن" أن يسمى به.

وإنكار صفة الرحمة أعظم من إنكار الاسم، وهو من أعظم الإلحاد في أسمائه –تعالى-؛ لأن وضع الاسم مقصود به الدلالة على المعنى المراد منه، وهو الرحمة، كما هو معلوم في جميع أسمائه تعالى.

وتعليلهم لنفي الرحمة عن الله-تعالى- بأنها رقة القلب التي تحمل الميل إلى المرحوم.

جوابه: أن هذه رحمة المخلوق، ووصفه، وأما رب العالمين، فليس كمثله شيء في ذاته وصفاته، فليست رحمته-تعالى- من جنس رحمة خلقه-جل وعلا-.

ومما يعجب منه أن أهل التأويل[206] يجعلون الرحمة بالنسبة للمخلوق حقيقة، وبالنسبة لله-تعالى- مجازاً، فكيف تكون رحمة أرحم الراحمين التي وسعت كل شيء مجازاً، ورحمة المخلوق الضعيف حقيقة؟

ص 81

وكل العقلاء يدركون آثار رحمة الله –تعالى- في الخلق، كما يدركون آثار ربوبيته أو أعظم، وهذا من أظهر الأشياء وأوضحها.

ومعلوم أن الأسماء التي تسمى الرب –تعالى- بها –وهي كلها حسنى- لها معان يستدل بها عليها؛ لأنها مشتقة من تلك المعاني، وهذه المعاني هي الصفات، وليست أسماؤه تعالى مجرد أعلام، فالرحمن يدل على الرحمة، والعليم يدل على العلم، والحكيم يدل على الحكمة، وهكذا جميع أسمائه تعالى.

---

[203]() " إيثار الحق على الخلق"، بتلخيص وتصرف (ص 129-139).

[204]()الآية 30 من سورة الرعد.

[205]()الآية 60 من سورة الفرقان.

[206]()أقصد الذين يؤولون الصفات كما هي طريقة أكثر الأشعرية.

ص 82
قال: باب قول الله-تعالى-: (أنا الرزاق ذو القوة المتين).
8- "حدثنا عبدان، عن أبي حمزة، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال النبي-صلى الله عليه وسلم -: "ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يدعون له الولد، ثم يعافيهم، ويرزقهم".
أبو موسى الأشعري: هو عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري.
وأمه ظبية بنت وهب بن عك، هاجر إلى الحبشة قديماً، ثم قدم على النبي-صلى الله عليه وسلم – في خيبر، مع جعفر وأصحابه، وهو من سادات الصحابة وعلمائهم، عرف بالشجاعة والاجتهاد في طلب الخير، وكان قارئاً حسن الصوت، حتى قال فيه النبي-صلى الله عليه وسلم -:"لقد أعطي مزماراً من مزامير آل داود"[207]
توفي –رضي الله عنه- بمكة، وقيل: بالكوفة، سنة اثنتين، أو أربع وأربعين، عن ثلاث وستين سنة[208].
أما الآية فهكذا قرأها ابن مسعود، وقال: إنه أقرأه إياها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كما رواه الإمام أحمد بسند صحيح[209]، وأبو داود، والنسائي، والترمذي، وقال: حسن صحيح[210].
وهذه الآية مرتبطة بالآية قبلها في المعنى، وهي قوله-تعالى-: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ {56}مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ {57}إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [211]، والمعنى: أنه – تعالى- خلق العباد ليعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، فمن أطاعه في ذلك جازاه أتم الجزاء وأحسنه، ومن أبى وعصاه عذبه أشد العذاب.
ص 83
وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم"[212].
فهو-جل وعلا- لم يخلقهم ليستعين بهم أو ليقوى بهم، كما يقصد السادة من عبيدهم.
قوله: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} هذه القراءة المجمع عليها، المتواترة، وقراءة ابن مسعود تتفق معها في المعنى.

---

[207]()انظر: "البخاري" (6/161) "فضائل القرآن".
[208]()انظر: "الاستيعاب" (3/979)، "أسد الغابة" (3/367)، "الإصابة" (6/194) .
[209]()انظر: "السند" (1/394).
[210]()"تفسير ابن كثير" (7/402)، وانظر: "سنن أبي داود" (4/291) وفيه : "إني أنا الرزاق" الخ، ومثله في الترمذي(4/262).
[211]()الآيات 56-58 من سورة الذاريات.
[212]()"تفسير ابن كثير" (1/402).

والمعنى: أن الله –تعالى- هو المتكفل بأرزاق الخلق وحاجاتهم؛ وأكد الجملة بـ "إن" والضمير؛ لقطع توهم من يعتمد على قوته، أو علمه وصنعته، أو غير ذلك، في أمور الرزق،؛ ليصرف اعتمادهم إلى الله وحده.

{ذُو الْقُوَّةِ} أي القوة العظيمة التي لا تضاهي، ولا تقاس بقوة خلقة مهما بلغت قوتهم، فهو-تعالى- على كل شيء قدير، لا يمتنع عليه شيء.

و{الْمَتِينُ} الشديد القوة، الذي لا يطرأ عليه عجز أو ضعف، تعالى وتقدس، وهذا المروي عن ابن عباس كما ذكره الطبري[213].

قال ابن الجوزي: "والمتين: الشديد القوة الذي لا تنقطع قوته، ولا يلحقه في أفعاله مشقة"[214].

ورفع "المتين" على أنه وصف "الرزاق" أو لذو، أو خبر مبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر، وهذه قراءة الجمهور، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش بجر "المتين" على أنه صفة للقوة.

وهذه الآية ونظائرها تدل بوضوح على أن الله –تعالى- موصوف بالصفات العليا، كما أنه مسمى بالأسماء الحسنى، فالقوة صفته، والرزاق اسمه، وتقدم أن كل اسم لابد أن يتضمن الصفة، وبذلك وغيره يرد على المنكرين للصفات، كما سبقت الإشارة إليه، والله أعلم.

ص 84

وأما معنى الحديث: فقال النووي: "قال العلماء: معناه: أن الله –تعالى- واسع الحلم حتى على الكافر الذي ينسب إليه الولد والند، قال المازري: حقيقة الصبر: منع النفس من الانتقام أو غيره، فالصبر نتيجة الامتناع، فأطلق اسم الصبر على الامتناع في حق الله –تعالى-.

قلت: هذا الكلام فيه نظر فقد جاء في أسمائه تعالى: الصبور، وفي هذا الحديث:" ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله – تعالى – ".

قال القاضي: والصبور من أسماء الله – تعالى -، وهو: الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام، وهو بمعنى الحليم في أسمائه – سبحانه وتعالى -، والحليم: هو الصفوح مع القدرة على الانتقام"[215].

قلت: قول المازري:" فأطلق اسم الصبر على الامتناع في حق الله – تعالى-".

فيه نظر، وذلك أن رسوله –صلى الله عليه وسلم- أطلق على ربه الصبر، وأنه ما أحد أصبر منه، وهو –صلى الله عليه وسلم- أعلم الخلق بالله – تعالى – وأخشاهم له، وأقدرهم على البيان عن الحق، وأنصحهم للخلق، فلا استدراك عليه، فيجب أن يبقى ما أطلقه –صلى الله عليه وسلم- على الله

---

[213]() انظر: "تفسير الطبري" (27/13).

[214]() "تفسير ابن الجوزي" (8/44).

[215]() "شرح النووي على مسلم" (17/146).

– تعالى – بـدون تأويـل، إلا إذا كـان يريـد بـذلك تفسـير معنـى الصـبر، ولكـن الأولى أن يبقى كما قال؛ لأنه واضح ليس بحاجة إلى تفسير.

قـوله فـي الحـديث: " اصـبر" أفعـل تفضـيل مـن الصـبر، ومـن أسـمائه الحسنى "الصبور"، ومعناه: الذي لا يعاجل العصاة بالعقوبة، وهو قريـب مـن معنى الحليم، والحليم أبلغ في السلامة من العقوبة[216].

وقال الزجاج:" أصل الصبر في الكلام: الحبس، يقال: صـبرته علـى كـذا صبراً: إذا حبسته، ومعنى الصبر والصبور في اسم الله – تعالى – قريـب مـن معنى الحلم"[217].

وقال ابن الأثير:" الصبور: هو الذي لا يعاجل العصاة بالانتقـام منهـم، بـل يؤخر ذلك إلى أجل مسمى، فمعنى الصبور في صـفة اللـه – تعـالى – قريـب من معنى

ص 85

الحليـم، إلا أن الفـرق بيـن الأمريـن أنهـم لا يـأمنون العقوبـة فـي صـفة الصبور، كما يأمنون منها في صفة الحليم"[218].

يقصد أن صفة الحلم أكثر رجاء ورحمة وأوسع لعباده، من صفة الصـبور، والله أعلم.

قوله: "على أذى سمعه من الله" لفظ الأذى في اللغة هو لما خف أمره، وضعف أثره من الشر والمكروه، وذكره الخطابي، قال شيخ الإسـلام: "وهـو كما قال، بخلاف الضرر، فقد أخبر - سبحانه- أن العبـاد لا يضـرونه، كمـا قـال تعالى: {وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُـمْ لَـن يَضُـرُّواْ اللّـهَ شَـيْئاً}[219]، فبين أن الخلق لا يضرونه، لكن يؤذونه"[220].

فابن آدم يؤذي الله - تعالى- ويسبه، بإضافة ما يتعالى ويتقدس عنه، مثل نسبة الولد إليه –تعالى- والند، والشـريك فـي العبـادة، الـتي يجـب أن تكـون خالصة له وحده، ومثل إسناده نعمه وأفعاله إلى غيره، من الدهر، والطبيعـة، والكون والمخلوقات، وغير ذلك، ثم يسـبون مـا أسـندوا تلـك الحـوادث إليه، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادتهم حوادثه، وأهلكتهم كوارث الطبيعـة، ويا خيبة الدهر، وهذا زمان سوء، وما أشبه ذلك.

---

[216]() "فتح الباري" (13/361).
[217]() " تفسير أسماء الله الحسنى" (ص 65).
[218]() "جامع الأصول" (4/183).
[219](1) الآية 176 من سورة آل عمران.
[220]()"تيسير العزيز الحميد" (ص 542).

وفي "الصحيحين" عن أبي هريرة-رضي الله عنه- قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: "يقول الله-تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره"[221].

وأذية الله-تعالى- بنسبة الحوادث، والكوارث إلى الدهر، أو الطبيعة، وتوجيه اللوم والقدح والسب إلى ذلك كثيرة في كلام أهل الأدب وغيرهم، مع أن ذلك

ص 86

صنع الله وفعله، ولذلك يرجع السبب إليه، تعالى عن قولهم علواً كبيراً، كقول ابن المعتز:

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحداً وأنت والد سوء تأكل الولدا

وقال أبي الطيب المتنبي:

قبحاً لوجهك يا زمان فإنه وجه له من كل قبح برقع[222]

وقول الطرفي:

إن تبتلى بلئام الناس يرفعهم عليك دهر لأهل الفضل قد خانا

وقول التهامي:

ليس الزمان وإن حرصت مسالماً خلق الزمان عداوة الأحرار

وقول الآخر:

وغاض رزقي وعاداني الزمان ولم ينظر لما بي من العليا ولا حسبي

وقول الحريري:

ولا تأمن الدهر الخؤون فكم عالم أخنى عليه

وقوله أيضاً:

ولما تعامى الدهر وهو عن الرشد، في إيجابه

تعاميت حتى قيل: إني ولا غرو أن يحذو الفتى

وقوله أيضاً:

ولو أنصف الدهر في لما ملك الحكم أهل

وقول موفق الدين، عبدالله بن عمر الأنصاري، في تخميسه مقصورة ابن دريد:

يا زمني ماذا العمى فوقت لي من الرزايا

---

[221]()انظر: "البخاري" (6/166) وتفسير سورة الجاثية (8/574)، و (10/564)الأدب، و(9/179) التوحيد، و"مسلم"، الأدب (7/45).

[222]()"ديوان المتنبي" (ص 393).

يا دهر كم هذي الحقود و الإحـــن .....[223]

ص 87

وقال تميم بن المعتز:

يا دهر ما أقســاك مــن في حالتيك ومـا أقلـك
أتروح للنكس الجهـول وعلــى الحــر اللــبيب
و إذا صــفوت كــدرت و إذا وفيــت نقضــت
لا أرتضيك وإن كرمـت أدري بأنــك لا تــدوم
زمن إذا أعطى اسـترد و إذا اسـتقام بـدا لـه
ما قام خيرك يـا زمـان أولى بنـا مـا قـل منـك

وقال عبد الرحيم الاسطنبولي:

أرى الــدهر يســعف وأوفر حظ بـه الجاهـل

ومثل هذا كثير جداً في أشعار أهل الأدب قديماً وحديثاً، وهو لا يجوز؛ لما دل عليه هذا الحديث الذي نحن بصدد شرحه، وللأحاديث الأخرى الصحيحة الصريحة في النهي عن ذلك، كحديث أبي هريرة الآتي: يقول الله تعالى: "يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، اقلب ليله ونهاره"[224].

يعني: أن الدهر-الذي هو الليل والنهار- مخلوق لله مسخر، وهو مؤتمر بأمر الله –تعالى- مطيع له، فإذا سبه الساب، فإن السب يعود إلى فاعل الدهر وخالقه.

ومعلوم أن توجيه الخطاب والملام إلى الأيام والليالي لأنها ظرف لوقوع الحوادث، وما يؤلم، فوجه اللوم إلى الدهر لذلك، وإلا فغالب هؤلاء، إن لم يكن كلهم، لا يعتقدون أن الليل والنهار هو المصرف المدبر، والموجد لما يقع فيه، فرجع اللوم في الحقيقة إلى تلك الحوادث الواقعة في الليل والنهار، فبذلك يعلم أن اللوم والسب يعود إلى مقدرها وموجدها، وهو الله-تعالى- خالق كل شيء، فليحذر المسلم من مجاراة هؤلاء الذين سلكوا طريق أهل الجهل من الكفار، وغيرهم، في القدح في أفعال الله –تعالى-، وسخط أقداره وتدبيراته.

ص 88

قال ابن الجوزي –رحمه الله تعالى-: "ما رأت عيني مصيبة نزلت بالخلق أعظم من سبهم للزمان، وعيبهم للدهر، وقد كان هذا في الجاهلية، ثم نهى

---

[223]() انظر : " تخميس مقصورة ابن دريد" (ص 42).

[224]()سيأتي هذا الباب في قول الله "يريدون أن يبدلوا كلام الله".

رسول الله –صلى الله عليه وسلم – عنه، فقال: "لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر"[225].

ومعناه: أنتم تسبون من فرق شملكم، وأمات أهليكم، وتنسبونه إلى الدهر، والله –تعالى- هو الفاعل لذلك.

وهؤلاء إن أرادوا بالدهر، مرور الزمان، فذلك لا اختيار له، ولا مراد، ولا يعرف رشداً من ضلال، ولا ينبغي أن يلام، فإنه زمان مدبر، ولا يعقل أن يكون ذم هؤلاء يقصد به الزمان الذي لا تصرف له، فلم يبق إلا أن القوم خرجوا عن ربقة الإسلام، ونسبوا القبائح إلى الله –تعالى- فاعتقدوا قصور حكمته، وأنه يفعل ما لا يصلح كما اعتقده إبليس في تفضيل آدم، وهؤلاء لا ينفعهم مع هذا الزيغ اعتقاد إسلام، ولا فعل صلاة، بل هم شر من الكفار"[226].

قلت: أكثر هؤلاء من الشعراء والأدباء لا يقصدون نسبة القبائح إلى الله –تعالى- من الجور والظلم، وإنما ساروا في ذلك على سبيل المتابعة لأهل الجاهلية والتقليد، بدون تبصر لذلك، والله أعلم.

وكذلك يؤذي ابن آدم ربه بمخالفته أوامره –تعالى- وارتكابه نهيه، والإصرار على ذلك، وأذية رسله، وعباده الصالحين، بعيبهم، وتنقصهم، كما في "مسند الإمام أحمد"، من حديث عبد الله بن مغفل المزني –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم -: "الله، الله، في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم، فمن أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه"[227].

ص 89

وقد قال الله –تعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا} [228].

قال ابن جرير –رحمه الله تعالى-: "أي الذين يؤذون ربهم بمعصيتهم إياه، وركوبهم ما حرم عليهم"[229].

وفي قوله: "ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله" دليل واضح على تسميته –تعالى- بذلك، أعني "الصبور"، كما جاء في حديث الأسماء الحسنى.

قال ابن القيم –رحمه الله تعالى-: "فقد أطلق عليه –تعالى- أعرف الخلق به، وأعظمهم تنزيهاً له، هذه الصفة: "وما أحد أصبر على أذى سمعه

---

[225]()رواه مسلم في الألفاظ من الأدب وغيره (4/1762) رقم الحديث (2246) وله عدة طرق عنده.

[226]()"صيد الخاطر" (ص 490) باختصار وتصرف يسير.

[227]()"المسند" (4/87).

[228]()الآية 57 من سورة الأحزاب.

[229]()"تفسير الطبري" (21/44).

من الله "، كما أن ما ورد في الأسماء الحسنى "الصبور" من أمثلة المبالغة، فهو أبلغ من "الصابر" والصبار. ومعنى الصبر معلوم في اللغة، والشرع، والعرف، فلسنا بحاجة إلى تأويلات المتكلمين، التي تبعد عن المعنى المقصود من الخطاب.

وصبر الله –تعالى- لا يماثل صبر المخلوق، بل يختلف عنه من وجوه:

منها: أنه عن قدرة تامة. ومنها: أنه لا يخاف الفوت، والعبد إنما يستعجل لخوف الفوت. ومنها: أنه –تعالى- لا يلحقه بصبره ألم، ولا حزن، ولا نقص بوجه من الوجوه. وظهور أثر هذا الاسم الكريم مشهود في العالم بالعيان، كظهور اسمه –تعالى- الحليم. والفرق بين الصبر والحلم: أن الصبر ثمرة الحلم، وموجبه، والحلم في صفاته –تعالى- أوسع من الصبر، ولهذا جاء في القرآن في مواضع كثيرة، وجاء مقروناً مع اسمه العليم، كقوله –تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [230]، وقوله –تعالى-: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ} [231] [232]، وحلمه –تعالى- من لوازم ذاته.

ص 90

وأما صبره –تعالى- فمتعلق بكفر عباده، وشركهم، ومسبتهم له –تعالى وتقدس- وسائر معاصيهم، وفجورهم، فلا يدعوه ذلك إلى تعجيل عذابهم، بل يصبر عليهم ويمهلهم، ويرفق بهم، ويستصلحهم بحلمه وصبره ونعمه، حتى إذا لم يبق فيهم موضع للصنيعة ولا يصلحون على الإمهال، ولم ينيبوا إليه، لا من باب الإحسان والنعم، ولا من باب البلاء والنقم، أخذهم أخذ عزيز مقتدر، بعد غاية الإعذار إليهم، وبذل النصيحة لهم، ودعائهم من كل باب.

وهذا كله من موجبات صفة حلمه، وهي صفة ذاتية له لا تزول.

وأما الصبر فإذا زال متعلقه كان كسائر الأفعال التي توجد لوجود الحكمة وتزول بزوالها، فتأمله، فإنه فرق لطيف قل من تنبه له.

وقد أشكل على كثير من العلماء مجيء هذا الاسم في أسماء الله الحسنى، وقالوا: لم يأت في القرآن، فأعرضوا عن الاشتغال به.

ولو أنهم أعطوه حقه لعلموا أن الرب –تعالى- أحق به من جميع خلقه، كما هو أحق باسم العليم، والرحيم، والقدير، والسميع، وسائر أسمائه الحسنى من المخلوقين، وأن التفاوت الذي بين صبره –تعالى- وبين صبرهم، كالتفاوت الذي بين حياته وحياتهم، وعلمه وعلمهم، وهذا في سائر صفاته –تعالى-، ولهذا قال أعرف خلقه به: " لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله" –تعالى- فعلم أرباب البصائر بصبره –سبحانه- كعلمهم برحمته وعفوه وستره،

---

[230]() الآية 51 من سورة الأحزاب.

[231]() الآية 12 من سورة النساء.

[232]() وقد جاء اقترانه باسمه الغفور في مواضع عدة من القرآن كقوله تعالى: {ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم} {سورة آل عمران: آية 155].

مع أنه صبر مع كمال علم وقدرة، وعظمة وعزة، وهو صبر على أعظم مصبور عليه، فإن مقابلة أعظم العظماء، وملك الملوك، وأكرم الأكرمين، ومن إحسانه فوق كل إحسان بغاية القبح، وأعظم الفجور، وافحش الفواحش، ونسبته –تعالى- إلى كل ما لا يليق به، والقدح في كماله، وفي أسمائه وصفاته، والإلحاد في آياته، وتكذيب رسله –عليهم السلام- ومقابلتهم بالسب والشتم والأذى، وتحريق أوليائه، وقتلهم وإهانتهم- أمر لا يصبر عليه إلا الصبور الذي لا أحد أصبر منه، ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره –سبحانه وتعالى-.

ومما يعين على معرفة صبره –تعالى- وحلمه، والفرق بينهما: تأمل قوله –تعالى-: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [233]،

ص 91

وقوله –تعالى-: {اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا {88} لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا {89}تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا {90} أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا} [234]وقوله –تعالى-: {وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} [235]، على قراءة فتح اللام.

فأخبر –تعالى- أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السماوات والأرض، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه.

وفي الآية إشعار بأن السماوات والأرض تهم وتستأذن بالزوال؛ لعظم ما يأتي به العباد، فيمسكهما بحلمه، ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره –تعالى-.

فالذي صدر عنه الإمساك، هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر، وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة، وبين ما صدر عنه حبسها، فتأمله"[236].

قال ابن المنير: "وجه مطابقة الحديث للآية[237]: اشتماله على صفتي الرزق، والقوة الدالة على القدرة، أما الرزق، فواضح من قوله: "ويرزقهم"، وأما القوة فمن قوله: "أصبر" فإن فيه إشارة إلى القدرة على الإحسان إليهم، مع إساءتهم، بخلاف طبع البشر، فإنه لا يقدر على الإحسان إلى المسيء إلا من جهة تكلفه ذلك شرعاً، وسبب ذلك أن خوف الفوت يحمله

---

[233]()الآية 41 من سورة فاطر.

[234]()الآيات 88-91من سورة مريم.

[235]()الآية 46 من سورة إبراهيم .

[236]()"عدة الصابرين" (ص 236-237).

[237]()في "الفتح": (مطابقة الآية للحديث) والمناسب ما أثبته.

على المسارعة إلى المكافأة بالعقوبة، والله –سبحانه- قادر على ذلك حالاً، ومآلاً، لا يعجزه شيء ولا يفوته"[238].

قلت: ليس عجز الإنسان عن الصبر من أجل خوف الفوت فقط، بل ولأنه لا يستطيعه ولا يتحمله، لأن ذلك يضره في نفسه، أو غير ذلك.

ص 92

والذي يظهر أن ما أراده البخاري –رحمه الله- من الحديث، هو البيان بأن الله –تعالى- مسمى بالأسماء الحسنى، ومتصف بالصفات العليا، حقيقة على ما يليق به-تعالى-، وعلى ما يفهم من اللفظ الموضوع للمعنى المتعارف عليه من ظاهر اللغة، الذي أطلقه –تعالى- على نفسه أو أطلقه عليه رسوله، دون تكلف تأويل، أو رجوع إلى اصطلاح متكلم، أو متفلسف، كما بين ذلك قوله: "ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يدعون له الولد، ثم يعافيهم ويرزقهم" فهذا هو حقيقة الصبر المعروف في اللغة، ونصوص الشرع، فلا يجوز العدول عن ذلك بالتأويلات التي تبعد المعنى عن مقصود المتكلم من اللفظ، ودل قوله: "ثم يعافيهم، ويرزقهم" على فضله على عباده بالعافية والرزق، وأن كل ما يقع بأيديهم من رزقه، فهو الذي هيأ أسبابه ويسر طرقه.

وقوله: "ثم يعافيهم ويرزقهم" أي أنه –تعالى- يقابل إساءتهم بالإحسان، فهم يسيئون إليه –تعالى- بالعيب والسب، ودعوى ما يتعالى عنه ويتقدس، وتكذيب رسله ومخالفة أمره، وفعل ما نهاهم عنه فعله، وهو يحسن إليهم بصحة أبدانهم، وشفائهم من أسقامهم، وكلاءتهم بالليل والنهار مما يعرض لهم، ويرزقهم بتسخير ما في السماوات والأرض لهم، وهذا غاية الصبر والحلم والإحسان، والله أعلم.

---

[238]() "فتح الباري" (13/361).

ص 93

قال: "باب قول الله –تعالى-: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} [239]، {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} [240]، و{أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ} [241]، و{وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ} [242]، و{إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ} [243].

قال يحيي: الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً".

أراد البخاري –رحمه الله- بيان ثبوت علم الله –تعالى- وعلمه –تعالى- من لوازم نفسه المقدسة، وبراهين علمه –تعالى- ظاهرة مشاهدة في خلقه، وشرعه، ومعلوم عند كل عاقل أن الخلق يستلزم الإرادة، ولابد للإرادة من العلم بالمراد، كما قال تعالى: {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [244].

والخالق هو: المبدع بتقدير سابق الوجود في الخارج، وهذا يتضمن تقدير المخلوقات في العلم قبل إيجادها في الخارج، وهو أيضاً يستلزم الإرادة والمشيئة، والإرادة مستلزمة تصور المراد والعلم به.

ووصف نفسه - تعالى- في هذه الآية بأنه (لطيف) يدرك الدقيق، (خبير) يدرك الخفي.

والأدلة على وصف الله بالعلم كثيرة، ولا ينكرها إلا ضال أو معاند مكابر.

وفي هذه الآيات التي ذكرها البخاري مدح الله- سبحانه وتعالى- فيها نفسه بأنه عالم الغيب، وأنه استأثر به دون خلقه، فكان ذلك دليلاً على أنه لا يعلم الغيب سواه، فعلمه –تعالى- وسع كل شيء في الماضي، والمستقبل، والحال. وفي الآية الأولى استثنى –تعالى- من ارتضاه من رسله، فأطلعهم على ما يشاء من غيبه، عن طريق الوحي إليهم، وإعلامهم به، وجعل ذلك معجزة لهم، ودليلاً على نبوتهم وصدقهم.

ص 94

وليس المنجم والكاهن، ومن ضاهاهما، كالضارب بالحصى، والناظر في الكتب والأكف، وما أشبه ذلك، ممن أرتضاه الله من الرسل، حتى يطلعهم على ما يشاء من الغيوب، بل هم مفترون على الله، يصطادون أموال الجهلة من الناس بالتلبيس والحدس والتخمين الكاذب والادعاء الفارغ.

"والغيب" مصدر غاب، إذا استتر عن العين، قال –تعالى-: {أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ} [245]، واستعمل في كل غائب عن الحاسة، وعما يغيب عن علم

---

[239]() الآية 26 من سورة الجن.

[240]() الآية 34 من سورة لقمان.

[241]() الآية 166 من سورة النساء.

[242]() الآية 11 من سورة فاطر، والآية 47 من سورة فصلت.

[243]() الآية 47 من سورة فصلت.

[244]() الآية 14 من سورة الملك.

[245]() الآية 20 من سورة النمل.

الإنسان، قال –تعالى-: {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [246]، ويقال للشيء: غيب، وغائب، باعتبار تعلقه بالناس.

أما الله –تعالى- فإنه لا يغيب عنه شيء. وقوله –تعالى-: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [247]، أي: ما يغيب عنكم، وما تشهدونه. والغيب في قوله –تعالى-: {يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [248]: ما لا يقع تحت الحواس، ولا يقتضيه بدائه العقول، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام"[249].

وقوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ} قال الحليمي: "معناه أنه يدرك الأشياء على ما هي عليه، وإنما وجب أن يوصف –عز اسمه- بالعالم؛ لأنه قد ثبت أن ما عداه من الموجودات فعل له، وأنه لا يمكن فعل إلا باختيار وإرادة، والفعل على هذا الوجه لا يظهر إلا من عالم، كما لا يظهر إلا من حي"[250].

فقوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ} أي المختص بعلم الغيب، فلا يشاركه فيه أحد.

قال ابن جرير: عالم ما غاب عن أبصار خلقه، فلم يروه {فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} فيعلمه أو يريه إياه {إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ} فإنه يظهره على ما يشاء من ذلك[251].

ص 95

وقال القسطلاني: "عالم الغيب فلا يطلع على غيبه أحداً من خلقه إلا من ارتضى من رسول لإطلاعه على بعض الغيب؛ ليكون إخباره عن الغيب معجزة له"[252].

وقوله: و{إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} الواو ليست من الآية، إنما جاء بها للعطف.

والمعنى: أن علم وقت مجيء الساعة – الذي هو النفخ في الصور- لا يعلمه إلا الله –تعالى- وحده، فهو خاص به –تعالى- لا يشاركه فيه أحد.

قال الخازن: "ومعنى الآية: أن الله عنده علم الساعة، فلا يدري أحد من الناس متى تقوم، في أي سنة، أو أي شهر أو أي يوم، ليلاً أو نهاراً"[253].

وقوله: {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ} أي: أنزل القرآن، عالماً بما يترتب على إنزاله من الخير والفلاح وغير ذلك، وعالماً بمن يؤمن به ويقبله، ويسعد بذلك، ومن يكفر به ويرده ويشقى بذلك.

---

[246]() الآية 75 من سورة النمل.
[247]() الآية 22 من سورة الحشر.
[248]() الآية 3 من سورة البقرة.
[249]() "المفردات" للراغب (ص 366).
[250]() "المناهج" (1/191).
[251]() "تفسير الطبري" (29/121).
[252]() "إرشاد الساري" (10/363).
[253]() "تفسير الخازن" (5/220).

أو المعنى: أنزله فيه علمه الذي أراد أن يطلع عليه من يشاء من عباه، من الإيمان به، ومعرفته –تعالى- بأسمائه وصفاته، وما رتب على ذلك من الجزاء في الدنيا والآخرة، ومعرفة حقه، وأمره ونهيه، والآية تدل على كلا المعنيين.

وقال ابن الجوزي: "فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنزله وفيه علمه، قال الزجاج.

الثاني: أنزله من علمه، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

الثالث: أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه، قال ابن جرير"[254].

وقال الخازن: "يعني أنه –تعالى- لما قال: لكن الله يشهد بما أنزل إليك، بين صفة ذلك الإنزال، وهو أنه –تعالى- أنزله بعلم تام، وحكمة بالغة.

وقيل: معناه: أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله عليك، وأنك مبلغه إلى عباده"[255].

ص 96

وقال ابن كثير: {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ} أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه، من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب، من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا أن يعلمه الله به، كما قال –تعالى-: {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء}[256]، وقال –تعالى-: {وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}[257][258].

قوله: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ}[259]اقتصر البخاري-رحمه الله تعالى- على محل الشاهد من الآية والآية بتمامها:

{وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[260].

يخبر –تعالى- العباد بأنه ابتدأ خلقهم بخلق أبيهم آدم من تراب، ثم جعل خلق ذريته من نطفة –من ماء مهين- وجعلهم أزواجاً، أي ذكراً وأنثى، رحمة منه تعالى ولطفاً، ثم أخبر –تعالى- أنه عالم بأطوار خلقهم، لا يخفى عليه شيء من مبتدئه، ووضعه، ونوعه، وعمره، وعمله، وزيادة عمره، ونقصانه،

---

[254]()"زاد المسير" (2/257)، وانظر "تفسير الطبري" (6/31).

[255]()"تفسير الخازن" (1/625).

[256]()الآية 255 من سورة البقرة.

[257]()الآية 110 من سورة طه.

[258]()"تفسير ابن كثير" (2/428).

[259]()الآية 11 من سورة فاطر.

[260]()وقال –تعالى-: {*إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من انثى ولا تضع إلا بعلمه] {سورة فصلت: آية 47].

وأن ذلك عنده في كتاب، وهو سهل عليه يسير {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [261]، ففي هذه الآية بيان شمول علمه –تعالى- لكل شيء، فلا تكون حياة، ولا موت، ولا حركة، ولا سكون إلا بعلمه وتصريفه ومشيئته.

قوله: {*إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ} أي هو تعالى المختص بعلم الساعة أي وقت مجيئها.

ص 97

قال ابن جرير –رحمه الله تعالى-: "إلى الله يرد العالمون به علم الساعة، فإنه لا يعلم قيامها غيره"[262].

ففي هذه الآيات ونحوها دلالة ظاهرة على ثبوت صفة العلم لله، بحيث لا ينكر ذلك إلا معاند مكابر يجادل بالباطل، ليدحض به الحق، أو جاهل قد تناهى جهله، ومن أوجه البيان في ذلك أنه تعالى أضاف العلم إلى نفسه الكريمة، إضافة حقيقية، والمضاف إلى الله –تعالى- إما أن يكون أعياناً قائمة بنفسها، كبيت الله، وناقة الله، ورسول الله، وعرش الرحمن، وما أشبه ذلك وهذا النوع من إضافة المخلوق إلى خالقه؛ لتفضيلها على غيرها من المخلوقات.

وإما إضافة معان، كعلم الله وقدرة الله، وحياة الله، وسمع الله وبصره، وما أشبه ذلك، وهذا النوع لا يكون إلا إضافة صفة إلى من تقوم به؛ لأنها لا تقوم بنفسها كما هو معلوم.

ومراد البخاري-رحمه الله- في إيراده هذه الآيات إثبات هذه الصفة لله –تعالى -، والرد على من ينكرها من المعتزلة، ونحوهم ممن عميت بصائرهم، فابتعدوا عن الحق، مغترين بعقولهم.

قوله: "قال يحيي: الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً".

قال الحافظ: "يحيي هو ابن زياد الفراء النحوي المشهور، ذكر ذلك في كتاب "معاني القرآن له"[263].

قلت: هو يحيي بن زياد بن عبد الله، بن مروان الديلمي، أبو زكريا، المعروف بالفراء، إمام العربية، وصفه مترجموه بأنه كان متديناً ورعاً، وكان ثقة، له مصنفات كثيرة، ضاع أكثرها، توفي سنة 207 سبع ومائتين.

وقول الفراء هذا، جزء من معنى هذين الاسمين الكريمين، وقد كان من عادة السلف أنهم يفسرون الشيء بجزء من معناه، وإلا فهو –تعالى- الظاهر على كل شيء ذاتاً، وقوة وقهراً، وعلماً وحكماً، والباطن على كل شيء إحاطة وقرباً

ص 98

---

[261]() الآية 14 من سورة الملك.

[262]() "تفسير الطبري" (25/2).

[263]() "فتح الباري" (13/362)، وانظر: "معاني القرآن" للفراء (3/132).

وعلماً، وقد صح عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم – كما في "صحيح مسلم" من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه –عن النـبي –صـلى اللـه عليـه وسلم – أنه كان يقول: "اللهـم أنـت الأول فليـس قبلـك شـيء، وأنـت الآخـر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شـيء، وأنـت البـاطن فليـس دونك شيء"[264].

فهذا أحسن ما يفسر به هذه الأسماء، وأوضحه، وأقربه إلى معنى الكلام، مع كونه من المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، فلا ينبغـي العـدول عنـه إلـى كلام الناس، الذي هو عرضة للخطأ.

---

[264]()انظر: "مسلم" (4/2084) رقم (61).

ص 99

9- قوله: "حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا سليمان بن بلال، حدثني عبد الله بن دينار، عن ابن عمر –رضي الله عنهما- عن النبي –صلى الله عليه وسلم – قال: "مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله -تعالى-".

ابن عمر: هو أبو عبد الرحمن، عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل، القرشي، العدوي،. وأمه: زينب بنت مظعون الجمحية، ولد سنة ثلاث من البعثة النبوية، وهاجر إلى المدينة وهو ابن عشر سنين، وأول مشاهده مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم- الخندق، وكان من سادات الصحابة، وعبادهم المجدين، وهو من المكثرين في الحديث عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم -، عرف بالعزوف عن الدنيا، والاستعداد للآخرة، كما عرف بشدة تمسكه بسنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم -، وتتبع آثاره، له في "الصحيحين" مائتان وثمانون حديثاً، توفي سنة ثلاث وسبعين في مكة، وقد بلغ من العمر سبعاً وثمانين سنة، -رضي الله عنه-[265].

"قوله: مفاتيح الغيب" ذكر البخاري ذلك الحديث في الاستسقاء بلفظ "مفتاح" وفي بعض النسخ "مفاتح" وفي تفسير سورة الأنعام وسورة الرعد بلفظ "مفاتح" وفي بعض النسخ "مفاتيح".

والمفاتح جمع مفتح، بكسر الميم، اسم الآلة التي يفتح بها، مثل منجل، ومناجل، وهي لغة قليلة، والمشهور: مفتاح، وجمعه "مفاتيح"، وقد قرأ بها ابن السميفع، ويطلق المفتاح على ما كان محسوساً مما يحل غلقاً، كالقفل، وعلى ما كان معنوياً، كما جاء في الحديث الذي صححه ابن حبان:"إن من الناس مفاتيح للخير" الخ[266].

قوله: "مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله"، قد بين هذه الخمس، بأنها: ما يغيض من الأرحام – أي ما ينقص-، وما يكون في الغد من الحوادث والأعمال وغيرها، ومجيء المطر، والمكان الذي يموت به الإنسان، ووقت مجيء الساعة.

ص 100

وعبر عن هذه الأمور الخمسة بالمفاتيح، لتقريب الأمر من السامع=؛ لأن كل شيء جعل بينك وبينه حجاب، فقد غيب عنك، والتوصل إلى معرفته في العادة من باب الحجاب، فإذا كان المفتاح الذي لا يمكن الوصول إلى ما في داخل الحجاب إلا بمعرفته لا يعلم، فكيف بما في داخل الحجاب؟

---

[265]() "الإصابة" (4/181) والرياض النضرة (ص 194).

[266]() "فتح الباري" (8/291).

ودل الحديث على أن هذه الأمور ليست هي الغيب، وإنما هي منه؛ وأن علم الغيب من خصائص الله تعالى.

وأما ما جاء عن الأنبياء من الأخبار ببعض المغيبات، كإخبار الرسول – صلى الله عليه وسلم – بما يقع بعده من الفتن؛ والفتوح على أمته؛ وبعض أشراط الساعة، وكإخبار عيسى –عليه السلام- بما يأكله بنو إسرائيل، وما يدخرونه في بيوتهم، ونحو ذلك، فإن هذا مما استثناه الله تعالى بقوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا {26} إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا {27} لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ} [267]، وهو من معجزاتهم التي تدل على صدقهم.

وبهذا وغيره يتبين ضلال الذين يزعمون أن فريقاً من الناس- ممن يدعون لهم الولاية- أنهم يعلمون الغيب، وكذا الذين يدعون ذلك لرسول الله- صلى الله عليه وسلم – فإنه لا يعلم الغيب إلا الله –تعالى-، وقد أمره الله أن يعلم الناس أنه لا يعلم الغيب، فقال تعالى: {قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [268]، فنفى –تعالى- علم الغيب عن الخلق عموماً، من في السماوات كالملائكة، ومن في الأرض كالأنبياء، فكيف يدعى علم ذلك لغيرهم؟

وأما أصحاب الدجل والتمويه، الذين يحتالون على أكل أموال الناس بالباطل، كالذين يزعمون معرفة ما في المستقبل، بواسطة النجوم، أو بقراءة الكف، أو فنجان القهوة، ونحو ذلك، فهؤلاء لا يخفى ضلالهم وكذبهم إلا على أجهل الناس، والمغفلين منهم.

وأما الإخبار عما يسمى "بالطقس" أحوال الجو من أمطار، أو رياح أو غيوم أو صحو أو غير ذلك، فهي توقعات مبنية على مقدمات مستفادة من مراصد

الأحوال الجوية التي تتأثر بالرطوبة واليبوسة ونحو ذلك، ولهذا كثيراً ما يكون الأمر على خلاف ما قالوا.

"وأراد بالغيب في الحديث المذكور: الغيب الحقيقي؛ إذ لبعض الغيوب علامات ومقدمات يستدل بها على شيء من ذلك، وهذا ليس غيباً حقيقياً؛ فالغيب الحقيقي لا يعلمه إلا الله –تعالى-.

ثم الغيب نوعان: أحدهما: ما يتعلق بذات الله –تعالى- وحقائق صفاته.

---

[267]() الآيات 26-28 من سورة الجن.

[268]() الآية 65 من سورة النمل.

والثاني: يتعلق بمخلوقاته، وهي كلها لـديه معلومـة، وقـد قـال –تعـالى-: {وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِـي ظُلُمَـاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْـبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [269].

فَلَما كان كل شيء محصى في كتـاب كتبـه اللـه –تعـالى- عنـده، وعلمـه محيـط وسـابق كـل شـيء، شـبه الرسـول- صـلى اللـه عليـه وسـلم – ذلـك بالمخازن التي لها أبواب، والباب له مفتاح، فإذا كان المفتاح لا يعلمه أحـد ولا يصل إليه، فكيف بما وراءه؟

وقد قال –تعالى-: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِنـدَنَا خَزَائِنُـهُ وَمَـا نُنَزِّلُـهُ إِلاَّ بِقَـدَرٍ مَّعْلُومٍ} [270]، وحصر –صلى الله عليه وسلم – مفاتيح الغيـب بـالخمس لأنهـا تشمل العوامل كلها.

فقوله: "ما تغيض الأرحام" إشارة إلى ما يزيد في النفـوس، ومـا ينقـص منها؛ وذكر الأرحام؛ لأن للناس عليها عوائد يعرفونها؛ وتجارب أدركوهـا، وقـد قرر عليها أحكام شرعية، ومع ذلك لا يعلم حقيقتها، ومتى تزيد ومـتى تنقـص إلا الله –تعالى-، فغيرها مما هو أخفى أولى بأن لا يعلمه الخلق.

وأشار بقوله: "ولا يعلم متى يأتي المطر أحـد إلا اللـه تعـالى" إلـى أمـور العالم العلوي، فذكر منه المطر؛ لأن له مقدمات، وعلامات يستدل بهـا عليـه عادة، أجراها الله –تعالى-، ومع ذلك لا يعلم حقيقـة الحـال إلا اللـه –تعـالى-، فكيف بمـا وراء ذلـك ممـا فـي السـماوات ومـا بينهمـا، ومـا يجـد هنـاك مـن المخلوقات، والحوادث، والأوامر التي يريدها الله –تعالى-، ويأمر بها؟

ص 102

وأشار بقـوله: {وَمَـا تَـدْرِي نَفْـسٌ بِـأَيِّ أَرْضٍ تَمُـوتُ [271]، إلـى الحـوادث الأرضية، وذكر موضع الموت من الأرض، مع أن العادة قد جـرت فـي الغـالب أن الإنسان يموت في الأرض التي يستقر فيهـا؛ ومـع ذلـك لا أحـد يـتيقن أنـه يموت في مكانه الذي يعيش فيه، ولا يدري أين موضعه الذي يوارى فيه.

فإذا كان الأمر في مثل هذا غيـر معلـوم، فكيـف بـالأمور الأخـرى الـتي لا علامات لها، ولا مقدمات يستدل بها عليها؟

وأشار بقوله: "ولا يعلم ما في غد إلا الله" إلى أنواع الزمان، وما فيه من الحـوادث والتقلبـات الطارئـة، وخـص منـه غـداً؛ لأنـه أقـرب الأزمنـة مـن المخاطب، فإذا خفي ما فيه فما بعده أخفى، وأبعد عن معرفته.

وأشار بقـوله: " ولا يعلـم مـتى تقـوم السـاعة إلا اللـه" إلـى أمـور الـدار الآخرة، وذكر منها يوم القيامة؛ لأنه أولها إلى الدنيا، ولا يعلم وقـت مجيئـه إلا

---

[269]() الآية 59 من سورة الأنعام.

[270]() الآية 21 من سورة الحجر.

[271]() الآية 34 من سورة لقمان.

الله، فما بعده أولى بأن لا يعلم، فهذا من أبدع الكلام، وأبلغه، فقد حصر فيه جميع أنواع الغيوب، وأبطل جميع الدعاوى الفاسدة"[272].

ويقصد بالدعاوى الفاسدة: كل من يدعي شيئاً في علم الغيب، وهذا الحديث إيضاح لقوله –تعالى-: {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [273].

[272]()انتهى ملخصاً من "بهجة النفوس" (4/272).
[273]()الآية 34 من سورة لقمان.

ص 103
10- "حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن إسماعيل، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة –رضي الله عنها- قالت: من حدثك أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – رأى ربه فقد كذب، وهو يقول: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب، وهو يقول: (لاَّ يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ).
"كأن سبب هذا القول من عائشة –رضي الله عنها- ما أخرجه عبد الرزاق في هذا الحديث من طريق مجالد عن الشعبي، قال: لقي ابن عباس كعباً، فقال ابن عباس: إنا بنو هاشم نقول: إن محمداً رأى ربه مرتين، فكبَّر كعب، وقال: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد، فكلم موسى مرتين، ورآه محمد مرتين، قال مسروق: فدخلت على عائشة، فقلت: هل رأى محمد ربه؟" فذكر الحديث.
قال النووي-تبعاً لغيره-: لم تنف عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع، ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية، وقد خالفها غيرها من الصحابة، والصحابي إذا قال قولاً، وخالفه غيره منهم، لم يكن ذلك حجة اتفاقاً.
والمراد بالإدراك: الإحاطة، وهو لا ينافي الرؤية.
وهذا عجيب من النووي –رحمه الله- فإن في "صحيح مسلم" الذي شرحه هو: "قال مسروق: وكنت متكئاً فجلست، فقلت: ألم يقل الله: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [274].
فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله –صلى الله عليه وسلم – عن ذلك، فقال: إنما هو جبريل".
وأخرجه ابن مردويه بسند مسلم، فقال: "أنا أول من سأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن هذا، فقلت: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ فقال: "لا، إنما رأيت جبريل منهبطاً"[275].
ص 104
قلت: أعجب من كلام النووي ما قاله ابن خزيمة –رحمه الله- فإنه ذكر هذا الحديث بعينه – أعني قول عائشة-: "أنا سألت رسول الله –صلى الله عليه وسلم – عن هذا، قال: "رأيت جبريل نزل في الأفق، على خلقه، وهيئته، ساداً ما بين الأفق" ثم بعد أسطر قال: "إن عائشة لم تحك أن النبي –صلى الله عليه وسلم – أخبرها أنه لم ير ربه"[276].
فهذا ونحوه هو ما غر النووي –رحمه الله- ودعاه إلى رد قول عائشة من غير تأمل للأدلة؛ والله المستعان.

---

[274]() الآية 13 من سورة النجم.
[275]() "الفتح" (8/607).
[276]() انظر: كتاب "التوحيد"، لابن خزيمة (ص 226).

وكثير من العلماء يذكر الخلاف في أن النبي –صلى الله عليه وسلم – رأى ربه ليلة المعراج، "وليس في الأدلة ما يقضي بأنه رآه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة صريحاً، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل، كما في "صحيح مسلم"، عن أبي ذر، قال: سألت رسول الله –صلى الله عليه وسلم – هل رأيت ربك؟ فقال: "نور أنى أراه"[277].

وقد قال –تعالى-: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا} [278]، ولو كان قد رأى ربه بعينه لكان ذكر ذلك أولى، وكذلك قوله –تعالى-: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [279]، ولو كان رآه لكن ذكر ذلك أولى. وفي "الصحيحين" عن ابن عباس، في قوله –تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ} [280]، قال: هي رؤيا عين، أريها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليلة أسرى به، وهذه رؤيا الآيات؛ لأنه أخبر الناس بما رآه بعينه ليلة المعراج، فكان ذلك فتنة لهم، حيث صدقه قوم، وكذبه قوم، ولم يخبرهم بأنه رأى ربه بعينه، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك، ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه" ا.هـ[281].

ص 105

وبهذا تبين أن قول عائشة –رضي الله عنها- هو الراجح، الذي تؤيده الأدلة –والله أعلم-، وظاهره أن مرادها أنه –تعالى- لا يرى في الدنيا.

قوله: "وهو يقول: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} استدلت عائشة – رضي الله عنها - بظاهر الآية على نفي الرؤية، وقد قال بذلك بعض المفسرين، كما رواه ابن جرير بسنده، عن السدي، قال: "لا يراه شيء وهو يرى الخلائق"[282].

وذكر ابن كثير ما رواه ابن أبي حاتم بسنده إلى إسماعيل ابن علية أنه قال: "هذا في الدنيا، وعن هشام بن عبيد الله نحوه"[283].

وذكر السيوطي: أن الحسن قال مثل ذلك، قال: أخرجه أبو الشيخ، والبيهقي في كتاب: الرؤية[284].

---

[277]() انظر: "صحيح مسلم" (3/12) بشرح النووي.

[278]() الآية 1 من سورة الإسراء.

[279]() الآية 18 من سورة النجم.

[280]() الآية 60 من سورة الإسراء.

[281]() "مجموع الفتاوى" (6/580).

[282]() انظر: "تفسير الطبري" (7/301) قال السيوطي: أخرجه ابن أبي حاتم، "الدر المنثور" (3/335).

[283]() انظر: "تفسير ابن كثير" (3/303).

[284]() "الدر المنثور" (3/335).

وبهذه الآية تعلق المعتزلة في نفي رؤية الله –تعالى- في الآخـرة، ووجـه ذلك أنه جعل متعلـق الإدراك البصـر، فلمـا نفـاه عنـه كـان ظـاهر ذلـك نفـي الرؤية. والحق ثبوت رؤية المؤمنين للـه –تعـالى- فـي الآخـرة، كمـا تـواترت النصوص في ذلك.

والجواب عما استدلوا به: أن الرؤية ثبتت في آيات أخر، كقـوله-تعـالى-: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ {22} إِلَى رَبِّهَـا نَـاظِرَةٌ} [285]، وقـوله: {كَلاَّ إِنَّهُـمْ عَـن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ} [286]، والأخبار بذلك ثابتة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بل متواترة، كما سيأتي، إن شاء الله –تعالى-.

فيتعين أن المراد بالإدراك المنفي في الآية هـو الإحاطـة، وبـذلك فسـره ابن عباس –رضي الله عنهما- وغيره من السلف.

ص 106

قوله: "ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب، وهو يقول: "ولا يعلم الغيب إلا الله" الضمير في قوله: "إنه يعلـم" يعـود علـى محمـد –صـلى اللـه عليـه وسلم – أي: من زعم أن محمداً –صلى الله عليه وسـلم- يعلـم الغيـب، فقـد كذب، لأن علم الغيب يختص بالله –تعالى-، كما قال –تعـالى- مخاطبـاً نـبيه – صلى الله عليه وسلم – وأمراً له أن يقول: {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُـمْ عِنـدِي خَزَآئِـنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} [287]، والآيات في هذا كثيرة.

وعلم الغيب من خصائص الرب –تعـالى- الـتي بعـث رسـله وأنزلـه كتبـه لبيانها، ونفي ذلك عمن سواه –تعالى-.

وأما قول –تعالى-: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا {26} إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ) [288]، فهـي كقـوله –تعـالَى-: {وَلاَ يُحِيطُـونَ بِشَـيْءٍ مِّـنْ عِلْمِهِ} [289]، فهي تبين أن الله –تعالى يطلع من يشاء من رسله على ما يشاء من المغيبات، وذلك بوحيه إليهم، مثل إخباره عما جرى مـن الأمـم الماضـية، وما أصيبوا به من العذاب وغيره، كما قال –تعـالى-: {تِلْـكَ مِـنْ أَنبَـاء الْغَيْـبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا} [290]، وكذلك الإخبار عن المستقبل من المعاد، والجنة والنار، التي أطلع الله عليهـا رسـوله فـآمن بها المؤمنون، وعرفوها من كتاب الله تعالى، ومن سـنة رسـوله –صـلى اللـه عليه وسلم – إجمالاً.

وأما الإحاطة بالمعلومات كلياتها وجزئياتها ما كان منها، وما يكـون، فهـذا إلى الله وحده لا يضاف إلى غيره من الخلق، فمن ادعى شيئاً من ذلـك لغيـر

[285]() الآية 22-23من سورة القيامة.
[286]() الآية 15 من سورة المطففين.
[287]()الآية 50 من سورة الأنعام.
[288]()الآيتان 26-27 من سورة الجن.
[289]()الآية 255 من سورة البقرة.
[290]()الآية 49 من سورة هود.

الله –تعالى-، فقد أعظم الفرية على الله –تعالى-، وعلى رسوله –صلى اللـه عليه وسلم -.

"فعلم الغيب لله وحده، ولا يقال لغيره: عـالم الغيـب، ومـن أطلـع علـى شيء منه بواسطة الوحي أو غيره، يقال" أطلعه الله عليه، كالإخبار عن حال البرزخ، والحساب، والجنة والنار، وما أشبه ذلك، ومـا يـدعيه المتصـوفة فـي مشايخهم هو من تلاعب الشيطان بهم، وكـذا مـا يسـمونه الكشـوف لا أصـل له"ا.هـ[291].

ص 107

"وقول الداودي: (ما أظـن قـوله: "مـن حـدثك أن محمـداً يعلـم الغيـب" محفوظاً، وما أحد يدعي أن رسول الله –صلى الله عليـه وسـلم – يعلـم مـن الغيب إلا ما علمه الله تعالى) متعقب بأن بعض مـن لـم يرسـخ إيمـانه يظـن ذلك، حتى ظن بعضهم أن صحة النبوة تستلزم إطلاع النبي –صلى اللـه عليـه وسلم – على جميع المغيبات، كما في مغازي ابـن إسـحاق، أن ناقـة النـبي – صلى الله عليه وسلم – ضـلت، فقـال ابـن الصـليب: يزعـم محمـد أنـه نـبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أيـن نـاقته، فقـال النـبي –صـلى اللـه عليه وسلم -: "إن رجلاً يقول: كذا وكذا، إني والله لا أعلم إلا ما علمني اللـه، وقد دلني الله عليها، وهي في شعب كذا، قد حبستها شجرة، فـذهبوا فجـاؤوا بها " فأخبر –صـلى اللـه عليـه وسـلم – أنـه لا يعلـم مـن الغيـب إلا مـا علمـه الله"[292].

قلت: قد ادعى كثير من المتصوفة والغلاة أن مشايخهم ومعبـوديهم مـن دون الله –تعالى-، يعلمون الغيوب، وكتبهـم مشـحونة بـذلك، مثـل الطبقـات الكبرى للشعراني، وجامع الأولياء للنبهاني، وغيرهما من الكتب الخرافية.

---

[291]()"غاية الأماني" بتصرف، (1/34).

[292]()القسطلاني، ببعض التصرف (10/365).

ص 108
قال: باب قول الله –تعالى-: {السَّلامُ الْمُؤْمِنُ} [293].
أي أن ذلك من أسماء الله –تعالى- التي سمي بها نفسه، ومعناه: السالم من كل نقص وعيب. وسيأتي بيان ذلك.
"قال ابن بطال: غرضه بهذا الباب: إثبات اسمان من أسماء الله –تعالى-، قال الحافظ: وفيما ذكره نظر، ولو سلم له ذلك، فإن وظيفة الشارح بيان وجه تخصيص هذه الأسماء بالذكر[294] دون غيرها، وإفرادها بالترجمة، ويمكن أنه أراد بهذا القدر جميع الآيات الثلاث، في آخر سورة الحشر، فإنها ختمت بقوله تعالى: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَ هُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}وقد قال في سورة الأعراف: {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [295]، وكأنه رحمه الله –تعالى- بعد إثبات القدرة، والقوة، والعلم، أشار إلى أن الصفات السمعية ليست محصورة في عدد معين، بدليل الآية المذكورة. [296].
أو أراد الإشارة إلى ذكر الأسماء التي تسمى الله –تعالى- بها، وأطلق بعد ذلك على المخلوقين، والسلام ثبت في القرآن[297]، وفي الحديث "أنه من أسماء الله –تعالى".
وقد أطلق على التحية الواقعة بين المؤمنين.
والمؤمن يطلق على من اتصف بالإيمان، وقد وقعا معاً من غير تخلل بينهما في الآية المشار إليها، فناسب أن يذكرهما في ترجمة واحدة "[298]ا.هـ.
قلت: ما ذكره من أن السلام أطلق على المخلوقين، كالتحية الواقعة بين المؤمنين، غير ظاهر؛ لأن السلام الذي جعل تحية للمؤمنين اسم من أسماء الله –تعالى-، كما رواه البخاري –رحمه الله تعالى- في "الأدب المفرد"، من حديث أنس، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم -: "إن السلام اسم من أسماء الله –تعالى-، وضعه الله
ص 109
في الأرض، فأفشوا السلام بينكم"[299]، وإسناده صحيح، وترجم به البخاري في الصحيح فقال: {باب: السلام اسم من أسماء الله –تعالى- } [300]

---

[293]()الآية 23 من سورة الحشر.
[294]()يعني أنه قصر في بيان وجه إيراد البخاري هذين الاسمين من بين الأسماء الأخرى.
[295]()الآية 180 من سورة الأعراف.
[296]()هي قوله تعالى: {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ] {سورة الأعراف: آية 180].
[297]() كما في الآية المترجم بها.
[298]() "فتح الباري" (13/366).
[299]()"الأدب المفرد" (ص 343).
[300]()انظر: "الفتح" (11/13).

وفي حديث عبد الله بن مسعود المتفق عليه: "إن الله هـو السـلام، فـإذا جلس أحدكم في الصلاة فليقل: التحيات لله..." وسيذكره في البـاب. وقـال ابن عباس: "السلام اسم الله، وهو تحيـة أهـل الجنـة" أخرجـه الـبيهقي فـي "الشعب"[301].

ويدل على ذلك حديث المهاجر بن قنفذ، لما سلم على النبي –صلى اللـه عليه وسلم – لم يرد حتى توضأ، وقـال: " إنـي أن أذكـر اللـه إلا علـى طهـر" رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه[302].

قال الحافظ: صححه ابن خزيمة وغيره[303].

قال الخطابي: "وفيه دليل على أن السلام الذي يحيي به النـاس بعضـهم بعضاً اسم من أسماء الله –تعالى-"[304].

وقد اختلف في معناه، فنقل عياض أن معناه: اسم الله، أي: كلاءته عليك وحفظه، كما يقال: الله معك ومصاحبك.

وقيل: معناه: أن اسم اللـه يـذكر علـى الأعمـال، توقعـاً لاجتمـاع معـاني الخيرات فيها، وانتفاء عوارض الفساد.

وقيل: معناه: السلامة، كما قال تعالى: {فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْـحَابِ الْيَمِيـنِ}[305] أن المسلم أعلم من سلم عليه أنه سالم منه، وألا خوف عليه منه[306].

ص 110

قلت: هذه المعاني متلازمة؛ لأنه إذا حصل حفظ الله لعبده وكلاءته، وكان معه، فقد حصل له الخير والبركة والسلامة.

قال ابن دقيق العيد: " السلام يطلق علـى معـان، منهـا السـلامة، ومنهـا التحية، ومنها أنه اسم من أسماء الله –تعالى-، قال: وقد يأتي بمعنـى التحيـة محضاً، وقد يأتي بمعنى السلامة محضاً وقد يأتي متردداً بين المعنيين، كقوله –تعـالى-.. (ولا تقولـوا لمـن ألقـى إليكـم السـلم) [307]، فـإنه يحتمـل التحيـة والسلامة، وقوله –تعالى-: {وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ {57}سَلامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ}[308] [309] ا.هـ.

---

[301] انظر: "الفتح" (11/12).

[302] انظر: "سنن أبي داود" (1/23) الحديث السابع عشر، النسائي (1/37)، ابن ماجه رقم (350).

[303] انظر: "الفتح" (11/13).

[304] "معالم السنن على هامش السنن" (1/23).

[305] الآية 91 من سورة الواقعة.

[306] "الفتح" (11/13).

[307] في الآية قراءتان، في إحداهما : السلم، بمعنى الاستسلام والانقياد، أي استسلم وانقاد لطاعة الله وتوحيده، والأخرى: السلام، وفسرت بالتحية بأن يقول : السلام عليكم.

[308] الآيتان 57-58 من سورة يس.

[309] "الفتح" (11/13).

قلت: يمكن إرجاع هذه الإطلاقات إلى معنى واحد، إذ كلها في الحقيقة تدور على طلب السلامة، والخلاص من الشر والأذى، وهذا ما تضمنته التحية المشروعة بين المسلمين.

فالصواب: أن السلام أسم من أسماء الله –تعالى- كما تقدم، وقد أمر المسلمون أن يفشوه فيما بينهم، فعندما يلقي المسلم على أخيه ذلك، فإنه يذكر الله –تعالى-، طالباً منه السلامة، متوسلاً إليه بذكر اسمه- تعالى- المناسب لطلبه، فكأنه يقول: أنا مسالم لك أيها الأخ محب، وداع لك، وطالب حصول البركة والخير، والسلامة من كل مؤذ، ممن يملك ذلك، متوسلاً إليه في حصول ذلك باسمه السلام.

فتضمن ذلك ثلاثة أشياء:

أحدها: ذكر اسم الله –تعالى-.

الثاني: إعلام المسلم عليه: أنه مسالم له لا يناله منه أذى.

الثالث: طلب السلامة والخير له، وبهذا يظهر أن قول من قال: إنه يطلق على التحية بين المخلوقين، أنه لا يخالف كونه اسماً من أسماء الله، أي أنه ليس قسيماً له، بل التحية الواقعة بين المؤمنين هي ذكر اسم الله –تعالى-، المطلوب به حصول السلامة، وذلك أن السائل يسأل في كل مطلوب من الله بالاسم المناسب لمطلوبه،

ص 111

كما يعلم ذلك عند تأمل الأدعية الواردة في كتاب الله –تعالى-، وفي أحاديث رسوله –صلى الله عليه وسلم -، والله أعلم.

والصواب: أن مراد البخاري- رحمه الله تعالى- بهذه الترجمة: تنزيه الله –تعالى- عن مشابهة المخلوق، وأن اشتراكه – تعالى- مع المخلوق في الاسم، أو في معنى من المعاني، لا يكون فيه تشبيه، نحو اليد، والرجل، والاستواء، والمجيء، والضحك، والسخط، والعلم، والسمع، والبصر، وغير ذلك مما أثبته –تعالى- لنفسه، وأثبته له رسوله: لأنه –تعالى – السلام، أي: السالم من كل عيب ونقص يلحق المخلوق.

"قال ابن قتيبة: سمى نفسه سلاماً؛ لسلامته مما يلحق المخلوق من العيب والنقص والفناء، وقال الخطابي: معناه ذو السلام، والسلام في صفة الله تعالى هو: الذي سلم من كل عيب، وبرأ من كل آفة ونقص يلحق المخلوقين، وقد قيل: هو الذي سلم الخلق من ظلمه"ا.هـ[310].

---

[310]()"زاد المسير" (8/225).

قلت: هذا القول الأخير لا يخالف الذي قبله، بل كلاهما يدخل في اسمه تعالى: السلام. قال ابن كثير: "السلام من جميع العيوب والنقائص، بكماله في ذاته وصفاته وفي أفعاله"[311].

فالسلام من الكلمات الجامعة، وحقيقته: البراءة الخلاص والنجاة من الشر والعيوب، وعلى هذا المعنى تدور تصاريف هذا اللفظ، فمن ذلك: سلمك الله، وسلم فلان من الشر، ومنه دعاء الرسل على الصراط: "اللهم سلم سلم" وسلم الشيء لفلان، أي: خلص له وحده من ضرر الشركة فيه، قال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ}[312]أي: خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره. والسلم ضد الحرب، قال تعالى: {وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا}[313]؛ لأن كل واحد من المتحاربين يسلم من أذى الآخر ويخلص منه، والقلب السليم هو:

ص 112

النقي من الغل والدغل، الذي قد سلم لله وحده، فخلص من دغل الشرك وغله، ودغل الذنوب والمخالفات، فاستقام على حب الله وحسن معاملته، ولذلك ضمن له النجاة من عذابه، والفوز بكرامته.

والإسلام أخذ من هذا المعنى، فإنه: الاستسلام لله والانقياد له، والتخلص من شوائب الشرك، والبدع المضلة.

والجنة دار السلام، أي: دار السلامة من كل آفة ونقص وشر، فإطلاق السلام على الله تعالى اسماً من أسمائه، أولى من هذا كله، وهو أحق بهذا الاسم من كل مسمى به؛ لسلامته تعالى من كل عيب ونقص من كل وجه، فهو –تعالى- السلام الحق بكل اعتبار، سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم.

وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة، فهو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار، وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه، ونزهه به رسوله، فهو السلام من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل، والسلام من الشريك.

ولهذا إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلاماً مما يضاد كمالها.

فحياته –تعالى- سلام من الموت والسنة والنوم، وقيوميته وقدرته سلام من الحاجة والتعب واللغوب، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر أو تفكر، وإرادته –تعالى- سلام من خروجها عن

---

[311]() "تفسير ابن كثير" (8/105).

[312]() الآية 29 من سورة الزمر.

[313]() الآية 61 من سورة الأنفال.

الحكمة والمصلحة، وكلماته –تعالى- سلام من الكذب والخلف والظلم، بل تمت كلماته صدقاً وعدلاً، وغناه – تعالى – سلام من الحاجة إلى غيره في وجه من الوجوه، بل كل ما سواه فقير إليه محتاج، وملكه – تعالى – سلام من منازع فيه أو مشارك، أو معاون مظاهر، أو شافع عنده بدون إذنه، وإلهيته – تعالى – سلام من مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو، وحلمه، وعفوه، وصفحه، ومغفرته، وتجاوزه، سلام من أن تكون عن حاجة، أو ذل، أو مصانعة، كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه.
ص 113
وكذلك عذابه، وانتقامه، وشده بطشه، وسرعة عقابه، سلام من أن يكون ظلماً، أو تشفياً، أو غلظة أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله، ووضعه الأشياء مواضعها، فهو يستحق عليه الحمد والثناء، كما يستحق على إحسانه ونعمه.
وقدره وقضاؤه سلام من العبث والجور والظلم.
وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وعدم مصلحة العباد ورحمتهم"[314].
وهكذا جميع صفاته وأفعاله سلام من كل ما يتوهمه معطل أو يتخيله مشبه، تعالى ربنا السلام عما يضاد كماله.
و أما ذكره "المؤمن" مع السلام فلبيان أن ما تسمى الله به، وأطلق على غيره من خلقه، فإنه لا يكون بينه وبين من أطلق عليه مشابهة، فالله – تعالى – سمى نفسه: المؤمن، ومن اتصف بالإيمان من عباده يسمى: مؤمناً، ولكن الله – تعالى – سالم من النقائص والعيوب التي تلزم الخلق؛ لأنه – تعالى – هو السلام.
وهكذا كل ما يطلق على غيره –تعالى- مما سمى به نفسه أو اتصف به، نحو العزيز، والكريم، والرؤوف، والرحيم، والسميع، والبصير، والعليم. وهو كثير.
فلله- تعالى- ما يليق به من المعاني الكاملة السالمة من النقائص والعيوب، وللمخلوق ما يناسبه ويليق بضعفه، فهو محل كل عيب ونقص. والله أعلم.
المؤمن من أسمائه – تعالى- وهو على أحد التفسيرين: المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم، فهو الذي صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه، وشهد لهم بأنهم صادقون للدلائل التي دل بها على صدقهم – قضاء وخلقاً – فإنه – سبحانه- أخبر- وخبره الصدق وقوله الحق، أنه لابد أن يري عباده من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي

---

[314]() "بدائع الفوائد" ملخصاً (2/132-136)

الذي بلغته رسله حق، كما قال –تعالى-: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [315] فَشهد لرسوله أن ما جاء به حق، ووعده أن يري العباد من آياته الفعلية والخلقية: ما يشهد بذلك أيضاً، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل، وهو شهادته- تعالى- على كل شيء، فإن من

ص 114

أسمائه "الشهيد": الذي لا يغيب عنه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، بل هو مطلع على كل شيء وشاهد له، عليم بتفاصيله، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته، والأول استدلال بقوله وكلماته، والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته "[316].

وقال ابن الجوزي: "فأما المؤمن ففيه ستة أقوال:

أحدها: أنه الذي أمن الناس ظلمه، وأمن من آمن به عذابه.

الثاني: أنه المجيب.

الثالث: أنه الذي يصدق المؤمنين إذا وحدوه.

الرابع: أنه الذي وحد نفسه؛ لقوله –تعالى-: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ} [317].

الخامس: أنه الذي يصدق عباده وعده.

السادس: أنه الذي يصدق ظنون عباده المؤمنين؛ ولا يخيب آمالهم"أ.هـ[318].

قلت: هذه الأقوال كلها حق، ويدل عليها اسمه –تعالى- "المؤمن" فهو المصدق الذي يصدق رسله بما يقيمه من الدلائل التي تدل على صدقهم فيما جاؤوا به وبلغوه عنه –تعالى-، ويصدقهم وعده بنصره إياهم على عدوهم، وبصدق عباده ما أخبرهم به من توفيتهم ما يستحقونه جزاء أعمالهم، ولا يضيع أجر أحد منهم ويؤمنهم من الظلم، فلا يخافون ظلماً ولا هضماً، فهو الذي يجير عباده وينجيهم من المهالك والمخاوف، وهو الذي شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

11- قال:" حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا مغيرة، حدثنا شفيق بن سلمة قال: قال عبد الله: كنا نصلي خلف النبي –صلى الله عليه وسلم- فنقول:السلام على الله، فقال النبي-صلى الله عليه وسلم-:" إن الله هو السلام، ولكن قولوا: التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها

---

[315]() الآية 53 من سورة فصلت

[316]() "مدارج السالكين" (3/466).

[317]() الآية 18 من سورة آل عمران .

[318]() "زاد المسير" (8/225).

النبي، ورحمة الله وبركاته، السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

ص 115

عبدالله، هو عبدالله بن مسعود بن غافل، الهذلي، من أهل السوابق، هاجر قديماً إلى الحبشة، وقد شهد مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم- جميع غزواته، ولازمه، وخدمه، فكان يقال له: صاحب السواك، والنعل؛ لأنه كان يحمل سواك رسول الله-صلى الله عليه وسلم- ونعله.

وفي "الصحيحين" أن أبا موسى قال:" قدمت أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حيناً وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم-؛ لما نرى من كثرة دخولهم على رسول الله-صلى الله عليه وسلم- ولزومهم له".

وقال حذيفة:" ما نعلم أحداً أقرب سمتاً ودلاً وهدياً برسول الله-صلى الله عليه وسلم- من عبد الله بن مسعود، ولقد علم المحظوظون من أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة".

وهو من علماء الصحابة، وفقائهم، توفي في الكوفة، وقيل: في المدينة، سنة اثنتين- أو ثلاث – وثلاثين، وله بضع وستون وسنة ا.هـ. [319]

قوله: "فنقول: السلام على الله"، كأنهم رأوا السلام من قبيل الحمد، والشكر، فجوزوا ثبوته لله – تعالى -، وهو تعالى السلام، والسلام منه بدأ وإليه يعود، إذ هو –تعالى- واهب السلام لعباده، الذي به يسلمون من شرور أنفسهم، وشرور أعدائهم من الجن والإنس، وهو –تعالى- السالم من كل ما فيه نقص أو شين، فلا يطلب له السلام، ولهذا قال معلم الهدى- صلى الله عليه وسلم-:" إن الله هو السلام" أي السالم من أن يلحقه حاجة، أو يناله تغير أو آفة، بل هو الكامل في أوصافه العليا، وأسمائه الحسنى، وهو الغني بذاته عن كل ما سواه.

وهذا الجزء من الحديث هو محل الشاهد الذي سيق من أجله؛ لأنه يدل على أن الله –تعالى- سالم من جميع العيوب والنواقص التي تلحق الخلق، فإذا سمى نفسه باسم قد يتسمى به بعض خلقه، أو وصف نفسه بصفة قد يتصف بها بعض خلق ه، فالمعاني التي يدل عليها اسمه أو صفته تخصه- تعالى- لا يشاركه فيها المخلوق.

ص 116

---

[319]() "الرياض المستطابة" ملخصاً ، وانظر:" الإصابة" (4/233) ، و "تهذيب التهذيب" (6/27) ، و "سير أعلام النبلاء" (1/461).

وكل نقص في المخلوق فهو –تعالى- سالم منه، ومتنزه عنه، كما تقدم، فهو السلام المؤمن.

قوله:" التحيات لله، قال في "اللسان":" التحيات لله" معناه" البقاء لله، والسلامة من الآفات كلها التي تلحق العباد من العناء، وأسباب الفناء"[320].

وكذا قال غيره من أهل اللغة.

وجيء بلفظ الجمع ليدل على أن الله –تعالى- يستحق جميع الكمالات، من العظمة، والبقاء، والملك، والسلامة من الآفات والنقص، وغير ذلك.

قال الخطابي:" لم يكن في تحياتهم شيء يصلح به الثناء على الله –تعالى-، فلهذا أبهمت ألفاظها، واستعمل منها معنى التعظيم، فقال:" قولوا: التحيات لله" أي: أنواع التعظيم له" ا.هـ.[321]

وقوله: " لله" يفيد وجوب الإخلاص في العبادة، أي أن ذلك لا يجوز أن يكون لغير الله منه شيء.

"والصلوات" أي جميع العبادات له استحقاقاً بمقتضى العقل، وبالشرع، وذلك مثل الركوع، والسجود، والقيام، والدعاء، وأنواع العبادة له وحده لا شريك له في ذلك.

"والطيبات" أي الأعمال الطيبات له – تعالى- يتوسل بها إليه، وهو –تعالى- لا يقبل إلا طيباً، "وما طاب من الكلام وحسن أن يثنى به على الله، دون ما لا يليق بصفاته"[322]، والوصف بالطيب يفيد خلوصها من الشرك، وشوائبه، وسلامتها من البدع.

ص 117

"السلام" اسم الله –تعالى- الدال على سلامته من كل نقص وعيب، فيدعى الله –تعالى- به؛ ليسلم من ذكر عليه هذا الاسم الشريف، من المكاره والمخاوف.

"عليك أيها النبي" أمرهم أن يفردوه بالسلام، ويقدموه على أنفسهم، لوجوب حقه عليهم، ووجوب محبته التي يجب أن تكون مقدمة على النفس، وما دونها.

والأحاديث متقفة على لفظ الخطاب، وذكر حرف النداء "عليك أيها النبي" وقد عدل بعض الصحابة بعد وفاته –صلى الله عليه وسلم- إلى لفظ

---

[320]() "لسان العرب" (1/775) المرتب.

[321]() "فتح الباري" (2/313) ولفظ الخطابي لما ذكر ألفاظ تحياتهم لمعظميهم قال:" وهذه الألفاظ ونحوها مما يتحيا به الناس فيما بينهم لا يصلح شيء منها للثناء على الله- عز وجل- ، فتركت أعيان تلك الألفاظ، واستعمل منها معنى التعظيم ، فقيل: قولوا : التحيات لله، أي الثناء على الله والتحميد وأنواع التعظيم له كما يستحقه ويجب له" . "أعلام الحديث" (2/545).

[322]() المصدر نفسه.

خطـاب الغـائب فقـالوا: "السـلام علـى النـبي" كمـا ذكـره البخـاري فـي الاستئذان[323]، وابو عوانة في مسنده[324]، وغيرهما.

وقال عبدالرزاق:" عن ابن جريج، عن عطـاء: أن أصـحاب النـبي –صـلى الله عليه وسلم- كانوا يسلمون والنبي-صلى الله عليه وسـلم- حـي: السـلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركـاته، فلمـا مـات قـالوا: السـلام علـى النـبي ورحمة الله وبركاته"[325].

وبهذا السند أيضاً:" سمعت ابن عباس، وابن الزبير، يقـولان فـي التشـهد في الصلاة: التحيات المباركـات للـه، الصـلوات الطيبـات للـه، السـلام علـى النبي ورحمة الله وبركاته"[326].

و الأولى: اتباع لفظ الحديث كما عليه الجمهور من الصحابة، ومن بعدهم من أهل العلم، وكما أنه لا فرق بين الحاضر معه في وقـت حيـاته، وبيـن مـن كان غائباً، فكذلك بعد وفاته.

والنداء لطلب استحضار المنادي فـي القلـب، فيخـاطبه كـأنه شـاهد فـي قلبه، ومثل هذا معروف فـي كلام العـرب، وأشـعارهم، يخـاطب أحـدهم مـن يتصوره في نفسه، وإن لم يكن في الخارج من يسمع خطابه، قال حسان بن ثابت- رضي الله عنه- في رثائه لرسول الله-صلى الله عليه وسلم-:

ص 118

ما بال عينـك لا تنـام كأنهـا	كحلـــت مآقيهـــا بكحـــل الأرمد
جزعاً على المهـدي أصـبح ثاويـاً	يا خير من وطيء الحصـى لا تبعـد
وجهي يقيـك لهفـي ليتنـي	غيبـــت قبلـــك فـــي بقيـــع الأعظمي
أأقيم بعدك بالمدينة بينهـم	الأســـــــــــــود[327]

وقال امرؤ القيس:

يـا أيهـا السـاعي ليـدرك	قـــــــــــــــتيلاً[328]

وقالت الخنساء في أخيها صخر:

ألا يا صخر إن أبكيت عيـن	لقد أضحكتني دهراً طويلاً
بكيتك فـي نسـاء معـولات	وكنـــت أحـــق مـــن أبـــدى العويلا
دفعـت بـك الجليـل وأنـت	فمـــن ذا يـــدفع الخطـــب الجليلا

---

[323]() انظر: "الفتح" (11/56).
[324]() انظر: " مسند أبي عوانة" (ص 229).
[325]() انظر: " المصنف" (2/204).
[326]() المصدر نفسه ، (ص 203).
[327]() انظر :" ديوان حسان" (ص 97).
[328]() انظر :" ديوان امرؤ القيس" (ص 178).

إذا قبح البكـاء علـى قتيـل	الجميلا[329]

وهذا كثير جدا، ولا يحتاج إلى ذكر الشواهد عليه؛ لشهرته، وبهـذا وأمثـاله يتبين ضلال المغرورين الذين يستغيثون بالأنبيـاء، والأوليـاء، ويتعلقـون بشـبه واهية، مثل استدلالهم بلفظ النداء، والخطاب المذكور في هذا الحديث، على حضور النبي –صلى الله عليه وسلم- عند كـل مـن ينـاديه، ويخـاطبه؛ ولـذلك جوزوا التوجه إليه، ومناداته، في كل ملمة، فضلوا بذلك وأضلوا كثيراً.

مع أن هذه الصيغة هي التي كان النبي-صلى الله عليه وسلم- يقولها في تشهده والأمة تبع له، تقول مثل ما كان يقول، كما في شـرح الآثـر للطحـاوي بسنده إلى عبدالله بن الزبير، قال:" إن تشهد رسول اللـه –صـلى اللـه عليـه وسـلم- الـذي كـان يتشـهد بـه: بسـم اللـه، وبـالله،خيـر الأسـماء، التحيـات، الطيبات، الصلوات لله، أشهد أن لا إله إلا الله وحـده، لا شـريك، وأن محمـداً عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيراً، ونذيراً، وأن

ص 119

الساعة آتية لا ريب فيها، السلام عليك أيها النـبي، ورحمـة اللـه وبركـاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، اللهم اغفر لي واهدني" ا.هـ. [330]

وهو أيضاً عند البزار[331].

قال الحافظ: " فإن قيل: لم عدل عـن الوصـف بالرسـالة إلـى الوصـف بالنبوة، مع أن الوصف بالرسالة أعم في حق البشر؟

أجـاب بعضـهم: بـأن الحكمـة فيـه أن يجمـع لـه الوصـفين؛ لأنـه وصـفه بالرسالة في آخر التشهد، وإن كـانت الرسـالة تسـتلزم النبـوة، لكـن الجمـع بينهما أبلغ"[332]، ولأنها وجدت في الخارج مقدمة علـى الرسـالة فـي الـوحي كما في قوله –تعالى-: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [333].

ص 120

قال: "باب قول الله –تعالى-: {مَلِكِ النَّاسِ} فيه ابن عمـر عـن النـبي –صلى الله عليه وسلم- ".

الملك هو: المتصرف بالأشياء حسب إرادتـه، ومشـيئته، لا راد لأمـره، ولا معقب لحكمه.

وخص الناس؛ لأنهـم الـذين يملكـون بعـض الأشـياء، وفيهـم ملـوك فهـو-تعالى- ملك من يملك، وملك الملوك، فـدخل غيرهـم فـي المعنـى، وملكـه –تعالى – دائم لا يزول.

---

[329] () انظر :" ديوان الخنساء" (ص 120)

[330] () "شرح معاني الآثار" (1/265).

[331] () انظر :" كشف الأستار" (1/272).

[332] () انظر :" الفتح" (2/314).

[333] () الآية 1 من سورة العلق.

قال الطبري: أخبر أنه ملك الناس "وهو ملك جميع الخلق، إنسهم وجنهم وغير ذلك، إعلاماً منه بذلك من كان يعظم الناس تعظيم المؤمنين ربهم، أنه ملك من يعظمه، وأن ذلك في ملكه وسلطانه، تجري عليه قدرته، وأنه أولى بالتعظيم، وأحق بالتعبد له ممن يعظمه، وتعبد له من الناس" ا.هـ. [334]

قال الراغب: " الملك هو: المتصرف بالأمر والنهي"[335].

وقال الزجاج: " قال أصحاب المعاني: الملك: النافذ الأمر في ملكه، إذ ليس كل مالك ينفذ أمره وتصرفه فيما يملكه، فالملك أعم من المالك، والله –تعالى- مالك المالكين كلهم، إنما استفادوا التصرف في أملاكهم من جهته – تعالى-"[336].

وقال الطبري: " ولا خلاف بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب أن الملك من الملك مشتق؛ وأن المالك من الملك[337] مأخوذ، فتأويل قراءة من قرأ "مالك يوم الدين" أن لله الملك يوم الدين خالصاً؛ دون جميع خلقه الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكاً جبابرة، ينازعونه الملك، ويدافعونه الانفراد بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية، فأيقنوا بلقاء الله يوم الدين أنهم الصغرة الأذلة، وأن له – دونهم ودون غيرهم – الملك والكبرياء، والعزة والبهاء، كما قال- جل ذكره

ص 121

وتقدست أسماؤه -: {يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [338]، فأخبر – تعالى ذكره- أنه المنفرد يومئذ بالملك، دون ملوك الدنيا، الذين صاروا يوم الدين من ملكهم إلى ذلة وصغار، ومن دنياهم في معادهم إلى خسار"[339].

قوله: " فيه ابن عمر" أي يدخل في هذا الباب حديث ابن عمر، وهو كحديث أبي هريرة المذكور في هذا الباب سواء، وسيأتي إن شاء الله – تعالى-.

ص 122

12-قال: " حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، عن سعيد- هو ابن المسيب- عن أبي هريرة – رضي الله عنه- عن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال:" يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟".

---

[334] () "تفسير الطبري" (30/354).
[335] () "المفردات" (ص 472).
[336] () "تفسير الأسماء الحسنى" (ص 30).
[337] () الأول بضم اليم والثاني بكسرها .
[338] () الآية 16 من سورة غافر .
[339] () "تفسير الطبري" (1/148-149).

أبو هريرة عرف بكنيته، واختلف في اسمه واسم أبيه اختلافاً كثيراً، وصحح البخاري والنووي وغيرهما من الحفاظ أن اسمه عبد الرحمن بن صخر.

قدم على النبي –صلى الله عليه وسلم- مسلماً وهو يقسم غنائم خيبر، ثم لازم رسول الله-صلى الله عليه وسلم- حضراً وسفراً، فلم يشغله عن ملازمته أهل ولا مال.

وهو أحفظ الصحابة، بل أحفظ الأمة، ولهذا صار هدفاً لأهل الإلحاد بسبب كثرة ما يغضبهم من مروياته.

قال الشافعي: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث دهراً. [340]

جاء في "صحيح مسلم" في قصة إسلام أمه، أنه قال:" قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يحببني الله أنا وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا؟ فقال النبي –صلى الله عليه وسلم-: اللهم حبب عبدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهما المؤمنين".

قال أبو هريرة: " فما خلق الله مؤمناً يسمع بي، ولا يراني، إلا أحبني"[341].

ولهذا صار حبه علامة الإيمان، وبغضه علامة النفاق والكفر.

توفي- رضي الله عنه- في المدينة، وقيل: بالعقيق، سنة سبع- أو تسع – وخمسين عن ثمان وسبعين سنة. [342]

قوله: " يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه"، القبض هو: أخذ الشيء باليد وجمعه، والطي هو ملاقاة الشيء بعضه على بعض، وجمعه – ولفه- وهو قريب من القبض، وهذا من صفات الله –تعالى- الفعلية – التي تتعلق

بمشيئته وإرادته، وهي ثابتة بآيات كثيرة وأحاديث صحيحة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، وهي مما يجب الإيمان به؛ لأن ذلك داخل في الإيمان بالله – تعالى-، ويحرم تأويلها المخرج لمعانيها عن ظاهرها، وقد دل على ثبوتها لله –تعالى – العقل أيضاً، فإنه لا يمكن لمن نفاها إثبات أن الله هو الخالق لهذا الكون المشاهد، لأن الفعل لا بد له من فاعل، والفاعل لا بد له من فعل، وليس هناك فعل معقول إلا ما قام بالفاعل، سواءً كان لازماً كالنزول والمجيء، أو متعدياً كالقبض والطي، فحدوث ما يحدثه – تعالى – من المخلوقات تابع لما يفعله من أفعاله الاختيارية القائمة به – تعالى -.

---

[340]() انظر :" تهذيب الأسماء واللغات" (1/270).

[341]() "صحيح مسلم" (4/1939).

[342]() انظر : " الإصابة" (7/425) ، "سير أعلام النبلاء" (2/578)، "الاستيعاب" (4/1768) ، "أسد الغابة" (6/318) وغيرها .

وهو –تعالى- حي قيوم، فعال لما يريد، فمن أنكر قيام الأفعال الاختيارية به – تعالى-[343] فإن معنى ذلك أنه ينكر خلقه لهذا العالم المشاهد، وغير المشاهد، وينكر قوله: إنه على كل شيء قدير، فالعقل دل على ما جاء به الشرع. [344]

وما صرح به في هذا الحديث من القبض والطي، قد جاء صريحاً أيضاً في كتاب الله -تعالى-، كما قال -تعالى-: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [345]

والأحاديث والآثار عن السلف في صريح الآية، والحديث المذكور في الباب، كثيرة وظاهرة جلية، لا تحتمل تأويلاً ولا تحتاج إلى تفسير، ولهذا صار تأويلها تحريفاً وإلحاداً فيها، وسيأتي – إن شاء الله تعالى – ذكر ما تيسر من ذلك في باب قوله – تعالى-: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}.

وقوله: " ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟" أي: أنه –تعالى- ينفرد بالملك، فهو الملك حقاً الذي لا منازع له، ولا معاون، ولا ظهير، ولا شريك، وفي ذلك اليوم، عندما يقبض الأرض بيده، ويطوي السماوات بيمينه، ويصبح كل شيء في قبضته، ينادي الذين كانوا ينازعونه في الدنيا ملكه، ويتعدون على سلطانه، من المتكبرين، والمتجبرين، من ملوك الدنيا، وقد انفرد مالك الملك الواحد القهار، ذي

ص 124

السلطان – وهو منفرد به في كل آن، غير أنه في ذلك اليوم ينكشف جلياً – فيناديهم بما يتضمن توبيخهم وتهديدهم: أين ملوك الدنيا؟ فهل يستطيعون منعاً أو رداً؟ وهل لديهم قوة أو حيلة أو فدى؟ لقد ذهب منهم كل شيء، وبقيت التبعات والذل والحسرات.

قال بعض شراح البخاري:" قوله: {مَلِكِ النَّاسِ} داخل في معنى التحيات لله، أي: الملك لله، وكأنه –صلى الله عليه وسلم- أمرهم بأن يقولوا التحيات، امتثالاً لأمر {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس {1} مَلِكِ النَّاسِ}".

ثم قال: " وفي الحديث إثبات اليمين صفة لله – تعالى -، من صفات الذات، وليست جارحة خلافاً للمجسمة"[346].

قلت: قوله: " وليست جارحة" من كلام أهل البدع، الذين عدلوا عما جاء في الكتاب والسنة من الألفاظ إلى ما ابتدعوه من الألفاظ الموهمة للنقص

---

[343] () قلنا : الاختيارية ؛ لأنها تقع باختياره –تعالى- وإرادته ومشيئته .

[344] () أنصح القارئ بالرجوع في هذه المسألة العظيمة : إلى كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، كدرء تعارض العقل والنقل والرسالة الكمالية ، وغيرهما من كتبه .

[345] () الآية 67 من سورة الزمر .

[346] () "فتح الباري" (13/368).

–تعالى الله-، توهماً منهم أن تلك الألفاظ الواردة في كتاب الله، وسنة رسوله، يتضمن ظاهرها التشبيه لصفات الخلق، وهذا من ظن السوء بالله وبكتابه وبرسوله، الذي أرداهم فضلوا سواء السبيل، وأضلوا كثيراً من عباد الله.

وقوله: "خلافاً للمجسمة" يقال له: من هم المجسمة الذين تقصدهم؟ وهل تستطيع أن تعين طائفة تؤمن بكتاب الله وسنة رسوله تقول: إن يمين الله جارحة؟ أو أن الله جسم؟[347] فهؤلاء لا وجود لهم، ولكن مراده: الذين آمنوا بمثل هذا النص على ظاهره، وقالوا: إن لله يدين حقيقتين بدون تأويل، كما هو الواجب على المسلم؛ لأنه صريح النصوص، وأيقنوا أن تأويل اليد واليمين، ونحوها من صفات الله، بالقوة، أو القدرة، أو النعمة، أو ما أشبه ذلك، تحريف كتحريف اليهود الذين حرفوا الكلم عن مواضعه.

ص 125

فهذا الشارح ومن على نهجه إلى اليوم يسمون هؤلاء مجسمة، ظناً منهم أن من أثبت هذه الصفات على ظاهرها، لزمه أن يكون مجسماً لربه، ومشبهاً له بأجسام الخلق، تعالى الله أن يكون له مثل أو شبيه.

قال شيخ الإسلام: "وليس هناك من أطلق لفظ الجسم، لكن نفاة الصفات يسمون كل من أثبتها مجسماً، بطريق اللزوم، إذ كانوا يقولون: إن الصفات لا تقوم إلا بالجسم، وذلك أنهم اصطلحوا في معنى الجسم على غير المعنى المعروف في اللغة، فإن الجسم في اللغة هو البدن، وهم يسمون كل ما يشار إليه جسماً، فيلزم على قولهم أن كل ما جاء به الكتاب والسنة وما فطر الله عليه عباده، وما {عليه} سلف الأمة، وأئمتها، تجسيماً، فهم يطلقون لفظ المجسمة والمشبهة، على أتباع السلف"[348].

وقال: " لفظ الجسم لم يتكلم به أحد من الأئمة والسلف، في حق الله - تعالى - لا نفياً ولا إثباتاً، ولا ذموا أحداً ولا مدحوه بهذا الاسم، ولا ذموا مذهباً ولا مدحوه بهذا الاسم، وإنما تواتر عنهم ذم الجهمية، الذين ينفون الصفات، وذموا طوائف منهم، مثل المشبهة، وبينوا مرادهم بالمشبهة"[349].

قال الحافظ: " الذي يظهر لي أنه أشار {بهذه الترجمة} إلى ما قاله شيخه نعيم بن حماد:" يقال للجهمية: أخبرونا عن قول الله -تعالى- بعد فناء خلقه، {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} فلا يجيبه أحد، فيرد على نفسه:

---

[347]() الذين نسبوا إلى التجسيم وذكرهم أصحاب المقالات بأسمائهم : هشام بن الحكم ، وهشام ابن سالم الجواليقي ، ومقاتل بن سليمان ، وداود الجواربي ، وكلهم رافضة ، ما عدا مقاتل بن سليمان فإنه لم يثبت أنه قال بالتجسيم ، وليس هو من الرافضة .

[348]() "بيان تلبيس الجهمية" (1/626).

[349]() نفس المصدر (1/47) ، ومراد السلف بالمشبهة: الذين يمثلون صفاته تعالى بصفات خلقه ، نحو اليد والوجه ، فيجعلون يده تعالى كيد المخلوق ، ووجهه كوجه المخلوق ، تعالى الله عن ذلك .

{لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} وذلك بعد انقطاع ألفاظ خلقه بموتهم، أفهـذا مخلـوق؟"[350]

قلت: يظهر لي أن مراده بهذا الباب كالبـاب الـذي قبلـه، أن هـذا الاسـم الكريم (الملك) من أسماء الله الحسنى، وقد أطلق علـى بعـض خلقـه، ولـم يكن في ذلك
ص 126
تشبيه، إذ المعنى الذي يختص به اللـه -تعـالى- لا يشـاركه فيـه أحـد مـن خلقه، فهو مالك الملك، وله الملك التام المطلق، وهـو الـذي يهـب للمخلـوق الملك، مع أن ملك المخلوق ناقص يناسب نقصه، قال -تعـالى-: {قُـلِ اللَّهُـمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّـن تَشَـاء وَتُعِـزُّ مَـن تَشَـاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [351].

وأما التوفيق بين الحديث، والترجمة فظاهر، وهو أن الناس الـذين يوجـد منهم الملوك والجبابرة، والذين يذل لهم ويخضع بعض العبـاد، وقـد يصـرفون لهم ما هو خالص حـق اللـه مـن العبـادة، هـؤلاء ملـكٍ لـه، تحـت قهـره، آخـذ بنواصيهم، يتصرف فيهم كيف يشاء، ويظهر ذلك جلياً لكـل أحـد، يـوم يقبـض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه، ويقول: أنا الملك، أيـن ملـوك الأرض؟ فيعرف قدرهم وقدر ملكهم الذي أورثهم الذل والصغار، والله أعلم.

---

[350] () "الفتح" (13/368).
[351] () الآية 26 من سورة آل عمران .

ص 127

قال: " باب قول الله -تعالى-: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [352]، {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} [353]، {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ} [354]، ومن حلف بعزة الله، وصفاته".

{العزيز} هو الذي له العزة التامة، والقوة الكاملة، فلا يعجزه شيء، القاهر لكل شيء فلا يمتنع من قوته شيء، المنيع الذي لا ينال ولا يغالب.

"فالعزة تتضمن القوة، ولله القوة جميعاً، يقال: عز يعز – بفتح العين- إذا اشتد وقوى، ومنه الأرض العزاز – الصلبة الشديدة – ويعز يعز – بكسر العين- إذا امتنع ممن يرومه، ويعز يعز – بضم العين – إذا غلب وقهر.

فأعطوا أقوى الحركات – وهي الضمة- لأقوى المعاني، وهو الغلبة والقهر للغير، وأضعفها – وهي الفتحة – لأضعف هذه المعاني، وهو كون الشيء في نفسه صلباً، والحركة المتوسطة – وهي الكسرة – للمعنى المتوسط، وهو القوي الممتنع عن غيره، ولا يلزم منه أن يقهر غيره، ويغلبه.

والعز ضد الذل، والذل أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة، ولهذا يوصف به المؤمن، ولا يكون ذماً له، بخلاف الكبر.

قال رجل للحسن البصري: إنك متكبر، فقال:" لست بمتكبر، ولكني عزيز".

وقال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [355].

وقال ابن مسعود:" ما زلنا أعزة، منذ أسلم عمر"[356].

ص 128

وقال النبي –صلى الله عليه وسلم- " اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين، عمر بن الخطاب، أو أبي جهل بن هشام"[357].

وفي بعض الآثار:" إن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك، ولا يجدونها إلا في طاعة الله – عز وجل – ".

وفي الحديث:" اللهم أعزنا بطاعتك، ولا تذلنا بمعصيتك".

وقال بعضهم:" من أراد عزاً بلا سلطان، وكثرة بلا عشيرة، وغنى بلا مال، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة".

---

[352]() الآية 4 من سورة إبراهيم ، و الآية 60 من سورة النحل ، و الآية 26 ،42 من سورة العنكبوت أيضاً ، و الآية 27 من سورة الروم ، و الآية 9 من سورة لقمان ، و الآية الثانية من سورة فاطر ، و الآية الأولى من سورة الحديد ، و الآية الأولى من سورة الحشر ، و الأخيرة منها ، و الآية الأولى من سورة الصف ، و الآية الثالثة من سورة الجمعة .

[353]() الآية 180 من سورة الصافات .

[354]() الآية 8 من سورة المنافقون .

[355]() الآية 8 من سورة المنافقون .

[356]() رواه البخاري وغيره ، انظر :" الفتح" (7/41).

[357]() قال الهيثمي: رواه الطبراني في "الكبير" و "الأوسط" ، انظر : "مجمع الزوائد" (9/61).

فالعزة من جنس القوة" اهـ[358].
قال الحافظ:" العزيز الذي يقهر ولا يقهر، فإن العزة التي لله –تعالى- هي الدائمة الباقية وهي العزة الحقيقية الممدوحة، وقد تستعار العزة للحمية والأنفة، فيوصف بها الكافر والفاسق، وهي صفة مذمومة، ومنه قوله –تعالى-: {أخذته العزة بالإثم} [359]، وأما قوله: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [360]، فمعناه: من كان يريد أن يعز، فليكتسب العزة من الله، فإنها لا تنال إلا بطاعته، ومن ثم أثبتها لرسوله وللمؤمنين، فقال –تعالى-: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ} [361]، وقد ترد العزة بمعنى الصعوبة، كقوله –تعالى-: {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} [362]، وبمعنى الغلبة ومنه {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} [363]، وبمعنى القلة: كقولهم: شاة عزوز، إذا قل لبنها، وبمعنى الامتناع، ومنه قولهم: أرض عزاز، بفتح أوله مخففا" ا.هـ[364].
ص 129
{الحكيم} هو الذي يضع الأشياء مواضعها التي يحسن أن توضع فيها، ولا يدخل تدبيره خلل ولا زلل، وهذا من أسمائه -تعالى- الحسنى التي كثر ذكرها، في القرآن، وما جاء عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وهو -تعالى- موصوف بالحكمة، وقد دل على ذلك شرعه -تعالى- وخلقه، فمن الضلال إنكار ذلك، وكفى بالمرء ضلالاً أن ينفي عن الله -تعالى- ما وصف به نفسه، ووصفه به رسله.
{سُبْحَانَ رَبِّكَ} " أصل التسبيح عند العرب: التنزيه لله عن إضافة ما ليس من صفاته إليه، والتبري من ذلك، كما قال أعشى بني ثعلبة:
أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر
أي: سبحان الله من فخر علقمة، أي تنزيها لله مما أتي علقمة من الافتخار على وجه التكبر منه لذلك"[365].
وقال أيضاً:" وسبحان: اسم مصدر، لا تصرف له، ومعناه: نسبحك"[366].
وفي "تاج العروس": " وسبحانه: تنزيها لله عن كل ما لا ينبغي أن يوصف به، قال الزجاج: سبحان في اللغة: تنزيها لله – عز وجل – عن السوء"[367].

---

[358] () "طريق الهجرتين" (ص 109)
[359] () الآية 206 من سورة البقرة .
[360] () الآية 10 من سورة فاطر .
[361] () الآية 8 من سورة المنافقين .
[362] () الآية 128 من سورة التوبة .
[363] () الآية 23 من سورة ص.
[364] () "الفتح" (13/369) وذكر أن هذا كلام الراغب ، ولكن الحافظ تصرف فيه وغير وزاد ونقص، ولهذا أضفته إليه .
[365] () ابن جرير الطبري في "تفسيره" (1/211).
[366] () المصدر نفسه (1/221).
[367] () "تاج العروس" (2/156).

فالتسبيح: تنزيه الله – تعالى- عما لا يليق بعظمته، مأخوذ من السبح، وهو الإبعاد والسرعة في السير، يقال: فرس سبوح، إذا كانت تسرع في السبح الذي هو السير والجري، ومنه قوله -تعالى-: {وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا} فسرت بالخيل، وبالسفن، وبالنجوم، وكلها تسبح وتبعد في سبحها.

وقوله {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ} أي ذي العزة وصاحبها، فرب هنا بمعنى ذي وصاحب، والعزة صفته، فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، وأخذ اسمه تعالى "العزيز" منها.

وقوله: {عَمَّا يَصِفُونَ} أي: تنزيها وتقديساً لذي العزة التي لا ترام، عن الذي يصفه به المشركون، من أن له صاحبة أو ولداً، أو شريكاً، أو ولياً من الذل، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه، أو أن أحداً يتصرف في ملكه بدون إرادته ومشيئته.

ص 130

وتنزيهاً لذي العزة التي غلب بها كل شيء عما يقوله المعطلون لصفاته، حيث أنكروها أو أولوها تأويلاً يؤول إلى إنكارها، وتنزيهاً له -تعالى- عما يقوله المحرفون الملحدون في صفاته الظانون بالله ظن السوء، حيث توهموا أن اتصافه -تعالى- بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله –صلى الله عليه وسلم – يقتضي التشبيه، فحرفوا صفاته عما أراده بناء على أوهامهم الباطلة.

وقوله: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} أي: لله القوة والغلبة والقهر.

والعزة من صفات ذاته –تعالى- التي لا تنفك عنه، بعزته وقهر بها كل شيء، وكل عزة حصلت لخلقه فهي منه، وكل من كان إليه أقرب وله أطوع كانت عزته أتم وأكمل من غيره، ولهذا قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} وسبب نزول هذه الآية الكريمة قول رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الذي ذكره الله عنه: {لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ} [368]، كما ثبت في "الصحيحين" وغيرهما[369]، يقصد بالأعز: نفسه وذويه، وبالأذل: رسول الله صلى الله عليه وسلم – وأصحابه.

وقوله: "ومن حلف بعزة الله وصفاته". وصفاته: من عطف العام على الخاص، ومراده: أنه قد ثبتت النصوص بالحلف بعزة الله وبصفاته، نحو كلماته، وقد تقرر في دين الإسلام، أنه لا يحلف بغير الله -تعالى- وأن الحلف بغيره شرك كما صح عن الرسول –صلى الله عليه وسلم – أنه قال: "من حلف بغير الله، فقد كفر أو أشرك"[370] وعند أبي داود، "من حلف بغير الله فقد أشرك"[371].

---

[368]() الآية 8 من سورة المنافقون.

[369]() انظر: البخاري مع "الفتح" (8/644)، و"مسلم" (4/1998).

[370]() رواه الترمذي وقال: حسن، انظر: الترمذي مع "تحفة الأحوذي" (2/371).

[371]() "السنن" (3/570)، ورواه أحمد في "مسنده" (2/34).

وعنده أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم -: "لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون"[372].

ص 131

وفي"الصحيحين" عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم – أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب، يحلف بأبيه، فقال: "ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً بالله أو ليصمت"[373].

وبهذا يتبين أن الحلف بقدرة الله وعزته وسائر صفاته، أنه كالحلف به -تعالى-، وأن صفاته ليست مخلوقة؛ لأنه لا يجوز الحلف بالمخلوق، ولا منفصلة عنه-تعالى-.

وبهذا يظهر مراد البخاري –رحمه الله- بهذا الباب وهو إثبات الصفات لله –تعالى-، والرد على من أنكرها كالمعتزلة، ومن تابعهم، وقد تقدم الكلام في ذلك.

قال الحافظ: "والذي يظهر أن مراد البخاري بالترجمة: إثبات العزة لله، راداً على من قال: إنه عزيز بلا عزة، كما قالوا: العليم بلا علم"[374].

قلت: لا يقصد إثبات العزة بخصوصها، بل مع سائر الصفات كما هو ظاهر.

قوله: "وقال أنس: عن النبي –صلى الله عليه وسلم -: "تقول جهنم: قط قط وعزتك".

وقال أبو هريرة: عن النبي –صلى الله عليه وسلم -: يبقى رجل بين الجنة والنار، وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة، فيقول: رب أصرف وجهي عن النار، لا أسألك غيرها".

قال أبو سعيد: إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم – قال: "قال الله – عز وجل-: "لك ذلك وعشرة أمثاله".

وقال أيوب: "وعزتك، لا غنى بي عن بركتك".

هذه المعلقات قد رواها موصولة، فحديث أنس سيذكره في هذا الباب موصولاً، وحديث أبي هريرة يأتي كذلك، وقد تقدم أيضاً في الرقاق، وقول أيوب عليه السلام قد رواه في الوضوء، وفي أحاديث الأنبياء.

والمراد من هذه الأحاديث هنا ظاهر، إذ فيها الحلف بعزة الله-تعالى- ولا يحلف إلا بالله أو بصفاته، ولكن حديث أبي هريرة لم يذكر محل الشاهد منه، وإنما أشار إليه، وهو قول الرجل يخاطب رب العالمين: "وعزتك، لا أسألك غيرها".

---

[372]()"السنن" (3/569).

[373]()انظر: "البخاري مع الفتح" (11/530)، و"مسلم" (4/1239).

[374]()"الفتح" (13/370).

ص 132
13- قال:"حدثنا أبـو معمـر، حـدثنا عبـد الـوارث، حـدثنا حسـين المعلـم، حدثني عبد الله بن بريدة، عن يحيي بـن يعمـر، عـن ابـن عبـاس، أن النـبي – صلى الله عليه وسلم – كان يقول:" أعوذ بعزتك، الذي لا إله إلا أنت، الـذي لا يموت، والجن والإنس يموتون".
قوله: "كان يقول" يدل على أنه سمع ذلك مـن النـبي –صـلى اللـه عليـه وسلم – مراراً، لما يفهم من لفظة "كان".
وقوله: "أعوذ بعزتك" أعوذ: هو الالتجاء والاعتصام، وحقيقته: الهرب من المخوف إلى المجيـر العاصـم، فالعائـذ بـالله -تعـالى- قـد هـرب ممـا يخـافه ويؤذيه، أو يهلكه، إلى ربه ومالكه العزيز الذي لا يغالب، يعز من يشـاء، ويـذل من يشاء، ويجير من احتمى به.
فالاستعاذة هي: الالتجاء إلى الله، والاحتماء من شر كل ذي شر، والعــوذ يكون لدفع الشر، واللوذ يكون لطلب الخير، كما قال بعض الشعراء:
يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به فيما أحاذره
وعزة الله -تعالى- صفته، كما تقدم، فالنبي –صلى الله عليه وسـلم وهـو أعلم الخلق بالله وأتقاهم له –يتعوذ بصفاته تعالى؛ لأن ذلك مـن عبـادة اللـه، بل هو من أفضلها، امتثالاً لقوله –تعالى-: {وَلِلّـهِ الأَسْـمَاء الْحُسْـنَى فَـادْعُوهُ بِهَا}. ومثل الاستعاذة بصفات الله –تعالى- الحلف بها، كما مر قريباً.
وقوله: "الذي لا إله إلا أنت" أي أنت الإله الحق، الذي تجب عبـادته علـى عباده، وكل تأله لغيره فهو ضلال، يوجب الشقاء الأبـدي، والخلـود فـي النـار، فلذلك لا أتوجه بتألهي إلا إليك يا رب، فلا إلـه لـي غيـرك، فبـك أعـوذ، وإليـك ألوذ.
"الذي لا يموت" أي فأنت –يا إلهي- الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، لا مبدأ لوجودك ولا منتهى لبقائك، وأنت الغني بذاتك عن كل ما ســواك، والخلق كلهـم فقـراء إليـك، وكـانوا عـدما قبـل إيجـادك إيـاهم، وهـم عرضـة للأمراض، والآفات والتغيرات والفناء، وأنـت يـا رب البـاقي وحـدك، والخلـق كلهم يموتون، فلا رب سواك يتصـرف بـالخلق كيـف يشـاء، ويغيـر ولا يتغيـر، -جل وعلا-.
قوله: "والجن والإنـس يموتـون" المقصـود بـذكر الجـن والإنـس: جنـس الخلق، والمعنى: أن الخلق كلهم يموتون، ولا يبقى إلا الحي القيوم، كما قال- تعالى-:
ص 133

{ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ {26} وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ } [375]، وسمي الجن جناً لاستتارهم عن أعين الناس، من الاجتنان، كما قال-تعالى-: { يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ } [376]، وأما الإنس فسموا بذلك لأن بعضهم يأنس ببعض غالباً، أو أنهم يرون ويأنسون، أي يحس بهم ويشاهدون، وذكر الجن والإنس لا ينفي عن الملائكة الموت؛ لأن هذا خاص قصد به الجن والإنس، أو على ما تقدم ذكر الجنس، والمقصود عموم الخلق. وقد جاء ما يدل على هلاك عموم الخلق كقوله-تعالى-: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} [377].

وقد قيل: إن الملائكة يدخلون في الجن؛ لاجتنانهم واستتارهم عن أعين الناس، والله أعلم.

---

[375] ()الآيتان 26 ،27من سورة الرحمن.
[376] ()الآية 27 من سورة الأعراف.
[377] ()الآية الأخيرة من سورة القصص.

ص 134
14- قال: "حدثنا ابن أبي الأسود، حدثنا حرمي، حدثنا شعبة، عن قتادة عن أنس، عن النبي –صلى الله عليه وسلم – قال: "يلقى في النار ..." ح
وقال لي خليفة: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس، ح.
وعن معتمر، سمعت أبي، عن قتادة، عن أنس، عن النبي –صلى الله عليه وسلم – قال: لا يزال يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، ثم تقول: قد قد، بعزتك وكرمك، ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله لها خلقاً، فيسكنهم فضل الجنة".
أنس هو ابن مالك بن النضير بن ضمضم، الأنصاري، الخزرجي، خادم رسول الله –صلى الله عليه وسلم – وأحد المكثرين من الرواية عنه؛ قدم النبي –صلى الله عليه وسلم – المدينة وهو ابن عشر سنين، فأتت به أمه إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم – وعرضت عليه أن يخدمه، فقبل ذلك النبي-صلى الله عليه وسلم – فلازم النبي في السفر والحضر عشر سنين، ودعا له رسول الله –صلى الله عليه وسلم – بأن يكثر ماله وولده، وأن يدخل الجنة، قال أنس: "قد رأيت أثنين، وأنا أرجو الثالثة".
توفي في البصرة سنة ثلاث وتسعين، وله مائة وثلاث سنوات، وهو آخر من مات في البصرة من الصحابة. [378].
قوله: "لا يزال يلقى فيها" الضمير "فيها" يعود إلى جهنم، والمعنى أنه يستمر إلقاء من يستحق النار فيها، وهي تطلب الزيادة منهم، قال الله- تعالى-: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ} [379].
قال ابن كثير: "يخبر –تعالى- أنه يقول لجهنم: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو –سبحانه- يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى {فيها} وهي تقول: هل من مزيد؟ أي: هل بقي شيء تزيدني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث" [380].
يقصد بالأحاديث مثل هذا الحديث، فإن ظاهره أن الاستفهام لطلب الزيادة، وهو الصحيح الذي يدل على ظاهر القرآن، والأحاديث الصحيحة.
ص 135
قوله: "حتى يضع فيها رب العالمين قدمه"، في رواية: "حتى يضع رب العزة فيها قدمه" وهذه الرواية هي المناسبة لهذا الباب، ولكن البخاري اكتفى بالإشارة إليها على عادته، وفي رواية أبي هريرة: "يقال لجهنم: هل

---

[378] "الإصابة" (1/127).
[379] الآية 30 من سورة ق.
[380] "تفسير ابن كثير" (7/381).

امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟ فيضع الرب –تبارك وتعالى- قدمه عليها"، وفي رواية: "حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ"، وفي أخرى: "حتى يضع رجله، فتقول: قط قط" وهذه الروايات كلها في البخاري، واتفق معه مسلم عليها[381].

وعند الدارقطني في "الصفات": "فأما النار فيلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ –ثلاث مرات- حتى يأتيها –تبارك وتعالى- فيضع قدمه عليها، فتنزوي، وتقول: قدني قدني"[382].

وفي رواية: "لا تزال جهنم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الجبار –تبارك وتعالى- فيها قدمه، فهناك تنزوي"[383].

وأخرج حديث أنس هذا أبو نعيم في "المستخرج" بلفظ: "حتى يضع الله فيها قدمه"[384].

ففي مجموع هذه الروايات البيان الواضح بأن القدم والرجل-وكلاهما عبارة عن شيء واحد –صفة لله- تعالى- حقيقة على ما يليق بعظمته.

كما فيها إبطال تأويل المؤولة، نحو قولهم: "إن القدم: عبارة عن إذلال جهنم إذا بلغت في الطغيان، وقولهم: إن المراد بالقدم: الفرط السابق من المعذبين، أي يضع الله فيها ما قدمه لها من أهل العذاب، وقولهم: المراد بالقدم: قدم بعض المخلوقين، وقولهم: يجوز أن يكون مخلوقاً اسمه القدم، وقولهم: المراد بالقدم: الأخير من أهل النار، وقولهم: إنه اسم مكان عصي الله فيه، فيلقى في النار.

ص 136

وقول الداودي: إن المراد بالقدم: قدم صدق، وهو محمد –صلى الله عليه وسلم – والإشارة بذلك إلى شفاعته، وقال بعضهم: إن المراد بالقدم: قدم إبليس، إلى غير ذلك من السخافات المضحكة، الدالة على ضلال قائليها.

وزعم ابن الجوزي، وابن فورك: أن لفظ الرجل محرف من بعض الرواة عن القدم، وذهب مرة إلى تحريف المسمى بالتأويل، فقال: يحتمل أن يراد بالرجل: الجماعة"[385]، فهذه التأويلات الباردة يكفي العاقل المنصف مجرد ذكرها عن تكلف ردها بالدليل لظهور بطلانها، فهي في الحقيقة تحريف للكلام الواضح البين، كتحريف اليهود حينما قيل لهم: "ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة" فدخلوا يزحفون على أعجازهم وقالوا: حبة حنطة.

---

[381]() انظر"مسلم" (4/2187، 2188).
[382]() "الصفات" (ص 14، 17).
[383]()"الصفات" للدارقطني (ص 15)
[384]()"الفتح" (13/370).
[385]() انظر: "الفتح"، فقد ذكر جميع هذه التأويلات، وسكت عليها (8/596).

فبطلان قول هؤلاء المعطلة –الذين جعلوا صفات الله-تعالى- نوعاً من المخلوقات، وحاولوا إبطالها بالتأويلات البعيدة السخيفة-واضح وظاهر، وذلك من وجوه:

"الأول: أن النبي –صلى الله عليه وسلم – قال: حتى يضع، ولم يقل: حتى يلقى {فيها} كما في قوله: "لا يزال يلقى في النار".

الثاني: أن قوله: "قدمه" لا يفهم منه هذا {الذي قالوه} لا حقيقة، ولا مجازاً، كما تدل عليه الإضافة.

الثالث: أن أولئك المؤخرين، إن كانوا من الأصاغر المعذبين، فلا وجه لانزوائها واكتفائها بهم، فإن ذلك إنما يكون بأمر عظيم، وإن كانوا من الأكابر المجرمين، فهم في الدرك الأسفل من النار، وفي أول المعذبين، لا في أواخرهم.

الرابع:أن قوله: "فينزوي بعضها إلى بعض" دليل على أنها تنضم على من فيها فتضيق بهم، من دون أن يلقى فيها شيء.

الخامس: أن قوله: "لا يزال يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع فيها قدمه" جعل وضع القدم الغاية التي إليها ينتهي الإلقاء، ويكون عند ذلك الانزواء، فيقتضي أن تكون الغاية أعظم مما قبلها، وليس في قول {هؤلاء} المعطلة معنى للفظ {قدمه} إلا وقد اشترك فيه الأول والآخر، والأول أحق به من الآخر"[386].

ص 137

يضاف إلى ذلك: أن هذا الكلام الواضح البين الذي إذا سمعه السامع لم يتبادر إلى ذهنه إلا ظاهره اللائق بجلال الله-تعالى-؛ فلو كان ظاهره غير مراد للمتكلم، وأن المراد منه ما ذكره هؤلاء المحرفون، لصار إلى الألغاز والتعمية أقرب، ولا يكون المتكلم بذلك قد أدى ما وجب عليه من البلاغ والبيان؛ وهذا من أبطل الباطل.

وقد علم أن المتكلم بهذا الكلام أفصح الناس وأقدرهم على الإيضاح والبيان لما يريد، وهو أيضاً أنصحهم لأمته، وأعلمهم بالله وبما يجب له، وما يمتنع عليه، وهو أيضا أحرصهم على إيصال الخير والنفع إلى الخلق، ودفع الشر عنهم، فيستحيل مع هذه الأمور أن يكون ظاهر كلامه باطلاً يدل على الكفر والتشبيه –كما زعم المعطلة المؤولة {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا} [387]، فظهر بذلك بطلان قول المعطلة، والحمد لله رب العالمين.

---

[386]() "مختصر الفتاوى المصرية" (ص 647).

[387]()الآية 5 من سورة الكهف.

قال أبو سعيد الدارمي: "وما دعوى المعطل بأن القدم: أهل الشقوة الذين تقدم في علم الله أنهم يلقون في جهنم، واستدلاله بما روي عن ابن عباس، في قوله-تعالى-: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ} [388] قال: ما قدموا من أعمالهم.

فيقال: من المشهور عن ابن عباس، أنه قال: "الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله"، وهذا صحيح مشهور عن ابن عباس[389]، ودعوى المعطل أنها لا تمتلئ حتى يلقى الله فيها الأشقياء، الذين هم قدم الجبار-عند أهل التأويل- دعوى باطلة، وهل استزادت إلا بعد مصير الأشقياء إليها؟ أفيلقيهم فيها ثانية؟ أو أنه –تعالى- حبس عنها الأشقياء، وألقى فيها السعداء، فلما استزادت ألقى فيها أهل الشقوة؟

ص 138

وأما ردهم الحديث بقوله – تعالى: {لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} [390]، قالوا: إن جهنم لا تمتلئ بغير الجن والإنس، ومن زعم غير ذلك فقد كفر.

فيقال: إن هذه الآية لا تخالف قوله: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ} [391]، ويصح في الكلام أن يقال للممتلئ: استزاد، كما يمتلئ الرجل من الطعام، والشراب، وهو يقدر أن يستزيد، ويقال: امتلأ المسجد من الناس، وفيه فضل وسعة، وامتلأ الوادي ماء، وهو يحتمل أكثر مما فيه، وكما في الحديث: "يخرج المهدي، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً" وفي الأرض سعة لأكثر من ذلك، فكذلك جهنم تمتلئ بما يلقى فيها من الجن والإنس، وتقول هل من مزيد؟ لفضل فيها، غضباً لله-تعالى- على الكفار، حتى يفعل الجبار بها ما أخبر به رسوله، من وضعه قدمه فيها كما يشاء، وكما عنى رسول الله، فحينئذ تقول: حسبي حسبي، ولها خزنة يدخلونها غير معذبين بها، وفيها حيات، وعقارب.

وقال-تعالى-: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ {30}وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا} [392].

فقوله-تعالى-: {لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [393]، لا يخالف هذه الآية، كما أنه لا يخالف قول الرسول –صلى الله عليه وسلم -: "يضع

---

[388]()الآية الثانية من سورة يونس.

[389]()رواه أبو سعيد الدارمي في "الرد على المريسي" (ص 425)، "مجموع عقائد السلف"، والحاكم في "المستدرك"، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (2/282)، وابن جرير في "التفسير" (5/398).

[390]()الآية 119 من سورة هود.

[391]()الآية 30 من سورة ق.

[392]()الآيتان 30و31من سورة المدثر.

[393]()الآية 119 من سورة هود.

الجبار فيها قدمه"، وإذا كانت جهنم لا تضر الخزنة الذين يدخلونها، ويقومون عليها، فكيف يستنكر وضع رب العالمين عليها قدمه؟" [394].

وقد جاءت الأحاديث عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم – تدل على أن كلامها حقيقة، فلا وجه للعدول عن ذلك، كقوله –صلى الله عليه وسلم -: "تحاجت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي

ص 139

لا يدخلني إلا الضعفاء؟ وقالت النار: ما لي يدخلني الجبارون، والمتكبرون؟" [395]أخرجاه في "الصحيحين".

وفي "مسند الإمام أحمد" بسند فيه عطية العوفي- وهو ضعيف- عن أبي سعيد عن النبي –صلى الله عليه وسلم –أنه قال: "يخرج عنق من النار يتكلم يقول: وكلت اليوم بثلاثة، بكل جبار، وبمن جعل مع الله إلهاً آخر، وبمن قتل نفساً بغير نفس، فينطوي عليهم، فيقذفهم في غمرات جهنم"[396].

وفيه أيضاً من طريق ابن لهيعة –وفيه كلام معروف- عن عائشة- رضي الله عنها- عن النبي –صلى الله عليه وسلم – أنه قال: "يخرج عنق من النار، فينطوي عليهم، ويتغيظ عليهم، ويقول ذلك العنق: وكلت بثلاثة، وكلت بمن دعا مع الله إلهاً آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد، فتنطوي عليهم، وتطرحهم في غمرات جهنم"[397].

وقد ذكر ابن رجب أحاديث بهذا المعنى[398]، وقد صح عن النبي –صلى الله عليه وسلم – أن حجراً كان يسلم عليه[399]، كما صح أن الصحابة كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون، ومن المشهور حنين الجذع الذي كان النبي –صلى الله عليه وسلم – يخطب عليه حين تركه، فكيف يستنكر كلام جهنم؟

قوله: "فينزوي بعضها إلى بعض" أي يلتئم بعضها على بعض، وتتضايق على من فيها، فلا يبقى فيها متسع لغير من فيها.

قوله: "وتقول: قد قد" بفتح القاف، وسكون الدال، وفي رواية: "قط قط" وهو اسم فعل، ومعناه: حسبي وكفاني ما ألقي في، فلا متسع لغيرهم، أي قد امتلئت.

ص 140

---

[394]() رد عثمان بن سعيد على بشر المريسي، ملخصاً بتصرف.

[395]()انظر: "البخاري مع الفتح" (13/434)، (8/595)، و"مسلم" (4/2186).

[396]()"المسند" (3/40).

[397]()"المسند" (6/110).

[398]()انظر: "التخويف من النار" (ص 130).

[399]()انظر: "فتح الباري" (13/371).

قوله: "بعزتك وكرمك" هذا محل الشاهد من الحديث لما ترجم بـه، وهـو قسم من النار بعزة الله وكرمه، أنها قد امتلأت، وأصبحت ليس فيهـا متسـع، وقد تقرر عند المسلمين أن القسم بغير الله لا يجوز.

قوله: "لا يزال يلقى فيها، وتقول" هذا القـول مـن جهنـم حقيقـة، فـالله- تعالى- ينطقها بكلام مسموع منها، كمـا ينطـق-جـل وعلا- الجـوارح وغيرهـا، والله على كل شيء قدير، وأمور الآخرة أعظمها على خلاف ما يعرفه الناس في الدنيا، والقسم بأسماء الله وصفاته قسـم بـه-تعـالى-والمقصـود أن اللـه تعالى متصف بالصفات، فأراد أن يـبين ذلـك بمـا ثبـت منهـا فـي كتـاب اللـه- تعالى- ومنها العزة، وبالأحاديث التي تبين ذلك وتوضـحه، وقـد تقـدم البحـث فيها في الباب الأول.

قال الحافظ: "يؤخذ منه مشروعية الحلف بكرم الله، كمـا شـرع الحلـف بعزة الله"[400].

قوله: "ولا تزال الجنة تفضل، حتى ينشئ الله لها خلقاً، فيسـكنهم فضـل الجنة".

أي أن أهل الجنة الذين يدخلونها ينتهون، وفيها فضـل مسـاكن لـم يصـبها أحد؛ لعظم سعتها، قال الله-تعالى-: {وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّـن رَّبِّكُـمْ وَجَنَّـةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [401]، وقال-تعالى-: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُـهَا كَعَـرْضِ السَّـمَاء وَالأَرْضِ أُعِـدَّتْ لِلَّـذِينَ آمَنُـوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} [402].

وقد وعد الله -تعالى- الجنة والنار أن يملؤهما مـن الجنـة والنـاس، ومما يشاء، فأما النار: فإن الله -تعالى- لا يدخل فيهـا إلا مـن يسـتحقها، ولا يظلـم أحداً، ولسعتها أيضاً يتنهي أهلها دخولاً فيها مع كثرتهم، وهي تطلـب الزيـادة، وتسأل الله وعده، فعند ذلك يضع عليها -تعالى- قدمه، فتتضايق علـى أهلهـا، فينزوي بعضها إلى بعض –أي تجتمع- فتصبح ليس فيها موضع لأحـد، فيحصـل بذلك ملؤها.

ص 141

وأما الجنة: فإن الله -تعالى- يخلق لها خلقاً جديداً فيسـكنهم فضـلها، أي المساكن التي فضلت عمن دخلها، وذلك فضـل اللـه يـؤتيه مـن يشـاء، لا راد لفضله، ولا مانع لعطائه.

---

[400] () "الفتح" (13/371).

[401] ()الآية 133 من سورة آل عمران .

[402] () الآية 21 من سورة الحديد.

ص 142
قال: "باب قول الله -تعالى-: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ} [403]
قال القرطبي: "بالحق-أي بكلمة الحق- يعني: قوله: كن"[404].
ومثله قال القسطلاني، ثم قال:" وقال ابن عادل في لبابه: قيل: الباء بمعنى اللام، أي إظهاراً للحق؛ لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته، فهو نظير قوله – تعالى -: {مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً} [405].
وقال الخازن:" يعني إظهاراً للحق، فعلى هذا تكون الباء بمعنى اللام، لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته، وقيل: خلقها بكمال قدرته، وشمول علمه، وإتقان صنعه، وكل ذلك حق.
وقيل: خلقها بكلامه الحق، وهو قول "كن" وفيه دليل على أن كلام الله – تعالى- ليس بمخلوق؛ لأنه لا يخلق مخلوق بمخلوق"[406].
وقال ابن الجوزي: " فيه أربعة أقوال:
أحدها: خلقهما للحق. والثاني: خلقهما حقاً.
والثالث: خلقهما بكلامه، وهو الحق.
والرابع: خلقهما بالحكمة"[407].
قلت: هذه الأقوال ليس فيها اختلاف، وهي داخلة في معنى الآية، إلا أن الطبري جعل القول الثاني والرابع قولاً واحداً، كما سيأتي، وهو الأظهر.
وقال ابن جرير:" واختلف أهل التأويل في قوله:" بالحق": فقال بعضهم: معنى ذلك: وهو الذي خلق السماوات والأرض حقاً وصواباً، لا باطلاً وخطأ، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً} [408]، وأدخلت الباء والألف، كما في
ص 143
قولك: فلان يقول بالحق، يعني أنه يقول الحق، أي يصيب في قوله، فالحق صفة للقول، فخلق السماوات والأرض حكمة من حكم الله -تعالى-، والله موصوف بالحكمة في خلقهما، وخلق ما سواهما من سائر الخلق.
وقال آخرون: معنى ذلك: خلق السماوات والأرض بكلامه، وقوله لهما: {اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا} [409]فالحق في هذا الموضع معنى به كلامه.

---

[403]() الآية 73 من سورة الأنعام.
[404]() "تفسير القرطبي" (6/19).
[405]() الآية 191 من سورة آل عمران ، "هدي الساري" (10/369) .
[406]() "تفسير الخازن" (2/147).
[407]() "زاد المسير" (3/67).
[408]() الآية 27 من سورة ص.
[409]() الآية 11 من سورة فصلت .

واستشهد لذلك بقوله: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ} [410]، فالحق هو قوله وكلامه، فالله -تعالى- خلق الأشياء بكلامه وقوله، فما خلق به الأشياء فهو غيرها، فكلام الله -تعالى- الذي خلق الخلق غير مخلوق"[411].

قلت: وبهذا يظهر مراد البخاري – رحمه الله تعالى – فقول الله -تعالى- حق، وهو صفة له، وما وجد بقوله فهو غير القول، بل هو المفعول المخلوق، فقوله -تعالى- الذي خلق به الأشياء، لا يجوز أن يكون مماثلاً لها، فلا بد من التفريق بين قوله الذي هو صفته، وبين مفعولاته التي وجدت بقوله، كما سيأتي – إن شاء الله تعالى – في باب: ما جاء في تخليق السماوات والأرض وهو -تعالى- خلق السماوات والأرض وغيرهما بقوله لها: كوني، كما قال -تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [412].

قال الحافظ:" كأنه أشار بهذه الترجمة إلى ما ورد في تفسير هذه الآية، أن معنى قوله: {بالحق} أي بكلمة الحق، وهو قوله:{كن} ويدل عليه ما في أول الحديث، "وقولك الحق" فكأنه أشار إلى أن القول {في الحديث} الكلمة، وهي "كن" والله أعلم"[413].

ص 144

وقال ابن المرتضى: " هذا إشارة من البخاري إلى مذهب أهل السنة في إثبات الحكمة"[414].

قلت: هذا لا ينافي ما ذكرنا، فيجوز أن يقصد المعنيين، ولكنه في الأول أظهر وأليق بمراد البخاري؛ لأن القول بنفي الحكمة في خلق الله وفعله، ظاهر البطلان.

قال البخاري: " الفعل إنما هو إحداث الشيء، والمفعول هو الحدث؛ لقوله تعالى: {خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [415].

قلت: يريد بذلك التفريق بين ما هو صفة لله تعالى، وبين ما هو مفعول له مخلوق.

وقال الراغب:" أصل الحق: المطابقة والموافقة، كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على استقامة، والحق يقال على أوجه:

---

[410]() الآية 73 من سورة الأنعام .
[411]() "تفسير الطبري" (11/458-459) تحقيق: محمود شاكر ، ملخصاً.
[412]() الآية 11 من سورة فصلت .
[413]() "الفتح" (13/371).
[414]() "إيثار الحق على الخلق" (ص 205).
[415]() "خلق أفعال العباد" (ص 210) ضمن "العقائد السلفية" .

الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل في الله -تعالى- هو الحق، قال -تعالى-: {ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ} [416]، {فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [417].

الثاني: يقال لما وجد بمقتضى الحكمة، ولهذا يقال: فعل الله -تعالى- كله حق، قال -تعالى-: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ} [418].

الثالث: الاعتقاد المطابق لما عليه الشيء في نفسه، كما في الحديث: " ووعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق"، قال الله -تعالى-: {هَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ} [419].

ص 145

الرابع: الفعل والقول الواقع بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، وفي الوقت الذي يجب، قال الله -تعالى-: {كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} [420].

قلت: يأتي أيضاً موصوفا به دين الله وشرعه، وأمره، كما في قوله -تعالى-: {وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [421]أي: وعده أن يبعثكم ويجازيكم. وقال -تعالى- {وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ} [422]، {بِالْحَقِّ مِن رَّبِّك} [423]، {وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} [424].

قال الحليمي:" الحق" ما لا يسمع إنكاره، ويلزم إثباته والاعتراف به.

ووجود الباري -تعالى- أول ما يجب الاعتراف به، ولا يسع جحده، إذ لا مثبت تظاهرت عليه الدلائل البينة مثل ما تظاهرت على وجود الباري – جل جلاله-" [425].

وقال أيضاً: " الحق في الأسماء الحسنى معناه – كما قال ابن برجان: الواجب الوجود بالبقاء الدائم، الجامع للخير والمجد، والمحامد كلها، والثناء الحسن، والأسماء الحسنى والصفات العليا.

ومعنى واجب الوجود: أنه اضطر جميع الموجودات إلى معرفة وجوده، وهو الذي أوجدها، قال -تعالى-: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى

---

[416]() الآية 62 من سورة الأنعام .
[417]() الآية 32 من سورة يونس .
[418]() الآية 5 من سورة يونس .
[419]() الآية 213 من سورة البقرة .
[420]() الآية 13 من سورة السجدة ، "المفردات" (ص 125) بتصرف.
[421]() الآية 53 من سورة يونس .
[422]() الآية 71 من سورة آل عمران .
[423]() الآية 147 من سورة البقرة ، و الآية 60 من سورة آل عمران .
[424]() الآية 149 من سورة البقرة .
[425]() "المنهاج" (1/188).

وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [426]. ولما أظهر جملة المخلوقات التي خلقها بالحق وللحق قال -تعالى-: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ} [427].

ص 146

فالله -تعالى- هو الحق المبين، ووجوده الحق، وقوله الحق، وصفاته الحق، وأسماؤه الحق" ا.هـ. [428]

ص 147

15- قال:" حدثنا قبيصة؛ حدثنا سفيان، عن ابن جريج، عن سليمان، عن طاوس، عن ابن عباس، قال: كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يدعو من الليل: اللهم لك الحمد أنت رب السماوات والأرض، لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، قولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وأسررت، وأعلنت، أنت إلهي، لا إله لي غيرك".

حدثنا ثابت بن محمد، حدثنا سفيان بهذا وقال: " أنت الحق، وقولك الحق".

كان النبي –صلى الله عليه وسلم- يقول هذا الدعاء بعد أن يكبر تكبيرة الإحرام في تهجده، كما بينه ابن خزيمة، حيث قال:

"باب ذكر الدليل على أن النبي – صلى الله عليه وسلم- كان يحمد بهذا التحميد بعد أن يكبر" ثم ساق بالسند إلى ابن عباس، قال: كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم- إذا قام للتهجد قال بعد ما يكبر: اللهم لك الحمد " الخ. [429]

قوله: "اللهم لك الحمد " الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، و"ال" فيه للاستغراق، والاستقصاء، أي جميع الحمد واجب ومستحق لله تعالى، فهو المحمود على صفاته، وأسمائه، وعلى نعمه، وأياديه، وعلى خلقه وأفعاله، وعلى أمره وحكمه، وهو المحمود أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

و أما الشكر: فلا يكون إلا على الصفات المتعدية، ويكون بالقلب واللسان والجوارح، قال تعالى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا} [430].

وقال الشاعر:

---

[426]() الآية 6 من سورة الحج .

[427]() الآية 44 من سورة العنكبوت .

[428]() "المنهاج" (1/369).

[429]() "صحيح ابن خزيمة" (2/184).

[430]() الآية 13 من سورة سبأ .

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا
قوله: " أنت رب السماوات والأرض " أي: أنت مالكهما ومن فيهما، والمتصرف بهما بمشيئتك، وأنت موجدهما من العدم، فالملك لك، وليس لأحد معك اشتراك أو تدبير، تباركت وتعاليت.
ص 148
قوله:" لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن" أي: أنت الذي أقمتهما من العدم، والقائم عليهما بما يصلحهما ويقيمهما، فأنت الخالق الرازق، المالك المدبر، المحيي المميت، الغني عن كل شيء، وكل من سواك فقير إليك، ومصيره إليك كما أنك أنت الذي أوجدته، فلك الحمد.
وفي رواية "قيام" وفي أخرى "قيوم"، وكلها من أبنية المبالغة.
"والقيم معناه: القائم بأمور الخلق، ومدبرهم، ومدبر العالم في جميع أحواله.
والقيوم: هو القائم بنفسه مطلقاً، لا بغيره، ويقوم به كل موجود، حتى لا يتصور وجود الشيء ولا دوام وجوده إلا به.
وقال النوربشتي: معناه: أنت الذي تقوم بحفظهما، وحفظ من أحاطتا به واشتملتا عليه، وقال " من" تغليباً للعقلاء على غيرهم" اهـ[431].
قوله: " لك الحمد أنت نور السماوات والأرض " قال الحافظ: أي منورهما، وبك يهتدي من فيهما"[432].
وقال القاضي عياض: " معناه: ذو النور، أي خالقه.
وقيل: منور الدنيا بالشمس والقمر والنجوم.
وقيل: منور قلوب عباده المؤمنين بالهداية والمعرفة "[433].
قلت: هذا تأويل باطل كما سيأتي بيان بطلانه.
قال شيخ الإسلام في جواب من قال: إنه يجب تأويل قوله:" الله نور السماوات والأرض " قطعاً. قال: " لا نسلم أنه يجب تأويله، ولا نسلم أن ذلك لو وجب قطعي، بل جماهير المسلمين لا يتأولون هذا الاسم، وهذا مذهب السلفية وجمهور الصفاتية من أهل الكلام والفقهاء والصوفية وغيرهم، وهو قول أبي سعيد ابن كلاب، ورد على الجهمية تأويلهم " اسم النور" وكذا الأشعري" ا.هـ[434].
وقد نص الله –تعالى- في كتابه أنه نور السماوات والأرض، وزاد ذلك رسول الله _صلى الله عليه وسلم_إيضاحاً وبياناً، كما في هذا الحديث وغيره.

---

[431]() من القسطلاني (10/369).
[432]() "الفتح" (3/4).
[433]() "المشارق" (2/31).
[434]() "مجموع الفتاوى" (6/379).

ص 149

وقد أخبر -تعالى-: أن الأرض يوم القيامة تشرق بنوره، وصحت النصوص عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بأنه يحتجب بالنور، فإذا كانت الأرض تشرق من نوره، فهو – جلا وعلا- نور، كما قاله رسوله: " أنت نور السماوات والأرض".

وقال -تعالى-: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [435]وقال -تعالى-: {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} [436].

وفي الحديث الذي رواه ابن إسحاق في السيرة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أنه قال في دعائه: " أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة "[437].

وقال ابن مسعود:" إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه"[438].

وفي حديث أبي ذر في "صحيح مسلم" قال: سألت رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: هل رأيت ربك؟ قال: نور أنَّى أراه" وفي رواية "رأيت نوراً"[439].

وفي حديث أبي موسى في "صحيح مسلم" قال: قام فينا رسول الله بخمس كلمات، فقال: "إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"[440].

السبحات هي: نوره وبهاؤه وجلاله.

ص 150

فأخبر – صلى الله عليه وسلم- أنه -تعالى- احتجب عن المخلوقات بحجابه النور، وأنه لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، ومعلوم أن بصره لا يفوته شيء، ولا يستره ساتر، ولا يحول دونه حائل.

---

[435]() الآية 35 من سورة النور .

[436]() الآية 69 من سورة الزمر .

[437]() انظر : "مختصر السيرة" لابن هشام (1/420) ، وقال شيخ الإسلام : رواه الطبراني وغيره ، انظر: "مجموع الفتاوى" (6/387).

[438]() رواه الدارمي في "الرد على بشر" (ص 449) ، وابن منده في "الرد على الجهمية" (ص 99)، قال ابن القيم :رواه الطبراني في "المعجم" وفي "السنة" . انظر : "اجتماع الجيوش" (ص 6).

[439]() انظر : "مسلم" (1/161).

[440]() "مسلم" (1/162).

وفي الترمذي عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول اللـه –صـلى اللـه عليه وسلم- " إن الله خلق خلقه في ظلمة، وألقـى عليهـم مـن نـوره، فمـن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل"[441].

فقد جاءت النصوص "بتسمية الرب نوراً، وبأن له نوراً مضافاً إليه، وبـأنه نور السماوات والأرض، وبأن حجابه النور، فهذه أربعة أنواع:

فالأول: يطلق عليه -تعالى- اسماً له، فإنه النور الهادي.

والثـاني: يضـاف إليـه كمـا تضـاف إليـه حيـاته، وسـمعه وبصـره، وعزتـه وقدرته وعلمه، ومرة يضـاف إليـه وجهـه الكريـم، وأخـرى يضـاف إلـى ذاتـه المقدسة: فإضافته إلى وجهه -تعالى- كقوله –صلى الله عليه وسلم-:" أعوذ بنور وجهك " وقوله: "نور السماوات والأرض من نور وجهه".

وإضافته إلى ذاته المقدسة كقوله -تعالى-: {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا}[442].

وكما في حديث عبد الله بن عمرو:" أن اللـه خلـق خلقـه فـي ظلمـة ثـم ألقى عليهم من نوره" الحديث.

ويضـاف نـوره -تعـالى- إلـى السـماوات والأرض، كقـوله: {اللَّـهُ نُـورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض}[443].

وقوله في هذا الحـديث: " أنـت نـور السـماوات والأرض ". وكـذا حجـابه النور كقوله: " حجابه النور – أو النار-" كما في حديث أبي موسى" اهـ.[444] ص 151

وقال -تعالى-: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْـبَاحٌ}[445] علـى القـول بـأن الضمير يعود إلى الله -تعالى-.

قال ابن القيم: " إضافة النور إلى الله -تعالى- على أحد وجهين:

إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله.

فالأول: كقوله – عز وجل -: {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا}[446]فهذا يكون يوم القيامة، تشرق بنوره -تعالى- إذا جاء لفصل القضاء بين عباده.

ومنه قوله في الدعاء المشهور: " أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضـلني، لا إله إلا أنت"[447].

---

[441]() انظر : " تحفة الأحوذي: (7/401) وقال : حسن ، ورواه أحمد بسند صحيح ، انظر: "المسند" (2/176) ، وانظر : تحقيق أحمد شاكر (10/127) ، وأخرجه الحاكم وصححه الذهبي. انظر : "المستدرك" (1/10) ، وأخرجه ابن أبي عاصم في "السنة" (1/107) .

[442]() الآية 69 من سورة الزمر .

[443]() الآية 35 من سورة النور .

[444]() من "الصواعق" ملخصاً (359).

[445]() الآية 35 من سورة النور .

[446]() الآية 69 من سورة الزمر .

[447]() هو الحديث المتقدم ذكره ، قال في " الفتح الكبير" : خرجه الطبراني . انظر لفظه فيه (1/235).

وفي الأثر الآخر: " أعوذ بنور وجهك، الذي أشرقت له الظلمات "[448].
فأخبر –صلى الله عليه وسلم- أن الظلمات أشرقت لنور وجهه، كما أخبر الله -تعالى- أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.
الوجه الثاني: ما ذكر في قوله -تعالى-: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} [449]، وقد اختلف على من يعود الضمير في {نوره}، فقيل: على محمد –صلى الله عليه وسلم- وقيل: على المؤمن، والصحيح عوده على الله -تعالى-.
والمعنى: مثل نور الله في قلب عبده المؤمن، وأعظم عباده نصيباً من هذا النور رسوله –صلى الله عليه وسلم-.
فهذا النور يضاف إلى الله -تعالى- على أن معطيه لعبده، وواهبه، كما يضاف إلى العبد؛ لأنه محله وقابله" اهـ[450].
ص 152
فالله -تعالى- سمى نفسه نوراً، وجعل كتابه نوراً، ورسوله نوراً، ودينه نوراً، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه في الآخرة نوراً يتلألأ، قال -تعالى-: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [451]، قال أبي بن كعب: " بدأ الله بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن"[452].
وفسر بكونه منور السماوات والأرض، وبأنه هادي أهل السماوات والأرض، وهذا لا يمنع أنه -تعالى- في نفسه نور، فإن من عادة السلف في تفسيرهم أن يذكروا بعض صفات المفسر – بفتح السين – من الأسماء، أو بعض أنواع ذلك المفسر، ولا ينافي ذلك ثبوت بقية الصفات له.
فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وأما النور الذي هو وصفه فهو قائم به، ومنه اشتق له اسم النور، الذي هو أحد الأسماء الحسنى، كما دلت على ذلك النصوص، فلا يجوز تحريف ذلك بالتأويلات الباطلة.
و أما الأنوار القائمة بأعيان مشاهدة قائمة بأنفسها، فلم تأت إضافتها إلى الله -تعالى- أبداً، فلا يقال لأنوار المصابيح، أو نور الشمس أو القمر أو الكواكب، إنها نور الله.

---

[448]() تقدم تخريجه قبل قليل .
[449]() الآية 35 من سورة النور .
[450]() "اجتماع الجيوش" بتلخيص وتصرف (ص 6).
[451]() الآية 35 من سورة النور .
[452]() رواه ابن جرير في "تفسيره" (18/135).

والحديث تضمن ثلاثة أمور شاملة عامة للسماوات والأرض:
وهي: ربوبيتهما، وقيوميتهما، ونورهما.
فكونه – سبحانه – رباً لهما، وقيوماً لهما، ونوراً لهما، أوصاف له -تعالى-، وآثار هذه الأمور الثلاثة قائمة بهما.
ص 153
فأثر الربوبية: الخلق والإيجاد، وأثر القيومية: صلاحهما، وانتظامهما، وأثر نوره -تعالى- استنارة السماوات، وإشراق الأرض بنوره يوم القيامة.
و أما صفة الربوبية والقيومية، والنور، فهي قائمة به – تعالى – كما أن صفة الرحمة، والقدرة، والإرادة، والرضا، والغضب، قائمة به -تعالى- والرحمة الموجودة في العالم، والإحسان، والخير، والنعمة، والعقوبة، آثار تلك الصفات.
وهكذا علمه -تعالى- القائم به هو صفته، وأما علوم عباده فمن آثار علمه، وقدرتهم من آثار قدرته.
وبذلك يعلم أن قول المعطلة: " كل عاقل يعلم بالبديهة أنه الله – سبحانه – ليس هو هذا النور الفائض من جرم الشمس والقمر والمصابيح، فلا بد من حمل قوله: " أنت نور السماوات والأرض" على معنى أنه منور السماوات والأرض، أو هادي أهل السماوات والأرض " يعلم أنه باطل من جنس تحريفاتهم لسائر صفات الله، كما هو نهجهم.
ونحن نقول لهم أيضاً: أسأتم الظن بكلام الله، وكلام رسوله –صلى الله عليه وسلم- حيث فهمتم أن حقيقته ومدلوله أنه سبحانه هو هذا النور الواقع على الحيطان، وغيرها، وهذا الفهم الفاسد هو الذي أوجب لكم إنكار حقيقة نوره – تعالى – وجحده.
فجمعتم بين الفهم الفاسد، وإنكار المعنى الحق.
وليس ما ذكرتم هو نور الرب -تعالى- القائم به، الذي هو صفته، وإنما هو مخلوق له منفصل عنه، فإن هذه الأنوار المخلوقة، تكون في محل دون محل، فنور الشمس والقمر ينور بعض الأرض لا جملتها، ولا ينور السماوات.
فمن ادعى أن نور الشمس والقمر ونحوهما، هو المراد بقوله -تعالى-: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [453]وقول الرسول –صلى الله عليه وسلم-: " أنت نور السماوات والأرض " فقد كذب على الله ورسوله[454].
ص 154

---

[453]() الآية 35 من سورة النور .
[454]() هذا مقتبس من كلام شيخ الإسلام . انظر :" مجموع الفتاوى" (6/374).

قوله: " وقولك الحق " أي أنت قلته حقاً، فهو صفتك. وما قاله الله -تعالى- فهو صدق وحق، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، لا في خبره، ولا في حكمه وتشريعه، ولا في وعده ووعيده.

وهذه الجملة هي محل الشاهد من الحديث، حيث وصف قوله -تعالى- بأنه الحق، فلا يجوز أن يكون مخلوقاً، كما تزعم الفرق الضالة من المعتزلة وغيرهم.

قال سفيان في "تفسيره": " إن كل شيء مخلوق، والقرآن ليس بمخلوق، وكلامه أعظم من خلقه؛ لأنه يقول للشيء: كن فيكون، فلا يكون شيء أعظم مما يكون به الخلق، والقرآن كلام الله"[455].

وقال أبو ذر – رضي الله عنه -: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: " قال الله -تعالى- عطائي كلام، وعذابي كلام، وإذا أردت شيئاً فإنما أقوله له: كن، فيكون"[456].

والذين أراد البخاري – رحمه الله – الرد عليهم من الجهمية والمعتزلة ونحوهم، ينكرون أن يكون لله -تعالى- كلام تكلم به يكون صفة له؛ لأن هذا – بزعمهم – يقتضي أن يكون جسماً حادثاً؛ لأن الكلام – زعموا – من الصفات الدالة على حدوث من قام به؛ لما فيه من الترتيب، والتقديم والتأخير، والتعاقب. ولما رأوا اتفاق الرسل على إثبات الكلام لله –تعالى- وأن القرآن مملوء بذلك، قالوا: إن الله متكلم، بمعنى أنه خالق الكلام.

ثم جاءت الأشعرية، فقالوا: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وليس لله كلام منطوق به، مسموع منه، كما سيأتي – إن شاء الله – تفصيل ذلك في أبواب الكلام.

وهم بذلك يتفقون مع المعتزلة على إنكار ثبوت الكلام لله حقيقة، كما أنهم يوافقونهم في المعنى على أنه مخلوق، وعلى هؤلاء جميعاً اتجه الرد فيما قصده البخاري وغيره من أهل السنة.

ص 155

ومعلوم "أن: الإيمان الذي جاءت به الرسل عن الله -تعالى- وجاء به خاتمهم مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، هو أن كلام الله صفة له غير مخلوق، وأن القرآن، والتوارة، والإنجيل، وغيرها من كتب الله، هي كلامه.

وكلام الله لا يكون مخلوقاً منفصلاً عنه، كما لا يكون كلام المتكلم منفصلاً عنه، فإن من أنكر ذلك فقد جحد كلام الله الذي هو رسالته، وأنكر حقيقة ما أخبرت به الرسل، وعلمته أممها، وألحد في أسماء الله وآياته، ومثله بالمعدوم، والميت، فإن الحياة، والعلم، والقدرة، والكلام، ونحو ذلك،

---

[455]() "خلق أفعال العباد " للبخاري (ص 124) ، "مجموع عقائد السلف" .

[456]() نفس المصدر (ص 131).

صفات كمال، والله -تعالى- أحق بكل كمال، فيمتنع أن يثبت للمخلوق كمال إلا والخالق أحق به، كما يمتنع أن يتنزه المخلوق عن نقص إلا والخالق أحق بتنزهه منه؛ لأنه هو الذي أعطى الكمال للكاملين.

ومن لم يتصف بصفات الكمال، من الحياة، والعلم، والسمع، والبصر، والقدرة، والكلام، وغيرِ ذلك:

فإما أن يكون قابلاً للاتصاف بذلك ولم يتصف به.

أو غير قابل للاتصاف به.

فإن قبله ولم يتصف به، كان موصوفاً بصفات النقص، كالموت، والجهل، والعمى، والصمم، والعجز، والبكم.

فإن لم يقبل الاتصاف بهذه الصفات، كان أنقص من القابل الذي لم يتصف بها.

فالحيوان الذي يكون تارة سميعاً، وتارة أصم، وتارة بصيراً، وتارة أعمى، وتارة متكلماً، وتارة أخرس، أكمل من الجماد الذي لا يقبل لا هذا، ولا هذا، فمن لم يصف الله -تعالى- بصفات الكمال، لزمه إما أن يصفه بهذه النقائص، أو يكون أنقص ممن وصف بهذه النقائص[457].

قوله: "ووعدك الحق" أي: لا بد من وقوعه، على ما وعدت، فلا خلف فيه ولا تبديل.

ص 156

"ولقاؤك حق" أي: لا بد للميعاد من ملاقاتك، فتجازيهم على أعمالهم، واللقاء يتضمن الرؤية، والمعاينة، كما سيأتي – إن شاء الله تعالى -.

"والجنة حق، والنار حق" أي: ثابتتان، موجودتان، كما أخبرت بذلك أنهما معدتان لأهلهما، فهما دار البقاء، وإليهما مصير العباد.

"والساعة حق" أي مجيء يوم القيامة حق لا مرية فيه، فهو ثابت لا بد منه، وهي نهاية الدنيا، ومبدأ الآخرة، وفي ضمن هذه الأخبار: الإخبار عن إيمانه بما ذكر، إيماناً لا يتزعزع، والساعة يعبر بها عن البعث، أي الساعة التي يبعث الله فيها الموتى من قبورهم أحياء، فيجمعهم بعد تفرق أجزائهم وتشتتها، بل واستحالتها تراباً، وهباء، وغير ذلك.

فيجمعهم، ويحييهم، كما كانوا في الدنيا، ويجازيهم بعد حسابهم، وحشرهم. وأدخلت الألف واللام في الساعة؛ لأنها معروفة المعنى عند المخاطبين بها، وأنها مقصود بها قصد الساعة التي وصفت، قاله الطبري[458].

"اللهم لك أسلمت" أي: أذعنت لأمرك، وانقدت له، وخضعت لحكمك.

---

[457]() "مجموع الفتاوى" (12/355).

[458]() انظر : "تفسيره" (11/324) ، ولكثرة ما أخبروا بها ووصفت لها ، وخوفوا بقربها صارت معلومة لهم، فأدخلت عليها الألف واللام لذلك .

" وبك آمنت" أي: صدقت، وعملت بمقتضى ذلك، بعد تحققي بالإيمان بك.
"وعليك توكلت" أي: اعتمدت عليك، ووكلت أموري إليك، راضياً بما قضيته لي، بعد أن فعلت الأسباب التي جعلتها إليّ، دينية كانت، أو دنيوية.
فالتوكل: هو الاعتماد على الله -تعالى- والثقة به، وفعل الأسباب التي رتبت عليها الأشياء، والتي يستطيع العبد فعلها، وهو من أفضل العبادة، بل جاء ما يدل على أنه شرط في حصول الإيمان، كما في قوله -تعالى-: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [459]."و إليك أنبت" أي: رجعت إليك طائعاً منقاداً، مذعناً، خاضعاً لك في جميع أموري.
ص 157
"و إليك حاكمت" أي: كل من أبى قبول الحق، أو جحده، حاكمته إليك وجعلتك الحكم بيني وبينه مجانباً بذلك حكم كل طاغوت، من قانونٍ وضعي، أو كاهن أو غيره، مما يتحاكم إليه البشر، من الأوضاع الباطلة شرعاً.
وقدم صلات هذه الأفعال كلها لإرادة التخصيص والحصر، أي: أخصك – يا رب- وحدك فيما ذكر، ولا أعدو ذلك بحال من الأحوال.
في هذا الحديث قدم الثناء على الله -تعالى- بأن له الحمد، وبما ذكر من صفاته، ثم توس إليه، -تعالى- بإيمانه بأن قوله حق، ووعده حق، إلى آخر ما ذكر، وأنه مذعن لأمره، منقاد لطاعته، وأنه معتمد عليه، وبه يخاصم وإليه يحاكم، ثم بعد ذلك سأل حاجته، وهي أن يغفر له ما قدم من خطأ، أو تقصير، وما أخر، وما أسر، وما أعلن.
ثم ختم ذلك بأنه لا مفزع، ولا ملجأ له، غير ربه -تعالى- فهو إلهه الذي يعبده بما ذكر، ويخاف عقابه – ويؤمل فضله ونواله، فقال: " أنت إلهي لا إله لي غيرك" فلا أتوجه إلى سواك، إذ كل مألوه غيرك باطل ودعوته ضلال ووبال، وهذا هو التوحيد الذي جاءت به رسل الله، وفرضه -تعالى- على عباده.
قوله: " فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وأسررت، وأعلنت".
أصل الغفر: الستر مع الوقاية، ومنه المغفر؛ لأنه يستر الرأس ويقيه من السلاح.
"ما قدمت" أي: قبل وقتي هذا.
"وما أخرت" أي: بعد وقتي هذا.
أي: اغفر لي ما عملت من الذنوب، وما سأعمله، وما ظهر منها لأحد من خلقك، وما خفي عنهم، ولم يعلمه غيرك.

---

[459]() الآية 23 من سورة المائدة .

وقوله في الرواية الأخرى: " أنت الحق، وقولك الحق، " فيها البيـان بـأن اسم الحق يقع علـى ذات الل ه -تعـالى- اسـماً، كم ا سـبق بيـانه، ويقـع علـى صفاته، كما في قوله: " وقولك الحق".

وفي هذا الحديث وأمثاله دليل على وقوع الذنوب مـن الأنبيـاء، إذ لـو لـم يكن له ذنب كيف يسأل المغفـرة؟ وقـد قـص اللـه –تعـالى- مـا وقـع لبعـض الرسل من

ص 158

المخالفات، وهذه مسألة مشهورة عند العلماء، وقـد ألـف فيهـا مؤلفـات خاصة، وقد اتفق أهل السنة على أن ما يبلغونه مـن أمـر اللـه وشـرعه أنهـم معصومون فيه من الخطأ، وأما وقوع الذنوب منهـم ففيـه الخلاف، وقـد بـالغ بعض الناس، وكفر من قال بوقوع الذنب منهم، وهذا جهل من قائله.

قال شيخ الإسلام:" اتفق المسلمون على أنهم معصـومون فيمـا يبلغـون عن الله -تعالى-، وبهذا يحصل المقصود من البعثة، ولو لم تقع منهم الـذنوب لفاتهم ما في التوبة من محبة الله وفرحه، ورفع درجة التائب، وكـون التـائب بعد التوبة أفضل منه قبلها، مع ما فـي القـول بـأن الـذنوب لا تقـع منهـم مـن تكذيب لكتاب الله، وأخبار رسوله، أو تحريف لها، ومن اعتقد أن كـل مـن لـم يكفر، ولم يذنب، أفضل من كل من آمن بعد كفره، أو تـاب بعـد الـذنب، فهـو مخالف لما علم بالاضطرار من دين الإسلام، فـإن مـن المعلـوم أن الصـحابة أفضل من أبنائهم الذين ولدوا في الإسلام.

وقد قال -تعالى- في أفضل الرسل: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَـا تَقَـدَّمَ مِـن ذَنبِـكَ وَمَا تَأَخَّرَ} لما نزلت قال الصحابة: يا رسول الله، هذا لك، فما لنـا؟ فـأنزل –عز وجل -: {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُـؤْمِنِينَ لِيَـزْدَادُوا إِيمَانًـا مَّـعَ إِيمَانِهِمْ}.

وتوبة الأنبياء واستغفارهم أدلته كثيرة، فكيف يقال: إنه لـم يكـن لهـم مـا يوجب التوبـة والاسـتغفار، ولا تفضـل اللـه عليهـم بمحبتـه، وفرحـه بتـوبتهم، ومغفرته لهم ورحمته، واعتراف جليل القدر بمـا هـو عليـه مـن الحاجـة إلـى التوبة والاستغفار دليل على صدقه، ورفعته، وتواضعه، وعبوديته لله تعـالى –والغنى عن الحاجة من خصائص الربوبية وقد قال –صلى الله عليه وسلم-: " اللهم اغفر خطئي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهـم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي"[460].

---

[460]() انظر : " منهاج السنة" (1/227-228) ملخصاً .

ص 159
قال: " باب: {وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}" [461]
يريد بهذه الترجمة بيان أن هاتين الصفتين – السمع والبصر- ثابتتان لله بالكتاب والسنة، وإجماع أتباع الرسل، وبالعقل، والفطرة، وبيان أن الله -تعالى- لم يزل بصفاته، وبيان أن المنكر لهاتين الصفتين قد ضل عن كتاب الله، وسنة رسوله، واتبع غير سبيل المؤمنين أتباع الرسل.
قال القسطلاني:" وقد علم بالضرورة من الدين، وثبت في الكتاب والسنة، بحيث لا يمكن إنكاره ولا تأويله، أن الباري -تعالى- حي سميع بصير، وانعقد إجماع أهل الأديان – بل جميع العقلاء- على ذلك"[462].
"فالسمع، والبصر، والحياة، والعلم، والقدرة، والكلام، ونحوها، صفات كمال لا نقص فيها، فمن اتصف بها أكمل ممن لا يتصف بها، والنقص في انتفائها لا في ثبوتها بإجماع العقلاء، والقابل للاتصاف بها كالحيوان أكمل، ممن لا يقبل الاتصاف بها كالجماد"[463]
قلت: الحامل على إنكار ذلك هو الجهل بالله -تعالى- والقياس الفاسد؛ حيث قاسوا ذلك على ما يعرفون من أنفسهم بأن السمع ينشأ عن وصول الهواء إلى عصب الصماخ، والبصر عبارة عن وقوع أشعة الإبصار على جسم مقابل.
قالوا: هذا لا يكون إلا من جوارح وأجسام.
فيقال لهم: هذه صفة أسماعكم وأبصاركم، أما رب العالمين فصفاته تابعة لذاته، وذاته ليس لها نظير أو شبيه، فكذلك صفاته تعالى.
وكيفية صفاته -تعالى- مجهولة للخلق، ويكفينا أن نعلم أنه -تعالى- متصف بما وصف به نفسه ووصفته به رسله حقيقة، وأنه في ذلك ليس له مثل، كما قال -تعالى-: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}.
قال الحافظ: " قال ابن بطال: غرض البخاري في هذا الباب الرد على
ص 160
من قال: إن معنى "سميع بصير" عليم، قال: ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذي يعلم أن السماء خضراء، ولا يراها، والأصم الذي يعلم أن في الناس أصواتاً، ولا يسمعها، ولا شك أن من سمع وأبصر، أدخل في صفة الكمال، ممن انفرد بأحدهما دون الآخر.
فصح أن كونه سميعاً بصيراً، يفيد قدراً زائداً على كونه عليماً.

---

[461]() الآية 134 من سورة النساء .
[462]() "إرشاد الساري" (10/370).
[463]() "مجموع الفتاوى" (6/88).

وكونه سميعاً بصيراً يتضمن أنه يسمع بسمع، ويبصر ببصر، كما تضمن كونه عليماً أنه يعلم بعلم، ولا فرق بين إثبات كونه سميعاً بصيراً، وبين كونه ذا سمع وبصر، وهذا قول أهل السنة قاطبة"[464]

وقال البيهقي: " السميع من له سمع يدرك به المسموعات، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات، وكل منهما في حق الباري صفة قائمة بذاته"[465].

وقد تكاثرت الأدلة من كتاب الله -تعالى- ومن سنة رسوله –صلى الله عليه وسلم- على إثبات السمع والبصر صفتين لله -تعالى- حقيقتين على ما يليق بعظمته -تعالى- قال الله -تعالى-:{ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [466]، {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [467]، { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [468]، { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [469]، { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [470]، { إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [471]، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ

ص 161

وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [472]، {فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [473]، {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [474].

في آيات كثيرة قد ذكر الله -تعالى- في القرآن السمع والبصر، واصفاً بهما نفسه، فيما يقرب من مائة آية، مرة يجمع بين السمع والبصر، ومرة بين السمع والعلم، ومرة يذكر البصر وحده متعلقاً بعمل العباد، كقوله: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [475]، {وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [476].

وقد تقرر في الفطر والعقول، أن عدم السمع والبصر، والأرجل والأيدي، نقص وعيب يمتنع معه دعوة الفاقد لذلك؛ لامتناع كونه إلهاً، إذ الإله يجب أن يكون سميعاً بصيراً حياً قادراً، كاملاً، لا نقص فيه، ولا عيب، قال –تعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن

---

[464]() "الفتح" (13/373).
[465]() "الاعتقاد" (ص 58).
[466]() الآية 58 من سورة النساء .
[467]() الآية 134 من سورة النساء .
[468]() الآية 61 من سورة الحج .
[469]() الآية 1 من سورة الإسراء .
[470]() الآية 75 من سورة الحج .
[471]() الآية 20 من سورة غافر .
[472]() الآية 11 من سورة الشورى .
[473]() الآية 56 من سورة غافر .
[474]() الآية 1 من سورة المجادلة .
[475]() الآية 265 من سورة البقرة .
[476]() الآية 20 من سورة آل عمران .

كُنتُمْ صَادِقِينَ {194} أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا} [477].

وقال -تعالى- عن خليله إبراهيم في دعوته أبيه إلى الله -تعالى- {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا} [478].

ص 162

و أما سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فقد جاءت موافقة لما في كتاب الله ومبينة له، وهي كثيرة جداً، نكتفي بذكر يسير منها بالإضافة إلى ما ذكره البخاري في الباب.

فمن ذلك ما رواه أبو داود بسنده على شرط مسلم، عن أبي هريرة أنه قرأ قول الله -تعالى-: {وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [479] فوضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينه، وقال:" رأيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يقرأ ويضع إصبعيه"[480]. قال البيهقي عقب روايته لهذا الحديث: " والمراد بالإشارة في هذا الخبر: تحقيق الوصف لله – عز وجل – بالسمع والبصر، فأشار إلى محل السمع والبصر منا لإثبات صفة السمع والبصر لله -تعالى-، وأفاد هذا الخبر أنه سميع بصير، له سمع وبصر، لا على معنى أنه عليم، إذ لو كان بمعنى العلم لأشار في تحقيقه إلى القلب؛ لأنه محل العلوم منا"[481].

ثم ذكر البيهقي لحديث أبي هريرة هذا شاهداً، من حديث عقبة بن عامر، سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يقول على المنبر:" إن ربنا سميع بصير، وأشار بيده إلى عينيه"[482] قال الحافظ: سنده حسن[483]، وروى اللالكائي عن ابن عباس أنه قرأ قوله –تعالى-: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} فأشار بيده إلى عينيه[484].

قال ابن خزيمة: " نحن نقول: لربنا عينان يبصر بهما ما تحت الثرى، وتحت الأرض السابعة السفلى، وما في السماوات، وما بينهما من صغير وكبير، لا يخفى

ص 163

عليه خافية، فهو تعالى يرى ما في جوف البحار ولججها، كما يرى عرشه الذي هو مستو عليه"[485].

---

[477] () الآيتان 194، 195 من سورة الأعراف .
[478] () الآية 42 من سورة مريم .
[479] () الآية 134 من سورة النساء .
[480] () انظر : " سنن أبي داود" (5/97).
[481] () "الأسماء والصفات" (ص 179) ملخصاً.
[482] () هذا الحديث لم أجده في "الصفات" المطبوع ، فيكون في النسخة التي نقل منها الحافظ.
[483] () "الفتح" (13/373).
[484] () "شرح أصول اعتقاد أهل السنة" (2/411).
[485] () كتاب "التوحيد" (ص 50).

فالسمع والبصر من الصفات الثابتة لله -تعالى- بقوله عن نفسه، ويقول رسوله –صلى الله عليه وسلم-، وبالعقل، والفطرة، وإجماع أهل العلم والإيمان، ولم ينكر ذلك إلا شواذ الطوائف المارقة من الحق، كالجهمية، وإخوانهم من بعض المعتزلة، وليس معهم على ذلك إلا التحذلق، والكلام الفارغ من الحق والمعنى الصحيح، أو التوهم بأن إثبات الصفات يقتضي التشبيه، حيث توهموا أن صفات الله كصفات خلقه، تعالى الله.

قوله -تعالى-: {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}، "كان" هنا تدل على الدوام والاستمرار الذي يعم جميع الأوقات، كما قال علماء النحو:" إن "كان" تستعمل بمعنى: بقي على حاله، واستمر شأنه، وسيستمر من غير انقطاع، ولا تقيد بزمن، نحو: كان الله غفوراً رحيماً"[486].

قال ابن جرير:" إن الله لم يزل {سميعاً} بما تقولون، وتنطقون، وهو سميع لذلك منك إذا حكمتم بين الناس، ولما تحاورونهم به.

{بصيراً} بما تفعلون فيما ائتمنتم عليه من حقوق رعيتكم وأموالهم، وما تقضون به بينهم من أحكامكم، بعدل تحكمون أو جور، لا يخفى عليه شيء من ذلك، حافظ ذلك كله، حتى يجازي محسنكم بإحسانه، ومسيئكم بإساءته، أو يعفو بفضله"[487]

ص 164

قوله: " قال الأعمش، عن تميم، عن عروة، عن عائشة، قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، فأنزل الله -تعالى- على النبي –صلى الله عليه وسلم-: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}".

هذا الحديث رواه أحمد في "المسند" موصولاً[488]، وابن ماجه في "السنن"[489]، والنسائي[490]، وكلهم بأتم مما ذكر البخاري.

ولفظهم: " أنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة – وللنسائي- خولة – إلى النبي –صلى الله عليه وسلم- وأنا في ناحية البيت، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} إلى آخر الآية.

ورواه ابن ماجه في كتاب الظهار من "السنن" بأتم مما هنا[491].

قال ابن عبد البر: " روينا من وجوه عن عمر بن الخطاب، أنه خرج ومعه الناس فمر بعجوز، فاستوقفته، فجعل يحدثها وتحدثه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، حبست الناس على هذه العجوز، فقال: ويلك! أتدري من هذه؟

---

[486] () "النحو الواضح" (1/549) ، وانظر " " المقتضب للمبرد" (4/119).

[487] () "تفسير الطبري" (8/494) بتحقيق محمود شاكر .

[488] () انظر : " المسند" (6/46) ، وانظر : " الفتح الرباني " (18/298) .

[489] () انظر : " سنن ابن ماجه " (1/67).

[490] () "المجتبى " (6/168).

[491] () انظر : " سنن ابن ماجه" (1/666).

هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة التي أنزل الله فيها: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} والله لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقتها إلا لصلاة، ثم أرجع إليها آ[492].

قال ابن كثير: ورواه ابن أبي حاتم، وساقه بسنده[493].

قوله: " وسع سمعه الأصوات" أي: استوعبها وأدركها فلا يفوته منها شيء وإن خفي، فحينما ذكرت المرأة قصتها لرسول الله – صلى الله عليه وسلم- وقال لها:" قد حرمت عليه" جعلت تقول – بصوت منخفض يخفى على عائشة مع قربها منها-: بعدما

ص 165

كبرت سني ظاهر مني؟ إلى الله أشكو حال صبية إن ضممتهم إليَّ جاعوا، وإن تركتهم عنده ضاعوا. فهذه مجادلتها لرسول الله – صلى الله عليه وسلم- التي ذكرها الله –تعالى- بقوله: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} وهذا من أبلغ الأدلة على اتصاف الله – تعالى- بالسمع، وهو أمر معلوم بالضرورة من الدين، لا ينكره إلا من ضل عن الهدى.

وقول عائشة هذا يدل على أن الصحابة – رضي الله عنهم، آمنوا بالنصوص على ظاهرها الذي يتبادر إلى الفهم، وأن هذا هو الذي أراده الله منهم ومن غيرهم من المكلفين ورسوله، إذ لو كان هذا الذي آمنوا به واعتقدوه خطأ لم يقروا عليه ولبين لهم الصواب، ولم يأت عن أحد منهم تأويل هذه النصوص عن ظواهرها، لا من طريق صحيح ولا ضعيف، مع توافر الدواعي على نقل ذلك مما يبين قطعاً أن الذي أريد منهم، ومن كل مؤمن، هو ظاهر الخطاب، وهذا واضح لمن تأمل النصوص، وعرف حال الصحابة.

وبهذا يتبين بطلان التأويل، وأنه سلوك غير سبيل الرسول –صلى الله عليه وسلم- وصحابته، والتابعين لهم، إلى نهاية الدنيا.

---

[492]() "الاستيعاب" (4/1831) بتحقيق البجاوي .

[493]() انظر : " تفسير ابن كثير" (8/60) مطبعة الشعب .

ص 166
16-قال: " حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن أبي عثمان، عن أبي موسى، قال: كنا مع النبي –صلى الله عليه وسلم- في سفر، فكنا إذا علونا كبرنا، فقال: " اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، تدعون سميعاً بصيراً قريباً" ثم أتى علىّ، وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال:" يا عبد الله ابن قيس، قل: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة" أو قال:" ألا أدلك به".
قوله:" كنا مع النبي –صلى الله عليه وسلم- في سفر، فكنا إذا علونا كبرنا" هذا مما كان النبي –صلى الله عليه وسلم- يفعله، فكان يكبر إذا علا نشزاً، ويسبح إذا هبط في منخفض من الأرض، وقد بوب البخاري –رحمه الله – على الأمرين في الجهاد والدعوات من "صحيحه"، فقال: باب التسبيح إذا هبط وادياً، وبعده: باب التكبير إذا علا شرفاً.
قال المهلب:" تكبيره –صلى الله عليه وسلم- عند الارتفاع، استشعار لكبرياء الله – عزوجل -، وعندما تقع عليه العين من عظيم خلق الله أنه – أكبر من كل شيء.
والتسبيح في الأماكن المنخفضة استشعار بتنزيهه –تعالى – عن صفة السفل والانخفاض"[494].
وفيه دليل على علو الله -تعالى- فوق كل شيء، وأنه لا يجوز أن يكون شيء من خلقه فوقه، تعالى وتقدس، وسيأتي البحث فيه إن شاء الله -تعالى-.
قوله: " فقال: " اربعوا على أنفسكم" أي: ارفقوا بأنفسكم، فلا تكلفوها برفع أصواتكم، فإنه لا حاجة إلى ذلك، فإن من تكبرونه وتسبحونه سميع بصير، يسمع الأصوات الخفية كما يسمع الجهرية، ويرى الأشياء وإن دقت، فلا يخفى عليه شيء.
قوله:" فإنكم لا تدعون أصم، ولا غائباً" قال صاحب "القاموس": "الصمم: انسداد الأذن، وثقل السمع، بحيث لا يسمع الأصوات إلا إذا كانت مرتفعة عالية"[495].
ص 167
وقيل: هو انسداد الأذن، وذهاب سمعها.
قوله: " غائباً" أي: ليس بعيداً ومستور الرؤية والسمع عنكم، فيحتاج إلى المناداة ورفع الأصوات كما قال -تعالى-: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي

---

[494]() "فتح الباري" (6/136).
[495]() انظر " القاموس" (4/140).

قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [496].

ولهذا قال: " تدعون سميعاً بصيراً قريباً" وهذه صيغ مبالغة لله؛ لأن له –تعالى- تمام الكمال من هذه الصفات، فلا يفوت سمعه أي حركة وإن خفيت، فيسمع دبيب النملة على الصفاة الصماء في ظلمة الليل، وأخفى من ذلك، كما أنه –تعالى- لا يحجب بصره شيء من الحوائل، فهو يسمع نغماتكم وأصوات أنفاسكم وجميع ما تتلفظون به من كلمات، ويبصر حركاتكم، وهو معكم قريب من داعيه، وهو أيضاً مع جميع خلقه باطلاعه وإحاطته، وهم في قبضته، ومع ذلك هو على عرشه عال فوق جميع مخلوقاته، ولا يخفى عليه خافية في جميع مخلوقاته مهما كانت، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله – في مكانه.

قوله:" قل: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة" الكنز هو: المال النفيس المحفوظ، والجمع والادخار يسمى: كنزاً.

وكنز الجنة: الأعمال الصالحة الفضيلة، التي يقبلها الله ويرضاها، فيحفظها ويدخرها لصاحبها، فيكون سبباً في دخوله الجنة ورفع منزلته فيها، وهو دليل على تفاضل الأعمال، والأدلة على ذلك كثيرة جداً.

ومعنى هذه الكلمة: لا تحول من حالة إلى أخرى، ولا انتقال من أمر إلى آخر، ولا قوة على ذلك، ولا قدرة إلا بالله، فهو المعين عليه والمهيئ لأسبابه والموجد لها، فهي استسلام لله، وإذعان لقدرته وإرادته، وإقرار بأنه لا يقع حركة أو سكون إلا بمشيئته – جلا وعلا-.

---

[496]() الآية 186 من سورة البقرة .

ص 168

17-قال: " حدثنا يحيى بن سليمان، حدثني ابن وهب، أخبرني عمرو، عن يزيد، عن أبي الخير، سمع عبد الله بن عمرو، أن أبا بكر الصديق – رضي الله عنه – قال للنبي –صلى الله عليه وسلم-: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي؟ قال: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي من عندك مغفرة، إنك أنت الغفور الرحيم ".

عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل القرشي، السهمي، أبو محمد، أسلم قديماً، وكان من أفاضل الصحابة وعبادهم، ومن العلماء المكثرين عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، فقد ثبت عن حافظ الأمة أبي هريرة – رضي الله عنه – قوله:" ما كان أحد أكثر مني حديثاً عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- إلا عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب"[497].

ومع ذلك فالمروي عنه أقل بكثير من المروي عن أبي هريرة، وقد قيل: إن السبب في ذلك أن عبد الله سكن مصر، والوارد إليها من الناس قليل، وأبو هريرة سكن المدينة، وهي مجمع الناس.

قيل: إنه توفي في مصر، وقيل: في الطائف، وقيل: في مكة، وقيل: في فلسطين، سنة ثلاث وستين؛ أو خمس وستين، عن اثنتين وسبعين سنة، - رضي الله عنه-، وعن صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أجمعين.

و أما أبو بكر فهو: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، القرشي، كان أبيض نحيفاً خفيف العارضين، وهو أفضل من صحب رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، وهو أعلم الصحابة بالله ورسوله، وهو أول من أسلم من الرجال، ولسرعته إلى تصديق الرسول –صلى الله عليه وسلم- وشدة قبوله لقوله سمي: الصديق، وهو رفيق رسول الله –صلى الله عليه وسلم- في الهجرة، وصاحبه في الغار، كم ا قال الله -تعالى-: {إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا} [498]، وقد أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم- أنه أمن الناس عليه، وأنه لو اتخذ من الناس خليلاً لاتخذ أبا بكر خليلاً، كما ثبت في "الصحيحين"، وأخبر أنه أحب الناس إليه من الرجال، وأن ابنته عائشة زوج رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أحب الناس إليه من النساء.

ص 169

أمره رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أن يؤم الناس في مرض موته، ولما روجع في ذلك غضب، وقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس.

---

[497]() رواه البخاري ، انظر "الفتح" (1/206).

[498]() الآية 40 من سورة التوبة.

وفضائله كثيرة، وقد كتب فيه مؤلفات، توفي – رضي الله عنه – سنة ثلاث عشرة من الهجرة، ودفن جوار رسول الله –صلى الله عليه وسلم- [499].

قوله: " إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً" الظلم هو: وضع الشيء في غير موضعه.

"وهذا يدل على أن الإنسان لا ينفك عن الذنوب، والتقصير في حقوق الله، كما في الحديث: " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون"[500]؛ لأنه أطلق هذا الظلم ولم يقيده، أو يخصصه بزمن دون آخر، أو بحالة دون حالة، فلو كان هناك حالة أو زمن من عمر الإنسان لا يكون فيه ظلم ما صح هذا الإطلاق، ولا صار مطابقاً للواقع"[501].

قوله: " ولا يغفر الذنوب إلا أنت " تقدم معنى الغفر في اللغة، والمقصود محو الذنوب ووقاية تبعاتها، وهذا لجوء إلى التوحيد، وأنه لا مفر ولا ملجأ يفزع إليه في غفران الذنوب، ووقاية شرها إلا الله وحده، ولا طريق يسلك لذلك إلا الانطراح بين يدي رب العالمين، والافتقار إليه، والتوجه بكلية العبد إليه، وإخلاص الدعاء له وحده، رغبة ورهبة، كما قال -تعالى-: { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [502].

فعلم العبد بأنه لا يغفر الذنوب إلا الله يضطره إلى اللجوء إليه -تعالى- والإخلاص له، وليس هناك طريق للنجاة إلا هذا الطريق، ولهذا قيل:" إن التوحيد مفزع أولياء الله، وأعدائه" أما أولياء الله فأمرهم ظاهر، وأما أعداؤه: فكانوا إذا وقعوا في الشدائد أخلصوا الدعاء لله وحده، كما ذكر الله عنهم في القرآن، ونظر العقل يؤدي إلى هذا دائماً.

ص 170

قوله: " فاغفر لي من عندك مغفرة" أي أنه لا حيلة لي ولا خلاص إلا بأن تمن علي أنت وحدك بالمغفرة، فتستر ذنوبي، وتعفو عني، وتقيني ما يترتب عليها من تبعات وشرور.

وقال: " من عندك" ليبين الاختصاص، أي أن المغفرة منك وحدك تفضل بها عليّ، بدون استحقاق، بل هي محض جودك وكرمك.

وقوله: " إنك أنت الغفور الرحيم" ختم هذا الدعاء، بهذين الاسمين الكريمين، لمناسبتهما للمطلوب، فالغفور يناسب طلب المغفرة.

---

[499] () "أسد الغابة" (3/309).

[500] () رواه ابن ماجه في "السنن" ، "الزهد" (2/1420) الحديث (4251) ، والترمذي (4/70) ، و أحمد في "المسند" (3/98).

[501] () "شرح العمدة" لابن دقيق العيد (2/78).

[502] () الآية 135 من سورة آل عمران .

والرحيم يناسب طلب التفضل والجود، وهو قريب من الأول، وهذا من معاني دعاء الله بأسمائه الحسنى.

" وقد جمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله والتوسل إلى ربه – عز وجل – بفضله وجوده، وأنه المنفرد بغفران الذنوب، ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معاً، وهكذا أدب الدعاء، وأدب العبودية"[503].

والمقصود من الحديث في هذا الباب أن المدعو لا بد أن يكون سميعاً يسمع دعوة الداعي إذا دعاه، بصيراً بحاله فيوصل إليه ما طلب بقدرته، وإلا تكون دعوته ضلال وسدى، ففي الدعاء واستجابة الله،-تعالى- لعبده الداعي برهان على أنه سميع، بصير، قادر، حي، عليم، وقد قال الله -تعالى- فيمن يدعو من لا يسمع ولا يبصر: { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ {5} وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ } [504]

وقال -تعالى- عن خليله إبراهيم في دعوته لأبيه: { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا } [505].

" وقد قال ابن عقيل: قد ندب الله -تعالى- إلى الدعاء، وفي ذلك معان:

أحدها: الوجود، فإن من ليس بموجود لا يدعى.

الثاني: الغنى، فإن الفقير لا يدعى.

ص 171

الثالث: السمع، فإن الأصم لا يدعى.

الرابع: الكرم، فإن البخيل لا يدعى.

الخامس: الرحمة، فإن القاسي لا يدعى.

السادس: القدرة، فإن العاجز لا يدعى.

ومن يقول بالطبائع، يعلم أن النار، لا يقال لها: كفي، ولا النجم يقال له: أصلح مزاجي، لأن هذه عندهم مؤثرة طبعاً لا اختياراً، فشرع الدعاء، وصلاة الاستسقاء، ليبين كذب أهل الطبائع"[506].

و "فعل السمع يراد به أربعة معان:

أحدها: سمع إدراك، ومتعلقه الأصوات.

الثاني: سمع فهم، وعقل، ومتعلقه المعاني.

الثالث: سمع إجابة وإعطاء ما سئل.

الرابع: سمع قبول، وانقياد.

---

[503]() "الوابل الصيب" (ص 118).

[504]() الآيتان 5، 6 من سورة الأحقاف .

[505]() الآية 42 من سورة مريم .

[506]() "شرح الطحاوية" (ص 457) الطبعة الثالثة .

فمن الأول: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}، و{لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء} [507].
ومن الثاني: قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا} [508]، أي: سمع فهم وعقل، ومن الثالث: سمع الله لمن حمده، ومن الرابع: قوله: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ} أي: قابلون له، ومنقادون، فسمع الإدراك يتعدى بنفسه، وسمع القبول يتعدى باللام، وبمن، ولإجابته بمن"[509].
ص 172
18- قال: " حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، حدثني عروة – أن عائشة – رضي الله عنها – حدثته، قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: إن جبريل – عليه السلام – ناداني، قال: " إن الله قد سمع قول قومك، وما ردوا عليك".
اختصر البخاري هذا الحديث هنا – فذكر الشاهد منه، وقد ذكره بتمامه في بدء الخلق، ولفظه:" قالت للنبي –صلى الله عليه وسلم-: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟
قال:" لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت – وأنا مهموم- على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت، فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم-: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئاً"[510].
ففي هذا الحديث البيان الواضح في أن الله -تعالى- يسمع أقوال عباده، وأنه لا يخفى عليه -تعالى- من ذلك شيء.
وصفة السمع والبصر من الصفات اللازمة لله -تعالى- وقد-تعالى- تقدم بيان ثبوت ذلك له -تعالى- عقلاً، وشرعاً، وفطرة، وأن من أنكر ذلك عرف به وأعلم إن كان جاهلاً، وإلا حكم عليه بالكفر؛ لإنكاره الحق الواضح، الواجب اعتقاده والإيمان به؛ لأنه أنكر ما ثبت، وتواترت عليه كتب الله، وجاءت به جميع رسله، فهو أمر ضروري.

---

[507]() الآية 181 من سورة آل عمران .
[508]() الآية 104 من سورة البقرة .
[509]() "بدائع الفوائد" (2/75).
[510]() انظر : " البخاري مع الفتح" (6/312).

ص 173
قال: " باب قول الله -تعالى-: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ} [511]".
هذا الخطاب الكريم، وأمثاله كثير في كتاب الله -تعالى- عام شامل، يجب أن يفهم على عمومه، كما يجب أن يفهم مراد الله -تعالى- فيه، وفي غيره من خطاباته -تعالى-.
"وقد اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله -تعالى- على كل شيء قدير، كما في نصوص القرآن الكريم، وغيره من كتب الله -تعالى- وما وجد من أفراد مسائل وقع الخلاف فيها، فهو بسبب عدم فهم النصوص، كقول من يدخل في هذا العموم، الممتنع لذاته، مثل الجمع بين الضدين، ككون الشخص ميتاً حياً في آن واحد، والجمع بين الحركة والسكون، والسواد والبياض، وما أشبه ذلك.
وكذا من لا يدخل ذلك في هذا العموم، فلا يكون ذلك داخلاً عندهم في عموم القدرة.
والحق أن الممتنع لذاته ليس شيئاً، ولا وجود له في الخارج، بل لا يتصوره الفكر ثابتاً في خارج الذهن، ويمتنع تحققه في الأعيان وتصوره في الأذهان، إلا على وجه التمثيل، فهو ليس بشيء، لا في الأعيان، ولا في الأذهان، فلا يصلح أن يقال: إنه خارج من هذا العموم، أو داخل فيه؛ لأن هذا يجعل له وجوداً ولو في الفرض، فيوقع في الشبه والشكوك، بل يقال: {إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وهذا ليس بشيء.
و أما المعدوم، فليس بشيء أيضاً في الوجود الخارج، ولكنه شيء في التصور والذهن، وما علم الله -تعالى- أنه سيكون، فهو شيء في التقدير، والعلم والكتاب، وإن لم يكن شيئاً في الخارج كما قال الله -تعالى-: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [512].
فلفظ الشيء في الآية يتناول ما وجد، وما يتصوره الذهن موجوداً، ولا يستثنى من ذلك شيء، لا أفعال العباد، ولا أفعاله -تعالى-، سواء المتعدية، أو اللازمة،
ص 174
كما قال -تعالى-: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [513].
فجمع في الآية بين النوعين من الأفعال، المتعدية واللازمة.

---

[511]() الآية 65 من سورة الأنعام .
[512]() الآية 82 من سورة يس.
[513]() الآية 4 من سورة الحديد ، انتهى من "مجموع الفتاوى" ملخصاً (7/8-11).

والقدرة تتعلق بكل ما تتعلق به المشيئة، فإن ما شاء الله كان، ولا يكـون شيء إلا بقدرته -تعالى-: ولهذا قال -تعـالى-: {وَهُـوَ عَلَـى جَمْعِهِـمْ إِذَا يَشَـاء قَدِيرٌ} [514].{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [515]

والشيء في الأصل، مصدر شاء، يشاء، شيئاً، كنال، ينال، نيلاً، ثم وضـعوا المصدر موضع المفعول، فسـموا "المشـاء" شـيئاً، كمـا سـموا المنـال: نيلاً، فقالوا: نيل المعدن، كما يسمى المقـدور: قـدرة، والمخلـوق: خلقـاً، فقـوله تعالى: {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} أي: على كـل مـا يشـاء، فمنـه مـا قـد شـاءه فوجد، ومنه ما لم يشأه {فلم يوجد} وهو شيء في العلم، بمعنـى أنـه قابـل لأن يشاءه.

فهذا العموم يتناول ما كان شيئاً في الخارج، والعلم، وما كان فـي العلـم فقط، بخلاف ما لا يجوز أن تتناوله المشيئة، وهو الحـق -تعـالى- وصـفاته، أو الممتنع لنفسه، فـإنه غيـر داخـل فـي العمـوم، ولهـذا اتفـق النـاس علـى أن الممتنع لنفس ليس بشيء" اهـ[516].

---

[514]() الآية 29 من سورة الشورى .

[515]() الآية 120 من سورة المائدة، المصدر السابق (ص 383).

[516]() المصدر السابق (ص 383).

ص 175

19- قال: " حدثني إبراهيم بن المنذر، حدثنا معن بن عيسى، حدثني عبد الرحمن ابن أبي الموالي، قال: سمعت محمد بن المنكدر يحدث عبد الله بن الحسن، يقول: أخبرني جابر بن عبد الله، السلمي، قال: كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم- يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن، يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر – ثم تسميه بعينه – خيراً لي، في عاجل أمري وآجله – قال: أو: في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري- فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم إن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري – أو قال: في عاجل أمري وآجله – فاصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به".

جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، الأنصاري الخزرجي، من أكابر علماء الصحابة، والحريصين على تحصيل العلم، فقد ذكر له عدة رحلات في طلب الحديث، منها: أنه رحل من المدينة إلى مصر من أجل حديث واحد، كما ذكره البخاري في "صحيحه" معلقاً، وكان حافظاً مكثراً عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، وهو مفتي المدينة في زمانه، له مناقب كثيرة.

قال الواقدي: توفي سنة ثمان وسبعين، وقال صاحب الحلية: سنة سبع وسبعين. قيل: إنه عاش أربعاً وتسعين سنة، - رضي الله عنه – وعن سائر صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم-[517].

قوله: " يعلمنا الاستخارة" أي: صلاتها ودعاءها، وهذا من تمام شفقته على أمته، وحرصه على حصول الخير لهم، ودفع كل شر عنهم، وبمثل هذا يعلم أنه – صلى الله عليه وسلم – ما كان ليترك باب ما يعتقدونه في ربهم، من الإيمان بأسمائه وصفاته، وما يجب له، وما يمتنع عليه، ما كان ليترك ذلك بدون إيضاح وبيان لا يحصل معه أي التباس أو اشتباه، وهذا واضح جلي من دعوة الرسول –صلى الله عليه وسلم-، ومن حاله، وهو موجب الرسالة، ومن حالة أصحابه أيضاً.

ص 176

الاستخارة: طلب الخير من أحد الأمرين، الفعل لما هم به، أو الترك، وهي مشروعة في عامة الأمور، كما يدل عليه هذا الحديث، لا يخرج من

---

[517]() انظر : " سير أعلام النبلاء" (3/189) ، و "الإصابة" (1/213) ، و "أسد الغابة" (1/256) و "الاستيعاب" (1/219).

عموم ذلك إلا الواجب، والمحرم، أما المستحب والمكـروه، ففيهمـا تفصـيل، يذكر في كتب الآداب الشرعية، وكتب الفروع.

وقـوله: " كمـا يعلمنـا السـورة مـن القـرآن " بيـان لشـدة الاهتمـام بهـا والاعتناء، وهذا من محاسن الإسلام الظاهرة لكـل عاقـل، وقـد كـان العـرب قبل ذلك إذا هم أحدهم بالأمر ذهب يستقسم بالأزلام، أو ذهـب يزجـر الطيـر ليستدل بطيرانه أو نعابه على ما سيحصل لـه فـي المسـتقبل، أو ذهـب إليـه الكهنة وإخوان الشـياطين، وهـذا كلـه رجـم بـالغيب، وشـرك بـالله، فعوضـه الإسلام عن ذلك بالفزع إلى من بيـده أزمـة الأمـور كلهـا، ومـن يملـك الخيـر والشر، فيقدمون بين يدي ذلك ركعتين، لتكونا وسيلة بيـن يـدي الطلـب، ثـم يتوجهون إلى ربهم بهـذا الـدعاء، الـذي فيـه التوسـل إليـه -تعـالى- بأسـمائه وصفاته، وتوحيد الطلب والنية والقصد.

وقوله: " ليركع" أمر بالركوع، ويحمـل علـى النـدب؛ للأدلـة الدالـة علـى عدم الوجوب.

قوله: " من غير الفريضة" يدل على عدم حصول سنة الاستخارة بالدعاء عقب صلاة الفرض، بل لابد أن تكون بركعتين غيـر الفريضـة، ثـم يـدعو بهـذا الدعاء.

قوله: " اللهم إني أستخيرك" أي: أطلب منك بيـان وتيسـير مـا هـو خيـر لي.

قـوله: " بعلمـك" أي: أسـألك وأتوسـل إليـك بصـفتك، صـفة العلـم، أن ترشدني إلى الخير فيما أريد، فإنك عالم به لا يخفى عليك شيء.

وهذا صريح في إثبات صفة العلم لله -تعالى- ودعائه بـه، والأدلـة عليـه لا حصر لها، كما سبقت الإشارة إليه.

وقوله: " وأستقدرك" أي: أسألك أن تجعلني قادراً علـى فعـل مـا أريـد، وتهيء أسباب ذلك لي.

وقوله: "بقدرتك" وهذا سؤال لله -تعالى- بصفته الـتي هـي القـدرة، أي: أنت القادر الذي لا يعجزه شيء، فأسألك بهذه القدرة العظيمة أن تنيلنـي مـا أريد، وهذا هو محل الشاهد من الحديث للباب، كما هو ظاهر.

ص 177

ثم عاد إلى التوسل بهاتين الصفتين، بقوله: " فإنك تقـدر ولا أقـدر" الـخ، يعني: لك القدرة الكاملة الشاملة، فأسألك بها، كما أني أسألك بفقـري إليـك وعجزي، فليس لي قدرة على شيء حـتى تجعلنـي قـادراً عليـه، وتيسـر لـي أسبابه، وأنت تعلم عواقب الأمور، وما تؤول إليه، بل لا يخفى عليك شيء في الماضي، والحاضر، والمستقبل، فعلمك شامل لكل شيء، ولا علم لي بشيء من ذلك إلا ما علمتني.

وقوله: " وأنت علام الغيوب" أي: ذلك خاص بك، لا يعلمه سواك.
قوله: " ثم يسميه بعينه" ظاهر في أنه يتلفظ به معيناً له باسمه؛ ليكـون بذلك أقوى على اجتماع العزم على طلبه.
"في عاجل أمري وآجله" أي: في دنياي وآخرتي.
"أو في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري" شك من الراوي: هـل قـال الأول أو الثاني؟ والمعنى واحد.
وقوله: " فاقدره لي، ويسره لـي" اقـض بـه لـي، واجعلنـي قـادراً علـى الحصول عليه، وسهل لي أسبابه بحيث أناله بلا مشقة وكلفة، وفي هـذا: أنـه لا يحصل شيء إلا بسبب.
"ثم بارك لي فيه " اجعل فيه بركة تنميه وتزيده، وفيما يترتب عليه.
"اللهم إن كنت تعلم أنه شر لي، في ديني، ومعاشـي، وعاقبـة أمـري- أو قال: عاجل أمري وآجله- فاصـرفني عنـه" أي: هيـئ الأسـباب الـتي تصـرف قلبي وتثني عزمي عن فعله.
"واقدر لي الخير حيث كان" أي: قدر لي فعل ما فيه خير لـديني ودنيـاي، في أي مكان، وفي أي وقت.
"ثم رضني به" أي: اجعلني رضياً بـه، قانعـاً، نـاعم البـال، مسـتغنياً عـن خلقك، مستعيناً به على طاعتك، وشاكراً لك منقاداً لأمرك.
ومراد البخاري: إثبات صفة القدرة لله -تعالى- وأن قدرته -تعالى- عامـة لكل مقدور، والرد على القدريـة نفـاة القـدر مـن المعتزلـة وغيرهـم، الـذين يقيدون قدرة الله -تعالى- بما اخترعوه من عند أنفسهم، ولهـذا اقتصـر علـى هذا القدر من الآية، أي القادر على كل شيء.
ص 178
فالله -تعالى- يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا مانع له، ولا يقدر غيره أن يمنعه مراده " فهو قادر على كل مقدور".
وكل ممكن يكون مقدوراً له، فما مـن ممكـن فـي نفسـه إلا واللـه قـادر عليه.
و أما الممتنع لنفسه، فإنه ليس بشيء عند جميع العقلاء، إن تنازعوا فـي المعدوم الممكن مثل إيمان الكافر: هل هو شيء أو لا؟ فأما الممتنع لنفسه: فلم يقل أحد إنه شيء في الخارج، والممتنع هو: ما لا يمكن وجوده في خارج الذهن، مثل كون الشيء موجوداً معدوماً[518]، فإنه لا يعقل ثبوت ذلك، وكـذا كون الشيء أسود كله وأبيض كله، وكون الجسـم الواحـد بعينـه فـي الـوقت الواحد في مكانين، والممتنع يراد به الممتنع لنفسه مثل هذه الأمور، ويراد به

[518]() ومن ذلك قول بعض الملاحدة : هل يقدر الله أن يخلق مثل نفسه ؟ فهذا ممتنع لنفسه ، و إنما يورده جاهل لا يتصور ما يقول ، أو ملبس معاند يريد إفساد عقائد عوام المؤمنين ، أو التشكيك في قدرة الله –تعالى- .

الممتنع لغيره مثل ما علم الله أنه لا يكون، وأخبر أنـه لا يكـون، وكتـب ذلـك، فهذا ممتنع، لأنه لو كان للزم أن يكون علم الله متخلفاً عن معلـومه، وخـبره بخلاف الواقع، تعالى عن ذلك، ولكن هو ممكن بنفسه والله قـادر عليـه، كمـا قال –تعالى-: {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ} [519]، وقال –تعالى-:{ وَإِنَّـا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَـادِرُونَ} [520]، وقـال –تعـالى-: {وَلَـوْ شِـئْنَا لآتَيْنَـا كُـلَّ نَفْـسٍ هُدَاهَا} [521]، {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} [522].

وأمثال ذلك مما يخبر -تعالى- أنه لو شاء لفعلـه، فـإن هـذه الأمـور الـتي أخبر أنه لو شاء لفعلها يلزم أنها ممكنة مقدورة له، فإيمان من علم اللـه أنـه لا يؤمن مقدور له ممكن، لكنه لا يقع، وقد علـم اللـه أنـه لا يـؤمن، مـع كـونه مستطيع الإيمان، كمن علم أنه لا يحج مع استطاعته الحج.

قال الله -تعالى-: {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [523]

ص 179

وحقيقة الأمر هو ما أخبر الله به في غير موضع مـن كتـابه أنـه علـى كـل شيء قدير، وهذا هو ما يعتقده أهل السنة المثبتون للقدر"[524].

"فعند أهل السنة أن الله على كل شيء قدير، وكـل ممكـن فهـو منـدرج في هذا، وأما المحال لذاته مثل كون الشيء الواحد موجوداً معدوماً، فهـذا لا حقيقة له، ولا يتصور وجوده، ولا يسمى شيئاً باتفاق العقلاء، ومن هـذا البـاب خلق مثل نفسه، وأمثال ذلك"[525].

---

[519]() الآية 4 من سورة القيامة .

[520]() الآية 18 من سورة المؤمنون.

[521]() الآية 13 من سورة السجدة .

[522]() الآية 118 من سورة هود عليه السلام .

[523]() الآية 28 من سورة الأنعام.

[524]() "منهاج السنة" (2/118-122) ملخصاً ببعض التصرف .

[525]() المصدر السابق (1/213).

ص 180

قال: " باب مقلب القلوب" وقول الله تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ} [526].

قال الراغب: " تقليب الشيء: تغييره من حال إلى حال، والتقليب: التصرف، وتقليب الله القلوب والبصائر: صرفها من رأي إلى رأي "[527].

قال ابن عباس: " لما جحد المشركون ما أنزل الله، لم تثبت قلوبهم على شيء، وردت عن كل أمر "[528].

وقال مجاهد: "ونحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم كل آية، فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة"[529].

قال الحافظ: " المراد بتقليب القلوب: تقليب أعراضها، وأحوالها، لا تقليب ذات القلب"[530].

أخبر -تعالى- أنه يعاقب من لا يقبل الحق، أو يرده أول ما يبلغه بتقليب القلب، وتركه يعمه في ضلاله وغيه، كما في هذه الآية المذكورة في الباب، وكما في قوله -تعالى-: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [531]، وفي هذا بيان أن الله -تعالى- إذا منع فضله الإنسان، بالهداية، أنه يكون منحرفاً ضالاً.

ومراد البخاري – رحمه الله – وصف الله -تعالى- بأنه المنفرد بالتصرف في خلقه حتى قلوب العباد التي تنطوي على آرائهم، ونياتهم، وما يخططون لمستقبلهم، حيث يرى كثير منهم أو أكثرهم في الظاهر أنهم أحرار في أفكارهم، وما يريدونه، والواقع أن الله - تعالى- هو الذي يصرفهم في ذلك، فلا قدرة لهم إلا بعد مشيئته،

ص 181

وبهذا يشير البخاري – رحمه الله – إلى تمام قدرة الله التي سبق ذكرها في الباب قبل هذا، حيث بين بهذا أن الله هو المتصرف بالقلوب، فإن شاء جعلها مريدة للخير، وإن شاء جعلها مريدة للشر وبذلك يعلم أنه لا قدرة لأحد على شيء إلا بعد أن يجعله الله قادراً عليه، خلافاً لما يقوله الضالون عن الحق، من أهل البدع والانحراف.

---

[526]() الآية 110 من سورة الأنعام.

[527]() "المفردات" (ص 411).

[528]() رواه الطبري ، انظر :" التفسير" (12/43،41).

[529]() المصدر نفسه (12/44).

[530]() "الفتح" (11/527).

[531]() الآية 5 من سورة الصف .

ص 182
20-قال: " حدثنا سعيد بن سليمان، عن ابن المبارك، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن عبد الله، قال: " أكثر ما كان النبي –صلى الله عليه وسلم- يحلف: لا، ومقلب القلوب".
ذكر البخاري – رحمه الله – هذا الحديث في كتاب القدر، بلفظ: " كثيراً ما كان النبي-صلى الله عليه وسلم- يحلف" لا، ومقلب القلوب"[532].
وذكر عن ابن عمر – أيضاً -: " كانت يمين النبي –صلى الله عليه وسلم- لا، ومقلب القلوب"[533].
وفي رواية ابن ماجه: " كان أكثر أيمان رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: لا، ومصرف القلوب"[534].
قال الحافظ: " في هذا الحديث دليل على أن أعمال القلب، من الإرادات والدواعي وسائر الأعراض، بخلق الله -تعالى- وفيه جواز تسمية الله -تعالى- بما ثبت من صفاته على الوجه الذي يليق به"[535].
ففي هذا الحديث، وما هو نحوه من الدلائل، أن الله -تعالى- هو الذي يتولى قلوب العباد يصرفها كيف يشاء، وهذا من تمام ملكه، فلا ينازعه أحد في التدبير والتصرف، ولا يقع في الوجود إلا ما أراده، وبهذا يعلم مدى حاجة العبد إلى ربه، وأنه لا غنى له عنه طرفة عين، فلا بد له من هدايته وتوفيقه، وإلا ضل وتاه في مهامه نهايتها الهلاك، والعذاب المؤبد، وهذا لا ينافي تكليف العباد بالأعمال التي يترتب عليها الجزاء، كما سيأتي –إن شاء الله تعالى – في موضعه.
وفي " صحيح مسلم" عن عبد الله بن عمرو، أنه سمع رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يقول: " إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين، من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه
ص 183
كيف يشاء" ثم قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-:" اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك"[536].

---

[532]() انظر :" البخاري مع الفتح" (11/513).
[533]() انظر : المرجع السابق (ص 523).
[534]() انظر : " سنن ابن ماجه" (1/677) رقم (2092).
[535]() "فتح الباري" (11/527).
[536]() انظر : " مسلم" ، كتاب القدر ، (4/2045) رقم الحديث (2654).

ص 184
قال: " باب إن لله مائة اسم إلا واحدة ".
مراده بهذا الباب: وجوب إثبات أسماء الله -تعالى- على ما ورد في كتاب الله، وعن رسوله، وأن ذلك من التوحيد الذي بينه الرسول –صلى اللـه عليـه وسلم- ودعا أمته إلى الإيمان به، ووجوب اعتقاده، قال الله -تعـالى-: {وَلِلَّـهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِـي أَسْـمَآئِهِ سَـيُجْزَوْنَ مَـا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [537]، وقال – جل وعلا – {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَـهُ الأَسْـمَاء الْحُسْـنَى} [538]، وقـال – تبـارك وتعـالى-: {هُـوَ اللَّـهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [539].
فهذه الآيات وغيرها مما في معناهـا، تـدل علـى وجـوب الإيمـان بمـا للـه -تعالى- من الأسماء الحسنى، الدالـة علـى عظيـم جلالـه، وسـمعة أوصـافه، فكل اسم من أسـمائه دال علـى كمـال عظمتـه، وبـذلك كـانت حسـنى، أمـا الأسـماء الـتي لا تـدل علـى صـفات الكمـال، فليسـت بحسـنى، وكـذلك إذا اشتركت دلالتها بين الكمال والنقص، أو دلت علـى مجـرد علـم محـض، مثـل إبراهيم، وزيد، فلا تكون حسنى حتى تدل على كمال الصفة التي اشـتق منهـا الاسم، مثل "العليم" فإنه يدل على أن له علماً عاماً محيطاً بجميـع الأشـياء، لا يخرج عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض، ومثل "القـدير" الـدال علـى قدرته التي لا يعجزها شيء، و"الرحيـم" الـدال علـى رحمتـه العظيمـة الـتي وسعت كل شيء.
وهكذا كـل أسـمائه – جلا وعلا – وهـذا تفصـيل وبيـان للبـاب الثـاني مـن الكتاب، ولكونها حسنى أوجب على عباده دعاءه بها، كما يأتي في البـاب بعـد هذا، وتوعد الملحدين بها.
فيدعى بكل مطلوب بما يناسبه منها، فقال: اللهم اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، وتب عليّ إنك عفو كريم، والطف بي يا لطيف، وارزقني يا رزاق، وهكذا.
ص 185
"قوله: " إن لله مائة اسم إلا واحدة" التـأنيث فـي لفظـة "واحـد" نظـراً إلى التسمية أو الكلمة، كما يقول النجاة: " الكلمة اسم أو فعل أو حرف".
وقال ابن مالك: " أنت باعتبار معنى التسمية، أو الصفة، أو الكلمة"[540].
وفي بعض روايته: " إلا واحداً".
قال ابن عباس: {ذو الجلال}: العظمة، {البر}: اللطيف".

---

[537]() الآية 180 من سورة الأعراف .
[538]() الآية 110 من سورة الإسراء .
[539]() الآية 24 من سورة الحشر .
[540]() "فتح الباري" (11/219).

في روايـة: " ذو الجلال: العظيـم"، فيكـون "العظيـم" تفسـيراً لــ" ذو"، وعلى الأولى تفسيراً لـ" الجلال".

فذو الجلال: صاحب العظمة، الذي لا تقاس عظمتـه بشـيء مـن خلقـه – جل وعلا-.

و أما "البر" فهو: المحسن غاية الإحسان إلى خلقه، مـن غيـر اسـتحقاق ولا مقابل، فهو بليغ الإحسان إلى خلقه، وإحسانه شامل لهم.

و أما " اللطيف" فهو: العالم بالخفيات، ودقائق الأمور، وغوامضها، والله أعلم.

وقال الزجاج:" اللطيف": المحسن إلى عباده في خفاء وستر، من حيـث لا يعلمون"[541].

---

[541]() "تفسير الأسماء الحسنى" (ص 44).

ص 186
21-قال: " حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعـرج، عن أبي هريرة، أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال: " إن للـه تسـعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة".
{أحصيناه} حفظناه.
" قال جماعة من العلماء: الحكمة في قوله: " مائة إلا واحداً" بعد قـوله: " تسعة وتسعين" أن يقرر ذلك في نفس السامع، جمعاً بين جهـتي الإجمـال والتفصيل، أو دفعاً للتصحيف الخطي، أو اللفظي"[542]
قوله: " إن لله تسعة وتسعين اسماً" هذا لا يقصد بـه حصـر أسـماء اللـه -تعالى- في هذا العدد المذكور، وإنما قصد الإخبار عما يـترتب علـى إحصـائها وجزائه، كما تقول: عنـدي مائـة كتـاب أعـددتها للإعـارة، فلا ينفـي أن يكـون عندك كتب غيرها، فالتقييد بهـذا العـدد عائـد إلـى الأسـماء الموصـوفة بهـذه الصفة، وهي قوله: " من أحصاها دخل الجنة" فهـذه الجملـة محلهـا النصـب صـفة " لتسـعة وتسـعين"، ويجـوز أن تكـون فـي محـل رفـع علـى الابتـداء، والمعنى " إن لله أسماء بقدر هذا العدد، من أحصاها دخل الجنة".
فأسماء الله -تعالى-، لا تدخل تحت حصر، ولا تحـد بعـدد، بـدليل مـا رواه الإمام أحمد في " المسند"، حدثنا يزيد، أنبأنا ابـن مـرزوق، حـدثنا أبـو سـلمة الجهني[543]، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد اللـه، قـال: قـال رسول الله –صلى الله عليه وسـلم-: " مـا أصـاب أحـداً قـط هـم، ولا حـزن، فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم سـميت بـه نفسـك، أو علمتـه أحـداً مـن خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيـب عنـدك، أن تجعـل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزنـي، وذهـاب همـي، إلا أذهـب اللـه همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً"[544] سنده صحيح.
ص 187
قـال ابـن كـثير:" أخرجـه الإمـام أبـو حـاتم ابـن حبـان فـي "صـحيحه" بمثله"[545].
فهذا يدل على أن لله أسماء غير التسع والتسعين.
وقوله في الحـديث: " أو اسـتأثرت بـه فـي علـم الغيـب عنـدك" معنـاه: انفردت بعلمه فلم تطلع عليه أحداً، لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً.

---

[542]() " الفتح" (11/219).
[543]() يزيد هو : ابن هارون ، إمام حافظ مشهور . وابن مرزوق هو : فضيل بن مرزوق الأغر الرقاشي الكوفي، من رجال مسلم ، و أبو مسلمة و أبو سلمة هو موسى بن عبد الله أو ابن عبد الرحمن .
[544]() "المسند" (1/391، 452) ، وانظر : " الفتح الرباني" (14/262).
[545]() انظر : " تفسير ابن كثير" (3/517) ط الشعب .

وقسم أسماء الله -تعالى- في هذا الحديث ثلاثة أقسام:
أحدها: ما سمى به نفسه، فأظهره لمن شاء، من ملائكته أو غيرهم، ولم ينزله في كتبه.
والثاني: أنزله في كتبه، أو في بعضها، فتعرف به إلى عباده.
والثالث: استأثر به في علم الغيب عنده، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه، ولهذا قال: "أو استأثرت به في علم الغيب عندك " أي: جعلته من الغيب الذي لا يعلمه غيرك، وليس المراد أنه -تعالى- انفرد بالتسمي به؛ لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزلها في كتبه، وهو ثبوت ما دلت عليه من المعاني اللائقة بعظمته، لا مجرد التسمية.
ومن الأدلة على عدم حصرها فيما ذكر: قوله –صلى الله عليه وسلم- في حديث الشفاعة: " فيفتح عليّ من محامده ما لا أحسنه الآن" وتلك المحامد، هي الثناء عليه -تعالى- بما له من أسماء حسنى وصفات عليا.
ومن الأدلة أيضاً قوله –صلى الله عليه وسلم-: " لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"[546] و أحسن الثناء ما كان بأسمائه الحسنى وصفاته العلية.
وبهذا يتبين أن الأسماء الحسنى غير محصورة في العدد المذكور، وإنما خص ذكر هذا العدد لما رتب عليه من الحكم، وهو: " من أحصاها دخل الجنة "، فليس في الحديث حصر أسماء الله -تعالى- ولا يدل على أنه ليس لله اسم غير هذه التسع والتسعين، وإنما أريد به الإخبار بدخول الجنة لمن أحصاها، لا الإخبار بحصرها،
ص 188
و إلى هذا ذهب جمهور العلماء، كما ذكره الحافظ، ونقل النووي الاتفاق على ذلك[547].
قال شيخ الإسلام: " والصواب الذي عليه جمهور العلماء: أن قول النبي –صلى الله عليه وسلم-:" إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصها دخل الجنة " معناه: أن من أحصى التسعة والتسعين من أسمائه دخل الجنة، ليس مراده أنه ليس له إلا تسعة وتسعون اسماً، فإن في الحديث الآخر الذي رواه أحمد وأبو حاتم في "صحيحه": " أسألك بكل اسم هو لك" الحديث، وفي "الصحيحين": " لا أحصي ثناء عليك" ولو أحصى جميع أسمائه، لأحصى صفاته، فكان يحصي الثناء عليه؛ لأن صفاته يعبر عنها بأسمائه"[548].
قوله: " من أحصاها دخل الجنة" اختلف في المقصود من الإحصاء، وربما فهم من صنيع البخاري أنه يرى أن إحصاءها هو حفظ ألفاظها، كما فهم

---

[546]() رواه "مسلم" في كتاب الصلاة (1/352) ، و "أبو داود" في الوتر (2/134) وغيرهما.
[547]() انظر : " فتح الباري" (11/220).
[548]() "درء تعارض العقل والنقل" (3/332).

من ذلك الحافظ ابن حجر، وعندي فيه نظر، وذلك أن عادة البخاري التي سار عليها في كتابه هذا، أنه إذا جاء لفظ في الحديث، وفي القرآن لفظ يوافقه في اللفظ والاشتقاق، أنه يذكره وإن كان لا يوافقه في المعنى، وأمثلة ذلك كثيرة:

فهو في قوله: " أحصيناه: حفظناه" يشير إلى قوله -تعالى-: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}، قال الأصيلي: " إحصاؤها: العمل بها، لا عدها وحفظها؛ لأن ذلك قد يقع للكافر والمنافق، كما في حديث الخوارج: " يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم"[549].

وذكر العلامة ابن القيم – رحمه الله تعالى – لإحصائها ثلاث مراتب:

"الأولى: إحصاء ألفاظها، وعددها. والثاني: فهم معانيها ومدلولها.

الثالثة: دعاؤه -تعالى- بها، كما قال: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}.

والدعاء نوعان:

1-دعاء ثناء وعبادة.

ص 189

2-ودعاء مسألة وطلب، وكلا النوعين ورد بهما القرآن بكثرة.

فلا يثنى عليه -تعالى- إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، كما لا يسأل إلا بها، ويسأل بها في كل مطلوب بما يناسبه ويقتضيه من الأسماء الحسنى، والصفات العلية الكريمة، كما تقدمت الإشارة إليه.

وهذا من أعظم الوسائل إلى الله -تعالى-، وأنفعها، ولهذا جاءت أدعية الرسل مطابقة لذلك"[550].

وبهذا يتبين أن إحصاءها الموعود عليه دخول الجنة، يتضمن حفظها وفهمها، ودعاء الله بها، والله أعلم.

قال أبو عمر الطلمنكي: " من تمام المعرفة بأسماء الله -تعالى- وصفاته التي يستحق بها الداعي والحافظ ما قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم- المعرفة بالأسماء والصفات، وما تتضمنه من الفوائد، وتدل عليه من الحقائق، ومن لم يعلم ذلك لم يكن عالماً لمعاني الأسماء ولا مستفيداً بذكرها ما تدل عليه من المعاني"[551].

---

[549]() "فتح الباري" (11/226).

[550]() انظر : " بدائع الفوائد" (1/164).

[551]() "فتح الباري" (11/226).

ص 190
قال: " باب: السؤال بأسماء الله -تعالى-، والاستعاذة بها".
السؤال: هو الطلب بذل وخضوع وافتقار، والاستعاذة هي: العوذ والاحتماء بمن يدفع المكروه، ويرفع البلاء بعد نزوله، وهما من أفضل أنواع العبادة، فالبخاري – رحمه الله- أراد بهذا الباب أن يبين معنى دعاء الله -تعالى- بأسمائه الذي أمر الله به، وأن الرسول –صلى الله عليه وسلم- قد بينه.
قال ابن بطال: " مقصود بهذه الترجمة: تصحيح القول بأن الاسم هو المسمى، فلذلك صحت الاستعاذة بالاسم، كما تصح بالذات"[552].
قلت: هذا بعيد عن مقصود البخاري، وإنما مقصوده بيان كيفية دعاء الله وعبادته بأسمائه التي أمر أن يدعى بها ويعبد، بقوله -تعالى-: {وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} وبين ذلك الرسول –صلى الله عليه وسلم- بفعله، وأمره، كما في الأحاديث التي ذكرت في هذا الباب وغيرها.
وأما مسألة: هل الاسم هو المسمى، أو غيره؟ فهي من بدع الكلام، التي حدثت بعد القرون المفضلة، والتي اختلط فيها الحق بالباطل.
والبخاري – رحمه الله – من أبعد الناس عن مثل ذلك.
قال ابن جرير الطبري – رحمه الله -:" وأما القول في الاسم: أهو المسمى أم هو غيره؟ فإنه من الحماقات الحادثة، التي لا أثر فيها فيتبع، ولا قول من إمام فيستمع، فالخوض فيه شين، والصمت عنه زين، وحسب امرئ من العلم به والقول أن ينتهي إلى قوله – جل ثناؤه- الصادق، وهو قوله – تعالى-: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [553]وقوله: {وللهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [554].
"وكان سبب حدوث هذه المسألة، أن الجهمية قالوا: إن الاسم غير المسمى، وأسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق؛ لأن الله –تعالى- وحده هو الخالق، وما سواه مخلوق، فإذا كانت أسماؤه غيره، فهي مخلوقة. فرد عليهم السلف، واشتد
ص 191
نكيرهم عليهم؛ لأن أسماء الله من كلامه، وكلام الله غير مخلوق، فهو الذي سمى نفسه بهذه الأسماء.
فكان مراد الذين يقولون: الاسم غير المسمى {من أهل السنة} هو هذا.

---

[552]() "الفتح" (13/379).
[553]() الآية 110 من سورة الإسراء .
[554]() الآية 180 من سورة الأعراف ، " عقيدة الطبري" (ص 12).

ولهذا روي عن الشافعي، والأصمعي، وغيرهما، أنهم قالوا: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم غير المسمى، فاشهد عليه بالزندقة"[555].

وللناس في هذه المسألة ثلاثة أقوال:

أحدها: ما ذكره ابن بطال، وإليه ذهب كثير من المنتسبين إلى السنة كأبي القاسم الطبري اللالكائي، والبغوي، وغيرهما.

قال البغوي: " والاسم هو المسمى، وعينه، وذاته، قال الله -تعالى-: {إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى} [556].

فأخبر أن اسمه يحيى، ثم نادى الاسم، فقال: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} [557]. وقال -تعالى-: {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا} [558]، وأراد الأشخاص المعبودة؛ لأنهم كانوا يعبدون المسميات.

وقال -تعالى-: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى} وقال: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَام}.

والقول الثاني: أن الاسم غير المسمى.

والثالث: أن الاسم للمسمى، وهذا القول دل عليه الكتاب والسنة، قال -تعالى-: {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [559]، وقال -تعالى-: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [560]،وقال -تعالى-: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [561]، وقال -تعالى-: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [562].

ومن السنة هذا الحديث: " إن لله تسعة وتسعين اسماً".

وقوله –صلى الله عليه وسلم-: " إن لي خمسة أسماء، أنا محمد، وأحمد، والماحي، والحاشر، والعاقب"[563].

هذا مذهب أكثر أهل السنة.

فلا يطلقون بأنه المسمى، ولا غيره، بل يفصلون، حتى يزول اللبس.

فإذا قيل لهم: أهو المسمى أم غيره؟ قالوا: ليس هو نفس المسمى، ولكن يراد به المسمى.

وإن أريد بأنه غيره: كونه بائناً عنه، فهو باطل؛ لأن أسماء الله من كلامه، وكلامه صفة له، قائمة به، لا تكون غيره.

---

[555]() "مجموع الفتاوى" (6/187).

[556]() الآية 7 من سورة مريم .

[557]() الآية 12 من سورة مريم.

[558]() الآية 40 من سورة يوسف .

[559]() الآية 180 من سورة الأعراف .

[560]() الآية 110 من سورة الإسراء.

[561]() الآية 8 من سورة طه .

[562]() الآية 24 من سورة الحشر .

[563]() رواه البخاري ، انظره مع "الفتح في التفسير" (8/640) ، وفي "المناقب" (6/544) ، ومسلم في "الفضائل" (4/1828) رقم (2354) ورقم (2355).

واسم الله -تعالى- في مثل إذا قيل:" الحمد لله" أو "بسم اللـه" يتنـاول ذاته وصفاته، لا ذاتاً مجردة عن الصفات، ولا صفات مجردة عن الـذات. وقـد نص الأئمة على أن صفاته، داخلة فـي مسـمى أسـمائه، فلا يقـال: إن علمـه وقدرته زائدة عليه.

ومن قال من أهل السنة: إن الصفات، زائدة على الـذات، فمـراده: أنهـا زائدة على ما أثبته أهل التعطيل، الذين أثبتوا ذاتاً مجردة عـن الصـفات؛ لأنـه ليس في الوجود ذات مجـردة عـن الصـفات، كمـا لا يمكـن وجـود صـفات بلا ذات، تقوم بها، فتخيل وجود أحدهما دون الآخر من الهوس.

ثم إن الذين قالوا: إن الاسم هو المسمى، ليس مرادهم أن مجرد اللفـظ هو الذات، التي وضع لها هذا الاسم، فإن هذا لا يقوله عاقل.

ص 193

كما أن الذين قالوا أن الاسم غير المسـمى، لـم يريـدوا أن مجـرد اللفـظ غير الذات، فإن هذا لا جدال فيه.

وما ذكره البغوي – رحمه الله – محتجاً به على أن الاسـم هـو المسـمى، فهو لا يدل على ما قاله.

فقوله -تعالى-: {إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى} ثـم قـال {يَـا يَحْيَـى خُـذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} فاللفظ الذي هو "الياء والحاء والياء" ليس هـو ذات المسـمى به، فمن زعم ذلك فقد كابر.

فالمقصود نداء المسمى لا نداء اللفظ، والمتكلم لا يمكنه نـداء مـن يريـد مناداته إلا بذكر اسمه، إلا أن يكون ذلك بالإشارة.

و أما قوله -تعالى-: {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا} [564].

فليس المراد: أنكم تعبدون الأوثان المسماة، فهم معترفون بذلك.

بل المراد: نفي ما كانوا يعتقدونه فيها من الإلهية، والواقع أنه ليـس فيهـا شيء من ذلك.

فإذا عبدوها معتقدين ثبوت إلاهيتها، مسمينها آلهة، لم يكونوا فـي حقيقـة الأمر عبدوا إلا أسماء ابتدعوها، ما أنزل الله بها من سلطان، وليس فيها مـن معنى الإلهية شيء، فعبادتهم لمـا تصـوروه فـي أنفسـهم مـن معنـى الإلهيـة وعبروا عنه بألسنتهم.

وهذا التصور خيالي، لا حقيقة لـه، فهـم لـم يعبـدوا فـي الحقيقـة إلا ذلـك الخيال الفاسد، الذي تصوروه، وسموه إلهاً، فكان مجرد تسمية فقـط، ليـس له من معنى الإلهية شيء.

و أما قـوله -تعـالى-: {سَـبِّحِ اسْـمَ رَبِّـكَ الأَعْلَـى} فـالمراد بـه، تسـبيحه -تعالى- وتنزيهه عما لا يليق به، معتقداً ذلك بقلبـه، متلفظـاً باسـمه بلسـانه،

---

[564]() الآية 40 من سورة يوسف .

قائلاً:" سبحان ربي الأعلى" والمراد المسمى بهذا الاسم، فتسبيح الاسم هـو تسبيح المسمى.

ص 194

ومن قال: المراد بتسبيح الاسم، أنك لا تسمي به غير اللـه، ولا تلحـد فـي أسمائه، فهذا المعنى مما يستحقه اسم الله -تعالى- وهـو داخـل فـي المـراد بالآية، ولكن المقصود المعنى الأول، والله أعلم.

و أما قوله -تعالى-: {تَبَارَكَ اسْـمُ رَبِّـكَ} فـالمعنى: أن البركـة تكتسـب، وتنال بذكر اسمه.

ولو كان لفظ الاسم يراد به المسمى، لكفى قوله: تبارك ربك؛ لأن نفـس الاسم عندهم هو الرب، فيكون بذكر الاسم تكرار.

وبهذا يتبين أن الشبه التي دعت كثيراً من العلماء إلى القول بـأن الاسـم هو المسمى أنها باطلة، وهي: أن الله -تعالى- وحده هو الخـالق، ومـا سـواه مخلوق، فإذا قيل: إن أسماء الله غيره، لزم أن تكون مخلوقة[565].

---

[565]() هذا البحث من منتصف صفحة (193) كله مقتبس من رسالة شيخ الإسلام في الموضوع المثبتة في المجلد السادس من "الفتاوى" انظر : (ص 185).

ص 195
22- قال: " حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثني مالك، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: " إذا جاء أحدكم فراشه، فلينفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات، وليقل باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين".
العبد الصادق العبودية، لا ينفك عن عبادة ربه، في أمور حياته كلها، في خروجه من بيته، وفي دخوله، وفي أكله وشربه، وفي نومه ويقظته، وفي مقارفته لأهله، ومعاملته للناس، ولذلك أرشد الرسول –صلى الله عليه وسلم- إلى هذا النوع من العبادة، في هذا الحديث وغيره، عند النوم، والاستيقاظ منه، وهو من عبادة الله ودعائه بأسمائه.
قوله: " فلينفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات" صنفة الثوب: طرفه من الداخل، لما في الرواية الأخرى: " داخلة إزاره" ولو فعل ذلك بغير طرف ثوبه حصل المقصود، والحكمة في ذلك إزالة ما لعله يكون فيه مما يؤذيه، وأمر بأن يكون ذلك ثلاث مرات، للمبالغة، وليكون ذلك وتراً، إذ الوتر معتبر في الشرع.
"وليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه" لما كان النوم نوعاً من الموت، وقد يموت فيه حقيقة، لجأ إلى ربه بذكر اسمه، داعياً ومتبركاً به، وسائلاً به المغفرة، وهي ستر الذنوب، والعفو عنها، إن أمسك نفسه – أي قبضها في النوم – فلم يردها إلى بدنها.
قال -تعالى-: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [566].
"وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين " أي: إن رددتها إلى بدنها، فاحفظها من الشياطين، والضلال، والمؤذيات، بحفظك وحمايتك، التي تحمي بها أولياءك الذين تتولى حفظهم من كل مضر ومؤذ.
ص 196
ففي هذا الحديث مشروعية ذكر الله -تعالى- عند النوم؛ ليكون موته الأصغر على اسمه، فيدخل بذلك في العمل بقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [567].
وفيه الاستسلام لله، والافتقار إليه، وسؤاله ما لا غنى له عنه، وهذا كله من عبادة الله تعالى ودعائه بأسمائه، فهو تفسير لقوله -تعالى-: {وَلِلَّهِ

---

[566]() الآية 42 من سورة الزمر .
[567]() الآية 162 من سورة الأنعام .

الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [568]، وهذا هو وجه ذكر البخاري له، ولما يــأتي من الأحاديث.

[568]() الآية 180 من سورة الأعراف .

ص 197
23-قال: " حدثنا مسلم، حدثنا شعبة، عن عبد الملك، عن ربعي، عن حذيفة – رضي الله عنه -: " كان النبي –صلى الله عليه وسلم- إذا أوى إلى فراشه، قال: " اللهم باسمك أحيا وأموت، وإذا أصبح قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور".

حذيفة هو ابن اليمان، واسم اليمان: حسل، أو حسيل، وهو عبسي.

كان من كبار أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، ومن الفقهاء النجباء أهل الفتوى، وصح عنه أنه قال: " كان الناس يسألون رسول الله – صلى الله عليه وسلم- عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن أقع فيه" ولهذا اختص بمعرفة الفتن، كما أنه عرف بصاحب السر، حيث أسر إليه رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أسماء المنافقين، وأمره أن يكتم ذلك، وسأله رجل عن أشد الفتن فقال: " أن يعرض عليك الخير والشر فلا تدري أيهما تختار" توفي – رضي الله عنه – سنة ست وثلاثين[569].

" إذا آوى إلى فراشه" أي: رجع إليه بعد عمل النهار.

"اللهم باسمك أحيا وأموت" أي ذاكراً اسمك في حياتي، مطمئناً به قلبي، إذ لا راحة لي ولا اطمئنان إلا بذكر اسمك، ولا حياة نافعة إلا بذلك. وعلى ذكر اسمك يا رب أموت، متوسلاً به إليك أن تتولاني، وتحفظني في جميع أحوالي.

" وإذا أصبح قال: " الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور".

النوم نوع من الموت، واليقظة حياة، وهو نعمة من الله على عباده حتى ترتاح أبدانهم، وأفكارهم، وقد ينام الإنسان فلا ترجع إليه روحه، فإذا استيقظ سالماً، قد رجع إليه نشاطه وقوته، استوجب ذلك شكر الله -تعالى- والثناء عليه، فناسب قوله بعد يقظته: " الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا" أي: أرجع إلينا أرواحنا بفضله ومنته.

والنشور: هو البعث بعد الموتة الكبرى، فمصيرنا إلى ربنا، حتى يجازينا على أعمالنا كما وعدنا.

ففي هذا الحديث كالذي قبله، ذكر اسم الله -تعالى- عند النوم، والتوسل به، والثناء عليه بأن له الحمد، وهذا من الدعاء بأسماء الله الحسنى.

---

[569]() انظر :" الاستيعاب" (1/334) ، "الرياضي المستطابة" (ص 49).

ص 198

24-قال: " حدثنا سعد بن حفص، حدثنا شيبان، عن منصور، عن ربعي بن حراش، عن خرشة بن الحر، عن أبي ذر – رضي الله عنه – قال: كان النبي –صلى الله عليه وسلم- إذا أخذ مضجعه من الليل قال: باسمك نموت ونحيا، فإذا استيقظ قال: الحمد لله، الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور".

أبو ذر الغفاري: اختلف في اسمه، واسم أبيه، وصحح الحفاظ أنه جندب بن جنادة، كان من السابقين الأولين إلى الإسلام، غير أنه ذهب إلى قومه فتأخرت هجرته، ففاتته غزوات الرسول –صلى الله عليه وسلم- الأولى، وكان عازفاً عن الدنيا، راغباً بما عند الله، وقصة إسلامه في "الصحيحين"، وكان من الحنفاء قبل أن يسلم، له أخبار كثيرة، ومناقب شهيرة، توفي في الربذة سنة اثنتين وثلاثين، -رضي الله عنه-[570].

هذا الحديث ليس فيه زيادة على الذي قبله، إلا قوله: " من الليل"، والأول يدخل فيه نوم الليل والنهار.

---

[570]() انظر : " الاستيعاب" (1/252) ، و "الرياض المستطابة" (ص 272).

ص 199
25-قال: " حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جريـر، عـن منصـور، عـن سـالم، عن كريب، عن ابن عباس – رضي الله عنهما- قال: قال رسول اللـه –صـلى الله عليه وسلم-:" لو أن أحـدكم إذا أراد أن يـأتي أهلـه، فقـال: باسـم اللـه، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد فـي ذلك لم يضره شيطان أبداً".

هذا نوع آخر من الدعاء بأسماء الله -تعالى-.

"باسم الله" أي: أفعل ذلك، ذاكـراً اسـم اللـه، عابـداً ربـي بهـذا الـذكر، ومتبركاً به.

"اللهم جنبنا الشيطان" أي: أبعدنا عنه، فلا يشاركنا، ولا يحضرنا.

"وجنب الشيطان ما رزقتنا" أي: أبعد الشيطان عن الـرزق الـذي تقـدره لنا من الولد، في هذا الاتصال.

ولا بد من الصدق في ذلك من القلب، والرغبة، والإيمان، والثقة بما قـاله الرسول –صلى الله عليه وسـلم- حـتى يحصـل الموعـود، وهـو عـدم مضـرة الشيطان للمولود.

والمقصود، ذكر اللـه -تعـالى- عنـد مقاربـة الزوجـة، والاسـتعاذة بـه مـن الشيطان، أن يشاركه أو يحضره، أو يضر المولود بحال من الأحوال.

وهذا كما تقدم من بيان معنـى قـوله -تعـالى-: {وَلِلَّـهِ الأَسْـمَاء الْحُسْـنَى فَادْعُوهُ بِهَا}.

ص 200

26-قال: " حدثنا عبد الله بن مسلمة، حدثنا فضيل، عن منصور، عن إبراهيم، عن همام، عن عدي بن حاتم – رضي الله عنه – قال: سألت النبي- صلى الله عليه وسلم- قلت: أرسل كلابي المعلمة؟ قال: " إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله، فأمسكن فكل، وإذا رميت بالمعراض فخزق فكل".

عدي بن حاتم هو: أبو طريف، الجواد بن الجواد، قدم على رسول الله – صلى الله عليه وسلم- في شعبان سنة تسع، بسبب كثرة كتابة أخته، فأسلم، وقد فرح رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بإسلامه، وهو ممن ثبت الله قومه على الإسلام – حين ارتد الناس – بسببه، شهد فتوح العراق، وساهم فيها.

وكان شريفاً فاضلاً، جواداً عابداً، روي عنه أنه يقول: " ما دخل عليّ وقت صلاة إلا وأنا مشتاق إليها " ومن أقواله: " كثرة الكلام أوضع شيء لمقادير الرجال، وأمضى الأشياء عندي رد السؤال بغير نوال"، له أخبار كثيرة وفضائل، توفي في الكوفة سنة ثمان وستين، وقيل غير ذلك، وكان عمر طويلاً، قيل: كان عمره لما مات مائة وعشرون سنة، - رضي الله عنه-[571].

و أما الحديث، فيدل على نوع آخر من أنواع عبادة الله -تعالى- بذكر اسمه على الصيد، والكلاب المعلمة هي: التي تقبل التعليم، فإذا أمرت فعلت، وإذا نهيت انتهت، فإذا أرسلها صاحبها أمسكت الصيد له، وليس لنفسها، فلا تأكل منه.

ومفهوم الحديث: أنه إذا لم يذكر اسم الله -تعالى- عند الإرسال أنه لا يأكل مما أمسكت الكلاب المعلمة، وكذا إذا لم يخزق المعراض – وهو السهم – أي لم يجرح، ولم يصب الصيد بحده، بأن أصابه بعرضه، فإنه لا يأكل؛ لأن الصيد حينئذ يكون وقيذة.

---

[571]() "الاستيعاب" (3/1057) ، و "أسد الغابة" (3/392) ، و "الإصابة" (2/468).

ص 201

27- قـال: " حـدثنا يوسـف بـن موسـى، حـدثنا أبـو خالـد الأحمـر، قـال: سمعت هشام بن عروة يحدث: عـن أبيـه، عـن عائشـة – رضـي اللـه عنهـا – قالت: قـالوا: يـا رسـول اللـه، إن هنـا أقوامـاً حـديثاً عهـدهم بشـرك، يأتونـا بلحمان، لا ندري يذكرون اسم الله عليها أم لا؟ قال: "اذكروا أنتـم اسـم اللـه وكلوا".

في هذا الحديث أن ذكر اسم الله على الذبيحة شرط في حل الأكل منها، وأنه إذا كان ظاهر الذابح الإسلام، لا يلتفت إلى الاحتمال بأنه ذبحها على غيـر اسم الله، أو أنه لا يعرف الحكم، وما أشبه ذلك.

وقوله –صلى الله عليه وسلم-: " اذكروا اسم الله وكلوا" ليس معناه أن ذكر اسم الله -تعالى- عند الأكل يجعلها حلالاً إذا كانت قـد ذبحـت علـى غيـر اسم الله -تعالى-، ولكن أمرهم بذكر اسم الله عند الأكل؛ لأنه الذي يلزمهـم، ومطيباً بذلك قلوبهم، ومشيراً بذلك إلى إطراح الشك، إذ الأصل خلافه، وهـو أن ظاهر الذابح الإسلام.

وهذا الحديث يدل على نوع آخر من عبادة الله -تعالى- بذكر اسـمه علـى الذبيحة، وعلى الأكل، فهو من جنس ما تقدم.

ص 202
28-قال: " حدثنا حفص بن عمر، حدثنا هشـام، عـن قتـادة، عـن أنـس – رضي الله عنه- قال:" ضحى النبي –صلى الله عليه وسلم- بكبشين، يسـمي ويكبر".
الأضحية هي: النسك الذي يذبح تقرباً إلى الله، - في الوقت المحدد له.
والكبش: هو الذكر من الضأن.
وقوله: " يسمي ويكبر " يعني عند الذبح، يقول: بسـم اللـه، واللـه أكـبر، أي: أذبح بسم الله متقرباً إليه عبادة له.
فهذا – أيضاً – من عبادة الله -تعـالى- ودعـائه بـذكر اسـمه -تعـالى- فـي النسك الذي هو من أفضل القرب إلى الله -تعالى-.

ص 203

29-قال: " حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن الأسود بن قيس، عن جندب، أنه شهد النبي –صلى الله عليه وسلم- يوم النحر، صلى ثم خطب، فقال:" من ذبح قبل أن يصلي، فليذبح مكانها أخرى، ومن لم يذبح فليذبح باسم الله ".

جندب هو: جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي العلقي، نسبة إلى علقة بن عبقر بن أنمار، سكن الكوفة، ثم البصرة، وتوفي بعد الستين، - رضي الله عنه-[572].

والمراد من الحديث قوله: " فليذبح باسم الله" أي: ذاكراً اسم الله على الذبيحة، عبادة له بذكر اسمه وبالذبح له، متقرباً إليه بذلك، كما أمر الله -تعالى- عباده بأن يخلصوا ذلك له وحده {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {162}لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ} [573].

وقال -تعالى-: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [574].

---

[572]() انظر : " الاستيعاب" (1/256) ، و "الرياض المستطابة" (ص 46).

[573]() الآيتان 162، 163، من سورة الأنعام .

[574]() الآية 2 من سورة الكوثر .

ص 204

30-قال: " حدثنا أبو نعيم، حدثنا ورقاء، عن عبدالله بن دينار، عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال النبي –صلى الله عليه وسلم-:" لا تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفاً فليحلف بالله".

المقصود بالحلف: تأكيد الخبر بذكر اسم الله العظيم، يوقع بالكاذب العقوبة، ففي ضمن ذلك: أن المحلوف به مطلع على حقيقة الأمر، ولذلك صار الحلف بغير الله شركاً؛ لما في الحديث الذي رواه الترمذي: " من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك"[575]

---

[575]() انظر : " سنن الترمذي" (3/45) ، وقال بعد ذكره : هذا حديث حسن ، وفيه أن ابن عمر سمع رجلاً يحلف بالكعبة ، فقال: لا يحلف بغير الله ... ثم ذكره .
ورواه أحمد في "المسند" (2/125) وهو صحيح .
ورواه الحاكم في " المستدرك" (4/297) ، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .
ورمز له في حاشية الذهبي (خ م) يعني عند البخاري ومسلم ، وليس كذلك .
ورواه البيهقي في "السنن الكبرى" (10/29).

ص 205

قال: " باب: ما يذكر في الذات، والنعوت، وأسامي الله – عز وجل- "

وقال خبيب: وذلك في ذات الإله. فذكر الذات باسمه -تعالى-.

قال الحافظ: "أي: ما يذكر في ذات الله ونعوته، من تجويز إطلاق ذلك عليه، كإطلاق أسمائه عليه، أو منعه، لعدم ورود النص"[576].

وقال عياض: " ذات الشيء: حقيقته، وقد استعمل أهل الكلام الذات، بالألف واللام، وغلطهم أكثر النحاة، وجوزه بعضهم، لأنها ترد بمعنى النفس وحقيقة الشيء، واستعمال البخاري لها على أنها حقيقة الشيء على ما استعملها المتكلمون في حق الله -تعالى-، ولهذا قال: ما جاء في الذات والنعوت، ففرق بينهما على طريقة المتكلمين"[577].

وقال الراغب:" ذات تأنيث "ذو"، وهي كلمة يتوصل بها إلى الوصف بأسماء الأجناس، والأنواع، ولا يستعمل شيء منها إلا مضافاً، وقد استعاروا الذات، فجعلوها عبارة عن عين الشيء، جوهراً كان أو عرضاً، واستعملوها مفردة، ومضافة {وأدخلوا عليها} الألف واللام، وأجروا مجرى النفس، والخاصة، وليس ذلك من كلام العرب"[578].

وقال ابن برهان: " إطلاق المتكلمين الذات في حق الله -تعالى- من جهلهم؛ لأن ذات تأنيث ذو، وهو – جلت عظمته – لا يصلح له إلحاق تاء التأنيث. وقولهم: الصفات الذاتية، جهل منهم أيضاً؛ لأن النسب إلى ذات: ذوى"[579].

وقال الكندي: " ذات بمعنى: صاحبة، تأنيث ذو، وليس لها في اللغة مدلول غير ذلك، وإطلاق المتكلمين وغيرهم الذات بمعنى النفس خطأ عند المحققين"[580].

ص 206

قال الحافظ: " وتعقب بأن الممتنع: استعمالها بمعنى صاحبة، أما إذا قطعت عن هذا المعنى، واستعملت بمعنى الاسمية، فلا محذور؛ لقوله – تعالى-: {إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [581]أي بنفس الصدور.

وقد حكى المطرزي: كل ذات شيء، وليس كل شيء ذات، وأنشد ابن فارس: فنعم ابن عم القوم في ذات ماله إذا كان بعض القوم في ماله وفر[582]

---

[576]() "الفتح" (13/381).

[577]() "مشارق الأنوار" (1/273) ملخصاً.

[578]() "المفردات" (ص 182) بتصرف.

[579]() "الفتح" (13/382).

[580]() نفس المرجع.

[581]() المرجع المذكور .

[582]() "الفتح" (13/382).

وقال النووي: " مرادهم بالذات: الحقيقة، وهذا اصطلاح للمتكلمين، وقد أنكره بعض الأدباء عليهم، وقال: لا يعرف ذات، لي لغة العرب، بمعنى حقيقة، وإنما ذات، بمعنى صاحبة، وهذا الإنكار منكر، بل الذي قاله الفقهاء والمتكلمون صحيح، وقد قال الإمام أبو الحسن الواحدي، في أول سورة الأنفال في قوله -تعالى-: {فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ} [583].

قال أبو العباس أحمد بن يحيى، ثعلب: {ذَاتَ بِيْنِكُمْ} أي: الحالة التي بينكم، فالتأنيث عنده للحالة، وهو قول الكوفيين.

قال: وقال الزجاج: معنى {ذَاتَ بَيْنِكُمْ} حقيقة وصلكم، والبين: الوصل.

قال الواحدي: فذات عنده بمعنى النفس، كما يقال: " ذات الشيء ونفسه"[584].

قلت: وهذا الذي ذكره النووي هو ما يقصده البخاري – رحمه الله – ولهذا قال: " فذكر الذات باسمه -تعالى- " أي: أقام الذات مقام اسمه -تعالى-.

قال الحافظ: " واستعمال البخاري لها، دال على أن المراد بها: نفس الشيء – على طريقة المتكلمين – في حق الله -تعالى-، ففرق بين النعوت، والذات"[585].

ص 207

وقال شيخ الإسلام: " لفظ ذات تأنيث ذو، وذلك لا يستعمل إلا فيما كان مضافاً إلى غيره، فهم يقولون: فلان ذو علم، وذو قدرة، ونفس ذات علم وقدرة، وحيث جاء في القرآن أو لغة العرب، لفظ "ذو"، ولفظ "ذات" لم يجيء إلا مقروناً بالإضافة، كقوله -تعالى-: {فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُم}، وقوله: {عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} وقول خبيب:" وذلك في ذات الإله" ونحو ذلك.

لكن لما صار النظار، يتكلمون في هذا الباب، قالوا: إنه يقال: إنها ذات علم وقدرة، ثم إنهم قطعوا هذا اللفظ عن الإضافة، وعرفوه، فقالوا: " الذات" – وهو لفظ مولد – ليس من لفظ العرب العرباء، ولهذا أنكره طائفة من أهل العلم، كأبي الفتح ابن برهان، وابن الدهان، وغيرهما، وقالوا: ليست هذه اللفظة عربية.

ورد عليهم آخرون، كالقاضي، وابن عقيل، وغيرهما.

وفصل الخطاب: أنها ليست من العربية العرباء، بل من المولد، كلفظ الموجود، والماهية، والكيفية، ونحو ذلك.

---

[583]() الآية الأولى من سورة الأنفال.

[584]() "تهذيب الأسماء واللغات" (2/113) القسم الثاني .

[585]() "الفتح" (13/382).

فهذا اللفظ يقتضي وجود صفات، تضاف الذات إليها، فيقال: ذات علم، وذات قدرة، وذات كلام، فإنه لا يمكن وجود شيء قائم بنفسه في الخارج، لا يتصف بصفة ثبوتية أصلاً"[586].

وقال ابن القيم: " وأصل هذه اللفظة، هو تأنيث "ذو"، بمعنى صاحب، فذات كذا: صاحبة كذا، في الأصل.

ولهذا لا يقال: ذات الشيء، إلا لما له صفات، ونعوت تضاف إليه، فكأنه يقول: صاحبة هذه الصفات، والنعوت.

ولهذا أنكر جماعة من النحاة على الأصوليين قولهم:" الذات"، وقالوا: لا مدخل للألف واللام هنا، كما لا يقال:"الذو"، في ذو. وهذا إنكار صحيح.

والاعتذار عنهم: أن لفظة الذات في اصطلاحهم، قد صارت عبارة عن نفس الشيء، وحقيقته، وعينه.

فلما استعملوها استعمال النفس، والحقيقة، عرفوها باللام، وجردوها من الإضافة، وهذا أمر اصطلاحي، لا لغوي.

ص 208

فإن هذا اللفظ يقال لما هو منسوب إليه، أو من جهته، كجنب الشيء.

فإذا قالوا: هذا في جنب الله، لا يريدون إلا ما ينسب إليه، وفي سبيله، ومرضاته وطاعته، لا يريدون غير هذا.

فلما اصطلح المتكلمون على إطلاق الذات، على النفس، والحقيقة، ظن من ظن أن هذا هو المراد بمثل قوله: " ثلاث كذبات في ذات الله، وقوله: " وذلك في ذات الإله"، وهذا غلط، بل الذات هنا كالجنب، في قوله: { يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ }، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقال: فرطت في نفس الله وحقيقته، ويحسن أن يقال: فرط في ذات الله، كما يقال: قتل في ذات الله، وصبر في ذات الله؟" [587].

وبهذا يتبين أن هذا الإستعمال صحيح لا ينكر؛ لأنه أمر اصطلاحي على معنى مفهوم معين.

وبعض الناس يظن أن إطلاق الذات على الله -تعالى- كإطلاق الصفات، أي أنه وصف له، فينكر ذلك بناء على هذا الظن، ويقول: هذا ما ورد. وليس الأمر كذلك، وإنما المراد التفرقة بين الصفة، والموصوف.

وقد تبين مراد الذين يطلقون هذا اللفظ، أنهم يريدون نفس الموصوف وحقيقته، فلا إنكار عليهم في ذلك، كما وضحه كلام شيخ الإسلام، وتلميذه ابن القيم.

---

[586]() "مجموع الفتاوى" (6/98-99).

[587]() "بدائع الفوائد" (2/7) ببعض التصرف.

قال القسطلاني: "والظاهر جـواز إطلاق لفـظ "ذات"، لا بـالمعنى الـذي أحدثه المتكلمون، ولكنه غير مردود، إذا عرف أن المراد النفس؛ لثبوت لفـظ النفس في القرآن "[588].

و أما "النعوت" فهو جمع نعت، وهو الوصف، يقـال: نعـت فلانـاً نعتـاً، أي وصفه وصفاً، وزنه ومعناه واحد، ومنـه الحـديث: " لا تباشـر المـرأة المـرأة، فتنعتها لزوجها، كأنه يراها"[589].

ص 209

و أما الأسامي، فهي جمع اسم، وتجمع أيضاً على أسماء.

قوله:" فذكر الذات باسمه -تعالى- أي: ذكر اللـه بلفـظ الـذات، وسـمعه النبي –صلى الله عليه وسلم- فلم ينكره، فصار دليلاً على جواز ذلك.

واعـترض علـى اسـتدلال البخـاري بـذلك؛ لأن خبيبـاً لـم يـرد الحقيقـة، والنفس، وإنما يعني بقوله:" وذلك في ذات الإله" أي: في سبيله وطاعته.

والجواب: أن إطلاق لفظ الـذات علـى اللـه -تعـالى- جـائز فـي الجملـة؛ لورود الآثار، فيكون ذلك أصلاً للجواز، ففي الحديث الصحيح المتفـق عليـه:" أن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات، اثنتين في ذات الله"[590].

وفي حديث ابـن عبـاس:" تفكـروا فـي كـل شـيء، ولا تفكـروا فـي ذات الله"[591].

قال الحافظ: سنده جيد.

وقال أبو الدرداء: " لا تفقه كل الفقه، حتى تمقت الناس في ذات الله ".

قال الحافظ: إسناده ثقات، إلا أنه منقطع"[592].

وقد تقدمت الإشارة إلى الفرق بين الأسماء والصفات في الباب الأول.

وقـد ذكـر البخـاري – رحمـه اللـه – قصـة خـبيب وأصـحابه، فـي كتـاب المغازي، وهي مشهورة، فنكتفي بنص ما ذكره البخاري هنا.

---

[588]() "إرشاد الساري" (10/379).

[589]() رواه البخاري في كتاب النكاح ، انظر "البخاري مع الفتح" (9/338).

[590]() رواه البخاري ، انظره مع "الفتح" (4/410) ، (5/246) ، ومواضع أخر عدة ، ومسلم في "الفضائل".

[591]() قال في "كشف الخفا" : رواه أبو نعيم في "الحلية" ، وابن أبي شيبة في "العرش" (ص 311) (4/1840).

[592]() "الفتح" (13/383).

ص 210

31- قال: " حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عمـرو بن أبي سفيان بن أسيد بن جارية، الثقفـي – حليـف لبنـي زهـرة، وكـان مـن أصحاب أبي هريرة- أن أبا هريرة قال: بعـث رسـول اللـه –صـلى اللـه عليـه وسلم- عشرة، منهم خبيب الأنصاري فأخبرني عبيد الله بـن عيـاض، أن ابنـة الحارث أخبرته، أنهم حين اجتمعـوا، اسـتعار منهـا موسـى يسـتحد بهـا، فلمـا خرجوا من الحرم ليقتلوه، قال خبيب الأنصاري:

ولست أبالي حين أقتـلُ على أي شق كان للـه فـي

وذلك في ذات الإله وإنْ يبـارك علـى أوصـال شـلو

فقتله ابن الحارث، فأخبر النبي –صلى الله عليه وسلم- أصـحابه خـبرهم يوم أصيبوا".

ص 211

قال: " باب قول الله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} [593]وقوله – جل ذكره –: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} [594]".

المراد بالنفس في هذا: الله -تعالى-، المتصف بصفاته، ولا يقصد بذلك ذاتاً منفكة عن الصفات، كما لا يراد به صفة الذات كما قاله بعض الناس، وسيأتي بيان ذلك من كلام السلف.

قال ابن جرير – رحمه الله تعالى -: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} أن تسخطوها عليكم بركوبكم ما يسخطه عليكم، فتوافونه {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا} وهو عليكم ساخط، فينالكم من أليم عقابه ما لا قبل لكم به "[595].

وقال: " ويخوفكم الله من نفسه، أن تركبوا معاصيه، أو توالوا أعداءه، فإن إلى الله مرجعكم، فاتقوه واحذروا أن ينالكم عقابه، فإنه شديد العقاب"[596].

وقال ابن خزيمة: "أول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا: ذكر نفسه، جل ربنا عن أن تكون نفسه، كنفس خلقه، وعز عن أن يكون عدماً لا نفس له "[597].

ثم ذكر بعض النصوص في ذلك كقوله -تعالى- {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} وقوله -تعالى-: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} ثم ذكر ما رواه البخاري في هذا الباب، وحديث ابن عباس: "أن النبي –صلى الله عليه وسلم- حين خرج إلى صلاة الصبح وجويرية جالسة في المسجد رجع حين تعالى النهار، قال:" لم تزالي جالسة بعدي؟"

ص 212

قالت: نعم.قال: " لقد قلت بعدك أربع كلمات، لو وزنت بهن لوزنتهن[598]: سبحان الله العظيم وبحمده. عدد خلقه، ومداد كلماته، ورضا نفسه، وزنة عرشه"[599].

وذكر أيضاً حديث محاجة موسى لآدم، وفيه:"قال آدم لموسى: أنت الذي اصطفاك الله برسالاته، واصطنعك لنفسه..."[600] ثم قال: "فالله – جل

---

[593]() الآية 28 من سورة آل عمران .

[594]() الآية 116 من سورة المائدة .

[595]() "تفسير الطبري" (6/321) بتحقيق: محمود شاكر .

[596]() المرجع المذكور (6/317).

[597]() كتاب "التوحيد" (ص 5).

[598]() يعني : لو وزنت هذه الأربع بما قلتيه منذ فارقتك لوزنتهن. رواه مسلم في كتاب الذكر.

[599]() كتاب "التوحيد" (ص 7) رواه مسلم ، كتاب "الذكر" رقم (2726) (4/2090).

[600]() كتاب "التوحيد" (ص 9) وهو في "الصحيحين" ، انظر : "الفتح (6/441) ، و (8/434) ، و (11/505) ، ومسلم (4/2043، 2044).

وعلا- أثبت في آي من كتابه أن له نفساً، وكذلك قد بين على لسان نبيه – صلى الله عليه وسلم- أن له نفساً"[601].

وفي "صحيح مسلم" في حديث أبي ذر الطويل: " يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا"[602].

وفي "السنن" عن علي – رضي الله عنه – أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- كان يقول في آخر وتره:" اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"[603].

وتقدم ذكر حديث ابن مسعود في "المسند" مرفوعاً: "أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك"[604].

فهذه النصوص واضحة في أن المراد بالنفس هو الله -تعالى- كما قلنا.

ولا يخالف ذلك ما قاله ابن خزيمة والأئمة؛ لأن مقصودهم إثبات ما أثبته الله من غير تعرض له بتأويل أو تمثيل، تعالى الله عن الأمثال والأنداد، والتمسك بالنصوص التي قالها الله ورسوله، مع الإعراض عما يقوله أهل التأويل، وأصحاب

ص 213

الوساوس الشيطانية، التي تعود على النصوص بالإبطال، وحسب المسلم أن يسعه ما وسع السلف الصالح من الصحابة، ومن سلك طريقهم.

وليس معنى ذلك الإعراض عن معاني النصوص، كما يتوهمه بعض الناس من مذهب السلف، ويعبرون عنه بالتفويض.

بل المقصود إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله، مع فقه المعنى اللائق بعظمة الله -تعالى- وفهمه، على ما دل عليه قوله -تعالى-: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} ونحوها من الآيات المحكمات، والأمر في هذا واضح لمن تمسك بالكتاب والسنة.

روى ابن جرير، عن مجاهد، في قوله -تعالى-: {إن الساعة آتية أكاد أخفيها} [605].

قال: من نفسي. وأصله عن ابن عباس.

وروي عن أبي صالح: {أكاد أخفيها} قال: يخفيها من نفسه.

---

[601]() كتاب "التوحيد" (ص 8).

[602]() "صحيح مسلم" (4/1994).

[603]() "سنن أبي داود" (2/134) ، والترمذي (5/187) رقم (3562) ، والنسائي (3/249) ، وابن ماجه (1/373) رقم (1179) ، ورواه مسلم في "صحيحه" (1/352) رقم (222) .

[604]() "المسند" (5/267) ، (6/153) تحقيق : أحمد شاكر.

[605]() الآية 15 من سورة طه .

وعن قتادة: {أكاد أخفيها} – وهي في بعض القراءات:" أخفيها من نفسي"[606]-: "لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين، ومن الأنبياء المرسلين"[607].

وقال ابن كثير:" أكاد أخفيها" قال الضحاك: عن ابن عباس أنه كان يقرؤها: "أكاد أخفيها من نفسي"، يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً، وقال سعيد بن جبير: عن ابن عباس، "من نفسه"، وكذا قال مجاهد وأبو صالح، ويحيى بن رافع.

وقال السدي: ليس أحد من أهل السماوات والأرض، إلا وقد أخفى الله عنه علم الساعة، وهي في قراءة ابن مسعود:" إني أكاد أخفيها من نفسي"[608].

وقال ابن جرير في قوله -تعالى-: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}، يقول: إنك يا رب لا يخفى عليك ما أضمرته نفسي مما لا أنطق به ولم أظهره بجوارحي، فكيف بما نطقت به وأظهرته بجوارحي، لو كنت قد قلت للناس:

{اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ} كنت قد علمته، لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به، فكيف بما نطقت به؟ {وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} يقول: ولا أعلم أنا ما أخفيته عني فلم تطلعني عليه، لأني إنما أعلم من الأشياء ما علمتنيه"[609].

وقال في قوله -تعالى-: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} " أنعمت عليك – يا موسى – هذه النعم، ومننت عليك هذه المنن، اجتباء مني لك، واختباراً لرسالاتي، والبلاغ عني، والقيام بأمري ونهيي"[610].

وقال ابن كثير: "أي: اصطفيتك واجتبيتك رسولاً لنفسي، أي كما أريد وأشاء"[611].

وقال ابن سعيد الدارمي: "وادعى المعارض: أن الله لا يوصف بالضمير، والضمير منفي عن الله، وهي كلمة خبيثة قديمة، من كلام جهم، عارض بها جهم قول الله تعالى: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}، يدفع بذلك أن يكون الله -تعالى- سبق له علم في نفسه من الخلق وأعمالهم قبل أن يخلقهم.

فرد عليه بعض العلماء، وقالوا: كفرت بها من ثلاثة أوجه:

---

[606]() هي قراءة ابن مسعود ، كما سيأتي عن ابن كثير وابن عباس .
[607]() "تفسير ابن جرير" (16/149) طبعة الحلبي.
[608]() "تفسير ابن كثير" (5/272) طبعة الشعب.
[609]() "تفسير ابن جرير الطبري" (11/238) تحقيق: محمود شاكر .
[610]() "تفسير الطبري" (16/168) مطبعة الحلبي.
[611]() "تفسير ابن كثير" (4/287) طبعة الشعب .

الأول: أنك نفيت عن الله العلم السابق في نفسه قبل حدوث الخلق.
الثاني: أنك استجهلت المسيح ابن مريم – عليه السلام – بأنه وصف ربه بأن له خفايا علم في نفسه، إذ يقول: { وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ }.
الثالث: أنك طعنت به على محمد –صلى الله عليه وسلم- إذ جاء به مصدقاً لعيسى..
قال أبو سعيد: "وقول جهم هذا أصل كبير في تعطيل النفس والعلم السابق، ويرد عليه بقوله: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ }، فذكر المسيح أن لله علماً سابقاً في نفسه، يعلمه الله، ولا يعلمه هو".
ثم روى عن أبي البحتري أنه قال: " لا يقولن أحدكم: اللهم أدخلني مستقر رحمتك، فإن مستقر رحمته نفسه"[612].
ص 215
وقال الراغب:" نفسه: ذاته، وهذا وإن كان قد حصل – من حيث اللفظ – مضاف، ومضاف إليه، يقتضي المغايرة، وإثبات شيئين من حيث العبارة، فلا شيء من حيث المعنى سواه، سبحانه عن الاثنوية من كل وجه"[613]
قال الحافظ: قال البيهقي: والنفس في كلام العرب على أوجه:
منها: الحقيقة، كما يقولون في نفس الأمر، وليس للأمر نفس منفوسة.
ومنها: الذات، قال: وقد قيل في قوله تعالى: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} إن معناه: تعلم ما أكنه، وما أسره، ولا أعلم ما تسره عني"[614]، "وقال أبو إسحاق الزجاج في قوله -تعالى-: { وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ } أي: إياه.
وحكى صاحب "المطالع" في قوله -تعالى-: {وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ } ثلاثة أقوال:
أحدها: لا أعلم ذاتك.
ثانيها: لا أعلم ما في غيبك.
ثالثها: لا أعلم ما عندك، وهو بمعنى قول غيره: لا أعلم معلومك أو إرادتك، أو سرك، أو ما يكون منك"[615].
"قال ابن بطال: في هذه الآيات والأحاديث، إثبات النفس لله -تعالى- وللنفس معان، والمراد بنفس الله -تعالى- ذاته، وليس بأمر مزيد عليه، فوجب أن يكون هو"[616].

---

[612] () نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي ، (ص 550) "عقائد السلف" ، ملخصاً بتصرف.
[613] () "المفردات" (ص 511).
[614] () "الفتح" (13/384) . ذكر الحافظ كلام البيهقي بالمعنى ، فصار أحسن من كلام البيهقي ، ولهذا آثرته ، وهو في "الأسماء والصفات" (ص 286).
[615] () "الفتح" (13/384).
[616] () المرجع نفسه .

وقال شيخ الإسلام: "ونفسه هي ذاته المقدسة"[617].

ص 216

وقال أيضاً: "ويراد بنفس الشيء: ذاته، وعينه، كما يقال: رأيت زيداً نفسه، وعينه، وقد قال -تعالى-: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}، وقال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} وقال: {ويحذركم الله نفسه}.

وفي الحديث: "سبحان الله رضا نفسه"، وفي الآخر: " إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي".

فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النفس عند جمهور العلماء: الله نفسه التي هي ذاته، المتصفة بصفاته، ليس المراد بها ذاتاً منفكة عن الصفات، ولا المراد بها صفة للذات.

وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات.

كما يظن طائفة أنها الذات المجردة عن الصفات، وكلا القولين خطأ"[618].

---

[617] () "مجموع الفتاوى" (14/196).

[618] () "مجموع الفتاوى" (9/292-293) ، باختصار قليل.

ص 217
32- قال: " حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله، عن النبي – صلى الله عليه وسلم- قال: " ما من أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وما أحد أحب إليه المدح من الله ".
هذا الحديث ذكره البخاري في مواضع متعددة، فتقدم في تفسير سورة الأنعام، وفيه: "ولا شيء أحب إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه"[619].
"فذكر النفس ثابت في هذا الحديث، وإن كان لم يقع في هذه الطريق، لكنه أشار إليه، كعادته، فإنه – رحمه الله - كثيراً ما يترجم ببعض ما ورد في طرق الحديث الذي يورده"[620].
قلت: وهذه الجملة من الحديث المذكورة في التفسير هي محل الشاهد، فهو يشير إليها.
وسيأتي الكلام – إن شاء الله – في الغيرة بعد أربعة أبواب غير هذا، وتقدم الكلام في النفس ما فيه الكفاية.
قوله: "من أجل ذلك حرم الفواحش " الحرام هو:الممنوع، وتحريم الله -تعالى- للشيء، هو منعه منه شرعاً، أو قدراً، فالشرع نحو ما في هذا الحديث، وهو كثير جداً، أي أمثلته.
و أما القدر فكقوله – تعالى -: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ} [621]، وقوله: {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ} [622].
والفواحش: جمع فاحشة، وهي: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، في الشرع، أو في العقل، أو في العرف.
قوله: " وما أحد أحب إليه المدح من الله " كلمة "أحد" لا يوصف بها في الإثبات شيء من الأعيان إلا الله -تعالى-، ولكنها تستعمل في غير الله، في النفي وما في معناه، كالشرط، والاستفهام، وتستعمل في أول العدد، كأحد اثنين وأحد
ص 218
عشر، ولهذا لم يجيء في القرآن استعمالها لغير الله، إلا في غير الموجب، أو في الإضافة، كقوله -تعالى-: { فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ }
قال أهل اللغة: " تقول: لا أحد في الدار، ولا تقل: فيها أحد"[623].

---

[619] () انظر : " الفتح" (8/295).
[620] () "الفتح" (13/385).
[621] () الآية 95 من سورة الأنبياء.
[622] () الآية 12 من سورة القصص.
[623] () "مجموع الفتاوى" (17/137).

والمدح: هو الثناء الحسن، قال الجوهري: "المدح: الثناء الحسن، وقد مدحه وامتدحه، بمعنى، وكذلك المدحة، والمديح، والأمدوحة"[624].

وفي كليات أبي البقاء، بعدما ذكر قول الجوهري قال:" وقيل: المدح: الثناء باللسان على الجميل مطلقاً، سواء كان من الفواضل، أو من الفضائل، وسواء كان اختيارياً، أو غير اختياري، ولا يكون إلا قبل النعمة"[625].

فالمدح: " ذكر محاسن الممدوح، والإخبار عنها على سبيل الثناء والتعظيم بذلك، فإن اقترن بالحب والإرادة، فهو حمد؛ لأن الحمد هو: ذكر محاسن المحمود، والإخبار عنها، مع حبه وإجلاله، وتعظيمه، فهو خبر يتضمن الإنشاء"[626].

ومدح الإنسان نفسه نقص يلام عليه، وكذلك طلبه من الناس، وتكلفه لذلك يدل على نقصه، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن المدح ولا سيما في الوجه؛ لأن ذلك مظنة الفتنة والاغترار، وقد يكون المدح بالكذب، وربما حمله المدح على ظلم من لم يمدحه.

وفي "صحيح مسلم" عن همام بن الحارث أن رجلاً جعل يمدح عثمان، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه – وكان رجلاً ضخماً – فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال: " إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب"[627].

وروى ابن ماجه عن معاوية قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يقول: "إياكم والتمادح فإنه الذبح"[628]وسنده حسن، وفي ذلك أحاديث كثيرة.

ص 219

قال النووي: " قال العلماء: الجمع بين هذه الأحاديث وما جاء دالاً على الجواز – أي جواز المدح – أن النهي محمول على المجازفة في المدح، والزيادة في الأوصاف، أو على من يخاف عليه الفتنة، من إعجاب ونحوه، إذا سمع المدح، وأما من لا يخاف عليه ذلك؛ لكمال تقواه، ورسوخ عقله، ومعرفته، فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة"[629].

أما الله -تعالى- فلكماله المطلق مدح نفسه؛ لأنه أهل المدح والثناء، ولأن الخلق لا يقدرون على مدحه بما يستحق، كما قال الرسول –صلى الله عليه وسلم-: " لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"[630].

---

[624]() انظر : "الصحاح" (1/403).
[625]() "الكليات" (4/277).
[626]() "بدائع الفوائد" (2/93).
[627]() "مسلم" (4/1297) ، و "ابن ماجه" (2/1232) رقم (3742).
[628]() "السنن" (2/1232) رقم (3743).
[629]() "شرح مسلم" (18/126).
[630]() سبق تخريجه قريباً.

قال النووي: " حقيقة مدح العباد لله -تعالى- هو مصلحة للعباد؛ لأنهم يثنون عليه سبحانه فيثيبهم، فينتفعون، وهو سبحانه غني عن العالمين، لا ينفعه مدحهم، ولا يضره تركهم ذلك، وفيه تنبيه على فضل الثناء عليه سبحانه وتسبيحه، وتهليله، وتحميده، وتكبيره، وسائر الأذكار"[631].

ص 220

33-قال: " حدثنا عبدان، عن أبي حمزة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: " لما خلق الله الخلق، كتب في كتابه – وهو يكتب على نفسه، وهو وضع عنده على العرش – إن رحمتي تغلب غضبي".

قوله: " لما خلق الخلق " يجوز أن يكون المراد تقدير ذلك وكتابته قبل وجوده وظهوره، ويجوز أن يكون المراد جنس الخلق، فيكون المراد وجوده مخلوقاً.

قوله: "كتب في كتابه" يجوز أن يكون المعنى: أمر القلم أن يكتب، كما قال الحافظ. ويجوز أن يكون على ظاهره بأن كتب -تعالى- بدون واسطة، ويجوز أن يكون قال:" كن" فكانت الكتابة، ولا محذور في ذلك كله، وقد ثبت في "سنن الترمذي " و"ابن ماجه" في هذا الحديث: " إن الله – عز وجل – لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه إن رحمتي تغلب غضبي"[632].

ولا يصح أن يراد بالكتابة: الحكم الذي قضاه، نظير قوله -تعالى-: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي}؛ لقوله: " فهو عنده فوق العرش".

وكتابته –تعالى- ذلك؛ لتأكيد هذا الحكم، وإخبار عباده به؛ حتى يؤمنوا به ويعملوا على مقتضاه، أو لحكمة الله أعلم بها، وليس خوفاً من النسيان – تعالى الله -.

قوله: "وهو يكتب على نفسه " جملة حالية يقصد بها بيان أن كتابته -تعالى- لم يحمله عليها أحد، وإنما وقعت بمحض إرادته، تفضلاً منه، وجوداً على خلقه كتبه على نفسه، كما قال -تعالى-: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}.

وقوله: "وهو وضع عنده على العرش" وضع: بفتح الواو، وسكون الضاد، أي موضوع، وكذا جاء في: الجمع بين "الصحيحين"، للحميدي[633]، وضبط أيضاً بفتح الضاد، على أنه فعل ماض، وبضم الضاد أيضاً، والأول أظهر وأشهر. وقوله: "عنده على العرش" أي أنه -تعالى- وضع الكتاب عنده فوق عرشه،

ص 221

---

[631]() "شرح مسلم" (15/77).

[632]() انظر : " سنن الترمذي" (5/210) ، و "ابن ماجه" (2/1435) الحديث رقم (4295).

[633]() قاله الحافظ ابن حجر في "الفتح" (13/385).

وسيأتي في باب: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء} بهذا اللفظ: "عنده فوق عرشه". وذلك للاهتمام به، حيث وضعه على عرشه الذي استوى عليه.
كما يدل على أن الله على العرش، مستو عليه، كما قال -تعالى- عن نفسه في مواضع كثيرة من كتابه، وأخبرت به رسله، ويدل على علوه -تعالى-، وسيأتي ذكر ذلك مستوفى –إن شاء الله – في موضعه.
وما نقله الحافظ – عفا الله عنا وعنه – عن شراح كتاب البخاري من تأويل هاتين اللفظتين بالتأويلات الباطلة، المبنية على فساد العقيدة، سيأتي ردها – إن شاء الله – هناك بالبراهين.
قوله: " إن رحمتي تغلب غضبي" الرحمة والغضب كلاهما من أوصاف الله -تعالى-، ولكن الرحمة أوسع وأشمل، فرحمته تعالى وسعت كل شيء، كما قال عن حملة العرش، ومن حوله من الملائكة في دعوتهم للمؤمنين، أنهم يقولون: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا} [634]، وقال -تعالى-: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [635]وهذه هو معنى غلبها للغضب.
وفي هذه النصوص ونحوها كثير أبلغ دليل على ثبوت صفة الرحمة لله -تعالى-، وكذا صفة الغضب، وبذلك يتبين بطلان قول أهل التأويل في هذه الصفة الكريمة من صفات ربنا – تبارك وتعالى -، وقولهم: " إن الرحمة: رقة القلب، وهي تدل على الضعف والخور في طبيعة الراحم، وتألمه على المرحوم" وهذا قول باطل بالنسبة إلى صفة الله -تعالى-، وبيان ذلك على وجوه:
الأول: أن هذا وصف رحمة بعض المخلوقين من النساء ونحوهن.
وقد علم التفاوت العظيم بين الخالق -تعالى- والمخلوق؛ بالشرع والعقل، والإجماع، وقد تقرر أن الصفة تتبع الموصوف في الكمال، وضده، كما تقدم.
الثاني: أن الضعف والخور مذموم، وهو نقص، وأما الرحمة فممدوحة، كما قال -تعالى-: {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} [636]، مع نهيه -تعالى- عباده عن
ص 222
الوهن، والحزن، قال -تعالى-: {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا} [637]، وحثهم على الرحمة، وقد تقدم ذكر بعض الأحاديث في ذلك، كقوله –صلى الله عليه وسلم-: " من لا يرحم لا يرحم"، وقوله: " لا تنزع الرحمة إلا من شقي"،

---

[634]() الآية 7 من سورة غافر .
[635]() الآية 156 من سورة الأعراف .
[636]() الآية 17 من سورة البلد .
[637]() الآية 139 من سورة آل عمران .

وقوله: " الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مـن فـي الأرض يرحمكـم مـن في السماء".

ومستحيل أن يقول: لا ينزع الضعف والخور إلا من شقي.

ولما كانت الرحمة في حق كثيرٍ من الناس، تقارن الضعف والخـور، ظـن من غلط في ذلك أنها كذلك مطلقاً.

الثالث: أن أسماء الله -تعالى- حسنى، لا يلحقها نقص بوجه من الوجـوه، وصـفاته عليـا عـن النقـص أيضـاً، واللـه -تعـالى- قـد تمـدح بهـذه الأسـماء والصفات، لأنها تدل على الكمال، فمـن المحـال أن يلحقهـا مـا يلحـق رحمـة المخلوق.

ص 223
34- قال: " حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، سمعت أبا صالح، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: يقول الله -تعالى-: " أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من منهم، وإن تقرب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة".

هذا الحديث من الأحاديث القدسية، وهي: ما يذكره الرسول –صلى الله عليه وسلم- مضافاً إلى الله -تعالى- أنه قاله، ولكنه غير متعبد بتلاوته، ولا هو معجز متحدي به كالقرآن.

والظن يأتي بمعنى العلم واليقين، كقوله -تعالى-: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [638].

ويأتي واسطة بين الشك والعلم، أو بمعنى الشك، كقوله -تعالى- عن الكفار {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ} [639]. والقرائن تبين ذلك وتحدده.

فقوله: " أنا عند ظن عبدي بي "، قال صاحب "المرعاة": "يجوز أن يكون على ظاهره، والمعنى: أنا أعامله على حسب ظنه بي، وأفعل به ما يتوقعه مني، من خير أو شر، والمراد: الحث على تغليب الرجاء على الخوف، وحسن الظن بالله -تعالى- على ما دل عليه قوله –صلى الله عليه وسلم-: " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله".

ويجوز أن يكون المراد بالظن: العلم الموقن، ويكون المعنى: أنا عند علمه بي ويقينه بأن مصيره إليّ، وحسابه عليَّ، وأن ما قضيت به له أو عليه، من خير أو شر، لا مرد له، لا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت"[640].

وقال الحافظ: " أنا عند ظن عبدي بي" أي قادر على أن أعمل به ما ظن أن أعامله به، وقال الكرماني: وفي السياق إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء على

ص 224
الخوف، وكأنه أخذه من أن العاقل يختار لنفسه وقوع الخير، وهو مقيد بالمحتضر، لما في الحديث: " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله"[641].

قلت: قول الحافظ هذا خلاف ظاهر الحديث، إذ هو خبر عن الله -تعالى- أنه عند ظن عبده به، يعني أنه -تعالى- يفعل بعبده ما ظنه العبد أنه يفعله به،

---

[638]() الآية 46 من سورة البقرة .
[639]() "المرعاة" (2/414) الطبعة الحجرية .
[640]() "المرعاة" (2/414) الطبعة الحجرية .
[641]() "فتح الباري" (13/385-386).

وقد جاءت أحاديث مصرحة بذلك، كما في "المسند" من حديث واثلة بن الأسقع، سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم يقول: " قال الله: أنا عند ظن عبدي بي، إن ظن خيراً فله، وإن ظن شراً فله"[642]، ورواه ابن حبان، وهذا لفظه، وفي هذا أحاديث كثيرة.

وقال في "المفهم": "معنى: "أنا عند ظن عبدي بي" ظن الإجابة عند الدعاء، والقبول عند التوبة، والمغفرة عند الاستغفار، والإثابة على العمل، إيماناً بوعده -تعالى-؛ لما في الحديث "ادعوا الله، وأنتم موقنون بالإجابة"[643].

ولذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في العمل، موقناً بأن الله يقبله، ويغفر له؛ لأنه وعد بذلك، وهو لا يخلف وعده.

هذا إذا أتى بالعبادة بشروطها، فإن اعتقد أن الله لا يقبلها، وأنها لا تنفعه، فهذا هو اليأس، وهو من الكبائر، وأما ظن المغفرة مع الإصرار على الذنوب، فهو محض الجهل، والغرور.[644]

والحديث معناه واضح كما تقدم، وما ذكره صاحب المفهم من معناه، ووراء ذلك معنى أدق، وهو قرب الله من عبده المنيب إليه، وخير ما يفسر به كلام الرسول –صلى الله عليه وسلم- كلامه، ولكن لا يعارض النصوص الكثيرة المحذرة من عذاب الله -تعالى- وعقابه، فالأمر كما قال -تعالى-: {نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {49}وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ}[645]، وحسن الظن يكون مع حسن العمل،

ص 225

وقد تشعر الإضافة في قوله: " عبدي" بحسن العمل، أي أنه عبد الله، وليس للشيطان أو للدنيا أو غيرهما. والله أعلم.

قوله: " وأنا معه إذا ذكرني" أي: معه بالإجابة، والتوفيق، وبسماع كلامه، وإثابته عليه، أو بحسب ما قصد في ذكره، ما لم يكن إثماً أو قطيعة رحم، فهذه المعية هي المعية الخاصة المذكورة في مثل قوله -تعالى-: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}[646].

ومعية الله -تعالى- بالنسبة لعباده نوعان:

---

[642]() انظر : " المسند" (3/491) و (4/106) ، وانظر : " موارد الظمآن" (ص 184).

[643]() رواه الترمذي ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. انظر "السنن" (5/180) قلت: هو ضعيف ؛ لأن في سنده صالح المري.

[644]() من "الفتح" (13/385-386).

[645]() الآيتان 49، 50 من سورة الحجر .

[646]() الآية 46 من سورة طه .

معية عامة للخلق كلهم، كما قال -تعالى-: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْـوَى ثَلاثَـةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُـمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} [647].

وقال -تعالى-: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِـي الأَرْضِ وَمَـا يَخْـرُجُ مِنْهَـا وَمَـا يَنـزِلُ مِـنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَـا وَهُـوَ مَعَكُـمْ أَيْـنَ مَـا كُنتُـمْ} [648]، ومـن مقتضـى هـذه المعية: اطلاعه -تعالى- وعلمه بكل شيء، ومراقبته، وشهوده أفعـال عبـاده، فتفيد الخوف منه -تعالى-.

والنوع الثاني: المعية الخاصة، وهي المذكورة في هـذا الحـديث، ونحـوه، كقوله -تعالى-: {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} [649]، وقــوله: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَـا} [650]، ومـن مقتضـى هـذه المعيـة: النصر والتأييد والهداية والحماية.

و "معيته -تعالى- لخلقه، لا تخالف علـوه، واسـتواءه علـى عرشـه، فكـل ذلك حق على ظاهره، وذلك أن الله معنا حقيقـة، وهـو فـوق عرشـه حقيقـة، كما جمع بينهما في قوله -تعالى-: {هُـوَ الَّـذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِـي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَـا وَمَـا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا

كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [651]. فأخبر -تعالى- أنه فوق العرش يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا، كما قال النـبي –صـلى اللـه عليـه وسـلم- فـي حديث الأوعال: "والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه"[652].

وذلك أن كلمة "مع" في اللغة إذا أطلقت، فليـس ظاهرهـا فـي اللغـة إلا المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال.

فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنـى، فـإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، ويقال: هذا المتاع معي؛ لمجامعته لــك، وإن كان فوق رأسك.

فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة.

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد، فقوله: {وَهُوَ مَعَكُـمْ أَيْـنَ مَا كُنتُمْ} [653]، دل ظاهر الخطاب أن حكم هذه المعية ومقتضاها: أنـه مطلـع

---

[647]() الآية 7 من سورة المجادلة .

[648]() الآية 4 من سورة الحديد.

[649]() الآية 128 من سورة النحل .

[650]() الآية 40 من سورة التوبة .

[651]() الآية 4 من سورة الحديد.

[652]() رواه أبو داود في باب في الجهمية (5/53) ، والترمذي (5/97)، وابن ماجه (1/69) الحديث رقم (193) ، وقد صححه ابن القيم ، وأبطل حجج المضعفين له ، انظر : " تهذيب السنن" (7/91).

[653]() الآية 4 من سورة الحديد.

عليكم، شهيد عليكم، ومهيمن عالم بكم، وهذا معنى قول السلف أنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته.

وقوله: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا} [654]حق على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية: الاطلاع والنصر والتأييد، ومثل ذلك قوله {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [655]، وقوله: {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} [656]"[657]، وسيأتي لذلك بقية.

ص 227

قوله: "فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي" أي: إن ذكر ربه سراً في نفسه، فإن الله -تعالى- يذكره سراً في نفسه، من غير اطلاع أحد من خلقه على ذلك.

وهذا هو محل الشاهد من الحديث، حيث أثبت النفس لله -تعالى- على ما سبق توضيحه.

قوله: "وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم" الملأ: الجماعة، والمعنى: أن العبد إذا ذكر ربه ظاهراً في جماعة يسمعون ذكره لربه، فإن الله -تعالى- يذكره ويثني عليه في جماعة أفضل من الجماعة الذين ذكر العبد ربه فيهم؛ لأن الذين يذكر الله عبده فيهم في الملأ الأعلى عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وهذا من أقوى أدلة القائلين بتفضيل الملائكة على صالحي بني آدم، وهي مسألة مشهورة، والراجح فيها: أن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين أفضل من الملائكة، وتفضيل فرد من النوع لا يلزم منه تفضيل النوع كله على الآخر، والله أعلم.

قوله: " وإن تقرب إليَّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة".

قرب الله -تعالى- من عابده وداعيه، ثبت في نصوص كثيرة، كقوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [658].

وقوله – صلى الله عليه وسلم-: " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد"[659].

فالعبد إذا قرب إلى الله -تعالى- بالتوجه والمحبة، وإخلاص العمل، والصدق في ذلك، فإن الله -تعالى- يقرب إليه أكثر من قربه، فكلما زاد قرب

---

[654]() الآية 40 من سورة التوبة .

[655]() الآية 46 من سورة طه .

[656]() الآية 128 من سورة النحل.

[657]() "مجموع الفتاوى" (5/102-104) ملخصاً.

[658]() الآية 186 من سورة البقرة .

[659]() رواه مسلم ، : (1/350) ، و أبو داود (1/545) ، والنسائي (2/226).

العبد إلى ربه بالطاعة والإنابة والحب والإخلاص، زاد قرب الله إليه، حتى يكون قلب العبد بين يدي ربه، كأنه يشاهده بعينيه، وهو –جل وعلا- على عرشه.

ص 228

قال شيخ الإسلام: " فكلما تقرب العبد باختياره قدر شبر، زاده الرب قرباً إليه، حتى يكون كالمتقرب إليه بذراع، فكذلك قرب الرب من قلب العابد، وهو ما يحصل في قلب العبد من معرفة الرب، والإيمان به، وهو المثل الأعلى"[660].

وبهذا يتبين أن معنى قوله: " إذا تقرب إليَّ بشبر تقربت إليه ذراعاً" أن العبد إذا تقرب إلى ربه بطاعته والإقبال عليه، أن الرب تعالى يزيده قرباً إليه، جزاءً من جنس عمله، وأكثر من قرب العبد الذي حصل باختياره.

وقال: "فإذا قرب العبد من ربه بالإنابة إليه، قرب الرب إليه، فيدنو قلبه من ربه، وإن كان بدنه على الأرض، ومتى قرب أحد الشيئين من الآخر، صار الآخر إليه قريباً بالضرورة، وإن قدر أنه لم يصدر من الآخر تحرك بذاته، كما أن من قرب من مكة، قربت مكة إليه"[661].

وقال أيضاً: "ومن الناس من غلط فظن أن قربه -تعالى- من جنس حركة بدن الإنسان إذا مال إلى جهة انصرف عن الأخرى.

والإنسان يجد عمل روحه يخالف عمل بدنه، فيجد نفسه تقرب من نفوس كثير من الناس، من غير أن ينصرف عمن هي قريبة منه، وكذلك يجد نفسه تبعد بعيداً عن بعض النفوس بعداً غير ما يقوم بالبدن"[662].

وقال أيضاً:" وليس بين الرب والعبد إلا محض العبودية، فكلما كمل العبد عبودية ربه قرب إليه -تعالى-؛ لأنه – سبحانه – بر، جواد، محسن، يعطى العبد ما يناسبه، فكلما عظم فقره إليه، كان أغنى له، وكلما عظم ذله له، كان أعز له، فإن النفس- لما فيها من أهوائها المتنوعة، وتسويل الشيطان لها – تبعد عن الله –تعالى- حتى تصير ملعونة بعيدة عن الرحمة، واللعنة هي: البعد عن الله ورحمته.

ومن أعظم ذنوب العبد: علوه في الأرض، ونسيانه ربه، ولهذا لما كان السجود هو غاية سفول النفس، صار أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وكذلك الذكر المتضمن للإقبال على الله، والخضوع له "[663].

ص 229

---

[660]() "مجموع الفتاوى" (5/510).
[661]() "مجموع الفتاوى" (5/509).
[662]() المرجع المذكور ببعض التصرف (ص 247).
[663]() المرجع المذكور بتصرف (ص 238).

"وقوله: مـن تقـرب إلـيَّ بشـبر تقربـت إليـه ذراعـاً..." إلـخ، هـذا قربـه -تعالى- من عابده، وأما قربه من داعيه فكما في الآيـة: {وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [664]، وقربه تعـالى مـن عابـده وداعيه قرب خاص، أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة، الذي لم يثبت أكـثر المتكلمين سواه"[665].

"فالداعي والساجد تتوجه روحـه إلـى اللـه -تعـالى-، والـروح لهـا عـروج يناسبها فتقرب من اللـه -تعـالى- بلا ريـب، بحسـب تخلصـها مـن الشـوائب، فيكون الله – عز وجل – منها قريباً، قرباً يلزم منه قربها.

ويكون منه قرب آخر، كقربه عشية عرفة، وفي جـوف الليـل، وإلـى مـن تقرب منه شبراً، تقرب منه ذراعاً"[666].

قلت: وبهذا يتبين أن قربه -تعالى- من عباده نوعان:

أولهما: قربه -تعالى- من قلوب المؤمنين، وقرب قلوبهم منه، وهـذا أمـر معروف لا يجهل، فـإن القلـوب تصـعد إليـه علـى قـدر مـا فيهـا مـن الإيمـان والمعرفة به تعالى، وذكره، وخشيته، والتوكـل عليـه، وهـذا متفـق عليـه بيـن الناس، لم ينكره منهم أحد.

والثاني: ما دل عليه هذا الحديث – الذي نحن بصدد شرحه – ونحوه، مثل قربه عشية عرفة، وقربه آخر الليل، كما ثبتت بذلك النصـوص، وهـذا القـرب ينكره أكثر المتكلمين، من الجهمية، والمعتزلة، والأشعرية، وإنكاره منكر.

قال شيخ الإسـلام: "وقربـه – سـبحانه – ودنـوه مـن بعـض مخلوقـاته، لا يستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش، بل هو فوق العرش ويقرب من خلقـه كيف شاء، كما قال ذلك من قاله من السلف، وهـذا كقربـه إلـى موسـى لمـا كلمه من الشجرة، قال -تعالى-: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّـورِ الأَيْمَـنِ وَقَرَّبْنَـاهُ نَجِيًّا} [667].

والذين يثبتون تقريبـه العبـاد إلـى ذاتـه، وهـو القـول المعـروف للسـلف، والأئمة، وهو قول الأشعري، وغيره من الكلابية، فإنهم يثبتون قرب العباد إلى ذاته، وأما

ص 230

دنوه نفسه، وتقربه من بعض عباده، فهذا يثبتـه مـن يثبـت قيـام الأفعـال الاختيارية بنفسه، وهو مذهب أئمة السلف، وأئمة الإسلام المشهورين، وأهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر"[668].

---

[664] () الآية 186 من سورة البقرة.

[665] () "بدائع الفوائد" (3/8) ملخصاً.

[666] () "مجموع الفتاوى" (5/241).

[667] () الآية 52 من سورة مريم .

[668] () "مجموع الفتاوى" باختصار (5/460-466).

وقوله: "وإن أتاني يمشي أتيته هرولة" الهرولـة: السـرعة فـي المشـي، بين المشي والعدو، وهو تمثيل لكرم الله وجـوده علـى عبـده، وأنـه إذا أقبـل إليه، فهو – سبحانه – أسرع إقبالاً وتفضلاً على عبـده، مـن غيـر مقابـل ينـاله من العبد، بل هو الغني بذاته عن كـل مـا سـواه، وكـل مـا سـواه فقيـر إليـه، ويؤخذ من الحديث: عظم فضل الله وكرمه، وعظم فضل الذكر.

ص 231

قال: "باب قول الله -تعالى-: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [669].

أراد البخاري بهذا الباب؟إثبات صفة الوجه لله –تعالى- وهو ثابت لله –تعالى- في آيات وأحاديث كثيرة، سيأتي ذكر شيء منها.

قال ابن كثير: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} إخبار بأنه الدائم الباقي، الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ {26} وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله هنا: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} أي: إلا إياه"[670].

قلت: قوله: " فعبر بالوجه عن الذات" لا يقصد نفي صفة الوجه عن الله -تعالى-، وإنما مراده: أن الذات تابعة للوجه، فاكتفى بذلك.

وقد ذكر البخاري – رحمه الله – هذه الآية في التفسير، وأعقبها بقوله: " إلا ملكه، ويقال: إلا: ما أريد به وجهه"[671]. ولم يذكر غير هذا، فقد يقال: إن هذا تأويل سلك البخاري فيه طريق أهل التأويل، وليس الأمر كذلك.

قال الحافظ: " في رواية النسفي[672]: وقال معمر ... فذكره، ومعمر هذا هو أبو عبيدة {معمر} بن المثنى، وهذا كلامه في مجاز القرآن، لكنه بلفظ: إلا هو، وكذا نقله الطبري عن بعض أهل العربية، وكذا ذكره الفراء"[673].

قلت: الذي في كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيده،يخالف ما ذكره البخاري، وزعم الحافظ أنه كلامه. فإنه قال على الآية: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} مجازه: إلا هو، وما استثنوه من جميع فهو منصوب"[674]، وكذا ما ذكره الفراء في "معاني القرآن" فإنه قال: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} إلا هو، قال الشاعر:

ص 232

أستغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل

أي: " إليه أوجه عملي"[675].

وبهذا يتبين أن الأمر ليس كما قال الحافظ؛ لأن ما ذكره البخاري يختلف عما ذكره الفراء وأبو عبيدة، لفظاً ومعنىً.

669() الآية 88 من سورة القصص.

670() "تفسير ابن كثير " (6/272).

671() انظر : " الفتح " (8/505).

672() النسفي من رواة الصحيح عن البخاري.

673() "الفتح" (8/505).

674() "مجاز القرآن" (2/112).

675() "معاني القرآن" (2/314).

قال الحافظ: " قال ابن التين: قال أبو عبيدة: {إِلاَّ وَجْهَهُ} إلا جلاله، وقيل: إلا إياه، تقول: أكرم الله وجهك، أي: أكرمك الله".
وقوله: ويقال: " إلا ما أريد به وجهه" نقله الطبري – أيضاً – عن بعض أهل العربية، ووصله ابن أبي حاتم من طريق خصيف، عن مجاهد مثله، ومن طريق سفيان الثوري قال: إلا ما ابتغي به وجه الله من الأعمال الصالحة" اهـ[676].
وفي "الدر المنثور": " وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} إلا ما أريد به وجهه.
وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} قال: إلا ما أريد به وجهه.
وأخرج البيهقي في "شعب الإيمان" عن سفيان: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} قال: إلا ما أريد به وجهه من الأعمال الصالحة "[677].
"قوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} بعد قوله: { وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ {86} وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ { 87} وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [678].
ص 233
فإن ذكر ذلك بعد نهيه عن الإشراك، وأن يدعو معه إلهاً آخر، وقوله: {لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} يقتضي في أظهر الوجهين، وهو أن كل شيء هالك إلا ما كان لوجهه من الأعيان، والأعمال.
روي عن أبي العالية قال: إلا ما أريد به وجهه.
وعن جعفر الصادق: إلا دينه، ومعناهما واحد"[679].
قال ابن كثير: "وقال مجاهد والثوري " في قوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} أي: إلا ما أريد به وجهه، وحكاه البخاري في "صحيحه" كالمقرر له.
وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله – عز وجل – من الأعمال الصالحة، المطابقة لما جاء به الرسول –صلى الله عليه وسلم-.
والقول الأول مقتضاه: أن كل الذوات فانية وهالكة وزائلة إلا ذاته -تعالى-، فإنه الأول، والآخر، الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء"[680].

---

[676]() "الفتح" (8/505).
[677]() "الدر المنثور" (6/447).
[678]() الآيات 86- 88 من سورة القصص.
[679]() "مجموع الفتاوى" (2/427).
[680]() "تفسير ابن كثير" (6/272).

والقول الأول هو ما ذكرناه عنه في أول الباب.

فعلى هذا لا يكون قوله: " ما أريد به وجهه" تأويلاً للوجه الذي هـو صـفة لله -تعالى-، بل هو من المعاني المستنبطة من الآية، كمـا يشـير إليـه سـياق الآية، فإنه -تعالى- يقول: {وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْـكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {87} وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَـرَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [681].

و أما قوله: " إلاَ ملكه" فهذا تأويل بعيد، وهو مخـالف لصـنعه هنـا، حيـث ذكر الآية ثم أتبعها بحديث جابر، وفيه قوله –صلى الله عليـه وسـلم-: " أعـوذ بوجهك". فهذا ظاهر جداً في أنه أراد إثبات الوجه صفة لله -تعالى-.

ص 234

ومما يدل على بطلان ذلك: أن الأشياء كلها ملك لله -تعالى-، فهـل يجـوز أن يقال: كل شيء هالك إلا كل شيء؟ بخلاف قوله: إلا ما أريد به وجهه، فإن هذا مما تدل عليه الآية عـن طريـق المفهـوم – مـع بقائهـا نصـاً – فـي إثبـات الوجه لله –تعالى- والله أعلم.

---

[681]() الآيتان 87، 88 من سورة القصص.

ص 235

35-قال: " حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حماد بن زيد، عن عمرو، عن جابر بن عبدالله، قال: لما نزلت هذه الآية: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ} [682]، قال النبي –صلى الله عليه وسلم- " أعوذ بوجهك"، فقال: {أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} فقال النبي –صلى الله عليه وسلم-: " أعوذ بوجهك"، قال { أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً } فقال النبي –صلى الله عليه وسلم-: "هذا أيسر".

يخوف الله -تعالى- عباده إن لم يطيعوه، ويعبدوه وحده لا شريك له، ويتبعوا رسوله، بأنه قادر على أن يرسل عليهم عذاباً من السماء، كما أرسل على قوم لوط وقوم شعيب، وغيرهم، أو نوعاً آخر مما يشاء.

وهو كذلك قادر بأن يبعث العذاب من تحتهم، إما بخسف أو زلازل، وبراكين، أو غير ذلك مما يشاء، كما قال -تعالى-: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ {16} أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [683]، وعندما سمع الرسول –صلى الله عليه وسلم- هذا التهديد من الله -تعالى- عاذ بوجه ربه الكريم أن يكون ذلك.

قال الحافظ: " وقد روى ابن مردويه، من حديث ابن عباس، ما يفسر به حديث جابر، ولفظه: " عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: " دعوت الله أن يرفع عن أمتي أربعاً، فرفع عنهم اثنتين، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين، دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء، والخسف من الأرض، وأن لا يلبسهم شيعاً، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع عنهم الخسف والرجم، وأبي أن يرفع عنهم الآخريين".

فيستفاد من هذه الرواية: المراد بقوله: " مِّن فَوْقِكُمْ، أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ "، ويستأنس له بقوله -تعالى-: {أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} [684]. وقد وقع أصرح من ذلك، عند ابن مردويه، من حديث أبي بن كعب، قال: في قوله -تعالى-: {عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ} قال: الرجم، {أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} قال: الخسف.

ص 236

وروى ابن أبي حاتم، من طريق السدي، عن شيوخه: أن المراد العذاب من فوق: الرجم، ومن تحت: الخسف.

وأخرج ابن عباس: " أن المراد بالفوق: أئمة السوء، وبالتحت: خدام السوء " انتهى[685].

---

[682]() الآية 65 من سورة الأنعام .

[683]() الآيتان 16 ، 17 من سورة الملك.

[684]() الآية 68 من سورة الإسراء .

[685]() "الفتح" (8/292).

وذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أحاديث وآثاراً كثيرة.

قلت: في هذه الآية الكريمة التي ترجم بها البخاري، والحديث الذي ذكره، دليل واضح على وجوب الإيمان بوجه الله الكريم، وقد جاءت نصوص كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله تثبت ذلك، ولم يزل أهل العلم والإيمان يسألون ربهم بوجهه الكريم، ويدعونه بأن يرزقهم النظر إليه في الجنة.

ولم ينكر ذلك إلا الجهمية، ومن شايعهم على مذهبهم الفاسد.

قال الله -تعالى-: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ {26} وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [686].

و "ذو" في الآية: وصف للوجه، فوصف -تعالى- وجهه الكريم بأنه ذو الجلال والإكرام، وهذا يبطل دعوى أن المراد بالوجه: الذات، كما يبطل دعوى كونه زائداً في الكلام.

وفي "صحيح مسلم" عن أبي موسى الأشعري، قال: قام فينا رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بخمس كلمات، فقال: " إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"[687] سبحات وجهه هي: نوره، وبهاؤه، وجلاله.

وقال أبو سعيد الدارمي – رحمه الله -: " حدثنا سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن عطاء بن السائب، عن أبيه، عن عمار بن ياسر، أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- كان يدعو: " اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم".

ص 237

حدثنا موسى بن إسماعيل، وغيره، عن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب، عن النبي –صلى الله عليه وسلم-: للذين أحسنوا الحسنى وزيادة" قال: النظر إلى وجه الله -تعالى- [688].

حدثنا أحمد بن يونس، عن أبي شهاب الحناط، عن خالد بن دينار، عن حماد بن جعفر، عن ابن عمر، رفعه إلى النبي –صلى الله عليه وسلم- " أن أهل الجنة إذا بلغ النعيم منهم كل مبلغ، وظنوا أن لا نعيم أفضل منه، تجلى لهم الرب، فنظروا إلى وجه الرحمن، فنسوا كل نعيم عاينوه، حين نظروا إلى وجه الرحمن".

---

[686]() الآيتان 26 ، 27 من سورة الرحمن.

[687]() انظر : " مسلم" (1/162) رقم (293).

[688]() رواه مسلم في "صحيحه" بلفظ : " النظر إلى الله تعالى " ، انظر : (1/163) الحديث رقم (180).

وذكر ابن إسحاق في "السيرة" حديثاً طويلاً – فيه: " أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السماوات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين"[689].

قال أبو سعيد: "وعلى تصديق هذه الآثار، والإيمان بها، أدركنا أهل الفقه والعلم"[690] وذكر أحاديث في ذلك.

وقد تكاثرت الأحاديث عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بالاستعاذة بوجه الله -تعالى- كما في هذا الحديث الذي ذكره البخاري، وكما في " الموطأ"، و"مسند أحمد" أنه –صلى الله عليه وسلم- كان يقول: " أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات"[691]وفي هذا أحاديث كثيرة.

وكذلك صح عنه –صلى الله عليه وسلم- سؤاله لذة النظر إلى وجه الله الكريم، كما في الحديث السابق وغيره.

وبذها يتبين أن إثبات الوجه والإيمان به متعين، وأنه داخل في الإيمان بالله -تعالى- وهو كسائر صفات الله الثابتة، يجب معرفتها والإيمان بها بدون تأويل، أو تشبيه، بل على ما يجب لله من الإجلال والتعظيم، ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله – تعالى وتقدس – عن ظنون أهل الانحراف والزيغ

ص 238

من المؤولين والمعطلين الذين جعلوا أنفسهم هي الأصل، فقاسوا عليها ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبر عنه رسوله، فحرفوا وعطلوا.

---

[689]() ذكره ابن كثير في "تاريخه" (3/196).

[690]() الرد على بشر المريسي (ص 518) " عقائد السلف".

[691]() " الموطأ" (2/950- 951) مرسل ، و "المسند" (2/419) وهو حسن .

ص 239
قال: " باب قول الله –تعالى- {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [692]- تغذى- وقوله – جل ذكره-: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [693]".
فقد دل كتاب الله -تعالى- وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم- صراحة، وإجماع أهل العلم بالله والإيمان به، على أن الله -تعالى- موصوف بأن له عينين، حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته.
وقد جاء ذكر العين وصفاً لله -تعالى- في القرآن مفردة، مضافة إلى الضمير المفرد، كما جاءت مجموعة، مضافة إلى ضمير الجمع، كما في هاتين الآيتين اللتين ذكرهما البخاري. ولم يأت ذكر العين وصفا لله -تعالى- في القرآن مثناة، ولكن جاء ذلك في الحديث عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، والحديث إذا صح عن الرسول –صلى الله عليه وسلم- وجب الإيمان بما دل عليه، والعمل به.
قال ابن القيم: " ذكر العين مفردة، لا يدل على أنها عين واحدة، ليس إلا كقولك: افعل هذا على عيني، لا يريد له أن له عيناً واحدة.
ولما أضيفت العين إلى اسم الجمع، ظاهراً أو مضمراً، حسن جمعها مشاكلةً للفظ، كقوله -تعالى-: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [694]، وقوله -تعالى- {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} [695]وهذا نظير لفظ اليد المضافة إلي المفرد، كقوله: {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [696]، و{بِيَدِكَ الْخَيْرُ} [697]، ولما أضيفت إلى ضمير الجمع جمعت، كقوله -تعالى-: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا} [698].
وقد جاء في كتاب الله -تعالى- وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم- ذكر العين مضافة إلى الله -تعالى- مفردة، ومجموعة.
ص 240
وجاءت السنة بإضافتها إليه -تعالى- مثناة، كما قال عطاء: عن أبي هريرة، عن النبي –صلى الله عليه وسلم-: " إن العبد إذا قام في الصلاة، قام بين عيني الرحمن، فإذا التفت قال له ربه: إلى من تلتفت؟ إلى خير لك مني ".
وقوله –صلى الله عليه وسلم-: " إن ربكم ليس بأعور" صريح بأنه ليس المراد إثبات عين واحدة، فإن ذلك عور ظاهر، تعالى الله عنه.

---

[692]() جزء من الآية 39 من سورة طه .
[693]() جزء من الآية 14 من سورة القمر .
[694]() جزء من الآية 14 من سورة القمر .
[695]() جزء من الآية 37 من سورة هود.
[696]() جزء من الآية مفتتح سورة الملك .
[697]() جزء من الآية 26 من سورة آل عمران .
[698]() الآية 71 من سورة يس .

وهل يفهم من قول الداعي: " اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام" أنها عين واحدة ليس إلا، إلا ذهن أقلف، وقلب أغلف؟

وقد استدل السلف على إثبات العينين لله –تعالى- بقوله - جل وعلا – {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} وممن صرح بذلك أبو الحسن الأشعري في الإبانة، والموجز، والمقالات"[699].

قوله -تعالى-: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} فسر البخاري "تصنع" بتغذى، من التغذية، يقال: صنعت الفرس، إذا أحسنت القيام عليه[700].

قال ابن كثير: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} قال أبو عمران الجوني: تربى بعين الله -تعالى- وقال قتادة: تغذى على عيني.

وقال معمر بن المثنى: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} بحيث أرى.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "يعني: أجعله في بيت الملك، ينعم ويترف، غذاؤه عندهم غذاء الملك، فتلك الصنعة"[701].

وأسند ابن جرير هذه الأقوال، وروى عن ابن جريج: أنت بعيني إذ جعلتك أمك في التابوت، ثم في البحر. واختار قول قتادة.

وقال: " وعنى بقوله: {عَلَى عَيْنِي} بمرأى مني، ومحبة، وإرادة"[702].

قوله: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}، قال ابن جرير: " يقول – جل ثناؤه-: تجري السفينة التي حملنا نوح فيها، بمرأى منا، ومنظر"[703].

قلت: وكذا قال غيره من المفسرين، ومن لازم الرؤية والنظر وجود العين، ففي هاتين الآيتين، وغيرهما من نصوص كتاب الله وحديث رسوله كثير، إثبات العينين

ص 241

لله -تعالى- اللتين ينظر بهما إلى ما يريد، ولا يحجب نظره حاجب، وقد تقدم وجه الجمع والإفراد في ذلك.

وقال الأزهري: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} قال أصحاب النقل والأخذ بالأثر: الأعين: يريد به العين،قال: وعين الله لا تفسر بأكثر من ظاهرها، ولا يسع أحداً أن يقول: كيف هي، أو ما صفتها؟ - ذكره عن ابن الأنباري-"[704].

---

[699]() " مختصر الصواعق" (ص 24) ط الإمام .

[700]() " الفتح" (13/389).

[701]() "تفسير ابن كثير" (5/278) ط الشعب .

[702]() "تفسير الطبري" (16/162-163) ط الحلبي.

[703]() المرجع السابق (27/64).

[704]() انظر : " تهذيب اللغة" (3/205).

ص 242

36- قال: " حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا جويرية، عن نافع، عن عبد الله، قال: ذكر الدجال عند النبي –صلى الله عليه وسلم- فقال: " إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور – وأشار بيده إلى عينه – وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية".

الدجال: الكذاب، ودجله: سحره وكذبه؛ لأنه يدجل الحق بالباطل، أي: يغطيه، وهو رجل من اليهود، يخرج في آخر هذه الأمة، كما جاءت الأحاديث بذلك عن النبي –صلى الله عليه وسلم-.

قال أبو علي القالي: عن ابن دريد: " كل شيء غطيته فقد دجلته، ومنه اشتقاق دجلة، كأنها غطت الأرض إذا فاضت عليها ".

والدجال من هذا الاشتقاق؛ لأنه يغطي الحق بالباطل.

وقال قوم: سمي بذلك لأنه يغطي الأرض بكثرة جموعه.

وقال آخرون: " يغطي على الناس بكفره"[705].

وقال الحافظ: الدجال: فعال، بفتح أوله، والتشديد، من الدجل، وهو التغطية، وسمي الكذاب دجالاً، لأنه يغطي الحق بباطله.

وقال ثعلب: " الدجال: المموه"[706].

قوله: " إن الله لا يخفى عليكم" المؤمن بالله وبأوصافه التي تعرف بها إلى عباده، لا يخفى عليه رب العالمين، فهو -تعالى- {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}، ليس له كفؤ ولا ند، فلا يمكن أن يشابه المخلوق الضعيف، المحتاج الناقص، وكل مخلوق له صفة الضعف والحاجة والنقصان، ولا بد، تعالى عن مشابهة خلقه علواً كبيراً.

قوله: " إن الله ليس بأعور" هذه الجملة هي المقصودة من الحديث وفي هذا الباب، فهذا يدل على أن لله عينين حقيقة؛ لأن العور فقد أحد العينين، أو ذهاب نورها.

ص 243

قال في " القاموس": " العور: ذهاب حس إحدى العينين ..... والرديء من كل شيء، والضعيف الجبان البليد الذي لا يدل، ولا ينـدل، ولا خير فيه "[707].

وعلى كل: العور نقص وعيب في الاتفاق، والمقصود أنه في اللغة هو ذهاب ضوء إحدى العينين.

ولهذا صار هذا الحديث من الأدلة الواضحة على إثبات تثنية العين لله -تعالى-، ويزيد ذلك وضوحاً إشارته –صلى الله عليه وسلم- إلى عينه لتحقيق

---

[705] () "البارع" (ص 35).

[706] () "الفتح" (13/91).

[707] () "القاموس" (2/97).

الوصف، يعني أن لله عينين سالمتين من كل عيـب كـاملتين، بخلاف الـدجال الفاقد لإحدى عينيه، وذلك من أعظم الأدلة على كذبه.

وقال ابن المنير: " وجه دلالة الحديث على إثبات العين للـه، مـن حـديث الدجال من قوله:" إن الله ليس بأعور" من جهة أن العور عرفاً: عدم العيـن، وضد العور ثبوت العين، فلما نزعت هذه النقيصة لزم ثبـوت الكمـال بضـدها، وهو وجود العين"[708].

قلت: الحديث فيه إثبـات العينيـن للـه -تعـالى-، لا عيـن واحـدة، كمـا قـد يتوهمه كلامه.

وقوله: " عرفاً " بل هو لغة قبل العرف.

"وقال شهاب الدين السهروردي في كتـاب العقيـدة لـه: أخـبر اللـه فـي كتـابه وثبـت عـن رسـوله، الاسـتواء، والنـزول، والنفـس، واليـد، والعيـن، فلا يتصرف فيها بتشبيه، ولا تعطيل، إذ لولا إخبار الله ورسوله، مـا تجاسـر عقـل أن يحوم حول ذلك الحمى".

" قال الطيبي: هذا هو المذهب المعتمد، وبه يقول السلف الصالح ".

وقال غيره: لم ينقل عن النبي –صلى الله عليه وسلم-، ولا عن أحـد مـن أصحابه، من طريق صحيح، التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلـك، ولا المنـع من ذكره.

ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنـزل إليه مـن ربه، وينـزل عليـه {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْـلاَمَ دِينًـا} ثم يترك هذا

ص 244

الباب، فلا يميز ما يجوز نسبته إليه مما لا يجوز، مع حضه على التبليغ عنه بقوله: "ليبلغ الشاهد الغائب" حتى نقلوا أقواله، وأفعاله، وأحـواله، وصـفاته، وما فعل بحضرته.

فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها، على الوجه الذي أراده الله منها.

ووجب تنزيهه عـن مشـابهة المخلوقـات، بقـوله -تعـالى-: {لَيْـسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ وَهُـوَ السَّـمِيعُ البَصِـيرُ} فمـن أوجـب خلاف ذلـك بعـدهم، فقـد خـالف سبيلهم، وبالله التوفيق" انتهى[709].

قال الإمام ابـن خزيمـة: " بيـن النـبي –صـلى اللـه عليـه وسـلم- أن للـه عينين، فكان بيانه موافقاً لبيان محكم التنزيل".

---

[708]() "الفتح" (13/390).

[709]() المرجع المذكور .

ثم ذكر بسنده حديث أبي هريرة، وقرأ قوله -تعالى- {إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} " رأيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يضع إبهامه على أذنه، وإصبعه التي تليها على عينه"[710].

قوله: " كأن عينه عنبة طافية " أي: قد ذهب ماؤها، فهي ضامرة ملتوية؛ ولهذا جاءت الأحاديث بوصفه بأنه ممسوح العين، كما في "سنن أبي داود" عن عبادة بن الصامت، أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال: " إني قد حدثتكم عن الدجال، حتى خشيت أن لا تعقلوا، إن المسيح الدجال رجل قصير، أفحج، جعد، أعور، مطموس العين، ليست بناتئة، وجحراء، فإن لبس عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور"[711].

في هذا بيان أن عينه – قبحه الله – قد ذهب ماؤها، فضمرت، وبقيت سادة مكانها، لم تكن غائرة، ولا ناتئة مرتفعة، وهذا هو وصف العنبة إذا ذهب ماؤها.

---

[710] () كتاب "التوحيد" (ص 42، 43).
[711] () "سنن أبي داود" (4/496).

ص 245
37-قال: " حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، أخبرنا قتادة، قال: سمعت أنساً – رضي الله عنه – عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: " ما من نبي إلا أنذر قومه الأعور الكذاب، إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه:كافر".

الإنذار: هو الإخبار مع التخويف، وفي قوله: " ما من نبي " عموم يشمل جميع النبيين، وهو يدل على عظم فتنته وخطره.

وقوله: " الأعور الكذاب" تقدم أن الأعور: من عميت إحدى عينيه بآفة، فأصبح لا يرى إلا بعين واحدة.

ووصف بأنه الكذاب؛ لعظم كذبه، حيث يزعم أنه رب الناس، مع ظهور كذبه، وهو يتدرج في كذبه، فأولا: يدعي أنه مصلح، ثم يدعي أنه نبي، ثم يدعي أنه إله، وهذا أعظم الكذب، وأبينه.

وقد عين رسول الله –صلى الله عليه وسلم- عينه العوراء، أنها اليمنى، كما في حديث عبدالله ابن عمر، الذي قبل هذا وغيره.

واعلم أن المتكلمين من المعتزلة، والأشعرية، ونحوهم، يزعمون أن من أثبت لله عينين، ويدين، ووجهاً، ونحو ذلك مما جاءت به النصوص، من أثبت ذلك على ظاهر اللفظ، أنه يثبت جوارح، تشبه جوارح الخلق على حد زعمهم، تعالى الله وتقدس عن زعمهم، وظنهم السيء في الله ورسوله، حيث ظنوا أن ظاهر وصف الله نفسه، وظاهر وصف رسوله إياه يقتضي التشبيه، ولهذا تجد الذين تلقوا هذا الفكر، وتأثروا به، من الذين يشتغلون بالحديث، إذا جاء ذكر ذلك قالوا: مثلاً: إثبات صفة اليد لا من حيث الجارحة، إثبات صفة الوجه لا من حيث الجارحة، ونحو ذلك كما يقوله البيهقي في كتابه " الأسماء والصفات" وسائر شراح الحديث الذين لا يجرؤون على رد النصوص، فهم عندما يتكلمون على مثل هذه النصوص يبادرون إلى نفي الجارحة، كما قال بعض زعمائهم ما يلي:

ص 246
"زعم قوم، أن لله عينا، يريدون: كجارحة العين من الإنسان، وأرادوا التركيب، واحتجوا بقوله -تعالى-: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [712]، و{اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} [713]، و{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [714].

قال أبو سعيد الدارمي – رحمه الله تعالى – في الرد عليه: " أما ما ادعيت أن قوماً يزعمون أن لله عيناً، فإنا نقوله؛ لأن الله –تعالى- قاله، ورسوله.

---

[712] () جزء من الآية 39 من سورة طه .
[713] () جزء من الآية 37 من سورة هود .
[714] () الآية 48 من سورة الطور .

و أمـا زعمـك أنهـم يثبتـون جارحـة كجارحـة العيـن مـن الإنسـان، علـى التركيب، فهذا كذب، ادعيته علينا عمداً، وأنت تعلم أن أحداً لم يقلـه، ولكنـك تريد التشنيع، ليكون هنالك مقبولاً لدى الجهال، والكذب لا يصلح منـه جـد ولا هزل، فمن الذي قال: إنها جارحة مركبة؟ اذكره، فإن قائله كافر.

وكم تشنع بما تقرر من قولك: جسم مركب، وجوارح، وأجـزاء، وأبعـاض، تريد أن يكف المؤمنون، عن وصف اللـه -تعـالى- بمـا وصـف بـه نفسـه فـي كتابه، وما وصف به رسوله.

ونحن لم نصف الله بجسم كأجسام المخلـوقين، ولا بعضـو، ولا بجارحـة، لكنا نصفه بما يغيظك مـن هـذه الصـفات، الـتي أنـت ودعاتـك لهـا منكـرون، فنقول: إنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولـم يولـد، ولـم يكـن لـه كفواً أحد، ذو الوجه الكريم، والسمع السميع، والبصر البصير"[715].

وقوله: " إنه أعور، وإن ربكم ليس بـأعور" اشـتملت هـذه الجملـة علـى تأكيد وصف الدجال الكذاب، بأنه أعور العين، أي أنه ناقص، معيب، قـد لحقـه الضر لفقد إحدى عينيه، فمثله محـال أن يكـون إلهـاً، لأنـه فقيـر محتـاج إلـى غيـره، بالإضـافة إلـى النقـص والعيـب الـذي فيـه، وقـد جـاء بـأعظم الكـذب والبهتان، حيث ادعى أنه إله، يتوجه إليه، بطلب الإسعاد، وصرف الشقاء.

ص 247

كما اشتملت هذه الجملة من الحديث علـى وصـف اللـه -تعـالى- بكمـال العينين، ولهذا قال –صلى الله عليه وسلم-: " وإن ربكم ليس بأعور".

فهذا بيان واضح بوصف الله -تعالى- بأن له عينين كاملتين، على ما يليـق بعظمته.

قال النووي: " هذه علامة بينـة تـدل علـى كـذب المـدجال، دلالـة قطعيـة، بديهية، يدركها كل أحد"[716].

قوله: " مكتوب بين عينيه كافر" وفي رواية: " يقرأه كل مـؤمن، كـاتب، وغير كاتب".

قال النووي: " والصـحيح الـذي عليـه المحققـون: أن هـذه الكتابـة علـى ظاهرها، وأنها كتابـة حقيقيـة، جعلهـا اللـه آيـة، وعلامـة مـن جملـة العلامـات القاطعة بكفره، وكذبه وإبطاله، يظهرها الله -تعالى- لكل مسلم كاتب، وغير كاتب، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته، ولا امتناع في ذلك "[717].

وهذا من رحمة الله بعباده، حيث أظهر علامات كذبه، إظهاراً لا يخفـى إلا على من أريد فتنته، وعمي قلبه، وأشرب بحب الباطـل، نسـأل اللـه العافيـة في الدنيا والآخرة.

---

[715]() نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي ، بتصرف (ص 545-546) " عقائد السلف" .

[716]() "شرح مسلم " (18/60).

[717]() "شرح مسلم " (18/60).

ص 248

قال: " باب قول الله -تعالى-: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} [718].

قال ابن جرير: " يقول -تعالى- ذكره: هو المعبود الخالق، الذي لا معبود تصلح له العبادة غيره، ولا خالق سواه، البارئ الذي برأ الخلق فأوجدهم بقدرته، المصور خلقه كيف شاء، وكيف يشاء"[719].

ومراد البخاري بهذا: بيان أن الله -تعالى- متصف بأنه الخالق، البارئ، المصور في الأزل، والأبد، فهو الخالق قبل وجود المخلوق، وهو البارئ قبل وجود المبري، وهو المصور قبل وجود المصوَّر، فهو -تعالى- لم يزل بصفاته ولا يزال، كما يريد أيضاً بيان أن الخلق الذي هو وصفه -تعالى- غير المخلوق، خلافاً لأهل البدع الذين يشير بهذا إلى الرد عليهم.

قال الزجاج: " أصل الخلق في الكلام: التقدير، يقال: خلقت الشيء خلقاً، إذا قدرته، كما قال زهير:

لأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

يعني: أنك إذا قدرت الأمر مضيت في عزمك وفعلته، ولست ممن يقدر الأمر ثم لا يعزم على فعله، بل ينثني عن ذلك.

فالخلق في اسم الله -تعالى- هو: ابتداء تقدير النشء.

فاله -تعالى- خالقها، ومنشئها، وهو متممها، ومدبرها، فتبارك الله أحسن الخالقين. {البارئ} يقال: برأ الله الخلق إذا فطرهم.

والبرء: خلق على صفة، فكل مبروء مخلوق، وليس كل مخلوق مبروءاً، لأن البرء من تبرئة الشيء من الشيء، كما يقال: برأت من المرض، ومن الدين.

فإذا فصل بعض الخلق من بعض، سمي فاعله بارئاً.

فهو المعنى الذي به انفصلت الصورة بعضها من بعض، فصورة زيد مفارقة لصورة عمرو، وصورة حمار مفارقة لصورة فرص، فتبارك الله خالقاً بارئاً.

ص 249

{المصور} أي: مصور كل صورة، لا على مثال احتذاه – ولا رسم ارتسمه، -تعالى- عن ذلك علواً كبيراً "[720].

أي أنه لم يتقدمه أحد فعل ذلك، لا تقديراً، ولا إظهاراً وإيجاداً.

وقال الحافظ: " قال الطيبي: قيل: الألفاظ الثلاثة مترادفة، وهو وهم.

فإن {الخلق}: من الخلق، وأصله التقدير المستقيم، ويطلق على الإبداع، وهو إيجاد الشيء على غير مثال، كقوله -تعالى-: {خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

---

[718] () الآية 24 من سورة الحشر .

[719] () "تفسير الطبري" (18/56).

[720] () "تفسير أسماء الله الحسنى" ببعض التصرف (ص 26-27).

وَالأَرْضِ} وعلى التكوين، كقوله -تعالى-: {خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ} و{البارئ} من البرء، وأصله خلوص الشيء عن غيره، إما على سبيل الخلوص منه، كبرء الرجل من مرضه، والمديون من دينه.

أو على سبيل الإنشاء، كبرء الله النسمة.

و {المصور} مبدع صور المخترعات، ومرتبها على حسب مقتضى الحكمة، فالله -تعالى- خالق كل شيء، بمعنى أنه موجده من أصل، ومن غير أصل، وبارئه، بحسب ما تقتضيه الحكمة، من غير تفاوت، ولا اختلاف، ومصوره في صورة يترتب عليها خواصه ويتم بها كماله.

فالتقدير يقع أولاً، ثم الإحداث على الوجه المقدر يقع ثانياً، ثم التصوير بالتسوية يقع ثالثاً "[721]. وبهذا يتبين الفرق بين هذه الأسماء الثلاثة:

فالخالق: مبدع الأشياء على غير مثال سابق.

والبارئ: موجد الأشياء، ومظهرها إلى الوجود، من أصل ومن غير أصل.

والمصور: الذي خص كل مخلوق بما يميزه عن الآخر، وما تحصل به مصلحته، كما قال تعالى: {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[722].

ويظهر أن "البارئ" أخص من "الخالق" كما تقدم في كلام الزجاج ما يشير إلى ذلك، وإذا أضيف الخلق إلى الإنسان، فمعناه التقدير، ويأتي بمعنى الكذب.

---

[721]() "فتح الباري" (13/391) ملخصاً.

[722]() الآية 50 من سورة طه .

ص 250
38-قال: " حدثنا إسحاق، حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا موسى – هو ابن عقبة- حدثني محمد بن يحيى بن حبان، عن ابن محيريز، عن أبي سعيد الخدري، في غزوة بني المصطلق، أنهم أصابوا سبايا، فأرادوا أن يستمتعوا بهن، ولا يحملن، فسألوا النبي –صلى الله عليه وسلم- عن العزل، فقال: " ما عليكم أن لا تفعلوا، فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة"، وقال مجاهد: عن قزعة، سمعت أبا سعيد، فقال: قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: " ليست نفس مخلوقة، إلا الله خالقها ".

"العزل": هو إنزال الماء خارج فرج المرأة، خوفاً أن تحمل.

قال الحافظ: " هو النزع بعد الإيلاج لينزل خارج الفرج"[723].

"قوله: ما عليكم أن لا تفعلوا " أي: لا يضركم عدم العزل؛ لأن ما قدره الله –تعالى- من الخلق، فلا بد من وجوده، عزل الإنسان أو لم يعزل، يوضحه ما في رواية مسلم فقال: "لا عليكم أن لا تفعلوا، ما كتب خلق نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون"[724].

وفي قصة الرجل الذي سأل عن العزل عن جاريته، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: " إن ذلك لن يمنع شيئاً أراده الله "[725].

قال الحافظ: " وفي رواية: " لا عليكم أن لا تفعلوا " أي: لا حرج عليكم أن لا تفعلوا العزل، ففيه نفي الحرج عن عدم الفعل، فأفهم ثبوت الحرج في فعل العزل.

ولو أراد نفي الحرج عن العزل لقال: " لا عليكم أن تفعلوا "[726].

وفي مسلم لما ذكر هذا الحديث "قال محمد" وقوله: " لا عليكم" أقرب إلى النهي" ومحمد هذا هو ابن حاتم. وفيه أيضاً: " وقال ابن عون: فحدثت به الحسن، فقال: والله لكأن هذا زجر"[727].

ص 251

قوله: " فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة" هذا يبين عدم فائدة العزل؛ لأن كل نفس قدر الله –تعالى- خلقها، لا بد أن يخلقها، عزلتم أم لا، وما لم يشأ خلقها لا يقع ولو لم يعزلوا، فإن كان الله أراد أن يخلق في تلك المقارنة وذلك الوقت، فلا بد من وجود ذلك ولو حرصتم كل الحرص على عدم الإنزال في الرحم، فلا غالب على أمره، وهو الخالق وحده.

---

[723]() "الفتح" (9/305).
[724]() "مسلم مع النووي" (10/10).
[725]() "مسلم مع النووي" (10/10) .
[726]() "الفتح" (9/307).
[727]() "مسلم مع النووي" (10/11).

وهذا هو وجه استدلال البخاري في الحديث، فإن الله -تعالى- هو الخـالق البارئ المصور وحده، وأن كلا من الأب والأم، لا دخل لهما في ذلك، بـل اللـه -تعالى- هو الذي يقدر خلق هذا المخلوق شاء الناس ذلك أو لم يشاؤوا، وأنه، هو بارئ النسمة من الذكر والأنثى، أو مما يشاء، والخلق كلهم لا يسـتطيعون فعل شئ من ذلك.

وهو -تعالى- المصور لهذا الإنسان السوي من نطفة متساوية الأجزاء، لو اجتمع عليها أمهـر الأطبـاء، بكـل مـا أوتـوا مـن علـوم وآلات وإمكانيـات، لـم يستطيعوا أن يصوروا منها شيئاً حياً، فتبارك الله أحسن الخالقين.

فإن قيل: قد يتحكم الإنسان بالحمل إما بالعقاقير أو بوسائل أخرى.

فجوابه: أن ذلك من تقدير الله -تعالى-، ولا يمكن أن يكون شيء خارجـاً عـن مشـيئته وتقـديره، وإذا أراد أن يخلـق مخلوقـاً فلا بـد مـن وجـوده، وإن استعملت الوسائل المانعة لذلك.

"قال ابن بطال: الخالق في هذا الباب، يراد به: المبدع المنشيء لأعيـان المخلوقين، وهو معنى لا يشارك الله فيه أحد ".

"وقال الكرماني: " معنى قوله: إلا وهي مخلوقـة، أي مقـدرة الخلـق، أو معلومة الخلق عند الله -تعالى- لابد من إبرازها إلى الوجود"[728].

قال شيخ الإسلام: والذي عليه جماهير المسلمين مـن السـلف والخلـف: أن الخلق غير المخلوق، فالخلق فعل الخالق، والمخلوق مفعوله، ولهـذا كـان النبي –صلى الله عليه وسلم- يستعيذ بأفعال الرب وصفاته، كما فـي قـوله – صلى الله عليه وسلم-: "أعوذ برضاك من سخطك،

ص 252

وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليـك، أنـت كمـا أثنيـت على نفسك"[729] فاستعاذ بمعافاته كما استعاذ برضاه.

وقد استدل أئمة السنة كأحمد وغيره، على أن كلام الله غير مخلوق، بأنه استعاذ به، فكذلك معافاته ورضاه غير مخلوقـة؛ لأنـه اسـتعاذ بهمـا، والعافيـة القائمة ببدن الإنسان مخلوقة، فإنها نتيجة معافاته "[730].

وسيأتي – إن شاء الله تعالى – بسط ذلك وإيضاحه في محله.

---

[728]() "الفتح" (13/392).

[729]() تقدم تخريجه .

[730]() "مجموع الفتاوى" (6/229-230).

ص 253
قال: " باب قول الله -تعالى-: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [731]".
أراد – رحمه الله – بهذه الترجمة بيان ما أثبته اللـه -تعـالى- لنفسـه، مـن صفة اليدين، وأثبته له رسوله –صلى الله عليه وسلم- على ظاهر مـا نطقـت به النصوص المتنوعة الدلالة في ذلك، كما سيأتي – إن شاء الله تعالى -.
قال الله -تعالى-: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُـواْ بِمَـا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء} [732].
وقال -تعالى-: {وَمَا قَـدَرُوا اللّـهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًـا قَبْضَـتُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [733].
وقال -تعالى-: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [734]، {بِيَـدِهِ الْمُلْـكُ} [735]، {بِيَـدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ في آيات كثيرة وقد ذكر البخاري في ذلك عدة أحاديث.
39- قال: " حدثني معاذ بن فضالة، حدثنا هشام، عن قتادة، عن أنس أن النبي –صلى الل ه عليـه وسـلم- ق ال: " يجمـع الل ه المـؤمنين يـوم القيامـة، كذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، حتى يريحنا من مكاننا هذا.
فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أما ترى الناس؟ خلقك اللـه بيـده، وأسـجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، اشـفع لنـا إلـى ربنـا، حـتى يريحنـا مـن مكاننا هذا، فيقول: لست هناك، ويذكر لهم خطيئته التي أصـاب، ولكـن ائتـوا نوحاً، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحـاً، فيقـول: لسـت هناكم، ويذكر خطيئتـه الـتي أصـاب، ولكـن ائتـوا إبراهيـم –خليـل الرحمـن – فيأتون إبراهيم، فيقول: لست
ص 254
هناكم، ويذكر خطاياه التي أصابها، ولكن ائتوا موسى، عبـداً آتـاه التـوراة وكلمه تكليماً فيأتون موسى، فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم خطيئتـه الـتي أصاب- ولكن ائتوا عيسى، عبد الله ورسوله، وكلمته، وروحه، فيأتون عيسى، فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمد صلى الله عليه وسلم عبداً غفر له مـا تقدم من ذنبه وما تأخر.
فيأتوني، فانطلق، فاستأذن على ربي، فيؤذن لي عليـه، فـإذا رأيـت ربـي وقعت له ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لـي: ارفـع محمـد،

---

[731]() الآية 75 من سورة ص.
[732]() الآية 64 من سورة المائدة .
[733]() الآية 67 من سورة الزمر.
[734]() جزء من الآية 10 من سورة الفتح .
[735]() فاتحة سورة الملك.

وقل يسمع، وسل تطعه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم اشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة.

ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فاحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم اشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة.

ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فاحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم اشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة.

ثم أرجع فأقول: يا رب، ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، ووجب عليه الخلود.

قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة.

ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة.

ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة".

هذا حديث الشفاعة المشهور، وقد ذكره البخاري في أماكن متعددة من جامعه.

والمقصود هنا: قوله:"خلقك الله بيده" حيث جعل ذلك ميزة لآدم من بين الخلق، فدل على أن اليد هنا على ظاهرها، يد حقيقة، ولو كانت كما يقول أهل التأويل: إنها القدرة، لم يكن لآدم اختصاص بذلك، إذ الخلق كلهم مخلوقون بقدرة الله -تعالى-.

ص 255

قوله: " يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك " قال الحافظ: " هكذا للجميع، وأظن أول هذه الكلمة لام – أي لذلك – والإشارة ليوم القيامة – أو لما يذكر بعد.

وعند مسلم: " يجمع الله المؤمنين، يوم القيامة، فيهتمون لذلك، وفي رواية "يلهمون لذلك"[736].

ومعنى: يهتمون ويلهمون متقارب، أي أنهم يعنون بسؤال الشفاعة، وإزالة الكرب الذي هم فيه، أو أن الله -تعالى- يلهمهم سؤال ذلك، والإلهام: أن يلقي الله -تعالى- في النفس أمراً يحمل على فعل الشيء أو تركه"[737].

---

[736] () "الفتح" (13/394).

[737] () "شرح النووي على مسلم" (3/53).

قوله: " فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، حتى يريحنا من مكاننا هذا " هذا هو الذي يهتمون له – أو يلهمونه – أي لو طلبنا مما هو موجود معنا من الرسل الذين لهم مقام عند الله من يشفع لنا عند ربنا! ليريحنا من عناء هذا الموقف وكرباته، فيحاسبنا ربنا، ويجزينا بأعمالنا، وما نستحق، ثم نصير إلى منازلنا.

قوله: " فيأتون آدم" إلى عيسى، وكلهم يعتذر، ويذكر لهم ذنبه.

فآدم – عليه السلام – يقول: نهاني عن الأكل من الشجرة فعصيته. ونوح – عليه السلام – يقول: دعوت على قومي، فأغرقوا، وسألت ما ليس لي به علم. وإبراهيم – عليه السلام – يقول: كذبت ثلاث كذبات، مع أنهن في سبيل الله، وهن: قوله: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا}، وقوله: {إِنِّي سَقِيمٌ} وقوله: للظالم العنيد لما سأله عن زوجته، قال: " إنها أختي"؛ لأنها أخته في الإسلام، ولو قال: إنها زوجته، لأخذها منه ذلك الظالم.

وموسى – عليه السلام – يقول: قتلت نفساً بغير حق، ولم يذكر لعيسى عليه السلام ذنباً، وهذا كله مع قول عيسى عليه السلام: " ولكن ائتوا محمداً، عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر" يدل على وقوع الذنوب من الأنبياء، وهؤلاء المذكورون هم أفضل الأنبياء، وهي مسألة مشهورة، ولا خلاف أن الكفر بعد النبوة غير واقع منهم، كما أنه لا خلاف في عصمتهم فيما يبلغونه عن طريق القول. وأما الفعل، فقد يقع منهم السهو أو النسيان، أو الخطأ الذي لا يقرون عليه، كما أنهم محفوظون من الذنوب، التي تزري بفاعلها، وتسقط مروءته.

ص 256

و أما الصغائر فجائز وقوعها منهم، كما دل عليه هذا الحديث في الجملة، وغيره من النصوص الكثيرة، والله أعلم.

وقد تطرف بعض شراح الكتاب وزعم أن من قال بهذا أنه كافر.

ويدل على عظم الأمر، كيف اعتذر من هم أفضل البشر عن الشفاعة معتلين بذنوب أكثر الخلق لا يعدها ذنوباً، وهم قد تابوا منها، واستغفروا ربهم فغفر لهم، وهذا يدل على عظم الله، وعظيم قدره في قلوبهم، وعلى صعوبة الموقف بين يدي الله وشدته، فهل يفهم هذا من يهرع إلى قبور الموتى يطلبون منهم ما لا يطلبه أولو العزم من الرسل من الله -تعالى-؟

وقول كل واحد منهم: " لست هناكم" أي: لست كما تظنون أني أستطيع أن أشفع لكم، فليس ذلك عندي.

قوله: " فأنطلق، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي عليه " يدل على أنه – صلى الله عليه وسلم- يقصد مكاناً معيناً، يرى فيه ربه، وسيأتي في باب

الرؤية في هذا الحديث " فاستأذن على ربي في داره " وقد قيل: إن المراد بداره هنا الجنة، فالله أعلم.

قوله: " فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً " صريح في أن الرسول –صلى الله عليه وسلم- يرى ربه عياناً في ذلك الموقت، وسيأتي ذلك – إن شاء الله تعالى -.

قوله: " فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع محمد، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع" أي: أن الله -تعالى- يمهل له في السجود، فيبقى ساجداً وقتاً طويلاً، يسبح ربه، ويمجده، ويثني عليه، ويحمده، فلا يرفع رأسه من سجوده حتى يأمره الله -تعالى- برفعه، ثم يأذن له -تعالى- بأن يطلب من ربه مراده، وقد علم الله مقصده، ولهذا قال له: اشفع تشفع، وهذا كله من رحمته -تعالى-، فهو الذي ألهم عباده طلب الشفاعة من الأنبياء، وهو الذي أذن في الشفاعة وقبلها، وحقيقة الأمر هو إرادة الله -تعالى- رحمة الخلق وإراحتهم من عناء الموقف، وإظهار كرامة محمد –صلى الله عليه وسلم- للخلق في ذلك الموقف العظيم، وإلا فالشفاعة كلها لله.

قوله: " فأحمد ربي بمحامد علمنيها " قد تقدم أن هذا يدل على عدم حصر أسماء الله الحسنى، في تسع وتسعين؛ لأن هذه المحامد بأسمائه الحسنى وصفاته

ص 257

العليا، وقد جاء في الرواية الأخرى: " فيفتح الله عليّ من المحامد والثناء ما لا أحسنه الآن ".

قوله: " ثم أشفع، فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة" أي: أن الله –تعالى- يعين له من يشفع فيهم، وهذا من الأدلة الواضحة على أن الرسول –صلى الله عليه وسلم- لا يشفع فيمن يريد، بل لمن يأذن الله له في الشفاعة فيهم، وبذلك يتبين أن الشفاعة لله جميعاً، كما صرحت بذلك آيات من كتاب الله –تعالى-: {أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ {43} قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [738].

وقال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ {22} وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [739].

---

[738]() الآيتان 43 و 44 من سورة الزمر .

[739]() الآيتان 22 و 23 من سورة سبأ .

بهذه الآية يتبين أن المدعو يجب أن يكون مالكاً لما يدعى من أجله، وإلا كانت دعوته ضلالاً مبيناً، فإن لم يكن مالكاً يكون مشاركاً للمالك، فإن انتفى الأمران، يكون معاوناً وظهيراً مساعداً للمالك، فإن لم يكن ذلك، فلا أقل من أن يكون شافعاً مقبول الشفاعة عند من يملك المطلوب، فنفى الله -تعالى- عن المدعوين من دونه هذه الأمور الأربعة، وبين أن الشفاعة لا تنفع إلا بعد إذنه، وهو – جل وعلا – لا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي عمله، وهم أهل الإخلاص، ومتابعة الرسول وهو -تعالى- لا يرضى عن المشرك، الذي يدعو غير الله -تعالى-.

فيجب على العاقل الذي تعز عليه نفسه أن لا يغتر بما اغتر به كثير من الناس الذين يعتمدون على الشفاعة، مع ما هم فيهم من المعاصي، فأفضل الشفعاء يحد الله له حداً، يقول: هؤلاء أشفع فيهم.

ص 258

قوله: " فأقول: يا رب، ما بقي إلا من حبسه القرآن، ووجب عليه الخلود" أي: أن أهل التوحيد الذين استحقوا دخول النار بذنوبهم قد خرجوا منها بالشفاعة التي حقيقتها رحمة الله إياهم، بواسطة الشفاعة؛ ليظهر كرامة الشافع كما تقدم، وبقى من نص القرآن على أنه من أهل النار، الذين لا تنالهم شفاعة الشافعين.

قوله: " يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ..." إلى قوله: " ما يزن برة" يدل على أن مجرد قول: لا إله إلا الله، من دون أن يقوم في القلب شيء من الإيمان، لا ينفع، ولا يخرج من النار، فالمقصود بالخير: الإيمان الذي يقوم في القلب، وإن قل.

كما أنه يدل دلالة واضحة على تفاوت الإيمان وتفاضله، وأن أهل الكبائر من المؤمنين يدخل من يدخل منهم النار ثم يخرجون منها، والله أعلم.

ص 259

40- قال: " حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة – رضي الله عنه- أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال: " يد الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار" وقال: " أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يده". وقال: " عرشه على الماء، وبيده الأخرى الميزان، يخفض، ويرفع".

جاء في أول هذا الحديث في تفسير سورة هود: " أنفق أنفق عليك"[740]. وسيأتي كذلك، في باب قوله -تعالى-: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ}.

وهو عند مسلم بلفظ: " إن الله قال لي: أنفق أنفق عليك" وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: " يمين الله ملأى" إلى آخره[741].

وسيأتي في باب " وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء " بلفظ: " إن يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم ينقص ما في يمينه، وعرشه عل الماء، وبيده الأخرى الفيض – أو القبض – يرفع ويخفض" وهو أبلغ في الدلالة على إثبات اليدين لله –تعالى- مما ها هنا.

وقد اضطرب أهل التأويل في تأويلهم اليد اضطراباً يدل على أنهم على باطل.

والعاقل المنصف يعجب إذا رأى ما كتبه ابن حجر في شرحه لهذا الباب، فإنه ذكر بعض أقوال أئمة الأشعرية، ثم قال: " واليد في اللغة تطلق لمعان كثيرة، اجتمع لنا منها خمسة وعشرون ومعنى "[742]

والنصوص في هذا الباب جاءت معينة معنى واحداً لا غير، هو يدا الله الكريمتان، وما عدا ذلك فهو بهتان عظيم.

ص 260

قوله: " يد الله ملأى" ذكرنا أنها عند مسلم، وعند البخاري في مواضع غير هذا، بلفظ "يمين الله " بدل: " يد الله"، قال الحافظ: " يتعقب بهذه الرواية على من فسر اليد بالنعمة، وأبعد منه من فسرها بالخزائن "[743].

قلت: هذا التفسير باطل، ولا يصح أن يسمى تفسيراً، وإنما هو تحريف للكلام عن مواضعه، كفعل اليهود، كما سيأتي بيان ذلك – إن شاء الله تعالى -.

---

[740]() انظره مع الفتح (8/352).

[741]() انظر : " مسلم" (2/691) الحديث رقم (37) ، و (ص 690) الحديث رقم (36).

[742]() انظر " فتح الباري" (13/394).

[743]() "الفتح" (13/395).

و"ملأى" بفتح الميم، وسكون اللام، وهمزة، مع القصر، أي أنها: شديدة الامتلاء بالخير.
قوله: " لا يغيضها " أي: لا ينقصها، يقال: غاض الماء يغيض، إذا نقص.
قوله: " سحاء" بفتح السين والحاء المشددة، ممدوداً، أي دائمة الصب.
"الليل والنهار" منصوبان على الظرفية، أي: يد الله دائمة السح في الليل والنهار.
قوله: " أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟" استدلال، وإيضاح لكثرة نفقته تعالى، وتنبيه لمن له بصيرة إلى ذلك.
قوله: " فإنه لم يغض ما في يده" أي: هذا الإنفاق الهائل، المستمر الدائم بدون توقف، لم ينقص ما في يده -تعالى-؛ لأن بيده الخير كله لا مانع لما أعطى، ولا معطي لمن منعه، وإذا أراد شيئاً قال له: كن، فيكون.
قوله: "وعرشه على الماء" قال الحافظ: " مناسبة ذكر العرش هنا: أن السامع يتطلع من قوله: " منذ خلق السماوات والأرض " ماذا كان قبل ذلك؟ فذكر أن عرشه قبل خلق السماوات والأرض، كان على الماء "[744].
قوله: " وبيده الأخرى، الميزان، يخفض ويرفع" الميزان: العدل، الذي به يرفع من يكون أهلاً لأن يرفع، ومن هو موضع له، فيتفضل عليه برفعه بالإيمان وقبول الحق، بأن يحبب إليه الإيمان، ويزينه في قلبه، ويكره إليه الكفر والفسوق، والعصيان، ويجعله من الراشدين، وهذا أعظم الرفع. ويخفض من ليس أهلاً
ص 261
لذلك، بأن يمنع فضله عنه، ويكله إلى نفسه، فيضل، ويتولاه عدوه فيصبح خاسراً، وهذا أعظم الخفض؛ لأنه يصير إلى أسفل سافلين، في جهنم – نعوذ بوجه الله منها – وأمور الدنيا تبع لذلك.
"قال الطيبي: يجوز أن يكون "ملأى" و"لا يغيضها" و"سحاء" و"أرأيتم" أخبار مترادفة ليد الله، ويجوز أن تكون الثلاثة أوصافاً "لملأى" ويجوز أن يكون "أرأيتم" استئنافاً فيه معنى الترقي، كأنه لما قيل: "ملأى" {خشي} إيهام جواز النقصان، فأزيل بقوله: " لا يغيضها" وقد يمتلئ الشيء ولا يغيض، فقيل: "سحاء" إشارة إلى الفيض – وهو كثرة العطاء – وقرنه بما يدل على الاستمرار، من ذكر الليل والنهار، ثم أتبعه بما يدل على أن ذلك ظاهر غير خاف على ذي بصر وبصيرة، بقوله: " أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض" وهذا الكلام إذا أخذته بجملته أبان عن زيادة الغنى، وكمال السعة والجود، والبسط في العطاء"[745].

---

[744]() المصدر المذكور.
[745]() "الفتح" (13/395).

قلت: الاستدلال بهذا الحـديث علـى ثبـوت اليـدين للـه -تعـالى- حقيقـة، ظاهر جداً، وسيأتي تقرير ذلك – إن شاء الله – في آخر الباب.

ص 262
41-قال: " حدثنا مقدم بن محمد، قال: حدثني عمي، القاسم بن يحيى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر – رضي الله عنهما – عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- أنه قال: " إن الله يقبض يوم القيامة الأرض، وتكون السماوات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك" رواه سعيد عن مالك.
القبض: " إمساك الشيء بجميع كف اليد، فقبض اليد على الشيء: جمعها بعد تناوله"[746]، فقبض الشيء هو: جمعه في الكف.
فقوله: " إن الله يقبض يوم القيامة الأرض" أي يجمعها بيده، فتكون في قبضته، كما قال -تعالى-: {وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}.
وقوله: " وتكون السماوات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك" أي أنه -تعالى- يطوي السماوات بيده اليمنى، والأرض مقبوضة بيده الأخرى، وأنه يهزهن ثم يقول – يعظم نفسه-: أنا الملك – أي: الذي يتصرف في كل شيء كيف يشاء، ولا يشاركه في ذلك أحد، ولهذا جاء فيه: أنه -تعالى- إذا قبضهن، يهزهن، ويقول: " أنا الملك، أنا الملك، أين ملوك الدنيا؟".
وهذا الحديث مطابق لقوله –تعالى-: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [747].
وفيه الدليل الواضح على ثبوت اليدين لله -تعالى-، وهو نص لا يقبل تأويلاً، ولهذا صارت تأويلات المعطلين ليدي رب العالمين، شبه اللعب في كلام الله وكلام رسوله، الذي يترفع عنه العقلاء، فضلاً عن أهل التقى.

---

[746]() انظر : " المفردات" للراغب (ص 391).
[747]() الآية 67 من سورة الزمر .

ص 263

42-قال: " وقال أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة، أن أبا هريرة قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: " يقبض الله الأرض ".

تقدم تفسير القبض، وهذا الحديث مر في باب قوله -تعالى-: {مَلِكِ النَّاسِ}.

ص 264

43-قال: " حدثنا مسدد، سمع يحيى بن سعيد، عن سفيان، حدثني منصور، وسليمان، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبدالله، أن يهودياً جاء إلى النبي –صلى الله عليه وسلم- فقال: يا محمد، إن الله يمسك السماوات على إصبع، والأرضيين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله –صلى الله عليه وسلم- حتى بدت نواجذه، ثم قرأ: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [748]".

وقال يحيى بن سعيد، وزاد فيه فضيل بن عياض، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبدالله: " فضحك رسول الله –صلى الله عليه وسلم- تعجباً وتصديقاً له".

44-قال: " حدثنا عمر بن حفص عن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، سمعت إبراهيم قال: سمعت علقمة يقول: قال عبد الله: جاء رجل إلى النبي –صلى الله عليه وسلم- من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، إن الله يمسك السموات على إصبع، والأرضيين على إصبع، والشجر والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أن الملك، أنا الملك، فرأيت النبي –صلى الله عليه وسلم- ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قرأ: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}".

هذا الحديث يدل على عظمة الله -تعالى- حيث يضع السماوات كلها على إصبع من أصابع يده الكريمة العظيمة، وعدد المخلوقات المعروفة للخلق بالكبر والعظمة، وأخبر أن كل نوع منها يضعه -تعالى- على إصبع، لو أراد تعالى – لوضع السماوات والأرضيين ومن فيهن على إصبع واحدة من أصابع يده – جل وعلا-.

وهذا من العلم الموروث عن الأنبياء المتلقى عن الوحي من الله -تعالى-، ولهذا صدقه رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بل وأعجبه ذلك وسر به، ولهذا ضحك حتى بدت نواجذه، تصديقاً له، كما قال عبد الله بن مسعود، ولا التفات إلى قول من تبنى التعطيل، وصار نصيبه من معرفة هذه الأوصاف الكريمة العظيمة – التي تعرف الله بها إلى عباده – هو ما يعرفونه

---

[748]() الآية 67 من سورة الزمر .

من أنفسهم، فحملهم ذلك على تعطيل الله -تعالى- من هذه الأوصاف، مـرة برد هذه النصوص والطعن في رواتها بلا حجة سوى
ص 265
روايتهم لها، ومرة بتأويلها التأويل الباطل الذي يخرجها عن مراد المتكلم بها {قل ءأنتم أعلم أم الله}.

هذا وقد تنوعت النصوص من كتاب الله -تعالى- وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم- على إثبات اليدين لله -تعالى- وإثبات الأصابع لهما، وإثبات القبض بهما وتثنيتهما، وأن إحداهما يمين، كما مر، وفي نصوص كثيرة، والأخرى شمال كما في "صحيح مسلم"[749]، وأنه -تعالى- يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وبالنهار ليتوب مسيء الليل[750]، وأنه -تعالى- يتقبل الصدقة من الكسب الطيب بيمينه فيربيها لصاحبها[751]، وأن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين[752]، وغير ذلك مما هو ثابت عن الله ورسوله، وسأذكر شيئاً يسيراً من ذلك – إن شاء الله – وبعضه يكفي المؤمن المريد للحق.

وهذا الذي أشرت إليه كله يمنع تأويل اليدين بالنعمة، أو القوة، أو الخزائن، أو القدرة، أو غير ذلك، ويجعل التأويل في حكم التحريف، بل هو تحريف.

وقد آمن المسلمون بهذه النصوص، على ظاهرها، وقبلوها، ولم يتعرضوا لها بتأويل تبعاً لرسول الله –صلى الله عليه وسلم- وصحابته، وأئمة الهدى، بل وكل من قبل ما جاءت به الرسل، وآمن به.

قال الإمام ابن خزيمة معلقاً على هذا الحديث: " معناه أن الله – جل وعلا – يمسك ما ذكر في الخبر على أصابعه، على ما في الخير سواء، قبل تبديل الله الأرض غير الأرض؛ لأن الإمساك على الأصابع غير القبض على الشيء، وهو مفهوم في اللغة التي خوطبنا بها؛ لأن الإمساك على الشيء بالأصابع، غير القبض على الشيء"[753].

ص 266
قال الحافظ في شرحه لهذا الحديث: " زاد ابن خزيمة، عن محمد بن خلاد، عن يحيى بن سعيد القطان، عن الأعمش، فذكر الحديث، قال محمد: عدها علينا يحيى بأصابعه. وكذا أخرجه أحمد في السنة، عن يحيى بن سعيد، وقال: وجعل يحيى يشير بأصبعه يضع إصبعاً على إصبع، حتى أتى على

---

[749]() سيأتي ذكره بعد قليل .
[750]() سيأتي تخريجه .
[751]() سيأتي ذكره بعد قليل .
[752]() سيأتي ذكره في هذا الباب
[753]() كتاب "التوحيد" (ص 79).

آخرها، قال: ورواه الخلال في كتاب السنة، عن أبي بكر المروزي، عن أحمد، وقال: ورأيت أبا عبد الله يشير بإصبع إصبع"[754].

قلت: تبعوا في ذلك ما وقع من الحبر الذي حدث رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، حيث كان يشير بأصابعه، ولم ينكر عليه رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بل أقره، وصدقه.

فهذه النقول عن هؤلاء المذكورين من السلف، تدل على أنهم فهموها على ظاهرها، وأنها أصابع حقيقة.

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: " قال أبي: قال يحيى: قال: فضيل بن عياض ... فضحك رسول الله تعجباً وتصديقاً، سمعت أبي يقول: حدثني يحيى بن سعيد، بحديث سفيان، عن الأعمش، ومنصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبدالله، عن النبي –صلى الله عليه وسلم-: " إن الله يمسك السماوات على إصبع".

قال أبي: وجعل يحيى يشير بأصابعه، وأراني أبي كيف جعل يحيى يشير بأصابعه، يضع إصبعاً إصبعاً حتى أتى على آخرها"[755].

وفي الترمذي عن ابن عباس، قال: " مر يهودي بالنبي –صلى الله عليه وسلم- فقال له النبي –صلى الله عليه وسلم-: يا يهودي، حدثنا، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم، إذا وضع السماوات على ذه، والأراضين على ذه، والماء على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه؟ – وأشار محمد بن الصلت –أبو جعفر – بخنصره أولاً، ثم تابع حتى بلغ الإبهام – فأنزل الله: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح"[756].

ص 267

ورواه ابن جرير في "تفسيره"، وسنده حسن[757].

وقال عبدالله ابن الإمام أحمد: " حدثني أبي، حدثنا حسين بن حسن، حدثنا أبو كريبة، عن عطاء عن أبي الضحى، عن ابن عباس، قال: مر يهودي برسول الله –صلى الله عليه وسلم- وهو جالس، قال: كيف تقول يا أبا القاسم، يوم يجعل الله السماء على ذه – وأشار بالسبابة – والأرضيين على ذه، والماء على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلائق على ذه- وجعل يشير بأصابعه –؟ فأنزل الله: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ }.

حدثني عبد الله بن عمر، حدثنا عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، عن ابن عباس، قال: مر يهودي على النبي –صلى الله عليه وسلم- فقال له النبي –صلى الله عليه وسلم-: يا يهودي خوفنا، فقال: يا أبا

---

[754]() "فتح الباري" (13/397).
[755]() كتاب "السنة" (ص 54).
[756]() "سنن الترمذي" (5/49).
[757]() انظر : " تفسير الطبري" (24/26).

القاسم، كيف بيوم تكون الأرضون على هذه، والسماوات على هـذه، والمـاء على هذه، والخلق على هذه؟ – يعني أصابعه – ثم قرأ رسول الله –صلى الله عليـه وسـلم-: {وَالأَرْضُ جَمِيعًـا قَبْضَـتُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَالسَّـماوَاتُ مَطْوِيَّـاتٌ بِيَمِينِهِ} [758].

فمثل هذه الأحاديث هى مستند السلف فـي الإشـارة بالأصـابع، تحقيقـاً لإثبات أصابع الرحمن – جل وعلا – وقـدوتهم رسـول اللـه –صـلى اللـه عليـه وسلم-.

وهذه النصوص التي فيها ذكر الأصابع تدل دلالة قاطعـة – عنـد المـؤمنين الذين يحكمون الشرع – على ثبوت اليدين لله – تعالى -، وقد تنوعت الـدلائل علـى ذلـك – كمـا أشـرنا إليـه آنفـا – مـن ذكـر الأصـابع، والقبـض، والبسـط، والتثنية، وذكر اليمين والشمال.

ففي "الموطأ" و"الترمذي" و"سنن أبـي داود ": أن رسـول اللـه –صـلى الله عليه وسلم- قال: " إن الله – تبارك وتعالى – خلق آدم، ثم مسـح ظهـره بيمينه، فاستخرج منه ذريته"[759] ورواه أحمد.

ص 268

وفي "الترمذي" و"سنن أبى داود" مرفوعـاً: " أن اللـه – تبـارك وتعـالى خلق آدم من قبضة، قبضها من جميع الأرض "[760].

وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة مرفوعاً، في حديث طويل في خلق آدم، وفيه: " فقال الله له: ويداه مقبوضتان، اختر أيهما شئت، قال: اخترت يميـن ربي، وكلتا يدي ربي يمين، مباركة، ثم بسطها، فإذا فيها ذريته "[761].

وفي "صحيح مسلم" عن عبدالله بن عمر، قال: قال رسول اللـه –صـلى الله عليه وسـلم-: " يطـوي اللـه – عـز وجـل – السـموات يـوم القيامـة، ثـم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثـم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكـبرون؟ "[762].

وفيه أيضاً عنه مرفوعاً، "قال: يأخذ الله – عز وجل – سماواته، وأرضـيه، بيديه، فيقول: أنا الله – ويقبض أصابعه، ويبسطها – أنـا الملـك، حـتى نظـرت

---

[758]() كتاب "السنة" (لعبدالله ابن الإمام أحمد (ص 55).

[759]() "الموطأ" (2/898- 899) ، و "الترمذي" في التفسير رقم (3077) ، و "سنن أبي داود" في السنة رقم (4703) ، و "المسند" (1/324).

[760]() "الترمذي" رقم (2948) في التفسير ، و "أبو داود" في السنة ، في القدر ، رقم (4693).

[761]() "سنن الترمذي" في التفسير في باب : من سورة المعوذتين ، رقم (3365) ، وابن خزيمة في "التوحيد" (ص 67).

[762]() "مسلم" (4/2148) رقم (2788).

إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله – صلى الله عليه وسلم –؟" [763] ورواه أحمد.

وفيه أيضاً من حديث عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: " إن المقسطين عند الله؛ على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما ولوا "[764].

وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: "وما تصدق أحد بصدقة، من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمن، حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربي أحدكم فلوه، أو فصيله"[765].

ص 269

وفي "الصحيحين" من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: "من تصدق بعدل تمرة، من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل"[766].

وفي "صحيح مسلم" من حديث أبي هريرة، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: "ينزل الله في السماء الدنيا، لشطر الليل، أو لثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ أو يسألني فأعطيه؟ ثم يبسط يديه – تبارك وتعالى – يقول: من يقرض غير عدوم، ولا ظلوم "[767].

وفيه من حديث المغيرة بن شعبة في سؤال موسى ربه عن أدنى أهل الجنة منزلة، "رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن"[768].

وفي "الصحيحين" مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري، قال النبي – صلى الله عليه وسلم-:" تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر، نزلاً لأهل الجنة"[769]. وفيهما من حديث أبي هريرة، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: " واحتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت أبونا، خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة. فقال

---

[763] () "صحيح مسلم" الموضع المذكور ، وانظر : " المسند" (2/72، 87، 88).

[764] () "مسلم" (3/1458) رقم (1827).

[765] () "مسلم" (2/702) رقم (1014).

[766] () انظر : " البخاري مع الفتح" (3/278) و (13/415) ، و "مسلم" (2/702) ، وابن خزيمة في "التوحيد" (ص 61-63).

[767] () "مسلم" (1/176) ، وابن خزيمة في "التوحيد" عن عبدالله بن مسعود (ص 58).

[768] () "مسلم" (1/176) ، وابن خزيمة في "التوحيد" (ص 69-70).

[769] () "البخاري مع الفتح " (11/372) ، و "مسلم" (4/2151) رقم (2792).

آدم: أنت موسى، اصطفاك الله بكلامه، وخط لـك بيـده، أتلـومني علـى أمـر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟" [770].

وفي رواية لمسلم: " احتج آدم وموسـى عنـد ربهمـا، فحـج آدم موسـى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لـك ملائكته..."[771].

ص 270

وروى البيهقي في " الأسماء والصـفات" بسـنده: أن النـبي –صـلى اللـه عليه وسلم- قال: " لما خلق الله -تعالى- آدم وذريته، قالت الملائكة: يا رب، خلقتهم يأكلون ويشربون، وينكحون، ويركبون، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة، فقال الله -تعالى-: لا أجعل من خلقته بيدي، ونفخـت فيـه مـن روحـي، كمـن قلت له: كن، فيكون"[772].

وروى بسند حسن، عن أنس، قـال: قـال رسـول اللـه –صـلى اللـه عليـه وسلم-: " خلق الله -تعالى- جنـة عـدن، وغـرس أشـجارها بيـده، فقـال لهـا: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون"[773].

ورواه ابن جرير موقوفاً[774]، وذكره الحافظ ابن كثير، عن ابن أبي الـدنيا مرفوعاً[775].

وقال ابن جرير في قوله -تعالى-: {وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ } يقول -تعالى- ذكره -: والأرض كلها قبضته في يوم القيامـة {والسـماوات } كلها { مَطْوِيَّـاتٌ بِيَمِينِـهِ } ثـم روى عـن ابـن عبـاس، قـال: " مـا السـموات السبع، والأرضون السبع في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم".

وروى عـن ربيعـة الجرشـي قـال: {وَالأَرْضُ جَمِيعًـا قَبْضَـتُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} قال: " ويده الأخرى خلو ليس فيها شيء".

وعـن ابـن عبـاس، قـوله: {وَالأَرْضُ جَمِيعًـا قَبْضَـتُهُ} يقـول: قـد قبـض الأرضين والسموات جميعاً بيمينه، ألم تسـمع أنـه قـال: {مَطْوِيَّـاتٌ بِيَمِينِـهِ} يعني: الأرض والسماوات جميعاً؟ قـال ابـن عبـاس: وإنمـا يسـتعين بشـماله المشغولة يمينه.

وعن الحسن: {وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} قـال: " كأنهـا جـوزة بقضها وقضيضها".

---

[770] () "البخاري مع الفتح" (11/505) ، و "مسلم" (4/2042).
[771] () "مسلم " (4/2043).
[772] () " الأسماء والصفات " (ص 317).
[773] () المصدر المذكور (ص 318).
[774] () "تفسير الطبري " ، مفتتح الجزء (18).
[775] () "تفسير ابن كثير" (5/455) ط الشعب .

حدثنا الربيع، قال: حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني أسامة بن زيد، عن أبـي حازم، عن عبدالله بن عمر، أنه رأى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- على المنبر – يخطب الناس،
ص 271
فمر بهذه الآية: {وَمَا قَدَرُوا اللَّـهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًـا قَبْضَـتُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ} فقـال رسـول اللـه –صـلى اللـه عليـه وسـلم-: " يأخـذ السـموات، والأرضين السبع فيجعلها في كفه، ثم يقول بهما – كما يقول الغلام بـالكرة -: أنا الله الواحد، أنا الله العزيز" حتى لقد رأينـا المنـبر، وإنـه ليكـاد أن يسـقط به[776].
وذكر أحاديث وآثاراً في هذا.
والأحاديث والآثار عن السلف في ذلك كثيرة.
وروى ابن ماجه – قال في "الزوائد": وسنده صحيح، والإمام أحمـد، عـن النواس بن سمعان، قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يقـول: " ما من قلب إلا بين إصبعين من أصـابع الرحمـن، إن شـاء أقـامه، وإن شـاء أزاغه"[777].
وبهذا – وغيره كثير لم نذكره – يعلم خطأ الخطابي، وفريق أهل التأويـل، قطعاً، حيث يقول: "لم يقع ذكر الإصبع في القرآن، ولا في حديث مقطوع به، وقد تقرر أن اليد ليست بجارحة، حتى يتوهم من ثبوتها ثبوت الأصابع، بل هـو توقيف أطلقه الشارع، فلا يكيف، ولا يشـبه، ولعـل ذكـر الأصـابع مـن تخليـط اليهودي، وأما ضحكه –صلى الله عليه وسلم- من قول الحبر، فيحتمل الرضـا والإنكار، وأما قول الراوي: "تصديقاً له" فظن منه وحسبان"[778].
ونحن نجيبه بما أجاب به عبدالله بن مسعود، لما قيـل لـه: إن المنـع مـن تعليق التميمة ليس في كتاب الله.
فنقول: بلى، إن ذكر الأصابع قد وقع في القرآن؛ لأن الله –تعـالى- يقـول فيه: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه}، وقد أتانا – صلى الله عليـه وسـلم- بـذكر الأصابع، وذكر الكف، وذكـر اليميـن، والشـمال، واليـدين، مـرة مثنـاة، ومـرة منصوص على أنها واحدة، وأنه
ص 272
يفعل بها كذا وكذا، وأن الأخرى فيها كذا، كما تقدمت النصوص بذلك، وهو تبع لأهل الكلام – المذموم- ينكر وصف الله -تعـالى- باليـدين حقيقـة، مـع أن القرآن قد جاء بذلك صراحة، كما قال -تعالى- {يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْـجُدَ

---

[776]() "تفسير الطبري" (27/24-28).
[777]() "سنن ابن ماجه" (1/72) رقم (199) ، و "المسند" (4/182) ، والآجري في الشريعة (ص 317) ، والحاكم (4/321) ، وابن أبي عاصم في "السنة" (1/98) ، وذكر عدداً من الأحاديث بهذا اللفظ.
[778]() من "الفتح" (13/398).

لِمَـا خَلَقْـتُ بِيَـدَيَّ} [779]، {وَالأَرْضُ جَمِيعًـا قَبْضَـتُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَالسَّـماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [780]، {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُـوطَتَانِ} [781]. وهـو مـع ذلـك لا يقبلـه؛ لأنه على خلاف تلقاه عن أهل البدع، ولهذا نراه – عفا الله عنا وعنه – يحـاول رد النصوص بدون حجة، وكل ما يمكن أن يعتمد عليـه هـو – وكـل مـن سـلك مسلكه من أهل التأويل – ادعـاؤهم أن العقـل بخلاف ذلـك، وأنـه محـال فـي العقل، وهو أمر غير منضبط، كما سنشير إليه – إن شاء الله – ودعـوى بـدون برهان.

قوله: " ولا حديث مقطـوع بـه "، هـذا عجيـب مـن الخطـابي، الـذي كـثر اشتغاله بالحديث تأليفاً، وروايـة، وشـرحاً لمتـونه، وأسـانيده، ثـم يقـول هـذا القول، الذي هو عنوان لأهل البدع، فهم كلما ألجـأتهم الحجـج إلـى المضـائق رموها بهذه الدعوى " أنها أدلة غير مقطوع بها".

فإذا كانت أحاديث الرسول –صلى الله عليه وسـلم- مـع ثبـوت أسـانيدها غير مقطوع بها، فما هي الحجج المقطوع بها في نظر هؤلاء؟ هل هي أقــوال أقوام متهمين على الدين الإسلامي، وتحوم حولهم شكوك كثيرة؟ كالجعد بن درهم، وجهم بن صفوان، وبشر المريسي، وأحمد بن أبي دؤاد، وابـن الثلجـي ونحوهم، فإن هؤلاء هم سلف متأخري الأشعرية في تأويلاتهم.

وإننا نربأ بالخطابي أن يسلك هذا المسلك المنحرف عن الهدى.

وهذا دليل على ضعف مسلك التأويل في هذه النصوص، وأنه غير مقنع.

ص 273

ثم هو يقصد بقوله: غير مقطوع به، عدم التواتر؛ لأنه لا يقبل من الحديث في باب الصفات إلا ما كان في القـرآن، أو تـواتر عـن الرسـول –صـلى اللـه عليه وسلم- كما ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام ابن تيميـة، وقـد علـم أن القـرآن جاء بصفة اليدين لله صراحة

ومعلوم أن الصـحابة ومـن سـلك نهجهـم لـم يفرقـوا بيـن أصـول الـدين وفروعه في الثبوت، ومعظم الدين الإسلامي ثبت بأخبار الآحاد

وهذه الصفات التي ينكرها هؤلاء، قد ثبتت في أحـاديث مقطـوع بصـحتها عند أهل العلم، وإذا صح الحديث وجب قبوله، والعمـل بـه، والإيمـان بمـا دل عليه، وحرمت مخالفته

ولا فرق بين كونها في العمليات، أو الاعتقادات، خلافاً لأهل البـدع الـذين يفرقون بين ذلك

ومعلوم أن الذي جاء بهذه النصوص – في الصفات – هو الذي جاء بـالأمر بعبادة الله، وتحريم الشرك، وبيان عدد ركعـات الصـلوات الخمـس، وأنصـباء

---

[779]() الآية 75 من سورة ص.

[780]() الآية 67 من سورة الزمر .

[781]() الآية 64 من سورة المائدة .

الزكاة، وبيان واجبات كثيرة، ومحرمات كثيرة، لم يأت تفصيلها في القرآن، ولا في أخبار متواترة، فلماذا يقبل هذا، ويرد ذاك؟ إن هذا التفريق فعل الذين جعلوا دينهم شيعاً، وآمنوا ببعض، وكفروا ببعض، وقد تقدم ما فيه كفاية لمن قصده الحق من ذكر النصوص في هذه المسألة، وغيرها من مسائل الصفات نظيرها، وقد يكون أوضح منها دليلاً كما سيأتي بعض ذلك

وقوله: " وقد تقرر أن اليد ليست بجارحة، حتى يتوهم من ثبوتها ثبوت الأصابع" حقيقة هذا الكلام: أن اليد ليست يداً، حتى يلزم ثبوت الأصابع، ومعلوم أن الله –تعالى- خاطبنا باللغة العربية، وبألفاظ معلومة المعاني للمخاطبين، فالمخاطبون بهذه النصوص، علموا أن المراد بها ما دلت عليه بظاهرها

وكذلك المخاطب أراد منهم ذلك، ولهذا لم يأت عنه –صلى الله عليه وسلم- ولا من طريق ضعيف، أنه قال: لا تعتقدوا ظاهرها، ولا سيما وظاهرها عند الخطابي وفريقه كفر وتشبيه فهل يعقل أن الله ورسوله يخاطبان العباد بما ظاهره الكفر، ثم لا يبين ذلك لهم، ويحذرهم من اعتقاده؟ ولو كان لهذه النصوص معنى عند رسول الله غير ظاهرها لبينه؛ لأنه واجب عليه بمقتضى الرسالة

ص 274

والصحابة سمعوا هذه النصوص، ورووها، ولم يسألوا عن معان لها غير ظاهرها، فلما سكتوا دل ذلك على أنهم علموا أن المراد بها هو الظاهر، فوجب علينا أن نسكت حيث سكتوا، وأن نقبل ونسلم كما قبلوا وسلموا لها بدون تأويل ونحن نسأل هؤلاء: مَنْ مِنَ المسلمين الذين يعتد بقولهم، قال: إن يد الله جارحة؟ وهل جاء ذلك، ولو بحديث ضعيف؟ إن هذا لا وجود له، ولكنها الأوهام، والإتجاهات الفاسدة، وإرادة التشنيع على أتباع الرسل

ونحن – بحمد الله وله المنة – وكل من تلقى عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بالقبول والتسليم، وفهم المراد – نعتقد مطمئنين أن لله يدين حقيقتين لهما أصابع يضع عليها السموات والأرض وما شاء يوم القيامة، وإن زعمت أنوف الأشعرية، وإمامنا في ذلك رسولنا محمد بن عبد الله – صلوات الله وسلامه عليه – وأصحابه، وأتباعه إلى يوم القيامة، وهو معلم الخير والهدى

قال الإمام أحمد: " الحديث عندنا على ظاهره، كما جاء عن النبي –صلى الله عليه وسلم- والكلام فيه بدعة، ولكن نؤمن به كما جاء على ظاهره"[782]

---

[782]() "طبقات الحنابلة" (1/242)

ويقصد بالكلام فيه: التأويل الذي يخرجه عن ظاهره وقال البربهاري[783]: " إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار، ولا يقبلها، أو ينكر شيئاً من أخبار رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فاتهمه على الإسلام، لأنا إنما عرفنا الله ورسوله، وعرفنا القرآن، والخير والشر، بالآثار"[784]

وقال: " واعلم أنها لم تكن زندقة، ولا كفر، ولا شكوك، ولا بدعة، ولا ضلالة، ولا حيرة في الدين، إلا من الكلام وأهل الكلام، والجدل، والمراء، ص 275

والخصومة وكيف يجترئ الرجل على المراء، والخصومة، والجدال، والله يقول: { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا } [785]"

وقال أيضاً: " واعلم إنما جاء هلاك الجهمية، من أنهم فكروا في الرب – عز وجل – فأدخلوا: لم، وكيف، وتركوا الأثر، ووضعوا القياس، وقاسوا الدين على رأيهم، فجاؤوا بالكفر عيانا، لا يخفى أنهم كفروا، وكفروا الخلق، واضطرهم الأمر إلى أن قالوا بالتعطيل"[786]

وقال: " إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار، أو يردها، ويريد غيرها، فاتهمه على الإسلام، ولا تشك أنه صاحب هوى مبتدع"[787] وقال القاضي، أبو الحسين محمد بن أبي يعلي: "قرأت على المبارك، عن علي بن عمر البرمكي، قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله المالكي، حدثنا أبي، حدثنا محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن يعقوب ابن زوران – لفظاً – حدثنا أبو العباس أحمد بن جعفر بن يعقوب بن عبدالله الفارسي، الاصطخري، قال: قال أبو عبدالله، أحمد بن محمد بن حنبل – وذكر العقيدة إلى أن قال – "وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء، ويوعيها ما أراد، وخلق آدم بيده، على صورته، والسموات والأرض يوم القيامة في كفه، ويضع قدمه في النار، فتنزوي" وذكر عقيدة طويلة جامعة[788].

وقال الحسن بن علي بن خلف البربهاري: " وكل ما سمعت من الآثار شيئاً لم يبلغه عقلك، نحو قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: " قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن" وقوله: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا، وينزل يوم عرفة، وينزل يوم القيامة، وأن جهنم لا يزال يطرح فيها، حتى يضع عليها قدمه، وقوله للعبد: إن مشيت إليَّ هرولت إليك، وقوله: خلق الله آدم

---

[783]() هو شيخ الحنابلة في وقته الحسن بن علي بن خلف ، كان شديد الإنكار على أهل البدع ، وكان حافظاً ثقة ، وأصولياً متقناً ، له تصانيف كثيرة مفقودة ، توفي سنة 329 "شذرات الذهب" (2/319)

[784]() "طبقات الحنابلة" (2/25)

[785]() المرجع المذكور (ص 27)

[786]() المرجع المذكور (ص 30)

[787]() المرجع المذكور (ص 36)

[788]() "طبقات الحنابلة" (1/24-29)

على صورته، وقول الرسول –صلى الله عليه وسلم-:" رأيت ربي في أحسن صورة"[789]، وأشباه هذه الأحاديث، فعليك بالتسليم،

ص 276

والتصديق، والتفويض[790] والرضا، ولا تفسر شيئاً من هذه بهواك[791]، فإن الإيمان بهذا واجب، فمن فسر شيئاً من هذا بهواه، أو رده، فهو جهمي"[792].

وهذا الذي ذكره الإمام أحمد، والبربهاري، هو مذهب السلف، الذين تلقوا عن الرسول –صلى الله عليه وسلم- ولم يزل السلف يوصي بعضهم بعضاً بالتمسك به، والتحذير ممن يخالفه؛ لأنه الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة.

وقوله: " بل هو توقيف أطلقه الشارع، فلا يكيف، ولا يشبه "، يعني أن لفظ اليد الثابت بكتاب الله، وبالسنة، توقيف أطلقه الشارع، فلا يوقف له على معنى، فهو – عنده- لا يدل على ما وضعت له كلمة "يد" في اللغة، ومضمون ذلك أن آيات الصفات وأحاديثها لا يعلم لها معان تطابق ألفاظها، وتؤخذ منها، ويلزم على هذا أن الشارع خاطب الناس بما ظاهره غير مقصود، ولا مطلوب منهم الإيمان بظاهره، بل قد يكون ظاهره باطلاً وكفراً، فمعنى قوله: " لا يكيف، ولا يشبه" أي: لا يثبت لها معنى مطابقاً للفظها في وضع اللغة، فلا يوصف الله –تعالى- باليد الحقيقية التي أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله –صلى الله عليه وسلم-؛ لأن هذا تشبيه، فهذه النصوص في هذا الباب ونحوه فيها تشبيه لله –تعالى- عند هؤلاء، ولهذا صار تأويلها متعيناً.

فضاعت النصوص التي تعرف الله بها إلى عباده بين مردود[793] ومؤول.

وقوله: " ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهودي"، جوابه: أنه قد تقدم من ذكر بعض النصوص التي تبطل هذا الهراء، والقول الجائر، أن الخطابي – عفا الله عنا وعنه – بهذا القول إنما يشنع في الحقيقة على رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، والله المستعان.

ص 277

وقوله: " فإن اليهود مشبهة، وفيما يدعونه من التوراة ألفاظ تدخل في باب التشبيه، ولا تدخل في مذاهب المسلمين "، ونحن لا نبرئ اليهود من

---

[789]() هذه رؤية منام كما هو مصرح به في الرواية .

[790]() المقصود بالتفويض: تفويض الحقيقة ، والكيف ، فهو يوكل إلى الله -تعالى- فإن الخلق لا علم لهم بذلك.

[791]() مراده التفسير : التأويل ، وتعيين معنى لا يدل عليه اللفظ إلا بتكلف أو بغرابة.

[792]()"طبقات الحنابلة" (2/23).

[793]() القاعدة عند الخطابي : أن الأحاديث الموافقة للقرآن ، أو المتواترة ، هي التي تقبل في الصفات ، أما ما عدا ذلك ، فإنه لا يثبت به صفة لله -تعالى- ، وهذه القاعدة أخذت من كلامه ، كما سبق قوله في الأصابع إنه لم يثبت فيه حديث.

الباطل، ولكن نقول: إن الحق يجب أن يقبل ممن قاله، سواء كان من اليهود أو من غيرهم.

وهو لم يبين هذه الألفاظ التي تدخل في باب التشبيه على حد قوله.

ولكن نعلم من طريقته أن كل من أثبت لله من الصفات ما ينكره هو ومن سلك نهجه، أنهم يسمونه مشبهاً، ولو كان متمسكاً بالكتاب والسنة، فعنده من أثبت لله يداً حقيقية فهو مشبه، وكذلك الوجه، والرجل، والأصابع، والعينين، ونحو ذلك. وقوله: " وأما ضحكه –صلى الله عليه وسلم- من قول الحبر، فيحتمل الرضا، والإنكار".

فجوابه: أن الحق الذي لا نشك فيه أنه لا يحتمل إلا الرضا، والموافقة؛ لأن الرسول –صلى الله عليه وسلم- لا يضحك من الباطل والكفر الذي هو تشبيه رب العالمين بالخلق، كما هو مقتضى مذهب الخطابي.

ومقتضى الإيمان بالرسول –صلى الله عليه وسلم- يمنع من أن يكون ضحكه من أجل التشبيه الذي يقوله اليهودي – كما زعم الخطابي – عفا الله عنا وعنه -.

إن ما يقوله هؤلاء في الحقيقة قلب للحقائق، حتى تسلم عقيدة الأشعرية من معاول النصوص، التي تأتي على أسسها بالاقتلاع[794]، ولو استطاع كثير منهم الرد على الله ورسوله لفعلوا، ولكن كما يقول الله -تعالى-: { بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ } [795]

و أما قوله: " وأما قول الراوي: " تصديقاً له، فظن وحسبان" يعني: أن عبدالله بن مسعود ظن ظناً أخطأ الحق، وأبعد عن الصواب، حيث خالف عقيدة أهل الكلام، فيرد قوله.

ونحن نقول: أيهما أولى عند الله، وعند المؤمنين، بالفهم عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: صحابته الذين عايشوه، وتربوا بين يديه، ونقلوا لنا ديننا عنه، أم الخطابي وذووه؟

ص 278

ولو سلم ذلك لأمكن كل مبطل أن يقول في أي نص جاء عن الرسول – صلى الله عليه وسلم- وصحابته كقولك هذا: إنه ظن وحسبان، وأن الصواب خلافه، فتبطل الشريعة كلها. تقدم ذكر الآيات الدالة صراحة على وصف الله -تعالى- باليدين.

---

[794]() قال ابن خزيمة :" وقد أجل الله قدر نبيه ، عن أن يوصف الباري بحضرته بما ليس من صفاته ، فيسمعه فيضحك عنده ، ويجعل بدل وجوب النكير والغضب على المتكلم به ضحكاً حتى تبدو نواجذه ؛ وتعجباً لقائله، لا يصف النبي –صلى الله عليه وسلم- بهذه الصفة مؤمن مصدق برسالته" كتاب "التوحيد" (ص 76).

[795]() الآية 18 من سورة الأنبياء.

قال أبو سعيد الدارمي – رحمه الله -: " حدثنا أحمد بن يونس، عن فضيل بن عياض، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبدالله، أنه قال: " ضحك من قول الحبر، تعجباً لما قال، وتصديقاً له"[796].

"وقد تواتر في السنة مجيء اليد – وصفاً - لله-تعالى- فعلم من ذلك أن لله -تعالى- يدين مختصتين به، ذاتيتين له، كما يليق بجلاله، وأنه -تعالى- خلق آدم بيده دون الملائكة وإبليس، وأنه – سبحانه – يقبض الأرض، ويطوي السموات بيده اليمنى، وأن {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [797].

ومعنى بسطهما: بذل الجود، وسعة العطاء، لأن العطاء والجود في الغالب يكون ببسط اليد ومدها.

فإذا قيل: هو مبسوط اليد، فهم منه يد حقيقة، وكان ظاهره الجود والبذل.

وقد اعتمد أهل التأويل، في تأويلهم اليد، أنها النعمة والعطية، تسمية للشيء باسم سببه، كما يسمى المطر والنبات: سماء، ومن ذلك قولهم: لفلان عندي أياد، وقول أبي طالب لما فقد النبي –صلى الله عليه وسلم-:

يا رب رد راكبي محمداً رده عليَّ واصطنع عندي يداً

وقول عروة بن مسعود لأبي بكر يوم الحديبية: لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

وقد تكون اليد بمعنى القدرة، تسمية للشيء باسم مسببه، لأن القدرة هي تحرك اليد، يقال: فلان له يد في كذا وكذا، أي له قدرة، ومنه قول زياد لمعاوية: " إني قد أمسكت العراق بإحدى يدي، والأخرى فارغة " يريد نصف قدرته. وقد يضاف الفعل إلى اليد إضافته إلى الشخص نفسه؛ لأن غالب الأفعال تكون بها، فصار ذكر اليد إشارة إلى أنه فعل بنفسه، كما قال – تعالى-: { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ } [798].

ص 279

وتقول العرب: " يداك أوكتا، وفوك نفخ" توبيخاً لكل من جر إلى نفسه شراً، لأن أول من قيل له ذلك، فعل بيديه وفمه.

ولذلك قالوا في مثل قوله -تعالى-: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} أي: نعمته في الدنيا الآخرة، واللفظ كناية عن نفس الجود، من غير أن يكون هناك يد حقيقة، بل هذه اللفظة صارت حقيقة في العطاء والجود.

وقالوا في قوله -تعالى-: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [799]أي: خلقته أنا، وليس هناك يد حقيقية، ونحو هذه التأويلات.

---

[796]() الرد على بشر المريسي (ص 418) "عقائد السلف" ، ورواه ابن خزيمة في "التوحيد" (2/182).

[797]() الآية 64 من سورة المائدة .

[798]() الآية 182 من سورة آل عمران .

[799]() الآية 75 من سورة ص.

والجواب: أننا لا ننكر لغة العرب التي نزل بها القرآن، وأن ما ذكر معروف في اللغة، ولكن ننكر تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في أسماء الله وصفاته.

فإن لفظ "اليدين" بصيغة التثنية، لم يستعمل في النعمة، ولا في القدرة؛ لأن من لغة العرب استعمال الواحد في الجمع، كقوله –تعالى-: { إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ } [800].

ولفظ الجمع في الواحد كقوله -تعالى-: { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ } [801]، والقائل واحد.

ولفظ الجمع في الإثنين كقوله -تعالى-: { فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } [802].

أما استعمال لفظ الواحد في الإثنين، والاثنين في الواحد، فلا أصل له في اللغة؛ لأن هذه الألفاظ عدد، وهي نصوص في معناها، لا يتجوز بها، فلا يجوز أن تقول: عندي رجل، وأنت تريد اثنين، ولا عندي رجلان، وأنت تريد واحداً، ولا عندي رجلان، وأنت تريد الجنس؛ لأن اسم الواحد يدل على الجنس، والجنس فيه شياع، وكذلك اسم الجمع فيه معنى الجنس، والجنس يحصل بحصول الواحد.

فقوله -تعالى-: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} لا يجوز أن يراد به القدرة؛ لأن القدرة صفة واحدة، ولا يجوز أن يعبر بالاثنين عن الواحد.

ص 280

ولا يجوز أن يراد به النعمة؛ لأن نعم الله لا تحصى، فلا يجوز أن يعبر عن النعم التي لا تحصى بصيغة التثنية.

ولا يجوز أن يكون كما قالوا: لما خلقت أنا؛ لأن العرب إذا أرادوا ذلك أضافوا الفعل إلى اليد، فتكون إضافته إلى اليد إضافة له إلى الفاعل.

كقوله: { بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ } [803]، { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ } [804]، ومن هذا قوله -تعالى-: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ } [805].

أما إذا أضيف الفعل إلى الفاعل، وعدى الفعل إلى اليد بحرف الجر كقوله -تعالى-: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} فإنه يكون نصاً في أنه فعل ذلك بيديه.

ولهذا لا يجوز لمن تكلم، أو مشى، أن يقول: فعلت ذلك بيدي، ولكن يقال: فعلته يداك؛ لأن مجرد قوله: " فعلت" كاف في الإضافة إلى الفاعل، فلو لم يرد أنه فعله باليد حقيقة كان قوله: {بيدي} زيادة لا فائدة فيها، ولا

---

[800] () الآية 2 من سورة العصر .
[801] () الآية 173 من سورة آل عمران .
[802] () الآية 4 من سورة التحريم.
[803] () الآية 10 من سورة الحج .
[804] () الآية 182 من سورة آل عمران .
[805] () الآية 71 من سورة يس.

تجد في كلام العرب أن فصيحاً يقول: فعلت هـذا بيـدي، إلا وأنـه فعلـه بيـديه حقيقة، ولا يجوز أن يقول ذلك وهو ليس له يد"[806].

و أما تعليله لإنكاره إثبات اليد لله -تعالى- والأصـابع، بـأن اليـد المتعـارف عليها هي الجارحة، وذلك ممتنع على الله -تعالى-.

فالجواب: أن هذا ممتنع لو كانت اليد التي أثبتهـا اللـه لنفسـه مـن جنـس أيدي المخلوقين، أما إذا كانت يداً تناسب ذاته وتليق بعظمته، فما هـو المـانع من ذلك في العقل والشرع؟ وما هو الموجب لتلك التمحلات؟

وكل ما يـذكر أهـل التأويـل إنمـا يـدل علـى امتنـاع وصـفه –تعـالى- بمـا يستحقه المخلوق، وخصائص المخلوقين منفية عنه –تعـالى-، وكـل مـا أثبـت لله –تعالى- من الصفات فهي كمال، وفقدها نقص –تعالى- عنه.

ص 281

ثم هل يجوز مع كثرة ما في كتاب الله، وسنة رسوله، من ذكـر اليـد، دالاً على الحقيقة، مثل ذكر خلق آدم بيديه، وأنهما مبسوطتان، وأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، وأن السموات مطويـات بيمينـه، وأن بيـده الملـك، وفـي السنة ما لا يحصى إلا بمشقة، مثل ذكر الأصابع، والقبض، والبسط، واليميـن، والشمال، وأن يديه كلتاهما يمين، ثم لا يبين الرسول –صلى الله عليه وسلم- أن هذا غير مراد منه الظاهر والحقيقة، مع حضه لنا على الفهـم؟ وهـل يجـوز أن يفهم صحابته والتابعون لهم من هذه النصوص غير الحق المـراد منهـا، ولا يعرف الحق فيها إلا جهم بن صفوان – بعد انقراض عهد الصحابة – وبشر بـن غياث- وأشباههما ممن هو مغموص عليه في النفاق؟ مع أن الرسول –صـلى الله عليه وسلم- قد علم أمته كيف يقضون الحاجة، وكيف يأكلون ويشربون، وينامون، ويدخلون بيوتهم ويخرجون، حتى أنزل الله –تعالى- عليه في آخر ما أنزل: { الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَـرُواْ مِـن دِينِكُـمْ فَلاَ تَخْشَـوْهُمْ وَاخْشَـوْنِ الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} [807]، والرسول –صـلى اللـه عليـه وسلم- يقول:" تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك"[808].

هل يجوز – مع هذا كله وغيـره – أن يـترك الكتـاب المنـزل عليـه، وسـنته الغراء، مملوءان بمـا يزعـم أهـل التأويـل أن ظـاهره تشـبيه وتجسـيم، ومـن اعتقد ظاهره – بزعمهم- فهو ضال مشبه للـه ومجسـم، ثـم لا يـبين ذلـك ولا يوضحه، بل يكثر من ذكر مـا يؤيـد الظـاهر بكـل صـراحة؟ إنـه لا يعتقـد ذلـك ويقوله إلا ضال في دينه لم يعـرف مـا أنـزل اللـه علـى رسـوله، ولـم يعـرف الرسول حق المعرفة.

---

[806] () "مجموع الفتاوى" (6/363-366).

[807] () الآية 3 من سورة المائدة .

[808] () تقدم تخريجه.

قال ابن القيم: " واطراد لفظ اليد في موارد استعمالها، وتنوع ذلك، يوجب أن تكون اليد حقيقة، كقوله -تعالى-: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [809]، { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } [810]، { وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } [811].

ص 282

فلو كان المراد: القدرة، أو النعمة، لم يستعمل منه لفظ "يمين"، كما في الحديث "المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين"[812]، فلا يصح أن تكون يد القدرة، والنعمة، وقوله: " يقبض الله سماوات بيده، والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك"[813]فالهز والقبض، وذكر اليدين، يمنع ذلك.

ولما ذكر ذلك رسول الله –صلى الله عليه وسلم- جعل يقبض يديه ويبسطهما، تحقيقاً للصفة، لا تشبيهاً لها، كما أنه –صلى الله عليه وسلم- لما قرأ قوله -تعالى-: {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [814]وضع إصبعه على عينه والأخرى على أذنه؛ تحقيقاً لصفة السمع والبصر.

وقوله –صلى الله عليه وسلم-: " لما خلق الله آدم قبض بيديه، وقال: اختر، فقال: اخترت يمين ربي، وكلتا يديه يمين ففتحها، فإذا فيها أهل اليمين من ذريته"[815].

وقوله –صلى الله عليه وسلم-: " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل"[816]اهـ.

وقد تقدمت الإشارة إلى بعض النصوص في ذلك.

فاقتران الطي والقبض، والإمساك باليد، جعل تأويلها بالقدرة والنعمة تحريفاً باطلاً.

قال الإمام ابن خزيمة: " نحن نقول: الله – جل وعلا- له يدان، كما أعلمنا الباري في محكم تنزيله، وعلى لسان نبيه المصطفي –صلى الله عليه وسلم- ونقول: كلتا يدي ربنا يمين، على ما أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم- ونقول: إن الله – عز وجل – يقبض الأرض بإحدى يديه، ويطوي السماء بيده الأخرى "[817].

ص 283

---

[809]() الآية 75 من سورة ص.
[810]() الآية 64 من سورة المائدة .
[811]() الآية 67 من سورة الزمر .
[812]() تقدم تخريجه.
[813]() تقدم تخريجه.
[814]() الآية 134 من سورة النساء.
[815]() مضى تخريجه.
[816]() "مختصر الصواعق" (ص 337).
[817]()كتاب "التوحيد" (ص 83).

فمن أثبت لله -تعالى- يدين، وأثبت لهما أصابع، على ما جاء في النصوص الصحيحة، لا يكون مشبهاً، بل يكون متبعاً لكتاب الله وسنة رسوله، مطيعاً لله ورسوله في ذلك؛ لأنه أثبت لله ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله –صلى الله عليه وسلم-.

والله -تعالى- ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أوصافه؛ لأن الوصف تابع للموصوف.

وقال البغوي: " الإصبع المذكورة في الحديث صفة، من صفات الله – عز وجل – وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل، في صفات الله -تعالى-، كالنفس، والوجه، والعين، واليد والرجل، والإتيان، والمجيء، والنزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والضحك، والفرح.

قال الله -تعالى- لموسى: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} [818]، وقال – عز وجل – {ولتصنع على عيني} [819]، وقال – سبحانه وتعالى -: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} [820]، وقال – عز وجل -: {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} [821]، وقال تعالى: {بل يداه مبسوطتان} [822]، وقال – جل وعلا-: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [823]، وقال -تعالى-: { وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } [824]، وقال -تعالى-: {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام} [825]، وقال – سبحانه وتعالى -: {وجاء ربك والملك صفا صفاً} [826]، وقال –

ص 284

تعالى -: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [827]، وقال -تعالى-: { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ } [828].

وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: " ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر"[829]، وروى أنس، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: " لا تزال جهنم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه"، وفي رواية أبي هريرة: " حتى يضع الله

---

[818]() الآية 41 من سورة طه.
[819]() الآية 39 من سورة طه.
[820]() الآية 88 من سورة القصص.
[821]() الآية 27 من سورة الرحمن .
[822]() الآية 64 من سورة المائدة .
[823]() الآية 75 من سورة ص.
[824]() الآية 67 من سورة الزمر.
[825]() الآية 210 من سورة البقرة .
[826]() الآية 22 من سورة الفجر .
[827]() الآية 5 من سورة طه.
[828]() الآية 59 من سورة الفرقان.
[829]() سيأتي شرحه ، إن شاء الله .

رجله"[830]، وفي حديث أبي هريرة في آخر من يخرج من النار "فيضحك الله منه، ثم يأذن له في دخول الجنة"[831]، وفي حديث جابر: " فيتجلى لهم يضحك"[832]، وفي حديث أنس وغيره: " لله أفرح بتوبة عبده، من أحدكم يسقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة"[833].

فهذه ونظائرها صفات لله -تعالى-، ورد بها السمع، يجب الإيمان بها، وإمرارها على ظاهرها، معرضاً فيها عن التأويل، مجتنباً التشبيه، معتقداً أن الباري – سبحانه وتعالى- لا يشبه شيء من صفاته صفات خلقه، كما لا تشبه ذاته ذوات خلقه، قال -تعالى-: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}[834].

وعلى هذا مضى سلف الأمة، وعلماء السنة، تلقوها جميعاً بالإيمان والقبول، وتجنبوا فيها التمثيل والتأويل، ووكلوا العلم فيها إلى الله – عز وجل -.

قال سفيان بن عيينة: " كل ما وصف الله -تعالى- به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته، والسكوت عليه، ليس لأحد أن يفسره إلا الله -تعالى- ورسوله ".

وقال الزهري: " على الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم".

ص 285

وقال بعض السلف: " قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم"[835].

ومراده بقوله: " ووكلوا العلم فيها إلى الله " علم الكيفية، وأما ما يفهم منها في الوضع اللغوي في ظاهر ومعلوم، وكذا ما ذكره عن سفيان أنها لا تفسر، أي تؤول وتطلب معرفة كيفيتها.

وهذا كثير في أقوال العلماء والسلف من أهل السنة.

وقال ابن القيم: "ورد لفظ اليد في القرآن، والسنة، وكلام الصحابة والتابعين، في أكثر من مائة موضع، وروداً متنوعاً، متصرفاً فيه، مقروناً بما يدل على أنها يد حقيقة، من الإمساك، والطي، والقبض، والبسط، والمصافحة، والحثيات، والنضح باليد، والخلق باليدين، والمباشرة بهما، وكتب التوارة بيده، وغرس جنة عدن بيده، وتخمير طينة آدم بيده، ووقوف العبد بين يديه، وكون المقسطين عن يمينه، وقيام رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يوم القيامة عن يمينه، وتخيير آدم بين ما في يديه، فقال: " اخترت

---

[830] () تقدم ، وهو في "مسلم" رقم (2848).
[831] () متفق عليه ، وسيأتي ، إن شاء الله .
[832] () رواه مسلم في " الإيمان " رقم (191).
[833] () انظره في "مسلم" (4/2104) رقم (2747).
[834] () الآية 11 من سورة الشورى.
[835] () "شرح السنة " (1/168-171).

يمين ربي"، وأخذ الصدقة بيمينه، يربيها لصاحبها، وكتابته بيده على نفسه: أن رحمته تغلب غضبه، وأنه مسح ظهر آدم بيده، ثم قال له – ويداه مقبوضتان – "اختر"، فقال: " اخترت يمين ربي"، وكلتا يديه يمين مباركة، وأن يمينه ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، وبيده الأخرى القسط، يرفع ويخفض، وأنه خلق آدم من قبضه قبضها من جميع الأرض، وأنه يطوي السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يطوى الأرض باليد الأخرى، وأنه خط الألواح التي كتبها لموسى بيده"[836].

[836]() "مختصر الصواعق" (ص 348).

ص 286
قال: " باب قول النبي –صلى اللـه عليـه وسـلم-: " لا شـخص أغيـر مـن الله".
وقال عبيد الله بن عمرو بن عبد الملك: لا شخص أغير من الله.
الغيرة – بفتح الغين – وإسكان الياء – وهي في اللغة مـأخوذة مـن التغيـر الحاصل من الأنفة، والحمية.
والشخص: هو ما شخص وبان عن غيره.
ومقصد البخاري أن هذين الاسمين يخبر بهما عن الله -تعالى- وصفاً لــه؛ لأن الرسول –صلى الله عليه وسلم- أثبتهما للـه، وهـو أعلـم الخلـق بـالله – تعالى-.
قال النووي: " قال العلماء: الغيرة بفتح الغيـن، وأصـلها المنـع، والرجـل غيور على أهله، أي: يمنعهم مـن التعلـق بـأجنبي بنظـر، أو حـديث، أو غيـره، والغيرة صفة كمال "[837].
قال الحافظ: " وقد فسر الرسول – صلى اللـه عليـه وسـلم- غيـرة اللـه في قوله: " إن الله يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله "[838].
ومعناه: أن الله يغار إذا انتهكت محارمه، وليس انتهاك المحارم هو غيـرة الله؛ لأن انتهاك المحارم فعـل العبـد، ووقـوع ذلـك مـن المـؤمن أعظـم مـن وقوعه من غيره.
وغيرة الله -تعالى- من جنس صفاته التي يختص بها، فهي ليست مماثلــة لغيرة المخلوق، بل هي صفة تليق بعظمته، مثل الغضب، والرضا، ونحو ذلــك من خصائصه التي لا يشاركه الخلق فيها.
وقد تقرر أنه -تعالى- ليس كمثله شـيء فـي ذاتـه، فكـذلك فـي صـفاته، وأفعاله، ولكن لابد من الاشتراك في ألفـاظ الأسـماء الـتي تضـاف إلـى اللـه صفات له، وبين ألفاظ الأسماء التي يوصف بها العباد؛ لأنه لا يمكن معرفة مـا غاب عنا إلا بمعرفة ما شهدناه، فنعتبر بعقولنا الغائب بالشاهد.
ص 287
فلولا أنا نجد من أنفسنا جوعاً، وعطشاً، وشبعاً، ورياً، وحباً، وبغضاً، ولذةً، وألماً، ورضاً، وسخطاً، لم نعرف حقيقة ما نخاطب به إذا وصف لنا وأخبرنا به عن غيرنا.
ولو لم نعلم ما في المشاهد مـن الحيـاة، والقـدرة، والعلـم، والكلام، لـم نفهم ما نخاطب به من ذلك في الغائب.
فلا بد فيما شهدناه، وما غاب عنا، من قدر مشترك، هو مسمى اللفظ.

---

[837] () "شرح مسلم " (10/132).
[838] () "الفتح" (9/319).

وقد أخبرنا عن نعيم الآخرة، وعذابها مما يؤكل، ويشرب، ويفرح، ويحزن، وينعم، ويؤلم، فلولا معرفتنا بما يشبه ذلك في الدنيا، لم نفهم ما وعدنا به من ذلك، مع علمنا أن حقائق ما في الآخرة ليست كحقائق ما في الدنيا، كما قال ابن عباس في تفسير قوله -تعالى-: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً}: " ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء "[839]، ولكن بين ما في الدنيا، وما في الآخرة، مشابهة واشتراك من بعض الوجوه. وبذلك نفهم المراد، فنحب النعيم، ونرغب فيه، ونكره المؤلم، وننفر عنه، فنعرف معنى العسل، واللبن، والحرير، والذهب، ونفرق بينهما؛ لما عرفناه من نظيرها في الشاهد، وإن كانت حقائقها فيما هي عليه لا يعلمها إلا الله –تعالى-، كما قال – جل وعلا -: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [840].

فإذا كان هذا في صفات المخلوق، فكيف في صفات الخالق – جل وعز – فإنها أشد مباينة، مثال ذلك: إذا قال نفاة الصفات: النزول، والاستواء، من صفات الأجسام، فإنه لا يعقل إلا لجسم مركب، والله منزه عن ذلك.

فيقال لهم: وكذلك الحياة، والإرادة، والسمع، والبصر، والعلم، والقدرة، والكلام، هي من صفات الأجسام، فإنه لا يعقل من يسمع، ويبصر، ويريد، ويعلم، ويقدر، ويتكلم، ويكون حياً، إلا الجسم.

فإن قالوا: سمعه ليس كسمعنا، وعلمه ليس كعلمنا، وبصره ليس كبصرنا، وكذا البقية.

ص 288

قيل: فكذلك نزوله، واستواؤه، وغضبه، وفرحه، وحبه، وغيرته، وسائر صفاته، والذين يؤولون النصوص في ذلك، مخالفون لها، ومتناقضون.

قوله: " وقال عبيد الله بن عمرو، عن عبد الملك:" لا شخص أغير من الله" قال الحافظ: " يعني أن عبيد الله بن عمرو، روى الحديث المذكور، عن عبد الملك، بالسند المذكور فقال: " لا شخص" بدل كلمة " لا أحد" وقد وصله الدارمي، ثم ذكر سنده، وساقه أبو عوانة – يعقوب الإسفرائيني – في "صحيحه" عن محمد بن عيسى العطار، عن زكريا بتمامه، وقال في المواضع الثلاثة: " لا شخص".

قال الإسماعيلي – بعد أن أخرجه -: من طريق عبيد الله بن عمرو القواريري، وأبي كامل – فضيل بن حسين الجحدري – ومحمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، ثلاثتهم عن أبي عوانة – الوضاح البصري – بالسند الذي أخرجه {به} البخاري، ولكن قال في المواضع الثلاثة: " لا شخص" بدل " لا أحد".

---

[839]() رواه ابن جرير في "تفسيره" انظر (1/393-394) بتحقيق : محمود شاكر .

[840]() الآية 17 من سورة السجدة.

ثم ساقه من طريق زائدة بن قدامة عن عبد الملك كذلك.
فكأن هذه اللفظة لم تقع في رواية البخاري في حديث أبي عوانة، عن عبد الملك، فلذلك علقها عن عبيد الله بن عمرو.
قلت: وقد أخرجه مسلم، عن القواريري، وأبى كامل، كذلك" ا.هـ[841].
ولفظ مسلم، بعد ذكر السند: " قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح عنه، فبلغ ذلك رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فقال: " أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير منه، والله أغير مني، من أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شخص أغير من الله، ولا شخص أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين، ولا شخص أحب إليه المدحة من الله، من أجل ذلك وعد الله الجنة"[842].
ورواه الإمام أحمد في "المسند" بهذا اللفظ[843]، قال عبدالله ابن الإمام أحمد بعد ذكره، قال عبيد الله القواريري: ليس حديث أشد على الجهمية من هذا الحديث.
ص 289
وبهذا يتبين خطأ ابن بطال في قوله: " أجمعت الأمة على أن الله -تعالى- لا يجوز أن يوصف بأنه شخص، لأن التوقيف لم يرد به " ا.هـ ذكره الحافظ[844].
وهذه مجازفة ودعوى عارية من الدليل، فأين هذا الإجماع المزعوم؟ ومن قاله؟ سوى المتأثرين ببدع أهل الكلام، كالخطابي، وابن فورك، وابن بطال- عفا الله عنا وعنهم-
وقوله: " لأن التوقيف لم يرد به " يبطله ما تقدم من ذكر ثبوت هذا اللفظ عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بطرق صحيحة لا مطعن فيها.
و إذا صح الحديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- وجب العمل به، والقول بموجبه سواء كان في مسائل الاعتقاد، أو في العمليات، وقد صح عنه –صلى الله عليه وسلم- إطلاق هذا الاسم – أعني الشخص – على الله -تعالى- خبراً، فيجب اتباعه في ذلك على من يؤمن بأنه رسول الله، وهو – صلى الله عليه وسلم- أعلم بربه وبما يجب له وما يمتنع عليه -تعالى- من غيره من سائر البشر.
وتقدم أن الشخص في اللغة: ما شخص، وارتفع، وظهر.

---

[841]() "الفتح" (13/400).
[842]() "صحيح مسلم " (2/1136) رقم (1499).
[843]() "المسند" (4/248) ورواه الدارمي في "سننه" (2/73)
[844]() انظر : " الفتح" (13/400).

قال في "اللسان": " الشخص كل جسم له ارتفاع وظهور"[845].

والله -تعالى- أظهر من كل شيء، وأعظم، وأكبر، وليس في إطلاق الشخص عليه محذور على أصل أهل السنة الذين يتقيدون بما قاله الله ورسوله.

---

[845]() انظر : " لسان العرب" (2/281) المرتب.

ص 290
45-قال: " حدثنا موسى بن إسماعيل التبوذكي، حدثنا أبـو عوانـة، حـدثنا عبد الملك، عن وراد كاتب المغيرة، عن المغيرة، قال: قال سـعد بـن عبـادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم- فقال: " تعجبون من غيرة سعد، والله لأنـا أغيـر منـه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منهـا ومـا بطـن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعـث المبشـرين والمنـذرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة ".
نكتفي بما تقدم من كلام على معنى الحـديث، ونـذكر مـوجزاً مـن الكلام مما فيه فائدة، وتقدم معنى الغيرة، وأنها صفة كمال، كمـا تقـدم أنـا لا يمكـن أن نفهم ما خوطبنا به إلا بواسطة المعلوم لنا في الشاهد المشـارك لـه فـي المعنى في الجملة، وإن كان البون شاسعاً.
قال النووي: " أخبر – صلى الله عليه وسلم- أن سعداً غيـور، وأنـه أغيـر منه، وأن الله أغير منـه، وأنـه مـن أجـل ذلـك حـرم الفـواحش، فهـذا تفسـير لمعنى غيرة اللـه –تعالــى-، أي: أنهـا منعـه – سـبحانه وتعـالى – النـاس مـن الفواحش"[846].
ققلت: ليس هذا هو غيرة الله -تعالى- ولكنه مقتضى الغيرة، كما يوضحه قوله: " ومن أجل غيـرة اللـه حـرم الفـواحش" فـبين أن تحريـم الفـواحش، والمنع منها، ليس هو الغيرة، وإنما هو من آثارها.
قوله: " لو رأيـت رجلاً مـع امرأتـي، لضـربته بالسـيف غيـر مصـفح" أي: لضربته بحد السيف لا بصفحه، يعني: لقتله بـدون توقـف، وقـد أقـره رسـول الله –صلى الله عليه وسلم- على ذلك، وأخبر أنـه أغيـر مـن سـعد، وأن اللـه أغير منه، وأما قول القرطبي وغيره: إن قوله: " ولا أحد أحب إليه العذر مـن الله " إشارة إلى الإنكار على سعد، فغير صحيح، بل مـدلول الحـديث خلافـه، ولا بد من الغيرة، والذي لا غيرة له ديوث، والديوث لا يـدخل الجنـة، كمـا فـي "سنن النسائي"[847]وغيرها.
ص 291
ولهذا قال –صلى الله عليه وسلم-: " تعجبون من غيرة سـعد، واللـه لأنـا أغير منه، والله أغير مني" الخ.
قوله: " ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش، مـا ظهـر منهـا، ومـا بطـن" أي: من أثر غيرة اللـه: منـع عبـاده مـن قربـان الفـواحش، وهـي: مـا عظـم وفحش في النفوس الزاكية والعقول السليمة مثل الزنا.

---

[846]() "شرح مسلم" (10/132).
[847]() "المجتبي" (5/80) ، رواه أحمد في "المسند" (2/134) وفي سنده عبدالله بن يسار ، روى له النسائي ، وذكره ابن حبان في "الثقات" ، وبقية رجاله ثقات مشهورون.

والظاهر: يشمل ما فعل علناً، وما باشرته الجوارح وإن كان سراً.
والباطن: يشمل ما في السر، وما انطوت عليه القلوب.
قوله: " ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين".
العذر: هو طلب العفو عن فعل سابق مع الاعتراف بالذنب والندم على وقوعه منه، ويراد به الإعذار، وهو إقامة البينات، والحجج، وإيضاح طريق الخير والشر، وكلاهما يدخل فيما ذكر، والمبشرون والمنذرون هم الرسل، وفي رواية مسلم: " بعث المرسلين مبشرين ومنذرين" وفي رواية له أيضاً: " ولذلك أنزل الكتب والرسل".
قال عياض: المعنى: بعث المرسلين للإعذار والإنذار لخلقه، قبل أخذهم بالعقوبة، وهو كقوله -تعالى-: {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [848].
قوله: " ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة" هذا لكماله المطلق، فهو -تعالى- يحب من عباده أن يثنوا عليه ويمدحوه على فضله وجوده، ومن أجل ذلك جاد عليهم بكل نعمة يتمتعون بها، ويرضى عنهم إذا حمدوه عليها.
ومهما أثنوا عليه ومدحوه لا يمكن أن يصلوا إلى ما يستحقه من المدح والثناء، ولهذا مدح نفسه كما تقدم، فوعد الجنة ليكثر سؤاله، والثناء عليه من عباده ومدحه، ويجهدوا في ذلك غاية ما يستطيعون؛ لأن الجنة هي منتهى الإنعام.
ص 292
قال: " باب {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ} [849]" " فسمى الله -تعالى- نفسه شيئاً، وسمى النبي –صلى الله عليه وسلم- القرآن شيئاً، وهو صفة من صفات الله، وقال: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} [850]".
يريد بهذا أن يطلق على الله -تعالى- أنه شيء، وكذلك صفاته، وليس معنى ذلك أن "الشيء" من أسماء الله الحسنى، ولكن يخبر عنه -تعالى- بأنه شيء، وكذا يخبر عن صفاته بأنها شيء؛ لأن كل موجود يصح أن يقال: إنه شيء.
قال الحافظ: " الشيء يساوي الموجود، لغةً، وعرفاً، وأما قولهم: فلان ليس بشيء فهو على طريق المبالغة في الذم، فلذلك وصف بصفة العدم"[851].

---

[848]() من "الفتح" (13/400).
[849]() الآية 19 من سورة الإنعام .
[850]() الآية 88 من سورة القصص.
[851]() "الفتح" (13/402).

وقال: " أي: إذا جاءت استفهامية، اقتضى الظاهر أن تسمى باسم ما تضاف إليه، فعلى هذا صح الاستدلال بها على تسمية الله -تعالى- شيئاً.
واسم الجلالة خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك الشيء هو الله.
ويصح أن يكون مبتدأ محذوف الخبر، والتقدير: الله أكبر شهادة والله أعلم "[852].
وقوله -تعالى-: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} قال الحافظ: " الاستدلال بهذه الآية للمطلوب، ينبني على أن الاستثناء متصل، فإنه يقتضي اندراج المستثنى في المستثنى منه، وهو الراجح، على أن لفظ شيء يطلق على الله –تعالى- وهو الراجح أيضاً ". [853]
قال الإمام عبدالعزيز الكناني، في محاجته لبشر المريسي، لما سأله بشر عن القرآن: أهو شيء أم ليس بشيء؟ قال: " فقلت لبشر: سألت عن القرآن، هو شيء أم غير شيء؟ فإن كنت تريد أنه شيء، إثباتاً للوجود، ونفياً للعدم، فنعم هو شيء.
ص 293
و إن كنت تريد أن الشيء اسم له، وأنه كالأشياء فلا.
فإن الله أجرى كلامه على ما أجراه على نفسه، إذ كان كلامه من ذاته، ومن صفاته، فلم يتسم بالشيء، ولم يحمل الشيء اسماً من أسمائه، ولكنه دل على نفسه أنه شيء، وأنه أكبر الأشياء، إثباتاً للوجود، ونفياً للعدم، وتكذيباً للزنادقة، ومن تقدمهم ممن جحد معرفته، وأنكر ربوبيته، من سائر الأمم، فقال لنبيه –صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [854]، فدل على نفسه أنه شيء، لا كالأشياء، وأنزل في ذلك خبراً خاصاً مفرداً، لعلمه السابق أن جهماً وبشراً، ومن قال بقولهما، سيلحدون في أسمائه وصفاته، ويشبهون على خلقه، ويدخلونه وكلامه في الأشياء المخلوقة، فقال – عز وجل-: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [855]، فأخرج نفسه وكلامه وصفاته من الأشياء المخلوقة، بهذا الخبر، تكذيباً لمن ألحد في كتابه، وافترى عليه، وشبهه بخلقه. وعدد أسماءه في كتابه، ولم يتسم بالشيء، ولم يجعل الشيء اسماً من أسمائه"[856].

---

[852]() نفس المصدر.
[853]() نفس المصدر .
[854]() الآية 19 من سورة الأنعام .
[855]() الآية 11 من سورة الشورى .
[856]() "الحيدة" (ص 24-25) مطابع القصيم.

ونقل الحافظ عن ابن بطال: " أن الآيات والآثار المذكورة في هذا البـاب ترد على من زعم أنه لا يجوز أن يطلق على الله -تعالى- أنه شيء، كما صرح به عبدالله الناشيء المتكلم[857] وغيره.

كما ترد على من زعم أن المعدوم شيء، وقد أطبق العقلاء على أن لفظ "شـيء" يقتضـي إثبـات موجـود، وعلـى أن لفـظ " لا شـيء" يقتضـي نفـي موجوده، إلا ما تقدم من إطلاقهم "ليس بشيء" في الذم"[858].

وهذا الذي ذكره الحافظ عن ابن بطال واضح، وقد تقدم ما يدل عليه.

---

[857]() هو : أبو العباس عبدالله بن محمد الناشيء الشاعر المتكلم – يعرف بابن شرشير ، أصله من الأنبار ، وأقام ببغداد مدة طويلة ، ثم خرج إلى مصر ، وتوفي بها سنة ثلاث وتسعين ومائتين . "الشذرات" (2/214).

[858]() "الفتح" (13/402-403).

ص 294

46-قال: " حدثنا عبدالله بن يوسف، أخبرنا مالك عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، قال: قال النبي –صلى الله عليه وسلم- لرجل: " أمعك من القرآن شيء؟ قال: نعم، سورة كذا، وسورة كذا – لسور سماها-".

سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلب بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة الأنصاري، من مشاهير الصحابة، ذكر ابن حبان أن اسمه حزن، فغير رسول الله –صلى الله عليه وسلم- اسمه، توفي رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وهو ابن خمس عشرة سنة وعمر طويلاً، فكان آخر من مات في المدينة من الصحابة، على أحد الأقوال، رضوان الله عليهم أجمعين، وله أحاديث كثيرة في كتب الحديث، مات سنة إحدى وتسعين من الهجرة[859].

هذا الحديث مختصر من قصة الواهبة نفسها للنبي – صلى الله عليه وسلم- لما قال له رجل من أصحابه: إن لم يكن لك بها حاجة، فزوجنيها يا رسول الله، قال له –صلى الله عليه وسلم-: " أمعك شيء تعطيها إياه؟ قال: لا، قال: التمس ولو خاتماً من حديد، فلما لم يجد، قال له: هل معك شيء من القرآن؟ - أي: هل تحفظ شيئاً منه؟ – قال: نعم سورة كذا، وسورة كذا، لسور سماها. فقال النبي –صلى الله عليه وسلم-: " زوجتكها على ما معك من القرآن" أي يكون تعليمه لها ما معه من سور القرآن صداقاً لها.

والمقصود هنا أنه أطلق الشيء على القرآن، بقوله: " أمعك شيء من القران؟" وهو صفة من صفات الله –تعالى- والصفة لها حكم الموصوف، فيصح إطلاق ذلك على الله –تعالى-.

وقد تقم في كلام عبدالعزيز الكناني " أن لفظ الشيء يطلق على القرآن إثباتاً لوجوده، وحقيقته، ونفياً لعدمه، وليس لفظ الشيء اسماً له، كما أنه يطلق على الله -تعالى- كذلك.

و أن الله أجرى كلامه على ما أجره على نفسه، إذ كان كلامه من ذاته، ومن صفاته، فلم يتسم بالشيء، ولم يجعل الشيء اسماً من أسمائه، ولكنه دل على نفسه

ص 295

أنه شيء، وأنه أكبر الأشياء، إثباتاً للوجود، ونفياً للعدم، وتكذيباً للزنادقة ومن تقدمهم، ممن جحد معرفته وأنكر ربوبيته من سائر الأمم"[860].

---

[859] () "الإصابة" (2/87) ، "الاستيعاب" (2/94).

[860] () انظر : " الحيدة" (ص 24).

ص 296

قال: " باب: { وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء } [861]، { وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } [862]".

قال الأزهري: " العرش في كلام العرب: سرير الملك يدل على ذلك سرير ملكة سبأ، سماه الله – جل وعز- عرشاً، فقال: { إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } [863].

قلت: والعرش في كلام العرب – أيضاً -: سقف البيت، وجمعه عروش، ومنه قول الله – جل وعز -: { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } [864].

قال الكسائي: { عَلَى عُرُوشِهَا } على أركانها.

وقال غيره من أهل اللغة: على سقوفها، أراد أن حيطانها قائمة، وقد تهدمت سقوفها، فصارت في قرارها، وانقعرت الحيطان من قواعدها، فتساقطت على السقوف المتهدمة قبلها"[865].

"وقال الليث: العرش: السرير للملك، والعرش، والعريش: ما يستظل به.

قال: وعرش الرجل: قوام أمره، فإذا زال قوام أمره، قيل: ثل عرشه"[866].

وقال الجوهري: " العرش: سرير الملك، وعرش البيت: سقفه، والعرش، والعريش: ما يستظل به، وعرش القدم: ما نتأ في ظهرها، وفيه الأصابع، وعرش البئر" طيها بالخشب، بعد أن يطوى أسفلها بالحجارة قدر قامة، فذلك الخشب هو العرش، والجمع عروش.

وعرش يعرش ويعرش عرشاً، أي: بنى بناء من خشب"[867].

ص 297

ويظهر مما ذكره أهل اللغة: أن العرش اسم للسرير المرتفع العظيم، الذي يجلس عليه الملك، ويطلق على السقف وعرش الرب – جل وعلا – له المعنيان فهو محل استوائه تعالى، وهو سقف المخلوقات.

قوله: { وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء } [868]قال ابن جرير: " يقول -تعالى-: وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض، وما فيهن".

---

[861]() الآية 7 من سورة هود.

[862]() الآية 129 من سورة التوبة.

[863]() الآية 23 من سورة النمل .

[864]() الآية 259 من سورة البقرة .

[865]() "تهذيب اللغة" (1/413).

[866]() المصدر نفسه (1/415).

[867]() "الصحاح" (3/1010).

[868]() الآية 7 من سورة هود.

ثم روى عن مجاهد: وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق شيئاً.

وروى بسنده عن قتادة: { وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء } ينبئكم ربكم – تبارك وتعالى- كيف كان بدء خلقه، قبل أن يخلق السموات والأرض.

ثم روى حديث أبي رزين العقيلي: " قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا، قبل أن يخلق خلقه؟ قال: " كان في عماء، ما فوقه هواء، وما تحته هواء، ثم خلق عرشه على الماء".

وفي رواية: " قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟" الخ[869].

ثم روى عن ابن عباس، أنه سئل: " وكان عرشه على الماء، على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح"[870].

وقال الترمذي: " حدثنا أحمد بن منيع، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن حدس[871]، عن عمه أبي رزين، قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا، قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عماء، ما تحته هواء،

ص 298

وما فوقه هواء، وخلق عرشه على الماء"، قال أحمد: " قال يزيد: العماء، أي ليس معه شيء"[872].

قال أبو عبيد: " العماء في كلام العرب، السحاب الأبيض"، قال الأصمعي وغيره، هو ممدود.

وقال الحارث بن حلزة اليشكري:

وكأن المنون تردي بنا أعـ ـصم ينجاب عنه العماء

يقول: هو في ارتفاعه، قد بلغ السحاب ينشف عنه، يقول: نحن في عزنا مثل الأعصم، فالمنون إذا أرادتنا، فكأنما تريد أعصم.

و إنما تأولنا هذا الحديث، على كلام العرب المعقول عنهم، ولا ندري كيف كان ذلك العماء، وما مبلغه، والله أعلم.

و أما العمى في البصر، فإنه مقصور، وليس هو من معنى الحديث في شيء " ا.هـ[873]، نقل هذا الكلام الأزهري، ثم قال: "قلت: وقد بلغني، عن أبي الهيثم- ولم يعزه لي إلى ثقة – أنه قال في تفسير هذا الحديث، ولفظه: أنه كان في عمى مقصور، قال: وكل أمر لا تدركه القلوب بالعقول، فهو عمى، والمعنى: أنه كان حيث لا تدركه عقول بنى آدم، ولا يبلغ كنهه وصف.

---

[869]() رواه الإمام أحمد في "المسند" (4/11، 12) ، والترمذي في "التفسير" من "سننه" (4/351) وقال: هذا حديث حسن ، وابن ماجه في "السنن" (1/64) رقم (182) والطبري أيضاً في "التاريخ" (1/19).

[870]() "تفسير الطبري" (15/245-249) بتحقيق محمود شاكر .

[871]() قال الترمذي : هكذا يقول حماد بن سلمة : وكيع بن حدس.

[872]() "سنن الترمذي" (4/351).

[873]() "الغريب" (2/8-9).

قلت أنا [874]: والقول عندي، ما قاله أبو عبيد، أنه العماء، ممدود، وهو السحاب، ولا يدري كيف ذلك العماء، بصفة تحصره، ولا نعت يحده، ويقوى هذا القول قول الله – جل وعز -: {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام} [875] فالغمام معروف في كلام العرب.

إلا أنا لا ندري كيف الغمام الذي يأتي الله – عز وجل – يوم القيامة في ظلل منه، فنحن نؤمن به، ولا نكيف صفته، وكذلك سائر صفات الله – عز وجل- " ا.هـ[876].

ص 299

فعلى ما ذكره يزيد بن هارون، وأقره الترمذي، يكون المعنى: ليس مع الله شيء، فيدل على أن الله -تعالى- كان، ولم يكن معه شيء، كما سيأتي في حديث عمران، - إن شاء الله تعالى -.

وعلى قول من فسر العماء بالسحاب الرقيق، ورجحه الأزهري، لا يدل على قول الفلاسفة الدهرية، بقدم العالم، وتبنى مذهبهم الماديون اليوم، وذلك أن الله –تعالى- أخبرنا في كتابه، بابتداء الخلق، وإعادته كما قال – تعالى-: {وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده} [877]، كما أخبر بخلق السماوات،و الأرض وما بينهما في ستة أيام، في مواضع كثيرة من كتابه –تعالى-[878].

وقوله: {وهو رب العرش العظيم} [879]أي: هو -تعالى- المالك للعرش، الذي هو أكبر المخلوقات، وأعظمها، وهو المتصرف فيه، وهو عرشه الذي استوى عليه، فاختاره لذلك.

فالإضافة تقتضي اختصاصاً للعرش من بين المخلوقات، فهو -تعالى- رب كل مخلوق، فإضافة العرش إليه – تعالى – ووصفه بأنه عظيم، يدل على خصوصية للعرش، ليست لغيره من سائر المخلوقات، كما يدل على أنه -تعالى- مالك لكل ما دون العرش بطريق الأولى. والمتصرف فيه كيف يشاء.

قال ابن جرير: " وإنما عنى بوصفه – جل ثناؤه – نفسه بأنه " رب العرش العظيم" الخبر عن جميع ما دونه، أنهم عبيده، وفي ملكه وسلطانه؛ لأن العرش إنما يكون للملوك، فوصف نفسه بأنه ذو العرش، دون سائر خلقه، وأنه الملك العظيم، دون غيره، وأن من دونه، في سلطانه وملكه، جار عليه حكمه وقضاؤه"[880].

---

[874]() القائل هو الأزهري .

[875]() الآية 210 من سورة البقرة .

[876]() "تهذيب اللغة" (3/246).

[877]() الآية 27 من سورة الروم.

[878]() انظر : " نقض تأسيس الجهمية" (1/154).

[879]() آخر آية سورة التوبة .

[880]() "تفسير الطبري" (14/587) بتحقيق محمود شاكر.

وقال ابن كثير: " وهـو رب العـرش العظيـم" أي: هـو مالـك كـل شـيء، وخـالقه؛ لأنـه رب العـرش العظيـم، الـذي هـو سـقف المخلوقـات، وجميـع المخلوقات، من السماوات والأرضين، وما فيهما، وما بينهما، تحـت العـرش، مقهورون بقدرة الله –

ص 300

تعالى -، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شـيء، وهـو علـى كل شيء وكيل"[881].

"قال – جل وعلا-: { ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ } [882]، وقال – جلت عظمته-: { وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ } [883]، وقال تعالى: { الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ} [884]، وقال تعالى: { وَيَحْمِلُ عَـرْشَ رَبِّـكَ فَـوْقَهُمْ يَوْمَئِـذٍ ثَمَانِيَةٌ } [885].

وأقوال أهل التفسير {متفقة} على أن العرش هو السـرير، وأنـه جسـم مجسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله، وتعبدهم بتعظيمه، والطواف بـه، كمـا خلق في الأرض بيتاً، وأمر بنى آدم بالطواف به، واستقباله في الصلاة.

وفي الآيات المتقدمة دلالة على صحة ما ذهبوا إليه " ا.هـ[886].

والأخبار عن رسول الله –صلى اللـه عليـه وسـلم- والصـحابة، والتـابعين لهم، في ذكر العرش ووصـفه، وأن اللـه –تعـالى- مسـتو عليـه، كـثيرة جـداً، وسيأتي طرف يسير منها، - إن شاء الله تعالى -.

ففي "الصحيحين" عن جابر بن عبد الله، قال: قـال رسـول اللـه –صـلى الله عليه وسلم-: " لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد"[887].

"وقال ابن مسعود في قوله: { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } قـال: العـرش على الماء، والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه"[888].

ص 301

وقال سليمان التيمي: لو سئلت: أين الله؟ لقلت: في السماء، فإن قال: أين كان عرشه قبل السماء؟ لقلت: على الماء، فإن قال: فأين كـان عرشـه قبل خلق الماء؟ قلت: لا أعلم.

---

[881] () "تفسير ابن كثير" (4/179-180) ط الشعب .

[882] () الآية 15 من سورة البروج.

[883] () الآية 75 من سورة الزمر.

[884] () الآية 7 من سورة غافر.

[885] () الآية 17 من سورة الحاقة .

[886] () " الأسماء والصفات" للبيهقي (ص 392) ، والمفروض أن يقول: خلقه الله واستوى عليه و أمر ملائكته الخ. ولكن أبي عليه المذهب ذلك .

[887] () "البخاري مع الفتح" (7/123) ، و"مسلم" (4/1915).

[888] () "خلق أفعال العباد" (ص 43).

قال البخاري: " وذلك لقوله –تعالى-: {ولا يحيطون بشيء مـن علمـه إلا بما شاء} يعني: إلا بما بين"[889].
وقـال أبـو نصـر السـجزي فـي "الإبانـة": " وأئمتنـا، كسـفيان، ومالـك، والحمادين، وابن عيينة، والفضيل، وبن المبارك، وأحمد بـن حنبـل، وإسـحاق، متفقون على أن الله – سبحانه – فوق العرش، وعلمه بكل مكان، وأنه ينـزل إلى سماء الدنيا، وأنه يغضب، ويرضى، ويتكلم بما يشاء"[890].
والنصوص في ذكر العرش، وأن الله -تعالى- مستو عليه، كثيرة جداً.
وآمن الصحابة وأتباعهم بذلك، على ما دلت النصـوص عليـه ظـاهراً، دون تأويل أو تحريف، وبلا تشبيه ولا تمثيل، كما سيأتي بعض ذلك، - إن شـاء اللـه تعالى -.
قوله: " قال أبـو العاليـة: {اسْـتَوَى إِلَـى السَّـمَاء } ارتفـع، {فسـواهن} خلقهن وقال مجاهد: {استوى}: علا على العرش".
هذا الذي ذكره البخاري عن أبي العالية، ومجاهد، هو الذي يقوله ويعتقده عامة السلف من الصحابة وأتباعهم إلى اليوم.
وهو الحق الذي دلت عليه النصوص، وجاءت تعبيراتهم في ذلك في أربعة ألفاظ، مـا ذكـره البخـاري هنـا، وثالثهـا "صـعد"، ورابعهـا "اسـتقر"، وسـوف أذكرها مع أسانيدها إليهم:
ص 302
قال ابن جرير: " حدثت، عن عمار بن الحسن، قـال: حـدثنا عبـدالله بـن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَـى السَّـمَاء } يقـول: ارتفع إلى السماء"[891].
وروى اللالكائي بسنده، عن بشر بن عمر، قـال: سـمعت غيـر واحـد مـن المفسرين يقولون: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}: ارتفع "[892].
قال ابن عبد البر: " الاستواء: الاستقرار في العلو، وبهـذا خاطبنـا اللـه – عز وجل- فقال: { وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ } [893]، وقال: { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ } [894].
وقال الشاعر:
فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة وقد خلق النجم اليماني فاستوى
وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد: استولى؛ لأن النجم لا يستولي.

---

[889] () المصدر نفسه (ص 37).
[890] () نقلاً عن "سير أعلام النبلاء" (17/650).
[891] () "تفسير الطبري" (1/429) بتحقيق محمود شاكر .
[892] () "شرح أصول اعتقاد أهل السنة" (3/397).
[893] () جزء من الآية 44 من سورة هود.
[894] () الآية 28 من سورة المؤمنون.

وقد ذكر النضر بـن شـميل –وكـان ثقـة مأمونـاً، جليلاً فـي علـم الديانـة، واللغـة – قـال: "حـدثني الخليـل – وحسـبك بالخليـل- قـال: أتيـت أبـا ربيعـة الأعرابي، وكان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فسـلمنا، فـرد علينـا السلام، وقال لنا: استووا، فبقينا متحيرين، ولم ندر ما قـال؟ قـال: فقـال لنـا أعرابي إلى جنبه، إنه أمركم أن ترتفعوا، قال الخليل: هو من قول الله – عـز وجل -: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ} [895]، فصعدنا إليه، فقال: هـل لكم في خبز فطير، ولَبن هجير، وماء نمير؟ فقلنـا: السـاعة فارقنـاه، فقـال: سلاماً، فلم ندر ما قال، فقال الأعرابي: إنه سألكم

ص 303

متاركة لا خير فيها، ولا شر، قال الخليل: هو من قـول اللـه – عـز وجـل-: {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً} [896] "[897]ا.هـ.

قال البغوي: { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } قال الكلبي، ومقاتل: استقر.

وقال أبو عبيدة: صعد".

ثـم قـال: " وأولـت المعتزلـة الاسـتواء بالاسـتيلاء، وأمـا أهـل السـنة، فيقولون: الاستواء على العرش صفة لله -تعالى- بلا كيف، يجـب علـى العبـد الإيمان به، ويكل العلم فيه إلى الله – عز وجل – "[898].

وقال البخاري: " حدثت عن يزيد بن هارون، قال: مـن زعـم أن الرحمـن على العرش استوى، على خلاف ما يقر في قلوب العامة، فهو جهمي"[899].

ومراده: أن الاستواء من الأمور الواضحة، التي يفهمهـا عامـة المسـلمين إذا كانوا من أهل اللغة العربية.

كما أن مراد البغوي في قوله: " ويكل العلم فيه إلى الله – عز وجـل – ": علم الكيفية، وأما معناه فـي اللغـة، فهـو معلـوم ظـاهر، كمـا يـأتي فـي كلام الإمام مالك، وشيخه ربيعة، وأم سلمة.

قال ابن جرير: الاستواء في كلام العرب يأتي على وجوه:

منها: انتهـاء شـباب الرجـل، وقـوته، فيقـال إذا صـار كـذلك: قـد اسـتوى الرجل.

ومنها: استقامة ما كان فيه أود، من الأمور والأسباب، يقال منه: اسـتوى لفلان أمره، إذا استقام بعد أود، ومنه قول الطرماح بن حكيم:

طال على رسم مهدد أبده وعفا واستوى به بلده

يعنى استقام به.

---

[895]() الآية 11 من سورة فصلت .

[896]() الآية 63 من سورة الفرقان .

[897]() "التمهيد" (7/131، 132).

[898]() "تفسير البغوي" (2/237).

[899]() "خلق أفعال العباد " (ص 127) مجموعة عقائد السلف.

ومنها: الإقبال على الشيء، يقال: استوى فلان على فلان بما يكرهه ويسؤوه بعد الإحسان إليه.
ص 304
ومنها: الاحتياز، والاستيلاء، كقولهم: استوى على المملكة، بمعنى: احتوى عليها، وحازها.
ومنها: العلو، والارتفاع، كقول القائل: استوى فلان على سريره، يعني به: علوه عليه"[900].
قلت: قد أنكر أهل اللغة المعنى الثالث، والرابع، مما ذكره ابن جرير في الاستواء المعدى بعلى.
قال ابن القيم: "ولفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله به وأنزل به كلامه نوعان، مطلق، ومقيد.
فالمطلق: ما لم يوصل معناه بحرف، مثل قوله: {ولما بلغ أشده واستوى}، وهذا معناه: كمل وتم، استوى الزرع واستوى الطعام.
و أما القيد: فثلاثة أضرب:
أحدها: مقيد بإلى، كقوله: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء} [901]، واستوى فلان إلى السطح، وقد ذكر – تبارك وتعالى – هذا المعدى بإلى في موضعين من كتابه، في البقرة في قوله -تعالى-: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء}، والثاني في سورة حم السجدة، قوله تعالى: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ } وهذا بمعنى العلو والارتفاع، بإجماع السلف.
الثاني: مقيد بعلى، كقوله -تعالى-: { لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ } [902]، وقوله:
{ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ } [903]، وقوله: { فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ } [904]، وهذا معناه – أيضاً – العلو والارتفاع والاعتدال، بإجماع أهل اللغة.
الثالث: المقرون بواو المعية، التي تعدي الفعل إلى المفعول معه، نحو: استوى الماء والخشبة، بمعنى: ساواها.
ص 305
فهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم، ليس فيها "استولى" البتة، ولا نقله أحد من أئمة اللغة، الذين يعتمد قولهم، وإنما قاله متأخرو النحاة، ممن سلك طريق المعتزلة، والجهمية.

---

[900]() "تفسير الطبري" (1/429) بتحقيق محمود شاكر.
[901]() الآية 29 من سورة البقرة ، و الآية 11 من سورة فصلت.
[902]() الآية 13 من سورة الزخرف.
[903]() الآية 44 من سورة هود.
[904]() الآية 29 من سورة الفتح .

والذين قالوه، لم يقولوه نقلاً، فإن ذلك مجاهرة بالكذب، ولكن قالوه استنباطاً وحملاً منهم للفظة " استوى" على "استولى" ولذلك لما سمع أهل اللغة ذلك أنكروه غاية الإنكار.

قال ابن الأعرابي – وقد سئل هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى؟ – فقال: لا تعرف العرب ذلك – وهو من أكابر أئمة اللغة-" ا.هـ[905].

قال ابن جرير: " وأولى المعاني بقول الله – جل ثناؤه-: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ }: علا عليهن، وارتفع، فدبرهن بقدرته، وخلقهن سبع سماوات، والعجب ممن أنكر المعنى المفهوم، من كلام العرب، في تأويل قول الله تعالى: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء } الذي هو بمعنى العلو، والارتفاع، هرباً عند نفسه من أن يلزمه بزعمه – إذا تأوله بمعناه المفهوم كذلك – أن يكون إنما علا وارتفع بعد أن كان تحتها – إلى تأويله بالمجهول، المستكره، ثم لم ينج مما هرب منه.

فيقال له: زعمت أن تأويل قوله: " استوى ": أقبل، أفكان مدبراً عن السماء فأقبل إليها؟ فإن زعم أن ذلك ليس بإقبال فعل، ولكنه إقبال تدبير، قيل له: فكذلك فقل: علا عليها، علو ملك، وسلطان، لا علو انتقال وزوال، ثم لن يقول في شيء من ذلك قولاً، إلا لزم في الآخر مثله"[906].

قوله: " فقل: علا عليها علو ملك وسلطان، لا علو انتقال وزوال" هو من جنس كلام أهل البدع، فلا ينبغي، وهو خلاف الظاهر من النصوص، بل هو من التأويل الباطل.

قال ابن القيم: " نقل معنى الاستواء، كنقل لفظه، بل أبلغ، فإن الأمة كلها تعلم بالضرورة أن الرسول –صلى الله عليه وسلم- أخبر عن ربه بأنه استوى على عرشه، من يحفظ القرآن منهم، ومن لا يحفظه، كما قال مالك، وأئمة السنة: الاستواء معلوم، غير

ص 306

مجهول، كما أن معنى السمع، والبصر، والقدرة، والحياة، والإرادة، وسائر ما أخبر به -تعالى- عن نفسه معلوم، وإن كانت كيفيته غير معلومة للبشر، فإنهم لم يخاطبوا بالكيفية، ولم يرد منهم العلم بها.

فإخراج الاستواء عن حقيقته المعلومة، كإنكار لفظه، بل أبلغ، وهذا مما يعلم أنه مناقض لما أخبر الله به ورسوله، فإن فهم معنى اللفظ هو المراد منه، وهو المقصود بالذات، لا اللفظ، فإن اللفظ مقصود قصد الوسائل للتعريف بالمراد، فإذا انتفى المعنى، وكانت إرادته محالاً – كما زعموا – لم يبق لذكر اللفظ فائدة، بل كان تركه أنفع من الإتيان به، فإن الإتيان به يحصل

---

[905]() "مختصر الصواعق" (ص 320) ببعض التصرف.

[906]() "تفسير الطبري" (1/430) بتحقيق محمود شاكر .

منه إيهام التشبيه، ويوقع الأمة في اعتقاد الباطل – على حد زعمهم – ولا ريب أن هذا إذا نسب إلى آحاد الناس كان ذمة أولى من مدحه، فيكف يجوز أن ينسب إلى من في كلامه الهدى، والشفاء؟ ومن المتفق عليه أنه لا يجوز أن يتكلم الله ورسوله بالشيء ويريد خلاف ظاهره"[907].

وقال – أيضاً-: " وظاهر الاستواء: العلو، والارتفاع، كما نص عليه جميع أهل اللغة، وأهل التفسير المقبول، فلا يحتمل استواء الرب – تبارك وتعالى – على عرشه المعدى بعلى، المعلق بالعرش، المعرف بالألف واللام، المعطوف على خلق السماوات والأرض بثم مطرداً في " موارده" بهذا الأسلوب، لا يحتمل إلا معنى واحداً، لا معنيين، ولا كما يقول صاحب "العواصم والقواصم"[908]:

إذا قال لك المجسم: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [909]، فقل: " استوى على العرش" يستعمل على خمسة عشر وجهاً، فأيها تريد؟

فيقال له: كلا والذي استوى على العرش، لا يحتمل هذا اللفظ معنيين ألبتة، والمدعي للإحتمال عليه الدليل، والأصل عدم الاشتراك والمجاز، ولم تذكر على دعواك دليلاً، ولم تبين الوجوه المحتملة، مع ذكر الدليل عليه.

والمقصود: أن استواء الرب -تعالى- على عرشه، المختص به، الموصول بأداة "على" نص في معناه، لا يحتمل سواه" ا.هـ[910].

ص 307

وقال الحافظ: " نقل أبو إسماعيل الهروي، في كتابه: الفاروق، بسنده إلى داود ابن علي بن خلف، قال: كنا عند أبي عبدالله بن الأعرابي – يعني يحيى بن زياد اللغوي- فقال له رجل: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [911]، فقال: هو على العرش، كما أخبر، قال: يا أبا عبد الله إنما معناه: استولى، فقال: اسكت، لا يقال: استولى على شيء، إلا أن يكون له مضاد.

ومن طريق محمد بن أحمد بن النضر الأزدي، سمعت ابن الأعرابي يقول: أرادني أحمد بن أبي دؤاد، أن أجد له في لغة العرب {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [912] بمعنى استولى، فقلت: والله ما أصبت هذا.

وقال غيره: لو كان بمعنى استولى، لم يختص بالعرش؛ لأنه غالب على جميع المخلوقات" ا.هـ[913].

---

[907]() "مختصر الصواعق" (ص 331-332).

[908]() هو ابن العربي المالكي .

[909]() الآية 5 من سورة طه.

[910]() "مختصر الصواعق" ملخصاً (ص 332-334).

[911]() الآية 5 من سورة طه.

[912]() ورواه اللالكائي في "شرح أصول السنة" (2/399).

[913]() "الفتح" (13/406) ، وذكر آثاراً كثيرة بهذا المعنى فليراجع.

وروى اللالكائي بسنده من طريق الحسن، عن أمه، عن أم سلمة، في قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [914]، قالت: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر.

وروى عن مالك، جاء إليه رجل، فقال: يا أبا عبد الله، {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} كيف استوى؟ قال: فما رأيت مالكاً وجد من شيء، كموجدته من مقالته، وعلاه الرحضا- يعنى العرق- قال: وأطرق القوم، وجعلوا ينظرون ما يأتي منه فيه، فسري عن ذلك، فقال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فإني أخاف أن تكون ضالاً، وأمر به فأخرج.

ص 308

وذكر بسنده عن ابن عيينة، قال: سئل ربيعة، عن قوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [915]كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق".

وذكر البيهقي بسنده، عن الأوزاعي، قال: " كنا والتابعون متوافرون، نقول: إن الله فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة، من صفاته"[916].

قال الحافظ: سنده جيد[917].

وقال: " وأخرج الثعلبي، من وجه آخر، عن الأوزاعي، أنه سئل عن قوله -تعالى-: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [918]. فقال: هو كما وصف نفسه"[919].

"قال أبو الأثرم، في كتاب "السنة": حدثنا إبراهيم بن الحارث – يعني العبادي- حدثني الليث بن يحيى، سمعت إبراهيم بن الأشعث، قال أبو بكر – هو صاحب الفضيل – سمعت الفضيل بن عياض، يقول: ليس لنا أن نتوهم في الله كيف وكيف؛ لأن الله وصف نفسه فأبلغ، فقال: { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ { 1}اللَّهُ الصَّمَدُ {2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ {3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [920]فلا صفة أبلغ مما وصف الله – عز وجل – نفسه، وكل هذا النزول، والضحك، وهذه المباهاة، وهذا الاطلاع، كما شاء أن ينزل، وكما شاء أن يباهي، وكما شاء أن يطلع، وكما شاء أن يضحك، فليس لنا أن نتوهم فيه كيف، وكيف، وإذا قال لك الجهمي: أنا أكفر برب يزول عن مكانه، فقل أنت: أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء.

---

[914]() "شرح أصول السنة" اللالكائي (2/398).
[915]() "شرح أصول السنة" (2/398).
[916]() " الأسماء والصفات " (ص 408).
[917]() "الفتح" (13/406).
[918]() الآية 5 من سورة طه.
[919]() "الفتح " (13/406).
[920]() سورة الإخلاص كاملة.

وقال الخلال: وأنبأنا محمد بن علي الوراق: حدثنا أبو بكر الأثـرم، حـدثني محمد بن إبراهيـم القيسـي، قـال: قلـت لأحمـد بـن حنبـل: يحكـى عـن ابـن المبارك، قيل
ص 309
له: كيف نعرف ربنا؟ قال: في السماء السابعة على عرشـه بحـد، فقـال أحمد: هكذا هو عندنا.
وأخبرني حرب بن إسماعيل، قال: قلت لإسـحاق – يعنـي ابـن إبراهيـم – هو على العرش بحد؟ قال: نعم بحد.
وذكر عن ابن المبارك، قال: هو على عرشه، بائن من خلقه، بحد.
وأخبرنا المروزي، قـال: قال إسحاق بن إبراهيم بـن راهـويه: قـال اللـه -تعالى-: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [921]، إجمـاع أهـل العلـم أنـه فـوق العرش استوى، ويعلم كـل شـيء، فـي أسـفل الأرض السـابعة، وفـي قعـور البحار، ورؤوس الآكام، وبطون الأودية، وفي كل موضـع، كمـا يعلـم علـم مـا فوق السماوات السبع، وما فوق العرش، أحاط بكل شيء علمـاً، فلا تسـقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات البر والبحر، ولا رطـب ولا يـابس، إلا قد عرف ذلك كله وأحصاه، فلا تعجزه معرفة شيء عن معرفة غيره"[922].
ومعنى قولهم: "بحد" أنه -تعـالى- بـائن مـن خلق ه، غيـر حـال فيهـم، ولا مخالط لهم – تعالى وتقدس – وقد قيدوا الحد، بـأنه لا يعلمـه إلا هـو -تعـالى- وهو قريب من قول الإمام مالك وغيره: " الاستواء معلوم، والكيف مجهول"، فبين أن كيفية استوائه -تعالى- على العرش مجهولة للعبـاد، ولكنـه لـم ينـف ثبوت ذلك في نفس الأمر، فكذلك قولهم: له حد لا يعلمه إلا هو، والله أعلم.
قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي – رحمه الله تعـالى – فـي رده علـى بشر المريسي: " والله -تعالى- لـه حـد، لا يعلمـه غيـره، ولا يجـوز أن يتـوهم لحده غاية في نفسه، ولكن نؤمن بالحد، ونكل علـم ذلـك إلـى اللـه -تعـالى-، ولمكانه حد، وهو على عرشه، فوق سماواته، فهذان حدان"[923].
وقال عبد العزيز بن يحيى المكي الكناني، صاحب " الحيدة في الرد على الزنادقة والجهمية": " زعمت الجهميـة فـي قـوله -تعـالى-: {الرَّحْمَـنُ عَلَـى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [924] أنما
ص 310
المعنى: استوى، كقول العـرب: اسـتوى فلان علـى مصـر، اسـتوى فلان على الشام، يريد: استولى عليها.

---

[921]() الآية 5 من سورة طه.
[922]()درء تعارض العقل والنقل" (2/24، 34-35).
[923]() رد عثمان بن سعيد على بشر المريسي (ص 382) " مجموع عقائد السلف "
[924]() الآية 5 من سورة طه .

فيقال له: هل يكون خلق من خلق الله أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه؟ فإذا قال: لا.

قيل له: فمن زعم ذلك؟ فمن قوله: من زعم ذلك، فهو كافر.

يقال له: يلزمك أن تقول: إن العرش قد أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه، وذلك أن الله – تبارك وتعالى – أخبر أنه خلق العرش قبل خلق السماوات والأرض، ثم استوى عليه بعد خلق السماوات والأرض.

قال -تعالى-: { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء } [925]، فأخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السماوات والأرض، وقال -تعالى-: { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [926]، وقال: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ } [927].

فأخبر أنه استوى على العرش، فيلزمك أن تقول: المدة التي كان على العرش فيها، قبل خلق السماوات، والأرض، ليس الله بمستول عليه، إذ كان: استوى على العرش، معناه عندك: استولى.

فإنما استولى بزعمك في ذلك الوقت لا قبله " ثم ذكر حديث عمران الآتي وحديث أبي رزين المتقدم، ثم قال:

" فقال الجهمي: أخبرني كيف استوى على العرش؟ أهو كما يقال: استوى فلان على السرير، فيكون السرير قد حوى فلاناً وحده إذا كان عليه؛ لأنا لا نعقل الشيء على الشيء إلا هكذا؟

فيقال له: أما قولك: كيف استوى؟ فإن الله لا يجري عليه كيف، وقد أخبرنا أنه استوى على العرش، ولم يخبرنا كيف استوى، فوجب على المؤمنين أن يصدقوا ربهم، باستوائه على العرش، وحرم عليهم أن يصفوا كيف استوى؛ لأنه لم يخبرهم

ص 311

كيف ذلك، ولم تره العيون في الدنيا فتصفه بما رأت، وحرم عليهم أن يقولوا عليه من حيث لا يعلمون.

فآمنوا بخبره عن الاستواء، ثم ردوا علم "كيف استوى" إلى الله.

ولكن يلزمك – أيها الجهمي- أن تقول: إن الله محدود، وقد حوته الأماكن، إذا زعمت في دعواك، أنه في الأماكن، لأنه لا يعقل شيء في مكان، إلا والمكان قد حواه، كما تقول العرب: فلان في البيت، والماء في الجب، فالبيت قد حوى فلاناً، والجب قد حوى الماء.

---

[925]() الآية 7 من سورة هود .

[926]() الآية 4 من سورة السجدة .

[927]() الآية 29 من سورة البقرة .

ويلزمك اشنع من ذلك؛ لأنك قلت أفظع مما قالت به النصارى، وذلك أنهم قالوا: إن الله – عز وجل – في عيسى، وعيسى بدن إنسان واحد، وكفروا بذلك، وأنتم تقولون: إنه في كل مكان، وفي بطون النساء كلهن، و{في} بدن عيسى، وأبدان الناس كلهم.

ويلزمك أيضاً أن تقول: إنه في أجواف الكلاب، والخنازير، لأنها أماكن، وعندك أن الله في كل مكان، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً"[928].

وقال أبو الحسن الأشعري في "الإبانة": " إن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل: نقول: إن الله – عز وجل – مستو على عرشه، كما قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [929]، وقال –تعالى-: { أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء } [930]، فالسموات فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السموات قال: { أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء} لأنه مستو على العرش، الذي فوق السماوات، وكل ما علا فهو سماء، فالعرش أعلى السماوات، وليس ذا قال: { أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء } يعني جميع السموات، وإنما أراد العرش، الذي هو أعلى السموات، ألا ترى أن الله – عز وجل- ذكر السموات فقال: { وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا } [931]، ولم يرد أن القمر يملأهن جميعاً، وأنه فيهن جميعاً.

ص 312

ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا، نحو السماء، لأن الله – عز وجل- مستو على العرش، الذي هو فوق السماوات، كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض.

ولو كان كما تقوله المعتزلة، والجهمية، أن معناه: استولى، وملك، وقهر، لم يكن هناك فرق بين العرش، والأرض السابعة، ولكان مستوياً على العرش، وعلى الأرض، وعلى السماء، وعلى الحشوش، والأقذار"[932]، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقال الباقلاني – وهو من أئمة الأشاعرة -: " فإن قال قائل: أتقولون: إنه في كل مكان؟ قيل: معاذ الله، بل هو مستو على عرشه، كما أخبرنا في كتابه، فقال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [933]، وقال: { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ

---

[928]() "درء تعارض العقل والنقل" (6/115-118).

[929]() الآية 5 من سورة طه .

[930]() الآية 16 من سورة الملك .

[931]() الآية 16 من سورة نوح.

[932]() "الإبانة" (ص 85-87) ملخصاً .

[933]() الآية 5 من سورة طه .

الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } [934]، وقال: { أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ } [935].

ولو كان في كل مكان، لكان في بطن الإنسان، وفمه، وفي الحشوش، والمواضع التي نرغب عن ذكرها، ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة إذا خلق منها ما لم يكن خلقه، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان، ولصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض، وإلى خلفنا، وإلى يميننا، وشمائلنا، وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه، وتخطئة قائله"[936].

وقال شيخ الإسلام: " وإذا كان المسلمون يكفرون من يقول: إن السموات تقله، أو تظله، لما في ذلك من احتياجه إلى مخلوقاته، فمن قال: إنه في استوائه على العرش محتاج إليه، كاحتياج المحمول، إلى حامله، فإنه كافر؛ لأن الله غني عن العالمين – حي، قيوم – الغنى المطلق، وما سواه فقير إليه.

ص 313

مع أن أصل الاستواء على العرش، ثابت بالكتاب، والسنة، واتفاق سلف الأمة، وأئمة السنة، بل ثابت في كل كتاب، أنزل على كل نبي أرسل"[937]

وذكر عن أبي عمرو الطلمنكي: أنه قال: " قال أهل السنة، في قوله -تعالى-:{ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [938]: أن الاستواء من الله على عرشه المجيد، على الحقيقة، لا على المجاز "[939].

وقال ابن عبد البر في شرح حديث النزول: " وفيه دليل على أن الله في السماء، على العرش من فوق سبع سماوات، كما قالت الجماعة، وهو من حجتهم على المعتزلة في قولهم: إن الله في كل مكان، وليس على العرش.

ومن الدليل على صحة ما قاله أهل الحق، قول الله -تعالى-: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [940]".

قال شيخ الإسلام: " وفي الفقه الأكبر، المروي عن الإمام أبي حنيفة - رحمه الله – قال: " من قال: لا أعرف ربي في السماء، أم في الأرض، فقد كفر؛ لأن الله –تعالى- يقول: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} وعرشه فوق سبع سماواته.

---

[934]() الآية 10 من سورة فاطر .
[935]() الآية 16 من سورة الملك .
[936]() "التمهيد" (ص 260).
[937]() "مجموع الفتاوى " (2/188).
[938]() الآية 5 من سورة طه .
[939]() "مجموع الفتاوى " (3/261).
[940]() "التمهيد " (7/129).

قلت: فإن قال: أنه على العرش استوى، ولكنه يقول: لا أدري، العرش في السماء، أم في الأرض؟ قال: هو كافر؛ لأنه أنكر أن يكون في السماء؛ لأنه –تعالى- في أعلى عليين، وأنه يدعى من أعلى، لا من أسفل.

وفي لفظ: سألت أبا حنيفة: عمن يقول: لا أعرف ربي، في السماء، أم في الأرض؟ قال: قد كفر؛ لأن الله –تعالى- يقول: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [941] وعرشه فوق سبع سماوات.

قال: فإنه يقول: على العرش استوى، ولكن لا يدري العرش في الأرض، أو في السماء؟ قال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر".

ص 314

ثم قال: " ففي هذا الكلام المشهور عن أبي حنيفة، عند أصحابه؛ أنه كفر الواقف الذي يقول: لا أعرف ربي، في السماء، أم في الأرض.

فكيف يكون الجاحد النافي الذي يقول: ليس في السماء، أو ليس في السماء ولا في الأرض؟

واحتج على كفره بقوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، قال: وعرشه فوق سبع سموات، وبين بهذا أن قوله –تعالى-: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} يبين أن الله فوق السماوات، فوق العرش، وأن الاستواء على العرش دل على أن الله بنفسه فوق العرش.

ثم إنه أردف ذلك بتكفير من قال: إنه على العرش استوى، ولكن توقف في كون العرش في السماء، أم في الأرض؛ قال: لأنه أنكر أنه في السماء، لأن الله في أعلى عليين، وأنه يدعى من أعلى، لا من أسفل.

وهذا تصريح من أبي حنيفة – رحمه الله – بتكفير من أنكر أن يكون الله في السماء.

واحتج على ذلك بأن الله في أعلى عليين، وأنه يدعى من أعلى، لا من أسفل، وكل من هاتين الحجتين فطرية عقلية، فإن القلوب مفطورة على الإقرار بأن الله في العلو، وعلى أنه يدعى من أعلى، لا من أسفل.

وقد جاء اللفظ الآخر صريحاً عنه بذلك، فقال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر"[942]

وكلام العلماء من أهل السنة من السلف وأتباعهم في هذا الموضوع كثيرة جداً، فنكتفي بهذا الطرف اليسير؛ لأن العاقل المنصف، الذي يريد الحق، ويطلبه إذا بان له الدليل، كفاه اليسير، وأما من ضل وعاند فلا يفيده البيان والإكثار من الكلام، والله الهادي، وهو المستعان.

---

[941] () الآية 5 من سورة طه .

[942] () "مجموع الفتاوى" (8/47-49).

قوله: " وقال ابن عباس: المجيد: الكريم، والودود: الحبيب. يقال: حميد مجيد، كأنه فعيل من ماجد، محمود من حمد ".
ص 315
قول ابن عباس انتهى عند قوله: يقال. قال الحافظ: " وصله ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في قوله -تعالى-: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، قال: المجيد الكريم، وبه – أي بالسند – عن ابن عباس في قوله تعالى: { وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ }. قال: الودود: الحبيب"[943].
وذكر السيوطي أنه خرجه ابن جرير، وقال المنذر، والبيهقي في "الصفات" في الموضعين"[944].
قلت: يقصد البخاري – رحمه الله – أن العرش أضيف إلى الله -تعالى- الإضافة الدالة على المصاحبة، والاختصاص، حيث قال: { ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ } أي: صاحب العرش، فدل ذلك على اختصاص العرش المذكور بالله -تعالى- دون سائر المخلوقات، والمجيد قرئ بالرفع صفة لذو، الذي هو الله -تعالى- وقرئ بالجر صفة للعرش.
قال ابن جرير: " قرأ عامة قراء المدينة ومكة، وبعض الكوفيين، بالرفع، رداً على قوله: { ذُو الْعَرْشِ }، على أنه صفة الله – تعالى ذكره – وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة خفضاً، على أنه من صفة العرش.
والصواب من القول: أنهما قراءتان، معروفتان، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب"[945].
قال أبو حيان: { ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ } خص العرش بإضافة نفسه، تشريفاً للعرش، وتنبيهاً على أنه أعظم المخلوقات"[946].
و "المجيد" فسره ابن عباس بالكريم، وقد جاء في القرآن وصف العرش بأنه كريم، قال -تعالى-: { فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
ص 316
الْكَرِيمِ} [947]، فوصف العرش بأنه كريم لسعته وحسنه، وهو في وصف الله: الجواد، واسع العطاء، كثير الخير، حميد الصفات.
قال في "القاموس": {المجيد} الرفيع العالي، والكريم، والشريف الفعال"[948].

---

[943] () "الفتح" (13/408).
[944] () "الدر المنثور" (8/471) ، وانظر : " الطبري" (30/138، 139).
[945] () "تفسير الطبري" (30/139).
[946] () "البحر المحيط" (8/452).
[947] () الآية 116 من سورة المؤمنون.
[948] () (1/336).

قوله: {الودود} الحبيب، تقدم أن هـذا التفسـير مـروي عـن ابـن عبـاس بسند متصل، الود: خالص الحب وصافيه.
وفي القاموس: " الودود" كثير الحب، وقد تقدم الكلام في صفة المحبة.
" الْوَدُودُ " فعول من الود، قال الله عن شعيب عليه السـلام: { إِنَّ رَبِّـي رَحِيمٌ وَدُودٌ } [949]، وقال -تعالى: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [950]، فقرنه بـالرحيم في موضع، وبالغفور في موضع.
قال أبو بكر بن الأنباري: {الْوَدُود} معنـاه: المحـب لعبـاده، مـن قـولهم: وددت الرجل أوده، وداً، ووداً، وِوداً.
ويقال: وددت الرجل، وداداً، ووداداً، ووِدادة.
وقال الخطابي: هو اسم مأخوذ من الود، وفيه وجهان:
أحدهما: أن يكون فعولاً في محل مفعول، كما قيل: رجل هيوب، بمعنـي مهيب، وفرس ركوب، بمعنى مركوب. والله – سبحانه وتعـالى – مـودود فـي قلوب أوليائه؛ لما يعرفونه من إحسانه إليهم.
والوجه الآخر: أن يكون بمعنى الود، أي أنه تعالى يود عباده الصالحين.
قـال -تعـالى-: {سَـيَجْعَلُ لَهُـمُ الرَّحْمَـنُ وُدًّا}[951] فسـرت بـأنه يحبهـم، ويحببهم إلى عباده.
ص 317
ويؤيده الحديث الصحيح: " إذا أحب الله عبداً نادى: يا جبريل، أنـي أحـب فلاناً، فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن الله يحب فلاناً، فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فـي الأرض " وسـيأتي – إن شاء الله تعالى -.
والأكثرون على ما ذكره ابـن الأنبـاري، أنـه فعـول بمعنـى فاعـل، أي هـو الواد، كما قرنه بالغفور، الذي يغفر، وبالرحيم هو الذي يرحم[952].
وقوله: " يقال: حميد مجيد، كأنه فعيل من ماجد، محمود من حمد" قـال الحافظ: " أصل هذا قول أبي عبيدة، في مجاز القرآن، في قوله: عليكم أهل البيت أي: محمود ماجد"[953].
قال الكرماني: " غرضه منه، أن مجيداً بمعنى فاعل، كقدير بمعنى قادر، حميداً بمعنى مفعول، فلذلك قال: " مجيد من ماجد، حميد من محمود، قال: وفي بعض النسخ: محمود من حميد، وفي أخرى: مـن حمـد، مبنـى للفاعـل،

---

[949]() الآية 90 من سورة هود.
[950]() الآية 14 من سورة البروج .
[951]() الآية 96 من سورة مريم.
[952]() "النبوات" (ص 71-72) ملخصاً.
[953]() "الفتح" (13/408).

والمفعول أيضاً، وذلك لاحتمال أن يكون حميد بمعنى حامد، ومجيد بمعنى ممجد، ثم قال: وفي عبارته تعقيد"[954]

قال الحافظ: " قلت: وهو في قوله: " محمود من حمد" وقد اختلفت الرواة فيه، والأولى فيه ما وجد في أصله، وهو كلام أبي عبيدة "[955].

"فالحميد الذي له من الصفات، وأسباب الحمد، ما يقتضى أن يكون محموداً، وإن لم يحمده غيره، فهو حميد في نفسه.

والمحمود: من تعلق به حمد الحامدين، والحمد والمجد إليهما يرجع الكمال كله، فإن الحمد يستلزم الثناء والمحبة للمحمود، فمن أحببته ولم تثن عليه لم تكن حامداً له.

وهذا الثناء والحب، يتبع الأسباب المقتضية له، وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال، ونعوت الجلال، والإحسان إلى الغير، فإن هذه هي أسباب المحبة، وكلما كانت هذه الصفات أجمع وأكمل، كان الحمد والحب أتم وأعظم.

ص 318

والله – سبحانه – له الكمال المطلق، الذي لا نقص فيه بوجه، والإحسان كله له ومنه، فهو أحق بكل حمد، وبكل حب، فهو أهل أن يحب لذاته، ولصفاته، ولأفعاله، ولأسمائه، ولإحسانه، ولكل ما صدر منه.

والمجد مستلزم للعظمة، والسعة، والجلال، كما يدل عليه موضوعه في اللغة"[956].

يقال: استمجد المرخ والعفار؛ لكثرة النار فيهما.

قال ابن القيم: " ومن أسمائه –تعالى- ما هو دال على جملة أوصاف عديدة، لا يختص بصفة معينة، بل هو دال على معناه، لا على معنى مفرد، نحو المجيد، العظيم، الصمد، فإن المجيد: من اتصف بصفات متعددة، من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع في اللغة للسعة، والكثرة، والزيادة، فمنه: استمجد المرخ والعفار، وأمجد الناقة علفاً، ومنه { ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ } صفة للعرش، لسعته وعظمته وشرفه"[957].

---

[954]() "شرح الكرماني على البخاري" (25/129).

[955]() "الفتح" (13/408).

[956]() "جلاء الأفهام" (ص 187).

[957]() "بدائع الفوائد " (1/160).

ص 319
47-قال: " حدثنا عبدان، عن أبي حمـزة، عـن الأعمـش، عـن جـامع بـن شداد، عن صفوان بن محرز، عن عمران بن حصين، قال: " إني عند النـبي –صلى الله عليه وسلم- إذ جاءه قوم من بني تميم، فقال: " اقبلوا البشرى يـا بنى تميم" قالوا: بشرتنا فأعطنا، فدخل ناس من أهل اليمن، فقال: " اقبلـوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم" قالوا: قبلنا، جئنـاك لنتفقـه فـي الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: " كان الله، ولم يكـن شـيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتـب فـي الـذكر كـل شـيء" ثـم أتـاني رجـل، فقـال: يـا عمـران، أدرك ناقتـك، فقـد ذهبـت، فانطلقت أطلبها، فإذا السراب ينقطع دونها، وايم الله لوددت أنها ذهبت ولـم أقم".

عمران، هو أبو نجيد، بضـم النـون وفتـح الجيـم، ابـن حصـين، الخزاعـي، البصري، أسلم عام خيبر، سنة سبع، وشهد ما بعدها من غزوات رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، وكان من فضلاء الصحابة، وكانت الملائكة تسلم عليه مواجهة، وكان مجاب الدعوة، بعثـه عمـر إلـى أهـل البصـرة يفقههـم، وكـان الحسن البصرى يحلف بالله ما قدمها مثلـه، اعـتزل النـاس فـي الفتنـة، فلـم يشهد شيئاً من حروبها، مات في البصرة سنة اثنتين وخمسين، - رضـي اللـه عنه -[958].

قوله: إني عند النبي –صلى الله عليه وسلم- في الرواية التي ذكرها فـي بدء الخلق: " دخلـت علـى النـبي –صـلى اللـه عليـه وسـلم- وعقلـت نـاقتي بالباب[959].

ويظهر أن هذه الواقعة في المدينة، في آخر حياة النبي –صلى اللـه عليـه وسلم-، ولهذا ذكرها البخاري في آخر المغازي، في ذكر الوفود على النــبي –صلى الله عليه وسلم-.

قوله: " اقبلوا البشرى يا بني تميم" وفي رواية: " أبشروا يا بني تميــم"، والمراد بهذه البشرى: الخير العظيم الذي يترتب على الإسلام، والنجـاة مـن العذاب العظيم الذي يترتب على عدم الدخول في الإسلام، وذلك فـي الـدنيا والآخرة.

ص 320
قال الحافظ: " والمراد بهذه البشارة: أن من أسلم نجا مـن الخلـود فـي النار، ثم بعد ذلك يترتب جزاؤه على وفق عمله، إلا أن يعفو الله"[960].

---

[958]() "الرياض المستطابة" (ص 219).
[959]() انظر : " البخاري مع الفتح" (6/286).
[960]() "الفتح" (13/409).

"وتميم: اسم رجل، وهو تميم بن مر بن إد بـن طابخـة – واسـم طابخـة- عمرو بن إلياس بن مضر، والتميم في اللغة: الشـريد"[961]. " قـالوا: بشـرتنا فأعطنا" يظهر أنهم ما فهموا مقصد الرسول –صـلى اللـه عليـه وسـلم- بمـا أراده بالبشرى، أو أن رغبتهم في العاجلة، فعلقـوا بهـا آمـالهم، فقـدموا ذلـك على التفقه في الدين، والإقبال على تفهم ما قاله الرسول – صلى الله عليـه وسلم -، ولهذا كره رسول اللـه –صـلى اللـه عليـه وسـلم- قـولهم، كمـا فـي الرواية الأخـرى، وغيـر لـون وجهـه حيـث استشـعر قلـة فقههـم فـي الـدين، ورغبتهم في الآخرة، والله أعلم.

"فدخل ناس من أهل اليمن " تقدم ذكر اليمن، وسبب تسميته في شـرح حديث معاذ، "فقال: اقبلوا البشرى يـا أهـل اليمـن، إذ لـم يقبلهـا بنـو تميـم" البشرى: اسم من البشير، وهي الإخبار بما يسر ويفرح غالباً، وسـميت بـذلك لأنه يظهر أثرها على بشرة الوجه.

قال الحافظ: " أي: اقبلوا مني ما يقتضي أن تبشـروا بالجنـة، إذا أخـذتم به"[962]. ويؤخذ من هـذا: أنـه ينبغـي – بـل يتعيـن – قبـول مـا جـاء عـن اللـه ورسوله، بدون توقف أو استفسـار، أو طلـب للعلـة والسـبب؛ لأن قـول بنـي تميم: " بشرتنا فأعطنا" لا يدل بظاهره على أنهم لم يقبلوها، ومع ذلك جعـل عدم فهمهم للمقصود وطلبهم لأمر عاجل، عدم قبول للبشرى.

قوله: " جئناك لنتفقه في الدين" الفقه هو الفهم، أي: فهـم المـراد، أي: أننا قد آمنا بك، وبما جئت به، وأتينا إليك لتفهمنا ديننا الذي جئـت بـه، وتعلمنـا ما نعتقده، ونعمل به، وهذا من توفيق الله لعبده؛ أن يهتم بـالتفقه فـي دينـه، حتى يعبد ربه على علم وبصيرة.

قله: " ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان "؟ الإشارة في قـوله: " هـذا" تعـود إلـى شـيء مشـاهد، حاضـر، موجـود، وهـو هـذا الخلـق المرئـي، مـن السماوات والأرض، وما بينهما، وما فيهمـا، والمعنـى: جئنـا نسـأل عـن مبـدأ خلق هذه المخلوقات المشاهدة، وهذا هو الظاهر.

ص 321

قال الحافظ: " كأنهم سألوا عن أحوال هذا العالم، وهو الظاهر، ويحتمـل أن يكونوا سألوا عن أول جنس المخلوقات"[963].

قلت: الاحتمال الثـاني بعيـد، بـل باطـل، كمـا يـأتي بيـانه فـي كلام شـيخ الإسلام، وقوله في الحديث: " عن أول هـذا الأمـر" بـرده؛ لأن الإشـارة إلـى المخلوقات المشاهدة كما تقدم، وجوب السؤال يدل علـى أنهـم سـألوا عـن

---

[961]() انظر : " نهاية الأرب" (ص 188 ،322).

[962]() "الفتح" (6/288).

[963]() "الفتح" (6/288).

مبدأ هذا العالم المشاهد، والأمر يطلق ويراد به المأمور، ويـراد بـه المصـدر، الذي هو حكم الأمر، والأول هو المراد هنا قطعاً.

وقد رد شيخ الإسلام احتمال كونهم سألوا عن أول جنس المخلوقات مـن وجوه كثيرة، وبين أن ذلك باطل، وذكر أن الحديث روي بثلاثة ألفاظ:

أحدها: المذكور هنا: " كان الله ولم يكن شيء قبله".

والثاني: " كان الله، ولم يكن شيء معه".

والثالث: " كان الله ولم يكن شيء غيره".

ثم قال: " لا بد أن يكون الرسول –صلى اللـه عليـه وسلم- قـال أحـدها؛ لأن المجلس كان واحداً، وسؤالهم وجوابهم في ذلك المجلس، وعمران الذي روى الحديث لم يبق في المجلس إلى انقضائه، بـل ذهـب لمـا أخـبر بـذهاب راحلته، وهو أخـبر بلفـظ الرسـول –صـلى اللـه عليـه وسـلم- ولـم يـرو هـذا الحديث غيره، فدل ذلك على أن الرسول –صلى الله عليه وسلم- قال واحداً من هذه الألفاظ، والآخران رويا بالمعنى، فيكون ما قاله: هـو لفـظ "القبـل"؛ لما في "صحيح مسلم"، مـن قـوله –صـلى اللـه عليـه وسـلم-: " أنـت الأول فليس قبلك شيء"[964].

و أكثر أهل الحديث يرويـه بهـذا اللفـظ، وهـو ذكـر الجمـل الثلاث بـالواو، وهي:

1-" قوله: كان الله، ولم يكن شيء قبله ".

2-" وكان عرشه على الماء".

3-" وكتب في الذكر كل شيء".

ولم يذكر شيئاً منها بثم، وإنما جاء ذلك في خلق السماوات والأرض.

ص 322

والـواو، لا تفيـد الـترتيب، علـى الصـحيح، فلا يكـون فـي ذلـك ذكـر أول المخلوقات، بل ولا فيـه الإخبـار بخلـق العـرش، والمـاء، وإن كـان ذلـك كلـه مخلوقاً، ولكـن المقصـود أن جـوابه لأهـل اليمـن، عنـد بـدء خلـق السـموات والأرض، وما بينهما، وهي المخلوقات التي خلقت في ستة أيـام، لا ابتـداء مـا خلقه الله قبل ذلك.

ويدل على ذلك، أنه أخبر عن تلـك الأشـياء بمـا يـدل علـى وجودهـا، ولـم يتعرض لابتداء خلقها، وذكر السـموات والأرض بمـا يـدل علـى خلقهـا، سـواء قـال: " خلـق السـموات والأرض" أو قـال:" وثـم خلـق السـموات والأرض" فعلى التقديرين، أخبر بخلق ذلك، وكل مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن.

---

[964]() انظر : " صحيح مسلم" (4/2084) الحديث رقم (2713).

فتبين أنه لم يكن مقصوده الإخبار عن أول جنس المخلوقات، بل ولا الإخبار عن خلق العرش والماء، وإنما مقصوده الإخبار عن بدء خلق السموات والأرض وما بينهما، حين كان عرشه على الماء"[965]

وقد ثبت في حديث عبدالله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يقول: " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء "[966].

ولما كان شيخ الإسلام يقرر هذا، وهو أن الله لم يزل فعالاً لما يريد، ويرد على من يقول: المعنى: كان الله ولا شيء معه، أي: لا مخلوق، ولا فعل، ولا مفعول، ثم صار يخلق ويفعل بعد أن لم يكن يفعل ويخلق، وهذا هو قول الجهمية، والمعتزلة.

لما كان يقرر ذلك، ويرد قول الجهمية والمعتزلة، ظن كثير ممن لم يفهم مراده ولم يعرف مذهب أهل السنة في هذه المسألة، زن أنه يقول بقدم العالم؛ لأنه يقول بحوادث لا أول لها، لأنهم يسمون أفعال الله الاختيارية التي يفعلها بإرادته: حوادث.

وما علم هؤلاء أن لازم قولهم، أشنع، وأفظع، وهو أن الرب -تعالى- كان معطلاً عن الفعل، ثم صار فعالاً لأفعاله بعد أن لم يكن كذلك.

مع أن ما قاله شيخ الإسلام هو مذهب السلف، مثل الإمام أحمد والدارمي والبخاري وغيرهم.

ص 323

قال الإمام أحمد في رده على الجهمية: " فلما ظهرت عليه الحجة، قال: إن الله يتكلم، ولكن كلامه مخلوق.

قلنا: وكذا بنو آدم كلامهم مخلوق، فقد شبهتم الله بخلقه، حين زعمتم أن كلامه مخلوق.

ففي مذهبكم: قد كان في وقت من الأوقات لا يتكلم، حتى خلق التكلم، وكذلك بنو آدم كانوا لا يتكلمون حتى خلق الله لهم كلاماً.

وقد جمعتم بين كفر، وتشبيه، وتعالى الله عن هذه الصفة.

بل نقول: إن الله لم يزل متكلماً إذا شاء، ولا نقول: إنه كان، ولا يتكلم حتى خلق الكلام، ولا نقول: إنه قد كان لا يعلم، حتى خلق علماً فعلم، ولا نقول: إنه قد كان ولا قدرة له، حتى خلق لنفسه القدرة، ولا نقول: إنه كان ولا نور له، حتى خلق لنفسه نوراً، ولا نقول: إنه كان ولا عظمة له، حتى خلق لنفسه عظمة.

---

[965] () "مجموع الفتاوى" (18/216-222) بتصرف .

[966] () "صحيح مسلم" (4/2044) رقم (2653).

فقال الجهمية – لما وصفنا الله بهذه الصفات -: إن زعمتم أن الله ونوره، والله وقدرته، والله وعظمته، فقد قلتم بقول النصارى، حين زعموا أن الله لم يزل ونوره، ولم يزل وقدرته.

قلنا: لا نقول: إن الله لم يزل وقدرته، ولم يزل ونوره، ولكن نقول: لم يزل بقدرته ونوره، متى قدر، ولا كيف.

فقالوا: لا تكونوا موحدين أبداً، حتى تقولوا: قد كان الله ولا شيء.

فقلنا: نحن نقول: قد كان الله ولا شيء، ولكن إذا قلنا: إن الله لم يزل بصفاته كلها، أليس إنما نصف إلهاً واحداً بجميع صفاته؟

وضربنا لهم مثلاً في ذلك، فقلنا: أخبرونا عن هذه النخلة، أليس لها جذع، وكرب، وليف، وسعف، وخوص، وجمار، واسمها اسم شيء واحد، وسميت نخلة بجميع صفاتها، فكذلك الله – وله المثل الأعلى – بجميع صفاته، إله واحد.

ولا نقول: إنه كان في وقت من الأوقات ولا قدرة له حتى خلق له قدرة، والذي ليس له قدرة هو عاجز.

ص 324

ولا نقول: قد كان في وقت من الأوقات لا يعلم حتى خلق له علماً، والذي لا يعلم هو جاهل"[967].

بين الإمام – رحمه الله تعالى – أنه -تعالى- لم يزل متكلماً، قادراً، فعالاً لما يريد، فلم يكن قبل وجود الخلق معطلاً عن الفعل، كما هو مقتضى قول الذين أنكروا وجود حوادث لا أول لها، وزعموا أن هذا قول الفلاسفة الدهرية، وفي الواقع هو قول السلف، وهو الذي دلت عليه نصوص الشرع، وأيده العقل، وإن كان كل مفعول معين حادث بعد أن لم يكن، وأما فعل الله الذي هو صفته فلم يزل، فلا أول له.

فمفعولات الله -تعالى- باعتبار أعيانها لها مبدأ فهي كائنة بعد العدم.

أما باعتبار كون الفعل صفة من صفات الله -تعالى-، وإن لم يكن متعلق موجود، فهو لا أول له.

قال الإمام أبو سعيد الدارمي – رحمه الله -: " والله –تعالى وتقدس اسمه – كل أسمائه سواء، لم يزل كذلك، ولا يزال، لم تحدث له صفة ولا اسم لم يكن، كذلك كان خالقاً قبل المخلوقين، ورازقاً قبل المرزوقين، وعالماً قبل المعلومين، وسميعاً قبل أن يسمع أصوات المخلوقين، بصيراً قبل أن يرى أعيانهم مخلوقة"[968].

---

[967] () "الرد على الجهمية" (ص 90-92) عقائد السلف .

[968] () نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي .

والمقصود أن الله – سبحانه وتعالى – لم يزل فعالا لما يريد، وأنه لم يكن معطلاً عن الفعل حتى خلق هذا الكون المشهود، الذي سأل عن مبدئه أهل اليمن، قال شيخ الإسلام:

" لا نزاع بين أهل الملل أن الله – سبحانه – كان قبل أن يخلق هذه الأمكنة والأزمنة، وأن وجوده لا يجب أن يقارن هذه الأزمنة والأمكنة"[969].

قوله: " كان الله، ولم يكن شيء قبله " تقدم في كلام شيخ الإسلام أن هذا اللفظ هو الذي قاله الرسول –صلى الله عليه وسلم- وأن اللفظين الآخرين رويا بالمعنى، وهما " لم يكن

ص 325

شيء غيره " و" لم يكن شيء معه"، وأيد ذلك بأنه من معنى قوله – تعالى -: { هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [970].

فقوله -تعالى-: { هُوَ الأَوَّلُ } هو الذي ليس قبله شيء، كما في "صحيح مسلم" من حديث أبي هريرة، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- أنه كان يقول: " اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء"[971].

وأما قول الحافظ: " قضية الجمع بين الروايتين، تقتضي حمل هذه على رواية: "ولا شيء غيره"، لا العكس، والجمع يقدم على الترجيح بالاتفاق"[972]

فيقال له: هذا لو احتمل أن يكون الحديث صدر منه –صلى الله عليه وسلم- في مقامين، أما إذا كان في مجلس واحد، والراوي واحد، وقد أخبر أنه لم يبق إلى نهاية المجلس، بل قام لما سمع هذا القول من النبي –صلى الله عليه وسلم- ولحق براحلته، فلا بد أن اللفظ الذي سمعه أحد هذه الألفاظ الثلاثة، والآخران رويا بالمعنى، فأصبح الجمع لا وجه له.

وحمل هذه الرواية على رواية " ولا شيء غيره" بلا دليل، حمل عليه التعصب للمذهب، وإلا فالواجب حملها على المعروف من كلام النبي –صلى الله عليه وسلم- الموافق لكلام الله -تعالى- كما تقدمت الإشارة إليه.

و أما قوله: إن هذه المسألة من مستشنع ما ينسب لابن تيمية، فقد تقدم أن هذا هو مذهب السلف، وأن ما يريد ترجيحه الحافظ هو مذهب الجهمية والمعتزلة، والأشعرية، من أهل البدع، والله أعلم.

وكلمة "كان" هنا تفيد الأزلية، والأزلية هي: ما لا بداية له.

---

[969]() "نقض التأسيس" (1/562).

[970]() الآية 3 من سورة الحديد .

[971]() تقدم تخريجه.

[972]() "الفتح" (13/410).

قال الطيبي: " لفظة كان في الموضعين – يعني " كان الله" و"كان عرشه على الماء"- بحسب حال مدخولها، فالمراد بالأول: الأزلية والقدم، وبالثاني الحدوث بعد العدم"[973].

ص 326

"وقال ابن عباس: "كان ولا يزال" ولم يقيد كونه بوقت دون وقت، ويمتنع أن يحدث له غيره، صفة، بل يمتنع توقف شيء من لوازمه على غيره – سبحانه- فهو المستحق لغاية الكمال، وذاته هي المستوجبة لذلك الكمال المطلق، وهو المحمود على ذلك، أزلاً وأبداً، ولا يحصي الخلق ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه"[974].

وقال الراغب: " كان عبارة عما مضى من الزمان، وفي كثير من وصف الله -تعالى- تنبئ عن معنى الأزلية، قال: { وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا } [975]، { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} [976]، وما استعمل منه في جنس الشيء متعلقاً بوصف له هو موجود فيه، فتنبيه على أن ذلك الوصف لازم له، قليل الانفكاك منه، نحو قوله في الإنسان: { وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا} [977]، وإذا استعمل في الزمان الماضي، فقد يجوز أن يكون المستعمل فيه على حالته، ويجوز أن يكون قد تغير، نحو: كان فلان كذا ثم صار كذا"[978].

ومعنى قوله: "كان الله، ولم يكن شيء قبله" أنه -تعالى- هو الأول قبل كل شيء، الذي لا يتصور لأوليته مبدأ، حتى يمكن أن يتصور قبله شيء، بل هو الأول بلا بداية، كما أنه الآخر بلا نهاية، فما من غاية يقدرها العقل إلا وأزليته -تعالى- قبلها، بلا غاية محدودة، والأزل معناه عدم الأولية، فليس الأزل شيئاً محدوداً، فلو قدر أن الأرض كلها وعاء مملوء ذرات، وبعد مليون سنة تفنى ذرة واحدة فقط، لفنيت الذرات كلها، والأزل باق، بل لو فرض أضعاف أضعاف ذلك بالملايين، والمقصود بذلك التقريب إلى الفهم فقط، وإلا فالأزل ليس له بداية أبداً.

قوله: " وكان عرشه على الماء" أي: وقت خلق السموات والأرض كان عرشه على الماء، والمراد هنا الإخبار بكون العرش على الماء، عند ابتداء خلق السموات والأرض.

ص 327

---

[973] () "الفتح" (13/410).
[974] () "مجموع الفتاوى" (18/232-233).
[975] () الآية 26 من سورة الفتح ، و الآية 40 من سورة الأحزاب.
[976] () الآية 27 من سورة الأحزاب ، و الآية 21 من سورة الفتح.
[977] () الآية 67 من سورة الإسراء.
[978] () "المفردات في غريب القرآن " (ص 444).

قال ابن خزيمة: " معنى قوله: "وكان عرشه على الماء" كقوله: { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً} [979]، يعني: أن "كان" هنا لا تدل على أن ذلك أمر قد مضى، وانقضى، بل تدل على ثبوته، فهو كان، ولا يزال على ما كان، و"ليس معنى ذلك أن شيئاً من مفعولاته قديم معه، بل هو خالق كل شيء، ولك شيء سواه مخلوق له، وكل مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن، مع أنه -تعالى- لم يزل بصفاته خالقاً فعالاً لما يريد".

ومن المعلوم أن الخلق صفة كمال، كما قال -تعالى-: { أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ } [980]، فلا يجوز أن ينفك عن هذه الصفة، ولكن كل مخلوق محدث، مسبوق بالعدم، وليس مع الله شيء قديم، ولا شك أن هذا أبلغ في الكمال، من أن يكون معطلاً غير قادر على الفعل.

و أما جعل المفعول المعين مقارناً له -تعالى- أزلاً وأبداً، فهو باطل عقلاً وشرعاً، ولا يقوله إلا جاهل أو معطل.

"والأدلة على بدء خلق الأفلاك، وخلق الزمان – الذي هو مقدار حركة الفلك – كثيرة، أخبرت بها الرسل، كما أخبرت أنها خلقت من مادة موجودة قبلها، وفي زمان قبل هذا الزمان، فإن الله -تعالى- أخبر أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وسواءً قيل: إن تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المعروفة بطلوع الشمس وغروبها، أو أنها أكبر منها، وأن كل يوم قدره ألف سنة.

والحق أن تلك الأيام، التي خلقت فيها السموات والأرض غير هذه الأيام، وغير الزمان الذي هو مقدار حركة هذه الأفلاك، وأن تلك الأيام مقدرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السماوات والأرض.

وقد أخبر – سبحانه وتعالى – أنه { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } [981] فخلقت من الدخان.

ص 328

وقد جاءت الآثار عن السلف، أنها خلقت من بخار الماء، وهو الماء الذي كان العرش عليه، قبل وجود هذا الخلق، كما قال -تعالى-: { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء } [982].

فأخبر -تعالى- أنه خلق السماوات والأرض في مدة، ومن مادة، ولم يذكر القرآن أنه خلق شيئاً من لا شيء، ولا يعارض هذا بقوله -تعالى-: { وَقَدْ

---

[979]() كتاب "التوحيد" (ص 103).
[980]() الآية 17 من سورة النحل .
[981]() الآية 11 من سورة فصلت .
[982]() الآية 7 من سورة هود.

خَلَقْتُكَ مِـن قَبْـلُ وَلَـمْ تَـكُ شَـيْئًا} [983]؛ لأنـه تعـالى قـد أخـبر أنـه خلقـه مـن نطفة"[984]، وخلق أباه من تراب، وقد أخبر الرسول –صلى الله عليه وسـلم- أن الملائكة خلقت من نور، والجن من النار.

وهذه الجملـة مـن الحـديث هـي محـل الشـاهد، وهـو دليـل علـى عظـم العــرش، وأن لــه شــأناً غيــر شــأن الســماوات والأرض، وأن وجــوده قبــل وجودهما.

وقوله: " ثم خلـق السـماوات والأرض " نـص فـي ذلـك؛ لأن "ثـم" تفيـد الترتيب مع التراخي، أي: ترتيب خلق السماوات والأرض على وجود العــرش والماء.

ولا شك أن العرش والماء مخلوقان، ولم يذكر الله – جل وعلا- لنـا وقـت خلق العرش والماء، كما لم يذكر لنا أن له مخلوقات قبلهما، ولكن النصــوص من الوحي، والفطرة والعقل السليم، تدل على أن الله -تعالى- لم يزل يفعل ما يشاء، ويتكلم بما يشـاء، وهـذا مـن الكمـال الـواجب لـه، والـذي يليـق بـه -تعالى-.

وما يقوله المتكلمون من المعتزلة، والأشاعرة، ومن تبعهم، مــن أن هــذا الكون المشاهد لنا، ومـا يتصـل بـه مـن السـموات والأرض، وكـذلك العـرش والماء، هو مبدأ فعله وخلقه، وليس قبله شيء من مفعـولاته، يخـالف كمـاله الواجب له -تعالى-.

فإنه وصفه -تعالى- بأنه لم يكن قادراً على الفعـل والكلام ونحوهمـا مـن صفات الكمال، ثم صار قادراً على ذلك، فيه نقص يجب أن ينزه عنه، وقدرته التامة الكاملة التي هي من لوازم ذاته -تعالى- تفيد خلاف هـذا القـول، وهـي من أظهر صفات الكمال، ولا يجوز أن تقيد صفاته -تعالى- وأفعاله بوقت دون وقت.

ص 329

وباليقين العقلي يمتنع أن يكون قادراً بعد أن لم يكن كذلك، إلا بأمر جعله قادراً، ومن المحال أن يؤثر فيه شـيء غيـره، فـإذا لـم يكـن هنـاك إلا العـدم المحض استحال كونه قادراً، بعد أن لم يكن كذلك.

كما يمتنع أن يكون عالماً بعد أن لم يكن كذلك، وأن يكون سميعاً بصـيراً، بعد أن لم يكن، أما المخلوق المفعول، مثل الإنسان، فإنه كان غير عــالم، ولا قادر، فجعله الله عالماً قادراً.

---

[983]() الآية 9 من سورة مريم .

[984]() "مجموع الفتاوى" (18/235) بتصرف .

وقوله: " وكتب في الذكر كل شيء" الكتابة هنا أضيفت إلى الله -تعالى- ولا يتعين منه أنه -تعالى- باشر الكتابة بنفسه، بل يجوز أن يأمر بذلك ما يشاء.

وقد جاء الحديث عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- موضحاً ذلك، كما في حديث عبادة بن الصامت: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يقول: " إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة"[985].

والمقصود بالذكر هنا: محل الكتابة، وهو اللوح المحفوظ.

"والمراد أنه -تعالى- كتب كل ما أراد إيجاده من تلك الساعة التي جرت فيها الكتابة إلى قيام الساعة.

ولفظة "كل شيء" يعم في كل موضع بحسب ما سيقت له، كما في قوله -تعالى-: {وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } و{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} و{ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ }.

و{ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ } و{ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ } [986].

وقوله: " فإذا السراب ينقطع دونها" أي يشاهدها من خلق السراب، فهو ينقطع بينه وبينها لبعدها، فيراها مرة، وأخرى يكاد يخفيها السراب.

وقوله: " وايم الله " قيل معناه: يمين الله، فهو قسم مشهور عند العرب، وفيه لغات عدة.

ص 330

وقوله: " لوددت أنها ذهبت، ولم أقم" يقول: إن رغبتي والأحب إليَّ أني بقيت في مجلسي عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أتعلم منه الإيمان والعلم، ولم أقم في طلب راحلتي، بل أتركها مؤثراً ما أسمعه من رسول الله –صلى الله عليه وسلم- من غذاء القلب والروح، على راحلتي، وهذا شأن صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ورضي الله عنهم – في حرصهم على التعلم منه، والبحث عن الهدى والخير، ولهذا حفظوا كل ما قاله الرسول –صلى الله عليه وسلم- وما فعله، والبحث عن الهدى والخير، ولهذا حفظوا كل ما قاله الرسول –صلى الله عليه وسلم – وما فعله، حتى نقلوا لنا تحرك شعر لحيته وهو يصلي، وغير ذلك، فجزاهم الله خيراً، وقاتل من يبغضهم وينتقصهم.

---

[985]() رواه أبو داود في "السنن" (5/76) رقم (4700).

[986]() "مجموع الفتاوى" (18/233).

ص 331
48-قال: " حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا عبدالرزاق، أخبرنا معمر، عن همام، حدثنا أبو هريرة – رضي الله عنه – عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: " إن يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم ينقص ما في يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الفيض – أو القبض- يرفع، ويخفض".
قد تقدم هذا الحديث في باب قول الله -تعالى-: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}، وتقدم الكلام عليه، وما هنا يختلف عن الماضي في سنده، وفي بعض ألفاظه، على عادة المؤلف – رحمه الله- إذا كرر الحديث، فلا بد أن يأتي بما يغاير السابق، أما في السند والمتن، أو في أحدهما، إلا إذا تيسر له ذلك، وهو نادر.
والذي تقدم فيه "يد الله ملأى" وما هنا " إن يمين الله ملأى".
وما تقدم فيه " وقال: أرأيتم"، وهنا كلمة "قال" ليست موجودة.
وما تقدم فيه " فإنه لم يغض ما في يده"، وما هنا " فإنه لم ينقص ما في يمينه"
وما تقدم فيه "وقال: عرشه على الماء "، وهنا لفظة "قال" غير موجودة.
وما تقدم " وبيده الأخرى الميزان"، وهنا "وبيده الأخرى الفيض – أو القبض-" هذا في المتن، وأما السند فهو غير المتقدم.
والمقصود قوله: " وعرشه على الماء" أي أنه -تعالى- لما خلق السماوات والأرض، كان عرشه على الماء، فوجود العرش والماء سابق وجود السماوات والأرض بزمن طويل جداً -تعالى- الله أعلم بمقداره.

ص 332
49-قال: " حدثنا أحمد، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس، قال: جاء زيد بن حارثة، يشكو، فجعل النبي –صلى الله عليه وسلم- يقول: " اتق الله وأمسك عليك زوجك" قال[987] أنس: لو كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم- كاتماً شيئاً لكتم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي –صلى الله عليه وسلم- تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله -تعالى- من فوق سبع سماوات".

وعن ثابت: { وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ نزلت في شأن زينب وزيد بن حارثة".

زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، مولى رسول الله – صلى الله عليه وسلم-.

ذكر الحافظ في "الإصابة" نقلاً عن الكلبي بسنده، قال: " زارت سعدى أم زيد قومها وزيد معها، فأغارت خيل لبني القين بن جسر، على أبيات بني معن، فاحتملوا زيداً وهو غلام يفعة، فأتوا به سوق عكاظ، فعرضوه للبيع، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد، بأربعمائة درهم، فلما تزوجها رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وهبته له، ثم جاء والده حارثة، وعمه كعب، يريدان فداءه، فطلبا ذلك من رسول الله –صلى الله عليه وسلم فقال لهما رسول الله: " ادعوه فخيروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني، فوالله ما أنا بالذي أختار على من أختارني " فاختار زيد رسول الله – صلى الله عليه وسلم-، فقال له والده وعمه: ويحك يا زيد، أتختار العبودية على الحرية؟ فقال: إني رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً.

لما رأى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ذلك خرج به إلى المحجر، وقال: اشهدوا أن زيداً ابني، عند ذلك طابت نفس والده وعمه.

وزوجه رسول الله – صلى الله عليه وسلم- زينب بنت جحش، وهي ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب، ثم لم يتلاءما، فطلقها زيد، فزوجها الله -تعالى- نبيه؛ لحكمة ذكرها الله –تعالى- في القرآن.

قال ابن عمر: " إن زيد بن حارثة مولى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: { ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ }[988].

ص 333

كان زيد هو الأمير في غزوة مؤتة، واستشهد فيها رضي الله عنه"[989].

---

[987]() في بعض نسخ البخاري : قالت عائشة.

[988]() الآية 5 من سورة الأحزاب ، ورواه البخاري ، انظره مع الفتح (8/517).

[989]() "الإصابة" (2/599-601).

قوله: " جاء زيد بن حارثة يشكو" أي: جاء إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يشكو زوجه زينب ويستشيره في طلاقها؛ لأنها كانت تترفع عليه، وتقابله ببعض الكلام غير المناسب؛ لحدة كانت فيها، كما روى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، قال: " جاء زيد بن حارثة، فقال: يا رسول الله، إن زينب اشتد عليَّ لسانها، وأنا أريد أن أطلقها؟ فقال له: " اتق الله، وأمسك عليك زوجك"[990].

وهذا منقطع، وقد ذكر كثير من المفسرين والمؤرخين آثاراً موضوعة، مكذوبة على رسول الله –صلى الله عليه وسلم- في قصة زواجه –صلى الله عليه وسلم- بزينب، وبعضها ضعيف، لا يثبت به حكم.

ثم استغل تلك الأخبار بعض أعداء الرسل، من زنادقة وكفار ملاحدة، متقدمون، ومتأخرون، واغتر بذلك كثير من الجهلة.

وقد بين الله -تعالى- المقصود من زواج رسوله –صلى الله عليه وسلم- بزينب بقوله: {فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً} [991].

المعنى: لما فرغ زيد منها وطابت نفسه عنها، وطلقها، أمرناك بتزوجها؛ لئلا يبقى في قلوب المؤمنين حرج في تزوج زوجات أدعيائهم، الذين تبنوهم، فصاروا يدعون إليهم، فيقال: ابن فلان، وليس ابناً له، إذا فارقوهن.

وهذا إمعان في إبطال هذا التبني، الذي كان معروفاً في الجاهلية الأولى كما عرف في الجاهلية الحاضرة، حيث أمر الله -تعالى- إمام المسلمين وقدوتهم بذلك، وكان زيد بن حارثة قد تبناه رسول الله –صلى الله عليه وسلم- كما تقدمت الإشارة إليه، فكان يدعى بزيد بن محمد، فأبطل الله -تعالى- ذلك بقوله: { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ {4} ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا } [992].

فهو -تعالى- يعلم عباده أن أدعياءهم الذين هم مواليهم، ودعوهم أبناء لهم، أنهم ليسوا لهم بأبناء؛ لأنهم أبناء رجال آخرين.

وقد أوحى الله –تعالى- إلى رسوله بأنه سوف يتزوج زينب، أوحى الله بذلك إليه قبل أن يطلقها زيد، فلما جاء يشكوها إليه، ويستشيره في طلاقها، قال له: " اتق الله يا زيد، وأمسك عليك زوجك" فعاتبه الله –تعالى-: { وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي

---

[990] () "الفتح" (8/524).

[991] () الآية 37 من سورة الأحزاب .

[992] () الآيتان 4 و 5 من سورة الأحزاب .

فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا} [993]. الآية.

والذي كان –صلى الله عليه وسلم- يخفيه، هو كراهيته لزواجها؛ خوفاً من قالة الناس أنه تزوج زوجة ابنه.

قال ابن حجر: " والحاصل: أن الذي كان يخفيه هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس: تزوج امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان الجاهلية عليه، من أحكام التبني، بأمر لا أبلغ في الإبطال منه، وهو تزوج امرأة الذي يدعي ابناً {له}، ووقوع ذلك من إمام المسلمين؛ ليكون أدعى لقبولهم.

و إنما وقع الخبط في تأويل متعلق الخشية، والله أعلم "[994].

يشير إلى ما ذكره بعض المفسرين من أقوال باطلة، وقصص موضوعة مكذوبة.

قوله: "قال أنس: لو كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم- كاتماً شيئاً لكتم هذه".

ص 335

أي: لو قدر على سبيل الفرض الممتنع شرعاً كتم شيء من الوحي، لكان في هذه الآية، ولكنه غير واقع بل ممتنع شرعاً.

وهذه الآية من أعظم الأدلة لمن تأملها على صدق الرسول –صلى الله عليه وسلم-، فالله – تعالى – يخبر عما وقع في نفسه من خشية الناس، فبلغه كما قال الله -تعالى- مع ما تضمنه من لومه، بخلاف حال الكذاب، فإنه يتجنب كل ما يمكن أن يكون فيه عليه غضاضة، ومثل ذلك قوله -تعالى-: { عَبَسَ وَتَوَلَّى } إلى آخر الآيات ونظائرها في القرآن.

وقوله: " فكانت زينب تفخر على أزواج النبي –صلى الله عليه وسلم- ".

الفخر: هو ذكر المحاسن، وعدها، مباهاة بها غيره.

قال الجوهري: " الفخر: الافتخار، وعد القديم"[995].

فزينب – رضي الله عنها – تعتد بأن زواجها برسول الله –صلى الله عليه وسلم- كان بأمر الله له بذلك، وأنه من أعظم فضائلها، وأنه لا يساويها في ذلك من أزواجه أحد.

قوله: " تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله – تعالى – من فوق سبع سماوات".

هذا القدر من الحديث هو محل الشاهد، وهو ثبوت علو الله -تعالى- وتقرره لدى المؤمنين، فهو أمر مسلم به بين عموم المسلمين، بل بين

---

[993]() الآية 37 من سورة الأحزاب.

[994]() "الفتح" (8/524).

[995]() "الصحاح" (2/779).

عموم الخلـق إلا مـن غيـرت فطرتـه، لهـو مـن الصـفات المعلومـة بالسـمع، والعقل، والفطرة، عند كل من لم تنحرف فطرته.

و أمـا الاسـتواء علـى العـرش فهـو مـن الصـفات المعلومـة بالسـمع، لا بالعقل، كما نبه على ذلك شيخ الإسلام [996]، وغيره من الأئمة.

ومعنـى قولهـا: " وزوجنـي اللـه" أي: أمـر رسـوله بـأن يتزوجهـا بقـوله -تعالى-: { فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا} وتولى -تعالى- عقد زواجها عليه.

وقوله في الرواية الأخرى:" نزلت آية الحجاب في زينب بنت جحش".

ص 336

آية الحجاب هي قوله -تعالى-: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِـيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَـاهُ وَلَكِـنْ إِذَا دُعِيتُـمْ فَـادْخُلُوا فَـإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِـيَّ فَيَسْـتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَـأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًـا فَاسْـأَلُوهُنَّ مِـن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} إلى آخر الآية. [997]

قوله: " وأطعم عليها يومئذ خبزاً ولحماً".

أي: صنع وليمة لزواجه بها، من الخبز، واللحم، وهذا النوع من الطعام هو أعلى ما يمكن في زمنه –صلى الله عليه وسلم-.

قوله: " تقول: إن الله أنكحني في السماء".

هو كقولها السابق: " وزوجني الله من فوق سـبع سـماوات "، وكـثير مـا تأتي "في" بمعنى "على" أي: إن زواجي صدر مـن اللـه -تعـالى- حيـث أمـر رسوله به، وتولى عقد نكاحها عليه، والله في السماء.

فإما أن تكون "في" بمعنى على، أو يراد بالسماء العلـو، وكلاهمـا صـحيح مستقيم جاءت به النصوص، قال -تعالى-: { وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا } [998] وقال -تعالى-: { فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء } [999].

ولما كـان مسـتقراً فـي نفـوس المخـاطبين أن اللـه -تعـالى- هـو العلـي الأعلى، وأنه فوق كل شيء، كان المفهوم من قوله: " أنه فـي السـماء" أنـه في العلو، وأنه فوق كل شيء ولهذا قالت: " من فوق سبع سماوات ".

وكذلك الجارية، لما قال لها النبي – صلى الله عليه وسـلم-: " أيـن اللـه؟ قالت: في السماء"[1000] إنما أرادت: العلو، وإذا قيل: العلو، فـإنه يتنـاول مـا فوق المخلوقات كلها، فما فوقها كلهـا هـو فـي السـماء، ولا يقتضـي هـذا أن

---

[996] () انظر : " مجموع الفتاوى" (5/227).

[997] () الآية 53 من سورة الأحزاب .

[998] () جزء من الآية 15 من سورة الحج .

[999] () رواه مسلم وغيره.

[1000] () رواه مسلم وغيره.

يكون هناك ظرف وجودي يحيط به، إذ ليس فوق العالم شيء موجود إلا اللـه –تعالى-.

ص 337

وكذلك إذا قيل: العرش في السماء، فإنه لا يقتضي أن يكون العرش في شيء آخـر موجـود مخلـوق، وإن قـدر أن السـماء المـراد بهـا الأفلاك، وكـان المــراد أنــه عليهــا، كمــا قــال: { فَسِــيحُواْ فِــي الأَرْضِ } [1001]، وقــال: { وَلأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ } [1002]، وقال: { فَسِيرُواْ فِيَ الأَرْضِ } [1003]، ويقال: فلان في الجبل، وفي السطح، وإن كان على أعلـى شـيء مَنـه، فـإن حرف "في" يتعلق بما قبله، وبما بعده، فيكون بحسب المضاف إليه.

ولهذا يفرق بين كون الشيء في المكان، وكون المـاء فـي الإنـاء، وكـون الـوجه فـي المـرآة، وكـون الكلام فـي الكتـاب، وكـون العـرش والجنـة فـي السماء، فإن لكل نوع من هذه خاصة يتميز بها عن غيره.

[1001]() الآية 2 من سورة براءة.

[1002]() جزء من الآية 71 من سورة طه.

[1003]() الآية 137 من سورة آل عمران .

ص 338
50-قال: " حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد؛ عن الأعـرج، عن أبي هريرة، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: " إن الله لمـا قضـى الخلق، كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي".
قوله: " قضى الله الخلق" قضي: يأتي بمعنى حكم، وأمر، وقدر، وفـرغ، وأمضى، وأتقن، ومعناها هنا: فرغ من خلق المخلوقات، فهو نحو قوله تعالى: { فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } أو فرغ من تقـدير الخلـق، ويـدل لـذلك الروايـة الآتية في آخر الكتاب " قبل أن يخلق الخلق".
وتقدم هذا الحديث في باب قول اللـه،: { وَيُحَـذِّرُكُمُ اللّـهُ نَفْسَـهُ } وقـد غاير بين سنده هنا وهناك، وفي متنه بعض الاختلاف، ففي الرواية المتقدمة " لما خلق الله الخلق " وهنا " إن الله لمـا قضـى الخلـق"، وهنـاك "كتـب فـي كتابه وهو يكتب على نفسه، وهو وضع عنده على العرش، وهنا "كتـب عنـده، فوق عرشه" وهناك " إن رحمتي تغلب غضبي"، وهنا "سبقت غضبي".
وقد مضى شرحه، والمقصود هنا، قوله: " عنـده، فـوق عرشـه، " هـذان ظرفـان مختصـان بالمكـان، وقـد أضـيفا إلـى اللـه -تعـالى-، فلا بـد أن هـذه الإضافة تقتضي تخصيصاً للعرش على غيره من السماوات والأرض.
"فإضافة العرش إلى الله إضافة مخصوصة، وقد قال -تعـالى-: { عَـرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ } [1004]، فإذا كان العرش مضافاً إلى اللـه فـي هـذه الآية ونحوها إضافة اختصاص، فذلك يوجب أن يكون بينه وبيـن اللـه -تعـالى- من النسبة ما ليس لغيره، فما يذكره الجهمية من الاسـتيلاء، والقـدرة، وغيـر ذلك، أمر مشترك بين العرش، وسائر المخلوقات"[1005].
وما في هذا من قوله: " عنده فوق عرشه"، والآيات نحو { ذُو الْعَرْشِ }، و{ عَرْشَ رَبِّكَ } ينفي أن يكون الثابت من الإضافة هو القدر المشـترك بيـن سائر المخلوقات، كما تقوله الجهميـة وأتبـاعهم، ويـوجب اختصاصـاً للعـرش بالله ليس لغيره من سائر
339
المخلوقات، وقد علم المسلمون أنه اسـتوى علـى عرشـه اسـتواء يليـق بجلاله وعظمته، كما أخبرهم ربهم بذلك، ونبيهم –صلى الله عليه وسلم-.
وما نقله الحافظ عن الخطابي أن معنى "فوق العرش" أي: " عنده علـم ذلك فهو لا ينساه، ولا يبدله" هو من تخبطات أهل التأويـل، ويقـال لـه: وهـل علم الله يختص بهذا الكتاب، فهو الذي لا ينساه، ولا يبدله، وأما سـائر الكـون فليـس عنـده علمـه أو ينسـاه ويبـدله؟ إن الأجـدى بالخطـابي ومـن يشـتغل

[1004]() الآية 17 من سورة الحاقة .
[1005]() "نقض التأسيس" (1/570-577).

بالحديث أن يتبع كلام رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ولا يحمله على المذاهب الباطلة، بل يجب أن يصونه عن مثل هذه التحريفات الباردة. والحق أن قوله: "عنده فوق عرشه" على ظاهره، وأن كل تأويل له عن ظاهره، تبديل للمعنى الذي أراده رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، ونحن نؤمن إيماناً يقيناً قاطعاً – وكل المؤمنين- أن الرسول –صلى الله عليه وسلم- أحرص على عقيدة المسلمين، وعلى تنزيه الله –تعالى- من هؤلاء المحرفين لكلامه، وهو كذلك أقدر على البيان والإيضاح منهم، وهو كذلك أعلم بالله، وما يجب له وما يمتنع عليه من هؤلاء المتخبطين.

فهذا كتاب خاص، وضعه عنده فوق عرشه، مثبتاً فيه ما ذكر؛ لزيادة الاهتمام به، ولا ينافي ذلك أن يكون مكتوباً أيضاً في اللوح المحفوظ.

وهو كتاب حقيقة، كتبه -تعالى- كما ذكر لنا رسولنا –صلى الله عليه وسلم- حقيقة، وهو عند الله حقيقة، فوق عرشه حقيقة، والمقصود أن الله،- تعالى- مستو على عرشه على الحقيقة، وعرشه فوق مخلوقاته كلها عالٍ عليها.

ص 340
51-قال: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثني محمد بن فليح، قال: حدثني أبي، حدثني هلال، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة – رضي الله عنه -، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: " من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها " قالوا: يا رسول الله، أفلا ننبئ الناس بذلك؟ قال: إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة".

قوله: " من آمن بالله ورسوله " هذا هو الأساس الذي يبنى عليه العمل، فلا بد من الإيمان بالله ورسوله أولاً قبل العمل، فكل عمل مشروط لصحته أن يكون العامل مؤمناً، قال الله -تعالى-: {ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة} [1006].

وقال -تعالى-: {فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه} [1007].

وقد ذكر الله -تعالى- عن رسله الذين أرسلهم إلى الناس أنهم دعوهم إلى الإيمان بالله، وعبادته وحده، وهو معنى قوله –صلى الله عليه وسلم-: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله " كما سبق، وتقدم حديث معاذ، حين بعثه النبي –صلى الله عليه وسلم- إلى اليمن، وقال له: " فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله " الخ.

و الإيمان بالله -تعالى- يدخل فيه الإيمان بأنه المالك لكل شيء، المتصرف كيف يشاء، وأنه الإله الحق، الذي يجب أن يعبد وحده، لا شريك له في ذلك، لا ملك ولا نبي، ولا أحد من الخلق مهما علت منزلته، وحسنت عبادته.

ص 341
ويدخل فيه الإيمان بأسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، وأن يثبت له ما أثبته لنفسه، وأثبت له رسله، من غير تحريف ولا تمثيل، ولا تكييف ولا تعطيل، بل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

قوله: " وأقام الصلاة" إقامة الصلاة: الإتيان بها على وفق أمر الله -تعالى- وأمر رسوله، كاملة في أفضل أوقاتها.

[1006] () الآية 40 من سورة غافر .
[1007] () الآية 94 من سورة الأنبياء.

قوله: " وصام رمضان" الصيام في اللغة: هو الإمساك، وفي الشرع: إمساك مخصوص، عن أشياء مخصوصة، من طلوع الفجر، إلى غروب الشمس، تعبداً لله تعالى.

قال الحافظ: وسقط ذكر الحج، على أحد الرواة؛ لأنه قد جاء ذكره في الترمذي، والحديث لم يذكر لبيان الأركان، فيجوز أنه اقتصر على ذكر البعض، لأنه هو المتكرر غالباً، وأما الزكاة فلا تجب إلا على من له مال، بشرطه، والحج لا يجب إلا مرة على التراخي"[1008].

والمقصود من الحديث: أن من حصل له الإيمان بالله، وما يلزم له، من إيمان برسله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، وبقضاء الله وقدره، مع التزام ما شرعه الله لعباده من الأمر، والنهي، وجاهد في سبيل الله، مع ما ذكر، استحق دخول الجنة على الله، ولا بد أن يوفي الله -تعالى- بذلك.

قوله: " كان حقاً على الله أن يدخله الجنة" قد تقدم الكلام على حق العباد على الله، في حديث معاذ، في الباب الأول، وهو حق أحقه الله -تعالى- على نفسه كما قال -تعالى-: {كتب ربكم على نفسه الرحمة} [1009].

قال الحافظ: " ليس معنى ذلك، أنه لازم له، لأنه لا آمر له، ولا ناهي يوجب عليه، ويلزمه المطالبة به، وإنما معناه إنجاز ما وعد به من الثواب، وهو لا يخلف الميعاد"[1010].

ص 342

قلت: لا يلزم من كونه حقاً واجباً، أن يكون له آمر وناه يوجب عليه ذلك، بل هو -تعالى- الذي أوجبه على نفسه، فلا بد من وقوعه، كما أخبر -تعالى-.

قوله: " هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها" الهجرة في اللغة هي: الترك، والمفارقة. والمقصود بها هنا: الانتقال من بلد الشرك والكفر إلى بلد الإسلام، وهي واجبة على المسلم إذا خاف الفتنة في دينه، أو منع من ممارسة شعائر دينه، وإعلانه ظاهراً.

وتكون الهجرة بالنية والقصد، وتكون باللسان، وبالبدن.

قال الراغب: " الهجر، والهجران: مفارقة الإنسان غيره، إما بالبدن، أو باللسان، أو بالقلب، قال -تعالى-: {و اهجروهن في المضاجع} [1011] كناية عن عدم قربهن.

وقال تعالى: {إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً } [1012]، فهذا هجر بالقلب واللسان.

[1008] () "الفتح" (6/12).

[1009] () الآية 54 من سورة الأنعام .

[1010] () "الفتح" (13/413).

[1011] () الآية 34 من سورة النساء .

[1012] () الآية 30 من سورة الفرقان .

وقوله: {و اهجرهم هجراً جميلاً } [1013]يحتمل الثلاثة، وقوله: {والرجز فاهجر} [1014]، حث على المفارقة بالوجوه كلها.

والمهاجرة في الأصل: مصارمة الغير، ومتاركته، من قوله عز وجل: {والذين هاجروا وجاهدوا} [1015]، وقوله: {للفقراء والمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم } [1016]، وقوله: {ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله } [1017]، وقوله: {فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله} [1018]، فالظاهر منه: الخروج من دار الكفر، إلى دار الإيمان، كمن هاجر من مكة إلى المدينة"[1019].

ص 343

ويدخل في ذلك هجران المعاصي، والشهوات، والأخلاق الذميمة، وجميع المعاصي ورفضها واجتنابها.

قال ابن القيم: " وللعبد في كل وقت هجرتان: هجرة إلى الله بالطلب، والمحبة، والعبودية، والتوكل، والإنابة، والتسليم والتفويض، والخوف والرجاء، وصدق اللجاء. وهجرة إلى رسوله –صلى الله عليه وسلم- في حركاته وسكناته، الظاهرة، والباطنة، بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفضيل محاب الله، ومرضاته، ولا يقبل الله من أحد ديناً سواه"[1020].

وسبيل الله: طاعته، واتباع أمره، واجتناب نهيه، واتباع رسوله – صلى الله عليه وسلم-.

قوله: " أو جلس في أرضه التي ولد فيها" وفي رواية: " في بيته".

والمعنى: أنه بقي في بلده يعبد ربه، ولا يشرك به شيئاً، ولم يهاجر إلى المدينة النبوية، وذلك أن الهجرة كانت فرضاً على كل قادر، فلما فتحت مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأصبحت جزيرة العرب كلها دار إسلام، إلا القليل، نسخت الهجرة لأجل ذلك، ولكن حكمها باق إلى يوم القيامة.

قال الحافظ: " فيه تأنيس لمن حرم الجهاد، وأنه ليس محروماً من الجر، بل له من الإيمان والتزام الفرائض ما يوصله إلى الجنة، وإن قصر عن درجة المجاهدين"[1021].

قوله: " فقالوا: يا رسول الله، أفلا ننبئ الناس بذلك؟" رأوا أن هذا فيه بشارة للمسلمين، وتسهيل عظيم عليهم، في عدم لزوم الهجرة، فإن ترك

[1013]() الآية 10 من سورة المزمل .
[1014]() الآية 4 من سورة المدثر.
[1015]() الآية 218 من سورة البقرة .
[1016]() الآية 8 من سورة الحشر.
[1017]() الآية 100 من سورة النساء .
[1018]() الآية 89 من سورة النساء.
[1019]() "المفردات" (536-537).
[1020]() "طريق الهجرتين" (ص 7).
[1021]() "الفتح" (6/12).

الوطن، والأهل والأقارب، والمألوفات، كل ذلك يشق على النفس، ولا يقوى عليه كل أحد.

قال الحافظ: " الذي خاطبه بذلك هو معاذ بن جبل – كما في رواية الترمذي- أو أبو الدرداء، كما وقع عند الطبراني، وأصله في النسائي، لكن فيه: فقلنا"[1022].

ص 344

قوله: " إن في الجنة مائة درجة " جاء في رواية الترمذي، عن معاذ، " قلت: يا رسول الله، ألا أخبر الناس؟ قال: " ذر الناس يعملون، فإن في الجنة مائة درجة"[1023].

فظهر أن المراد: لا تبشر الناس بما ذكر من دخول الجنة، لمن آمن وعمل الأعمال المفروضة عليه، فيقفوا عند ذلك، ولا يتجاوزوه إلى ما هو أفضل منه من الدرجات التي تحصل بالجهاد، وهذه هي النكتة في قوله: " أعدها الله للمجاهدين"، وفي هذا تعقب على بعض شراح المصابيح، في قوله: " سوى النبي –صلى الله عليه وسلم- بين الجهاد في سبيل الله، وبين عدمه، وهو الجلوس في الأرض التي ولد فيها؛ لأن التسوية ليست على عمومها، وإنما هي في أصل دخول الجنة، لا في تفاوت الدرجات "[1024].

وهذه الدرجات للمجاهدين في سبيل الله خاصة، ولا ينفي هذا وجود درجات أخر لغير المجاهدين في الجنة، كما جاء في "سنن أبي داود" و"الترمذي" و"صححه": يقال لصاحب القرآن: " اقرأ وارتق، ورتل، كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها"[1025] وعدد آيات القرآن ست وثلاثون ومائتان وستة آلاف، على اختلاف في ذلك.

ولهذا قال: " أعدها الله للمجاهدين في سبيله، قال ابن القيم: " يجوز أن تكون هذه المائة من جملة الدرج، ويجوز أن تكون نهايتها هذه المائة "[1026]، ورجح الأول.

"الجهاد: استفراغ الوسع في مدافعة العدو. وهو ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس"[1027]، وتدخل كلها في الجهاد في سبيل

ص 345

[1022]() "الفتح" (6/12).

[1023]() انظر "السنن للترمذي" (4/82).

[1024]() "الفتح" (6/12).

[1025]() انظر " سنن أبي داود" (2/153) ، و "الترمذي" (4/248) ، "فضائل القرآن " (رقم 2915).

[1026]() "حادي الأرواح" (ص 6).

[1027]() "المفردات" (ص 101).

الله، ويشملها قوله -تعالى-: {إن الـذين آمنـوا والـذين هـاجروا وجاهـدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم} [1028]ونحوها مــن الآيات.

وقال الحافظ: " الجهاد بكسر الجيم: أصله لغة: المشقة، يقـال: جهـدت جهاداً، بلغت المشقة، وشرعاً: بذل الجهد في قتال الكفار، ويطلق أيضاً على مجاهدة النفس والشيطان والفساق".

فأما مجاهدة النفس، علـى تعلـم أمـور الـدين، ثـم علـى العمـل بهـا، ثـم تعليمها.

وأما مجاهدة الشيطان، فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات، وما يزينه من الشهوات.

وأما مجاهدة الكفار، فتقع باليد، والمال، واللسان، والقلب.

وأما مجاهدة الفساق: فباليد، ثم اللسان، ثم القلب"[1029].

قـوله: " كـل درجـتين مـا بينهمـا كمـا بيـن السـماء والأرض " المقصـود بالدرجة: المنزلة المعدة لمن يستحقها من أهـل الإيمـان، والعمـل، ودرجـات الجنة كثيرة، كما تقدمت الإشارة إليه، ولا شك أن كل درجة تختلف عن الــتي دونها بما فيها من أنواع النعيم والحسن.

وهذا التفاوت العظيم في الدرجات لتفاوت أعمال العاملين في الإيمــان، والمقاصـد، والخشـية، والإخلاص، والمحبـة، والإنابـة، والجـد، وكـثرة العمـل، وغير ذلك.

قال الحافظ: " عند الترمذي: ما بين كل درجتين مائة عـام، وللطـبراني: خمسمائة عام، فإن كانتا محفوظتين، كان اختلاف العدد بالنسبة إلـى اختلاف السـير، وفــي روايــة للترمــذي: لــو أن العــالمين اجتمعــوا فــي إحــداهن لوسعتهم"[1030].

وقال ابن القيم: لا تناقض بين تقدير ما بين الدرجتين، لاختلاف السير في السـرعة، والبطــء، والنــبي –صــلى اللــه عليــه وســلم- ذكــر هــذا تقريبــاً للأفهام"[1031].

ص 346

قوله: " فإذا سألتم الله، فسلوه الفردوس"، الفردوس: اسم يطلق على جميع الجنة، ويطلق على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره مــن الجنات.

[1028]() الآية 218 من سورة البقرة .

[1029]() "الفتح" ج 6 فاتحته .

[1030]() المصدر نفسه (ص 12-13).

[1031]() "حادي الأرواح" (ص 61).

قال -تعالى-: {أولئك هم الوارثون (10) الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون} [1032].
وقال -تعالى-: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً} [1033].
و أصل الفردوس: البستان، والفراديس: البساتين، قال الليث: الفردوس: الجنة ذات الكروم، يقال: كرم مفردس، أي معرش.
وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار، واختاره المبرد، وقال: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب: الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب.
وقال مجاهد: هو البستان بالرومية واختاره الزجاج، وقال: حقيقته: البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين"[1034].
وفي "اللسان": " الفردوس: البستان؛ قال الفراء: هي عربي، قال ابن سيده: الفردوس: الوادي الخصيب عند العرب، وهو بلسان الروم: البستان"[1035]، وذكر نحو ما تقدم.
قوله: " فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة" قال الحافظ: " المراد بالأوسط هنا: الأعدل والأفضل، كقوله -تعالى-: {وكذلك جعلناكم أمة وسطاً} [1036]، فعلى هذا فعطف الأعلى عليه للتأكيد.
وقال الطيبي: المراد بأحدهما: العلو الحسي، وبالآخر: العلو المعنوي.
وقال ابن حبان: المراد بالأوسط: السعة، وبالأعلى: الفوقية "[1037].
قلت: الظاهر أن المراد أن الفردوس، هو وسط الجنة، وهو أعلاها، على ظاهر النص، يعني: أن الجنان الأخرى عن جوانبه، ومن تحته، وهو أعلاها، ويدل على
ص 347
ذلك قوله: " وفوقه عرش الرحمن " فليس فوق الفردوس إلا عرش الرحمن – جل وعلا-، كما يدل عليه أيضاً قوله: " ومنه تفجر أنهار الجنة "؛ لأن الأنهار عادة تنبع من الأعلى، والله أعلم.
قوله: " وفوقه عرش الرحمن " هذه الجملة هي المقصود من سياق الحديث؛ لأنه يدل على أن أعلى مخلوق هو العرش، وليس فوق العرش مخلوق، ولكن الرحمن – جل وعلا- فوقه.

[1032] () الآيتان 10 و 11 من سورة المؤمنون.
[1033] () الآية 107 من سورة الكهف .
[1034] () "حادي الأرواح" (ص 74-75).
[1035] () "لسان العرب" (2/1069).
[1036] () الآية 143 من سورة البقرة .
[1037] () "الفتح" (6/13).

قال ابن خزيمة: " فالخبر يصرح أن عرش ربنا – جل وعلا – فوق جنته، وقد أعلمنا – عز وجل – أنه مستوٍ على عرشه، فخالقنا عالٍ فوق عرشه، الذي هو فوق جنته"[1038]

وذكر بسنده، عن عبدالله بن مسعود: " قال: ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام، وما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين السماء السابعة إلى الكرسي مسيرة خمسمائة عام، وما بين الكرسي إلى الماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش على الماء، والله على العرش، ويعلم أعمالكم"[1039].

وذكر له طرقاً عدة، وهو صحيح، ورواه البيهقي عن أبي ذر مرفوعاً، قريباً من لفظه.[1040]

وعلو الله -تعالى- واستواؤه على عرشه، مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ومن تبعهم، ولم يخالف فيه إلا من هو منهم على الإسلام، أو مغرور بالتقليد لمن يحسن به الظن.

" وأول من ابتدع بأن الله -تعالى- ليس فوق العرش في الإسلام هو الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، وشيعتهما، وهم عند أئمة المسلمين من شرار أهل الأهواء، وقد أطلق السلف من القول بتكفيرهم ما لم يطلقوه على أحد، وقالوا: نحكي كلام اليهود، والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية، كما

ص 348

قال عبدالله بن المبارك، وقالوا: اتفق المسلمون، واليهود، والنصارى، على أن الله -تعالى- فوق العرش، وقالت الجهمية: ليس الله فوق العرش"[1041].

[1038] () كتاب " التوحيد" (ص 104).
[1039] () كتاب " التوحيد" (ص 105).
[1040] () انظر : " الأسماء والصفات" (ص 401).
[1041] () "نقض التأسيس" (1/127).

ص 349
52-قال: " حدثنا يحيى بن جعفر، حدثنا أبـو معاويـة، عـن الأعمـش، عـن إبراهيم – هو التيمي – عن أبيه، عن أبي ذر، قال: " دخلت المسجد، ورسـول الله –صلى الله عليه وسلم- جالس؛ فلما غربت الشمس قال: يا أبـا ذر، هـل تدري أين تذهب هذه؟ قـال: قلـت: اللـه ورسـوله أعلـم، قـال: فإنهـا تـذهب تستأذن في السجود، فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي مـن حيـث جئـت، فتطلع من مغربها، ثم قرأ: (ذلك مستقر لها) في قراءة عبد الله".
قوله: " أتدري أين تذهب هذه؟" هذا الأسلوب من التعليـم كـان النـبي – صلى الله عليه وسلم- يستعمله مع أصحابه، وهو من الأسـاليب الـتي ترسـخ المعلومات في الذهن؛ لأن المسئول يبقى بعده يتطلـع إلـى الجـواب بإقبـال ولهف، فإذا ورد عليه الجواب وهو بهذه الحال، ثبـت فـي قلبـه، ورسـخ لـديه، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.
قوله: " ذلك مستقر لها" هذا تفسير لقوله -تعالى-: { وَالشَّـمْسُ تَجْـرِي لِمُسْـتَقَرٍّ لَّهَـا} [1042]، قـال ابـن كـثير: " فيـه قـولان: أحـدهما: أن المـراد: مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض، من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش، هي وجميـع المخلوقـات؛ لأنـه سـقفها، وليـس بكرة، كما يزعمه كثير من أربـاب الهيئـة، وإنمـا هـو قبـة ذات قـوائم، تحملـه الملائكة، وهو فوق العالم، مما يلي رؤوس النـاس، فالشـمس إذا كـانت فـي قبة الفلك، وقت الظهيرة، تكون أقرب ما تكون إلى العرش، فـإذا اسـتدارت في فلكها الرابع، إلى مقابلة هذا المقام، وهو وقت نصف الليل، صـارت أبعـد ما تكون من العرش، فحينئذ تسجد، وتستأذن في الطلوع، كمـا جـاءت بـذلك الأحاديث " ثم ذكر هذا الحديث بطرقه، ثم قال: " والقول الثاني: أن المـراد بمستقرها" هـو منتهـى سـيرها، وهـو يـوم القيامـة، يبطـل سـيرها، وتسـكن حركتها، وتكور، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا مستقرها الزماني"[1043].
ص 350
قوله: " تستأذن في السجود، فيؤذن لها" أي: تطلب من اللـه الإذن فـي مواصلة سيرها في حالة سجودها، فيأذن الله -تعالى- لهـا إلـى الـوقت الـذي تستأذن، ثم لا يؤذن لها، فتبقي في مكانها، ثـم يقـال لهـا: ارجعـي مـن حيـث جئت، فينعكس سيرها، حيث تطلع على الناس من المغرب، ولا بـد أن تطلـع على كل الناس من مغربها، وعند ذلك يؤمنون، ولكن لا ينفعهم إيمـانهم، كمـا أخبر الله -تعالى- بذلك، وهذا إيذان بانقضاء هذه الدار.

[1042]() الآية 38 من سورة يس .
[1043]() "تفسير ابن كثير" (6/562-563).

قال الكرماني: " القراءة المشهورة المتواترة هي: { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } وقراءة عبدالله بن مسعود: ذلك مستقرها"[1044].

هكذا قال، والذي في "البخاري": مستقر لها، ولم يقرأ بها أحد من القراء.

قال ابن كثير: " قرأ ابن مسعود، وابن عباس: (والشمس تجري لا مستقر لها) أي: لا قرار لها، ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً، لا تفتر، ولا تقف"[1045].

فعلى هذا يكون لابن مسعود فيها قراءتان، وافقه ابن عباس على إحداهما، وهما شاذتان.

وقد ذكر البخاري – رحمه الله – هذا الحديث في بدء الخلق، وفيه " فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش".

وسيأتي في آخر الباب بعد هذا، وفيه، " قال: مستقرها تحت العرش"، وذكر أيضاً هذين اللفظين في تفسير سورة يس، وبذلك تظهر مناسبة الحديث للباب، فذكره لأجل ما فيه من قوله: " تذهب حتى تسجد تحت العرش"، وقوله: " مستقرها تحت العرش" في غير هذه الرواية هنا.

قال الحافظ: " وأخرجه النسائي بلفظ: " تذهب حتى تنتهي تحت العرش، عند ربها"[1046]، وهو واضح في أن سجودها في أرفع ما تكون، وأقرب ما تكون إلى العرش، ومعلوم أنها دائماً تحت العرش، ولكن سجودها في مكان معين من

ص 351

مسيرها، وهو دليل واضح على العرش، وارتفاعه العظيم، وهذا هو مراد البخاري – رحمه الله – من الحديث، ومعلوم أن الله -تعالى- فوق العرش كما سبق.

قال الحافظ: " قوله: تحت العرش" قيل: معناه: هي حين محاذاتها، ولا يخالف هذا قوله تعالى: {وجدها تغرب في عين حمئة} [1047]، فإن المراد بها: نهاية مدرك البصر إليها حال الغروب، وسجودها تحت العرش إنما هو بعد الغروب".

قال: " وفي الحديث رد على من زعم أن المراد بمستقرها: غاية ما تنتهي إليه في الارتفاع، وذلك أطول يوم في السنة ".

وقيل: مستقرها: منتهى أمرها، عند انتهاء الدنيا.

[1044]() الكرماني (25/633).

[1045]() "تفسير ابن كثير " (6/563).

[1046]() "الفتح" (8/541).

[1047]() الآية 86 من سورة الكهف.

وقال الخطابي: يحتمل أن يكون المراد باستقرارها تحت العرش: أنها تستقر تحته استقراراً لا نحيط به نحن، وليس في سجودها كل ليلة تحت العرش ما يعيق سيرها ودورانها فيه.

قلت: وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار: وقوعه في كل ليلة ويوم عند سجودها، ومقابل الاستقرار: المسير المعبر عنه بالجري " انتهى[1048].

وقال أيضاً: " وظاهر الحديث: أن الشمس هي التي تسير، وتجري.

وقال ابن العربي: أنكر قوم سجودها، وهو صحيح ممكن، وتأوله قوم على ما هي عليه من التسخير الدائم، ولا مانع من أن تخرج عن مجراها، فتسجد ثم ترجع.

قلت: إن أراد بالخروج: الوقوف، فواضح، وإلا فلا دليل على الخروج" اهـ.[1049]

قلت: وكونها تسجد تحت العرش لا يقتضي مفارقتها لفلكها وانتظامها في مسيرها بالنسبة للأرض، فهي دائمة الطلوع على جزء من الأرض، والأوقات بالنسبة إلى أهل الأرض تختلف بمقدار سيرها.

ص 352

ومعلوم أن تعاقب الليل والنهار واختلافهما يترتب على مسيرها، فربما يقول قائل: أين سجودها تحت العرش؟ ومتى يكون؟ وسيرها مستمر، وبعدها عن الأرض لا يختلف في وقت من الأوقات كما أن سيرها لا يتغير، كما هو مشاهد.

والجواب: أنها تسجد كل ليلة تحت العرش، كما أخبر به الصادق المصدوق، وهي طالعة على جانب من الأرض، مع سيرها في فلكها، وهي دائماً تحت العرش، في الليل والنهار، بل وكل شيء من المخلوقات تحت العرش، لكنها في وقت من سيرها، وفي مكان معين، يصلح سجودها، الذي لا يدركه الخلق، ولكن علم بالوحي، وهو سجود يناسبها على ظاهر النص.

أما التسخير: فهي لا تنفك عنه أبداً. والله أعلم.

قال شيخ الإسلام: " فإذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم- قد أخبر أنها تسجد كل ليلة تحت العرش، فقد علم اختلاف حالها بالليل والنهار، مع كون سيرها في فلكها من جنس واحد، وأن كونها تحت العرش لا يختلف في نفسه، وإنما ذلك اختلاف بالنسبة والإضافة، علم أن تنوع النسب والإضافة لا يقدح فيما هو ثبات في نفسه لا مختلف"[1050].

يعني: أن اختلاف السير يكون بالنسبة لمن في الأرض، فهي تطلع على جانب منها وتغرب عن جانب آخر، مع أن سيرها في فلكها ليس فيه هذا

[1048] () "الفتح" ملخصاً (8/542).

[1049] () "الفتح" (6/299).

[1050] () "بيان تلبيس الجهمية" (2/228).

الاختلاف، فلا يختلف سجودها باختلاف الليل والنهار؛ لأن هـذا الاختلاف يكـون بالنسبة إلى من في الأرض، وبالإضافة إليهم، أمـا هـي فسـجودها فـي مكـان معين من سيرها، وفي وقت معين لا يختلف.

ثم قال –رحمه الله -: " ومن هنـا يظهـر الجـواب عمـا ذكـره ابـن حـزم، وغيره في حديث النزول[1051]، حيث قالوا: قد ثبت أن الليل يختلـف بالنسـبة إلى الناس، فيكـون أولـه ونصـفه وثلثـه بالمشـرق قبـل أولـه، ونصـفه وثلثـه بالمغرب، قالوا: فلو كان

ص 353

النزول هو النزول المعروف، للزم أن ينزل فـي جميـع أجـزاء الليـل، إذ لا يزال في الأرض ليل، قالوا: أو لا يزال نازلاً وصاعداً، وهو جمع بين الضدين.

وهذا إنما قالوه لتخيلهم من نزوله -تعالى- ما يتخيلونه من نزول أحـدهم، وهذا عين التمثيل، ثم إنهم بعد ذلـك جعلـوه كالواحـد العـاجز منهـم، الـذي لا يمكنه أن يجمع من الأفعال ما يعجز غيره عن جمعه.

وقد جاءت الأحاديث بأنه يحاسب خلقه يوم القيامة، كل منهم يراه مخليـاً به، ويناجيه، لا يرى أنه متخلياً لغيره، ولا مخاطباً لغيره"[1052].

وسيأتي – إن شاء الله تعالى – إيضاح الرد على شبههم هذه وغيرهـا فـي شرح الحديث.

وفي "صحيح مسلم"، عن أبي ذر – رضي الله عنه – قال: سألت رسـول الله –صلى الله عليـه وسـلم- عـن قـول اللـه -تعـالى-: { وَالشَّـمْسُ تَجْـرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا } قال: " مستقرها تحت العرش"[1053].

وهذا يعين المقصود بالمسـتقر، وأنـه: الموضـع الـذي تسـجد فيـه لربهـا، وتستأذن بمواصلة سيرها، وأن هذا يكون كـل ليلـة بالنسـبة إلينـا، ويجـوز أن يكون بالنهار بالنسبة لغيرنا كأمريكا مثلاً.

وقد روى مسلم هذا الحديث مبسوطاً مبيناً، حيث قال بعد ذكر السـند: " عن أبي ذر – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم- قال يومـاً: " أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: " إن هـذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كـذلك، حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئـت، فـترجع، فتصـبح طالعـة مـن مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر سـاجدة، ولا تزال كذلك، حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئـت، فـترجع، فتصـبح

[1051]() سيأتي شرحه – إن شاء الله تعالى - ، وهذا الكلام محله شرح حديث النزول ، ولكن لشدة ارتباطاه بما ذكر في سير الشمس أحببت إثباته هنا .

[1052]() "بيان تلبيس الجهمية" (2/228).

[1053]() "صحيح مسلم" (1/39).

طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي، أصبحي طالعة من
ص 354
مغربك، فتصبح طالعة من مغربها" فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: " أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها، لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً"[1054].

وقد ذكر الله -تعالى- في كتابه أن الشمس والقمر يسجدان له تعالى فقال: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} [1055].

[1054]() "صحيح مسلم" (1/138)، وانظر : " شرح النووي" (2/195).

[1055]() الآية 18 من سورة الحج .

ص 355
53-قال: " حدثنا موسى، عن إبراهيم، حدثنا ابن شهاب، عن عبيد بن السباق، أن زيد بن ثابت.
وقال الليث: حدثني عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن ابن السباق، أن زيد بن ثابت حدثه، قال: أرسل إليَّ أبو بكر، فتتبعت القرآن، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره: { لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ } [1056] حتى خاتمة براءة ".
زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان، النجاري، الأنصاري، أبو سعيد، ويقال: أبو خارجة، قدم النبي –صلى الله عليه وسلم- المدينة، وهو ابن إحدى عشرة سنة.
وكان يكتب الوحي، قال الشعبي: غلب زيد الناس على اثنتين، الفرائض، والقرآن، وكان أحد أصحاب الفتوى من الصحابة.
وقال مسروق: " قدمت المدينة، فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين في العلم"، وفضائله كثيرة، توفي سنة 4، وقيل: 51، وقيل: 55، وقيل غير ذلك"[1057].
ومقصود البخاري – رحمه الله – من هذا الحديث: هو ذكر العرش في الآية الكريمة، حيث قال تعالى: { فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } [1058].
قال الإمام ابن جرير – رحمه الله تعالى -: " يقول – تعالى ذكره – فإن تولى، يا محمد، هؤلاء الذين جئتهم بالحق من عند ربك، من قومك، فأدبروا عنك، ولم يقبلوا ما أتيتهم به من النصيحة في الله، وما دعوتهم إليه من النور والهدى، فقل: { حَسْبِيَ اللّهُ } يكفيني ربي {لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} لا معبود سواه { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ } وبه وثقت، وعلى عونه اتكلت، وإليه وإلى نصره استندت، فإنه ناصري، ومعيني، على من خالفني وتولى عني ومن غيركم من الناس، { وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } الذي يملك ما دونه، والملوك كلهم مماليكه، وعبيده.
ص 356
و إنما عنى بوصفه – جل ثناؤه – نفسه بأنه رب العرش العظيم: الخبر عن جميع ما دونه أنهم عبيده، وفي ملكه، وسلطانه؛ لأن العرش العظيم إنما يكون للملوك، فوصف نفسه بأنه ذو العرش، دون سائر خلقه، وأنه المالك

[1056]() الآية 128 من سورة براءة.
[1057]() "تهذيب التهذيب" (3/399).
[1058]() آخر آية من سورة براءة.

العظيم، دون غيره، وأن من دونه في سلطانه، وملكه، جار عليه حكمه وقضاؤه"[1059].

وقال ابن كثير: " وهو رب العرش العظيم" أي: هو مالك كل شيء، وخالقه؛ لأن العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السماوات والأرضيين وما فيهما وما بينهما، تحت العرش، مقهورون بقدرة الله –تعالى-، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل"[1060].

وثبت عن أبي بن كعب – رضي الله عنه – أن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن [1061].

وقد تقدم أن تخصيصه -تعالى- العرش بأنه ربه، وإضافته إليه -تعالى- يدل على أمر زائد على ما في المخلوقات غيره من السماوات والأرض بأنه ربها.

وكذلك وصفه إياه بأنه عظيم وكريم ومجيد، وهذه الأوصاف والإضافة لم تأت في غير العرش من المخلوقات؛ وهذا لأنه تعالى اختاره لقربه، واستوائه عليه.

قوله: " حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره" يعني: أنه ما وجدها مكتوبة، مثبتة بالكتابة، إلا عند أبي خزيمة.

وليس معنى ذلك أنه لم يحفظها إلا أبو خزيمة، فإن زيداً وأبياً، وأبا بكر، وغيرهم من الصحابة، كانوا يحفظون القرآن كله، وهو يريد من كتبها عن الرسول –صلى الله عليه وسلم- بدون واسطة.

قال الحافظ: " قوله: لم أجدها مع أحد غيره" أي: مكتوبة؛ لما تقدم من أنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة.

ولا يلزم من عدم وجدانه إياها حينئذ أن لا تكون تواترت عند من لم يتلقها من النبي –صلى الله عليه وسلم- وإنما زيد كان يطلب التثبت عمن تلقاها بغير واسطة.

ص 357

ولعلهم لما وجدها زيد عند أبي خزيمة تذكروها، كما تذكرها زيد، وفائدة التتبع: المبالغة في الاستظهار، والوقوف عند ما كتب بين يدي النبي –صلى الله عليه وسلم-.

قال الخطابي: هذا مما يخفى معناه، ويوهم أنه كان يكتفي في إثبات الآية بخبر الشخص الواحد، وليس كذلك، فقد اجتمع في هذه الآية زيد بن ثابت، وأبو خزيمة، وعمر".

[1059] () "تفسير الطبري" (11/77-78) بتحقيق محمود شاكر .

[1060] () "تفسير ابن كثير" (4/179-180) ط الشعب .

[1061] () انظر : المصدرين السابقين .

ثم علق الحافظ على كلام الخطابي بقوله:

"وكأنه ظن أن قولهم: لا يثبت القرآن بخبر الواحد، أي: الشخص الواحد، وليس كما ظن، بل المراد بخبر الواحد: خلاف التواتر، فلو بلغت رواة الخبر عدداً كثيراً، وفقد شيئاً من شروط المتواتر[1062]، لم يخرج عن كونه خبراً لواحد.

والحق أن المراد بالنفي: نفي وجودها مكتوبة، لا نفي كونها محفوظة"[1063].

ثم ذكر أحاديث تؤيد ما قال.

وقال في موضع آخر: " والذي يظهر أن الذي أشار إليه أنه فقده، فقد وجودها مكتوبة، لا فقد وجودها محفوظة، بل كانت محفوظة عنده، وعند غيره، ويدل على هذا قوله في حديث جمع القرآن: " فأخذت أتتبعه، من الرقاع والعسب"[1064]

وقال أيضاً: " والأرجح أن الذي وجد معه آخر سورة التوبة أبو خزيمة – بالكنية- والذي وجد معه الآية من سورة الأحزاب خزيمة.

وأبو خزيمة، قيل: هو ابن أوس بن يزيد بن أحرم، مشهور بكنيته، دون اسمه، وقيل: هو الحارث بن خزيمة.

وأما خزيمة، فهو ابن ثابت ذو الشهادتين"[1065]

[1062]() من كون الناقلين عدداً كثيراً ، يمتنع تواطؤهم على الكذب ، من أول السند إلى نهايته.

[1063]() "فتح الباري" (9/15).

[1064]() "الفتح" (8/518).

[1065]() "الفتح" (9/15).

ص 358
54- قال: " حدثنا معلى بن أسد، حدثنا وهيب عن سعيد، عن قتادة، عن أبي العالية، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: كان النبي – صلى الله عليه وسلم- يقول عند الكرب: " لا إله إلا الله العليم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات، ورب الأرض، ورب العرش الكريم ".
قوله: " يقول عند الكرب" الكرب – بفتح الكاف، وسكون الراء – قال الأزهري: "هو: الغم الذي يأخذ النفس، يقال: كربه الغم، وإنه لمكروب النفس، والكربة الاسم، والكريب: المكروب"[1066].
وقال الجوهري: " الكربة بالضم: الغم الذي يأخذ بالنفس، وكذلك الكرب، على مثال الضرب، تقول منه: كربه الغم، إذا اشتد عليه، والكرائب: الشدائد، الواحدة: كريبة"[1067].
قوله: " كان يقول عند الكرب" كان: تدل على كثرة وقوع ذلك منه – صلى الله عليه وسلم-؛ لأن لفظة "كان" تدل على الاستمرار غالباً.
وقوله: " لا إله إلا الله " الإله هو: المعبود الذي تأله القلوب، وتذل له، وتحبه، وتعظمه، وتخافه، وترجوه، فالإله هو الذي يقصد بالخوف والرجاء، مع الذل والتعظيم، وكلما زاد الخوف والرجاء، والذل والتعظيم، صارت العبادة أكمل.
قال شيخ الإسلام: " الإله هو: الذي يؤله، فيعبد، محبة وإنابة، وإجلالاً وإكراماً"[1068].
فقوله: " لا إله إلا الله " أي: لا أتوجه بقلبي عابداً وخاضعاً، متذللاً، خائفاً، راجياً، إلا إلى الله وحده، فهو إلهي، ومعبودي، الذي يملك نفعي وضري، وبإخلاص التأله له كمال حياتي، وسعادتي، وفي عدم ذلك الشقاء والهلاك.
"فالعبد كلما كان أذل لله، وأعظم افتقاراً إليه، وخضوعاً له، كان أقرب إليه وأعز له، وأعظم لقدره عنده، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله تعالى، فأما المخلوق
ص 359
فكما قيل: احتج لمن شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن لمن شئت تكن أميره.
فأعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق: إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون

[1066]() "تهذيب اللغة" (10/205).
[1067]() "الصحاح" (1/211).
[1068]() "مجموع الفتاوى" (1/22).

عندهم، ومتى احتجت إليهم ولو بشربة ماء نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله ورحمته؛ ليكون الدين كله لله، لا يشرك به شيء.

والرب -تعالى- أكرم ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه، وأفقر ما تكون إليه، وهو -تعالى- يعلم ما يصلح عبده، ويقدر على ذلك، ويريده، رحمة منه وفضلاً، وذلك صفته من جهة نفسه، لا شيء آخر جعله مريداً، راحماً، بل رحمته من لوازم نفسه، فإنه كتب على نفسه الرحمة، ورحمته وسعت كل شيء"[1069].

قوله: " العليم الحليم" أي: هو تعالى العظيم بكل شيء، فيعلم حالي.وما نزل به، ويعلم أسبابه، وما يترتب عليه، لا يخفى عليه خافية، فعلمه محيط بكل شيء.

وهو -تعالى- حليم لا يعجل بالعقوبة لمن يستحقها، بل يعفو ويتجاوز، وحلمه عن علم وحكمة، فله -تعالى- الكمال المطلق قال -تعالى-: { قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً {42} سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا {43}تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [1070].

وكثيراً ما يأتي وصفه -تعالى- بالحلم مقروناً بالمغفرة، مما يدل على أن الحلم هو: عدم المعاجلة لمن استحق العقوبة، وأنه -تعالى- يحلم على عباده، ويغفر لهم جرائمهم، ولهذا أخبر -تعالى- أنه لو يؤاخذ الناس بظلمهم وما كسبت أيديهم ما ترك على ظهر الأرض من دابة، قال -تعالى-: { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ } [1071]

ص 360

قوله: " لا إله إلا الله رب العرش العظيم " كرر التوسل بإلهيته تعالى، والتبري من كل ما سواه من مألوه، وهذا أعظم الوسائل إلى الله -تعالى-، وهو إخلاص العبادة والتوجه إلى الله بصدق، ورغبة، ورهبة.

ولهذا صار إخلاص التأله والدعاء لله وحده، مفزع جميع العقلاء من المؤمنين والكفار، في كل كرب وشدة، كما ذكر الله -تعالى- هذا المعنى عن السابقين من الكفار، وغيرهم من أهل الإيمان.

قال تعالى: { لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ {63}قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ } [1072]، وقال -تعالى- عن الطاغية الجبار: { حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ

[1069]() "مجموع الفتاوى" (1/39-40).

[1070]() الآيات من 42- 44 من سورة الإسراء .

[1071]() الآية 61 من سورة النحل .

[1072]() الآيتان 63 و 64 من سورة الأنعام.

بِـهِ بَنُـو إِسْـرَائِيلَ وَأَنَـاْ مِـنَ الْمُسْـلِمِينَ } [1073]، وقـال -تعـالى-: { وَإِذَا مَـسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ } [1074]، وقال -تعالى- عـن نـبيه يـونس عليـه السلام: { وَذَا النُّـونِ إِذ ذَّهَـبَ مُغَاضِـبًا فَظَـنَّ أَن لَّـن نَّقْـدِرَ عَلَيْـهِ فَنَـادَى فِـي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّـي كُنـتُ مِـنَ الظَّـالِمِينَ } [1075]، وهـذا كثير في القرآن، وقد تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك.

قوله: " لا إله إلا الله رب السماوات والأرض، ورب العرش الكريم" هـذا تكرير للتوسل إلى الله -تعالى- بألوهيته، وربوبيته، فبدأ بما يدل علـى إخلاص التأله له -تعالى-، ثم توسل باسميه الكريمين: العليـم والحليـم، ثـم بـأنه رب العرش العظيم، ثم بأنه رب السماوات والأرض، ورب العرش الكريم.

فاشتمل هذا الدعاء العظيم على التوجه إلى الله -تعالى- بـأنواع التوحيـد الثلاثة: توحيد الإلهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

والربوبية نوعان: عامة، وخاصـة، فهـو -تعـالى- رب كـل شـيء ومليكـه، المتصرف فيه كيف يشاء، وهو القائم على كل مخلـوق بمـا يصـلحه، ويربيـه، {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُـمَّ هَـدَى }، وقـد جمـع النـوعين فـي هـذا الحـديث، فتوسل بأنه رب

العرش العظيم الكريم، وبأنه رب السماوات والأرض، والرب هو: المالك المتصرف، القائم على كل مربوب بما يحتـاجه مـن تربيـة فـي شـؤون حيـاته كلها.

والمقصـود مـن الحـديث: قـوله: " رب العـرش العظيـم" وقـوله: " رب العرش الكريم" وكلاهمـا وصـف للعـرش، وصـف بـأنه عظيـم، وبـأنه كريـم، والعظمة تدل علـى الكـبر، والسـعة، والكـرم يـدل علـى الحسـن، والجمـال، والسعة أيضاً.

قال الكرماني: "وصف العرش بالعظمة، هو من جهـة الكميـة، وبـالكرم، أي: الحسن من جهة الكيفية، فهـو ممـدوح ذاتـاً وصـفة، وخـص بالـذكر لأنـه أعظم أجسام العالم، فيدخل الجميع تحته دخول الأدني تحـت الأعلـى، وذكـر لفظ " الرب" من بين سائر الأسماء الحسنى؛ ليناسب كشف الكروب، الـذي هو مقتضى التربية، ولفظ "الحليم"؛ لأن كرب المؤمن غالباً إنما هو على نوع تقصير أو غفلة في الطاعات"[1076].

وربوبيته -تعالى- للعرش، مع وصفه بأنه عظيم وكريم، تفيد تخصيصـاً لـه عـن غيـره مـن السـماوات والأرض، وذلـك لأنـه قـد خصـه بقربـه، واسـتوائه

[1073]() الآية 90 من سورة يونس .
[1074]() الآية 8 من سورة الزمر .
[1075]() الآية 87 من سورة الأنبياء.
[1076]() "شرح الكرماني على البخاري" (21/149).

-تعالى- عليه، ذكر شيخ الإسلام، عن أبي عمرو الطلمنكي – وهو من أئمة أهل السنة – أنه قال: " وأجمعوا – يعني أهل السنة والجماعة – على أن لله عرشاً، وعلى أنه مستوٍ على عرشه، وعلمه، وقدرته، وتدبيره بكل ما خلقه.

قال: فأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [1077]، ونحو ذلك في القرآن أن ذلك علمه، وأن الله فوق السماوات بذاته مستوٍ على عرشه، كيف شاء. قال: وقال أهل السنة في قوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [1078]: الاستواء من الله -تعالى- على عرشه المجيد، على الحقيقة، لا على المجاز. واستدلوا بقول الله -تعالى-: {فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك} [1079]،

ص 362

وبقوله: {لتستوا على ظهوره} [1080]، وبقوله: {واستوت على الجودي} [1081]، إلا أن المتكلمين من أهل الإثبات في هذا على أقوال:

فقال مالك – رحمه الله تعالى -: إن الاستواء معقول، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وقال عبدالله بن المبارك، ومن تابعه من أهل العلم، وهم كثير: إن معنى استوى على العرش: استقر. وهو قول القتيبي.

وقال غير هؤلاء: استوى، أي: ظهر.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: استوى بمعنى: علا.

وتقول العرب: استويت على ظهر الفرس، بمعنى: علوت عليه، واستويت على سقف البيت، بمعنى: علوت عليه.

ويقال: استويت على السطح، بمعناه.

فقوله تعالى: {استوى على العرش} بمعنى: علا على العرش.

وقول الحسن[1082]، وقول مالك، من أنبل جواب وقع في هذه المسألة، وأشده استيعاباً، لأن فيه نبذ التكييف، وإثبات الاستواء المعقول، وقد ائتم أهل العلم بقوله واستجودوه، واستحسنوه"[1083].

ثم تكلم على فساد قول من تأول استوى بمعنى استولى، وقد مضى ما يغني عن ذكره. ثم قال: " وقال الثعلبي: قال الكلبي، ومقاتل: { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } يعني: استقر، قال: وقال أبو عبيدة: صعد.

ص 363

[1077]() الآية 4 من سورة الحديد.
[1078]() الآية 5 من سورة طه.
[1079]() الآية 28 من سورة المؤمنون.
[1080]() الآية 13 من سورة الزخرف.
[1081]() الآية 44 من سورة هود.
[1082]() الحسن يقول: معنى استوى : ارتفع.
[1083]() إلى هنا ينتهي كلام الطلمنكي.

وقيل: استولى، وقيل: ملك، واختار هو [1084]ما حكاه عن الفراء وجماعة أن معناه: أقبل على خلق العرش، وعمد إلى خلقه، قال: ويدل عليه قوله: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ } [1085]أي: عمد إلى خلق السماء.

وهذا من أضعف الوجوه[1086]، فإنه قد أخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السماوات، والأرض، وكما مر في حديث عمران: " كان الله، ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات والأرض ".

فإذا كان العرش مخلوقاً، قبل خلق السماوات والأرض، فكيف يكون معنى استوائه عليه، بعد خلق السماوات والأرض، هو عمده إلى خلقه، مع أنه لا يعرف في اللغة "استوى" بمعنى: عمد إلى فعل كذا، لا حقيقة، ولا مجازاً، لا في النثر، ولا في النظم.

ومن قال: استوى، بمعنى عمد، ذكره في قوله تعالى: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ } [1087]؛ لأنه عدى بحرف الغاية، كما يقال: عمدت إلى كذا، وقصدت إلى كذا، ولا يقال: عمدت على كذا، ولا قصدت عليه، مع أن هذا أيضاً غير معروف في اللغة، ولا هو قول أحد من مفسري السلف، بل المفسرون من السلف بخلاف ذلك.

و إنما هذا القول وأمثاله ابتدع في الإسلام، لما ظهر إنكار أفعال الرب -تعالى- التي تقوم به، ويفعلها بقدرته، ومشيئته، واختياره، فصار كل يفسر القرآن على ما يوافق قوله، واعتقاده.

ص 364

و أما السلف فأقوالهم في هذا الباب متفقة، وإن اختلفت عباراتهم، فمقصودهم واحد، وهو إثبات علو الله واستوائه على عرشه.

فإن قيل: إذا كان الله لا يزال عالياً على المخلوقات، فكيف يقال: ثم ارتفع إلى السماء وهي دخان؟ أو يقال: ثم علا على العرش؟

فالجواب: أن هذا كما أخبر أنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يصعد، وروي: " ثم يعرج" وكما أخبر أنه يجيء لفصل القضاء بين عباده، وهو سبحانه لم يزل فوق، فإن صعوده من جنس نزوله ومجيئه، وهو –تعالى- في نزوله ومجيئه، لا يصير شيء من المخلوقات فوقه، فهو سبحانه يصعد، وإن لم يكن منها شيء فوقه.

[1084]() يعني الثعلبي ، وهذه الأقوال منقولة من تفسيره ، وهو يجمع فيه بين المتناقضات ، وليس لديه تميز لمذهب السلف .

[1085]() الآية 11 من سورة حم فصلت .

[1086]() بل هو باطل مخالف للنصوص الواضحة ، وقد تقدم بيان بطلانه . وهذا الذي اختاره الثعلبي هو قول الجهمية والمعتزلة ، ومن تبعهم من الأشعرية وغيرهم من أهل البدع.

[1087]() الآية 11 من سورة حم فصلت .

فإن قيل: فإذا كان إنما استوى على العرش بعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، فقبل ذلك: هل كان على العرش، أو لم يكن؟
قيل: الاستواء علو خاص، فكل مستوٍ على شيء عالٍ عليه، وليس كل عال على شيء مستو عليه، ولهذا لا يقال لكل ما كان عالياً على غيره: إنه مستو عليه، ولكن كل ما قيل: إنه استوى على كذا، فهو عالٍ عليه.
والذي أخبر الله -تعالى- أنه كان – خلق السماوات والأرض – الاستواء، لا مطلق العلو، مع أنه يجوز أنه كان مستوياً عليه قبل خلق السماوات والأرض، لما كان عرشه على الماء، ثم لما خلق هذا العالم كان عالياً على العرش، ولم يكن مستوياً عليه، ثم استوى عليه بعد ذلك[1088]. والأصل أن علوه على المخلوقات، وصف لازم له، كما أن عظمته وكبرياءه وقدرته كذلك، وأما الاستواء فهو فعل يفعله سبحانه بمشيئته وقدرته، ولهذا قال فيه: ثم استوى"[1089].
وقال ابن عبد البر: " وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء، وقولهم في تأويل استوى: استولى. فلا معنى له؛ لأنه غير ظاهر في اللغة، ومعنى الاستيلاء في اللغة: المغالبة، والله لا يغالبه ولا يعلوه أحد، وهو الواحد الصمد.
ص 365
ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا، إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله – عز وجل – إلى الأشهر والأظهر من وجوهه، ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم.
ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع، ما ثبت شيء من العبارات، وجل الله عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطباتها، وهو العلو والارتفاع على الشيء، والاستقرار والتمكن فيه "[1090].
وقد تقدم ذكر بعض ما قاله السلف والأئمة في ذلك، في أول الباب، والجواب عما اعتمده أهل التأويل.

[1088]() أو يقال : إن الاستواء بعد خلق السماوات و الأرض ، استواء خاص غير الذي قبل ذلك .
[1089]() "مجموع الفتاوى" (5/519-523) ببعض التصرف.
[1090]() "التمهيد" (7/131).

ص 366
55-قال: " حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن عمرو بن يحيى، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال النبي: " يصعقون يوم القيامة فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش".
56-" وقال الماحشون: عن عبد الله بن الفضل، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: " فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش".
"الصعق: غشي يلحق من سمع صوتاً شديداً أو يرى شيئاً هائلاً مفزعاً"[1091].
وفي الأبي: " الصعق، والصعقة، والصاعقة، والهلاك، والموت، وقيل: كل عذاب مهلك، وهو أيضاً: الغشية تعتري من فزع لسماع صوت {مفزع، أو رأى مهولاً} [1092]" وقد اختلف في هذا الصعق المذكور في هذا الحديث: أهو نفخة الصور للبعث، أو غيرها؟
فقيل: أنها نفخة البعث؛ لأن النفخة الأولى، لا يحس بها الأموات، وإنما هي لموت من كان حياً، وإنهاء الدنيا، وابتداء الآخرة.
ولكن يشكل على هذا قوله –صلى الله عليه وسلم-: " فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أو حوزي بصعقة الطور" ومعلوم أن موسى عليه السلام قد مات، فلا يجوز أن يكون المعنى: " فلا أدري: هل موسى مات، أم جوزي عن الموت بصعقة الطور".
وقد اختلف في النفخ في الصور: هل هو مرتان أو ثلاث؟
قال الإمام ابن جرير – رحمه الله – في قوله تعالى: {وله الملك يوم ينفخ في الصور} [1093]
اختلف في الصور في هذا الموضع.
ص 367
فقال بعضهم: هو قرن ينفخ فيه نفختان، إحداهما لفناء من كان حياً على الأرض، والثانية لنشر كل ميت، واعتلوا لقولهم ذلك، بقوله: {ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون} [1094]

[1091] () "الفتح" (6/444).
[1092] () " شرح الأبي على مسلم" (6/167).
[1093] () الآية 73 من سورة الأنعام.
[1094] () الآية 68 من سورة الزمر .

وقال على قوله تعالى: {فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} [1095].

اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: {فإذا نفخ في الصور} من النفختين، أيهما عنى بها؟ فقال بعضهم: عنى بها النفخة الأولى.

ثم ذكر عن ابن عباس: قال: فذلك في النفخة الأولى، فلا يبقى على الأرض شيء. وروي ذلك أيضاً عن السدي.

ثم ذكر القول الثاني: أن المراد بذلك النفخة الثانية، وروي ذلك عن ابن مسعود وغيره"[1096] وهذا الذي ذكره الطبري – رحمه الله – يدل على أن النفخ في الصور مرتين، الأولى لموت من كان حياً على وجه الأرض، والثانية لبعث الموتى. وعليه يكون الإشكال في الحديث ظاهراً، وسيأتي ذكر ألفاظ الحديث في "البخاري" و"مسلم".

وقد أجاب القرطبي عن الإشكال بقوله: " المعنى: فلا أدري: أبعثه الله قبلي؟ تفضيلاً له، من هذا الوجه، كما فضل بالدنيا بالتكليم، أو كان جزاء له بصعقة الطور قدم بعثه على بعث الأنبياء، الآخرين، بقدر صعقته عندما تجلى ربه للجبل؟ "[1097]

ص 368

فعي هذا يكون المعنى في قوله: " أو جوزي بصعقة الطور" أي قدم بعثه عليَّ جزاء له بما حصل من صعقته في الطور، وهذا غير صحيح؛ لأمور عدة:

منها: أن الحديث على هذا يصبح فيه تكرار لا معنى له، إذ لا يكون المعنى على قول القرطبي: " فلا أدري أبعث قبلي؟ أو جوزي ببعثه قبلي بصعقة الطور".

ومنها: أن ظاهر الحديث يرد هذا؛ لأن قوله: " فلا أدري أبعث قبلي؟ أم جوزي بصعقة الطور؟ " ظاهره: فلا أدري أصعق فبعث قبلي؟ أم أنه لم يصعق، وإنما جوزي عن الصعق بصعقة الطور؟ ولهذا لم يقتنع القرطبي بهذا الجواب، فذكر جواباً آخر – سيأتي- ثم قال:

وقال شيخنا أحمد بن عمر: وظاهر حديث النبي –صلى الله عليه وسلم- يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية، نفخة البعث، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق، ولهذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسى – عليه السلام – ممن لم يمت من الأنبياء، وهذا باطل بما صح من النصوص بذكر موته.

[1095]() "تفسير الطبري" (11/462) بتحقيق محمود شاكر.

[1096]() "تفسير الطبري" (18/54) ط الحلبي.

[1097]() التذكرة (1/208) ، وهو أخذ هذا عن الحليمي كما في المنهاج ، انظر : الورقة 214 من المخطوطة، وانظر المطبوع (1/432).

قال: وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع، بعد النشر، حين تنشق السماوات والأرض، قال: فتستقل الأحاديث والآيات، والله أعلم.

ثم قال: قال شيخنا أبو العباس: وهذا يرده ما جاء في الحديث أنه عليه السلام حين يخرج من قبره يلقى موسى، وهو متعلق بالعرش، وهذا عند نفخة البعث.

قلت: وسيأتي ما يوضح ذلك في روايات الحديث التي أذكرها، - إن شاء الله -.

ثم قال: " قال شيخنا أحمد بن عمر: والذي يزيح هذا الإشكال – إن شاء الله تعالى – أن الموت ليس بعدم محض، وإنما هو انتقال من حال إلى حال، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم، أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين، مستبشرين، وهذه صفة الأحياء في الدنيا.

و إذا كان هذا في الشهداء، كان الأنبياء بذلك أحق، وأولى، فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق، صعق كل من في السماوات والأرض، إلا من شاء الله، فأما

ص 369

صعق غير الأنبياء فموت، وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث، فمن مات حيي، ومن غشي عليه أفاق"[1098].

قلت: وحاصل هذا الجواب: أن الصعقة المذكورة في الحديث هي الأولى، وأن الصعق يكون للأرواح، كل ذلك باطل؛ لأنه سيأتي أن الحديث ينص على أنها نفخة البعث، ومعلوم أن الأرواح لا تموت، فكيف يكون صعق غير الأنبياء موت مع أنه زعم أن الصعق للأرواح، وكل ذلك يفتقر إلى دليل، والأدلة خلافه.

ولهذا قال ابن القيم: " وحمل الحديث على هذا لا يصح، لأنه –صلى الله عليه وسلم- تردد: هل أفاق موسى قبله، أو لم يصعق، بل جوزي بصعقة الطور؟

فالمعنى: لا أدري: أصعق أم لم يصعق؟

وقد قال في الحديث: " فأكون أول من يفيق"، وهذا يدل على أنه –صلى الله عليه وسلم- يصعق فيمن يصعق، وأن التردد حصل في موسى، هل صعق وأفاق قبله من صعقته، أو لم يصعق؟

ولو كان المراد به: الصعقة الأولى، وهي صعقة الموت، لكان – صلى الله عليه وسلم- قد جزم بموته، وتردده: هل مات موسى، أو لم يمت، وهذا باطل؛ لوجوه كثيرة، فعلم أنها صعقة فزع، لا صعقة موت، والآية لا تدل على

[1098]() "التذكرة" (1/208-209).

أن الأرواح كلها تموت، عند النفخة الأولى، وإنما تدل على أن من لم يذق الموت قبلها يموت، وأما من مات، أو من لم يكتب عليه الموت، فلا يموت "[1099].

وقال السفاريني: " وصعق الأرواح عند النفخ في الصور، لا يلزم منه موتها. ففي "الصحيحين": " أن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور؟ ".

فهذا صعق في موقف القيامة، إذا جاء الله لفصل القضاء، وأشرقت الأرض بنوره، فحينئذ، يصعق الخلائق كلهم، قال تعالى: {فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون} [1100].

ص 370

ولو كان هذا الصعق موتاً، لكانت موتة أخرى "[1101]

ثم ذكر كلام ابن القيم السابق، وقال ابن القيم بعد ما قرر أن هذا الصعق المذكور، إنما هو في الموقف، إذا جاء رب العالمين – جل وعلا – لفصل القضاء بين عباده.

قال: " فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله في الحديث: " إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش"؟ قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا، ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي، حديث في حديث، فركب بين اللفظين، فجاء هكذا، والحديثان هكذا أحدهما:

" أن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق".

والثاني: " أنا أول من تنشق عنه الأرض، يوم القيامة "، فدخل على الراوي هذا الحديث في الحديث الآخر، وكان شيخنا أبو الحجاج المزي يقول ذلك "[1102].

قلت: وهذا احتمال بعيد جداً، ويحتاج إلى دليل، ولا وجود له، إذ لا يجوز تخطئة الراوي بمجرد إشكال يعرض للإنسان في لفظ الحديث، فما قال ابن القيم – رحمه الله – هنا غير صحيح، وسيتبين ذلك عند ذكر روايات الحديث.

فلفظ حديث أبي سعيد في "البخاري": " لا تخيروا الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري: أكان فيمن صعق؟ أم حوسب بصعقته

[1099]() "الروح" (ص 36).
[1100]() الآية 45 من سورة الطور .
[1101]() "لوامع الأنوار البهية" (2/38).
[1102]() "الروح" (ص 37).

الأولى " [1103] ثم رواه في أماكن متعددة من "صحيحه" بألفاظ متقاربة، ليس فيها: " فأكون أول من تنشق عنه الأرض" إلا في هذا الموضع.

ولكن في رواية أبي هريرة: أنه –صلى الله عليه وسلم- قال: " لا تفضلوا بين أولياء الله، فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السماوات، ومن في الأرض، إلا من شاء الله، ثم

ص 371

ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري: أحوسب بصعقته يوم الطور، أم بعث قبلي؟"[1104].

قال الحافظ: " وقع في رواية: " إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الثانية "، وفي أخرى: " إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الأخيرة"[1105].

ورواه في "التفسير" بسند آخر، مختصراً، ولفظه: " إني أول من يرفع رأسه، بعد النفخة الأخيرة، فإذا أنا بموسى، متعلق بالعرش، فلا أدري، أكذلك كان، أم بعد النفخة"[1106] ثم ذكره معلقاً في الموضع نفسه بلفظ: " فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش" ورواه مسلم، ولفظه: " لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السماوات، ومن في الأرض، إلا من شاء الله – قال- ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من بعث، أو في أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري: أحوسب بصعقة يوم الطور، أو بعث قبلي؟".

ثم رواه بسند آخر – وفيه: " فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق"[1107].

و أما حديث أبي سعيد المتقدم، في ذكر الانشقاق، فقد رواه أيضاً الإمام أحمد، فقال: حدثنا وكيع عن سفيان، عن عمرو بن يحيى، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: " لا تخيروا بين الأنبياء، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، فأفيق، فأجد موسى متعلقاً بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري: أجزي بصعقة الطور، أو أفاق قبلي؟"[1108].

وذكر الحافظ أن في رواية محمد بن عمرو، عن أبي سلمة – عند ابن مردويه-: "أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، فأنفض التراب عن رأسي، فآتي قائمة

ص 372

[1103] () انظر : " البخاري مع الفتح " (5/70).
[1104] () انظر : " الفتح" (6/451).
[1105] () "الفتح" (6/444).
[1106] () "الفتح" (8/551).
[1107] () "مسلم" (4/1844) رقم (2373).
[1108] () "المسند" (3/33).

العرش فأجد موسى قائماً عندها، فلا أدري أنفض التراب عن رأسه قبلي، أو كان ممن استثنى الله"[1109].

فهذه الرواية تدل على أن الصعق المذكور هو النفخة الثانية في الصور، فإن قوله في رواية أبي هريرة: " فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بالعرش" وفي الرواية الأخرى: " إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش"، وفي أخرى: " إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الثانية ".

وفي رواية مسلم: " ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من بعث".

فهذا واضح وصريح في أن المقصود: البعث من الموت الحاصل بنفخ الصور النفخة الثانية، وبه يتبين أن ما قاله القرطبي وغيره مما سبق ذكره، وكذا ما ذهب إليه ابن القيم، كله غير صحيح كما سبق، وكذا قول الحليمي في "المنهاج": "أن ظاهر الحديث أن هذه صعقة غشي يوم القيامة، لا صعقة الموت، الحادث عن نفخ الصور"[1110] مردود بما صرحت به الروايات المذكورة.

الصواب ما نصت عليه هذه الروايات من أن موسى عليه السلام يبعث قبل نبينا –صلى الله عليه وسلم-، وأما ترددة: أأصابه الصعق فبعث قبله، أو كان ممن استثنى الله – تعالى-، أو جوزي عن الصعق بصعقة الطور، كل ذلك يقتضي أنه بعث قبله.

ولكن يبقى الإشكال في أن النفخة التي استثنى الله -تعالى- منها هي الأولى، ومعلوم أن موسى عليه السلام قد مات قبلها، فكيف يصح استثناؤه منها؟

فيقال: وكذا نبينا –صلى الله عليه وسلم- وسائر الأنبياء لا ينالهم ذلك، وإنما ينال من كان حياً في ذلك الوقت، ويكون الأقرب ما قاله الحليمي: " أن المعنى: إذا نفخ في الصور

ص 373

مرة أخرى، كنت أول من بعث، فأجد موسى مبعوثاً قبلي، فلا أدري: أفضل بذلك على سائر الخلق، أو أن ذلك جزاء له بصعقة الطور؟ "[1111].

وهذا بناء على أن النفخ في الصور مرتان، وهو الذي تؤيده الأدلة الصحيحة، كما مر في هذه الروايات السابقة.

قال الحافظ: " ثبت في "صحيح مسلم" أنهما نفختان، ولفظه في أثناء حديث مرفوع: " ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً، ورفع ليتاً،

[1109]() "الفتح" (6/445).

[1110]() انظر : " المنهاج" المخطوط رقم 214، وانظر : المطبوع (1/432) وهو كثير التحريف.

[1111]() انظر : " المنهاج" الورقة 214، أو المطبوع (1/432) وهذا معنى كلامه وليس لفظه.

ثم يرسل الله مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخــرى فإذا هم قيام ينظرون".

وفي حديث أبي هريرة المتفق عليه: " بين النفختين أربعون"، وفي ذلـك دلالة على أنهما نفختان فقط، والتغاير في كل منهما باعتبـار مـن يسـمعهما، فالأولى: يموت بها كل من كان حياً، ويغشى على من لم يمت ممـن اسـتثنى الله تعالى، والثانية: يعيش بها من مات، ويفيق بها من غشي عليه"[1112].

وقد ذهب إلى أنها ثلاث نفخات بعض العلماء، كالحافظ ابن كـثير، وحمـل قوله تعالى: {ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن فــي الأرض } على أنها نفخة الفزع، وممن ذهب إلى ذلك القرطبي وابن العربي وغيرهمــا، وعمدتهم في ذلك حديث الصور، حيـث صـرح فيـه أن النفخـات ثلاث، ولكنـه حديث ضعيف مضطرب، كما بينه الحافظ ابن حجر – رحمه اللــه – فلا يعتمـد عليه لذلك، وآية الزمر واضحة الدلالة في أن النفخ في الصور مرتين.

و أما قوله تعالى: {ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن فــي الأرض} فالظاهر أنها النفخة الأولى، ذكرها بمقدماتها، ومما يـدل علـى أنهـا نفختان فقط: قوله تعالى: {يوم ترجف الراجفة (6) تتبعها الرادفة}.

ص 374

قوله: " فإذا موسى آخذ بقائمـة مـن قـوائم العـرش " وفـي روايـة أبـي هريرة: " آخذ بالعرش" أي: أنه –صلى الله عليـه وسـلم- يجـد موسـى عليـه السلام بعد ما بعث، ممسكاً بأحد قـوائم العـرش، والمـراد بـالعرش: عـرش رب العالمين.

ففي هذا فضل لموسى عليه السلام، حيـث بعـث قبـل نبينـا –صـلى اللـه عليه وسلم- وهذه القبلية إما مجرد فضيلة خصه الله بها كمـا خـص بـالتكليم، وإما جزاء بالصـعقة الـتي أصـابته، يـوم سـأل ربـه الرؤيـة عنـدما تجلـى اللـه -تعالى- للجبل، والله أعلم.

ومما تقدم من النصوص التي ذكرها البخاري – رحمه الله – هنـا وغيرهـا، يعلم أن الله -تعالى- خص العرش من بين مخلوقاته، بأنه استوى عليـه، وأنـه فوق جميع المخلوقات، وأنه له حملة، ويوم القيامة، وأنـه -تعـالى- تعبـد مـن شاء من ملائكتـه بـأن يحفـوا بـه، ويطوفـوا بـه، وأن حملتـه ومـن حـوله مـن الملائكة يسبحون الله -تعالى- ويستغفرون للمـؤمنين، وأن ه أول المخلوقـات المعلومـة لنـا، فقـد أخـبر تعـالى أن عرشـه كـان علـى المـاء قبـل أن يخلـق

[1112]() انظر " فتح الباري" (11/369-370) و (6/446) ، وانظر : الحديث الذي يشير إليه في "صحيح مسلم" (4/2258، 2259) رقم (2940) ، و انظر : حديث أبي هريرة في "البخاري مع الفتح" (8/551، 689) ، وفي "مسلم" (4/2270) رقم (2955).

السماوات والأرض، كما قال -تعالى-: {وهو الـذي خلـق السـماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء} [1113].

و أنه- تعالى – كان ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه علـى المـاء، وكتـب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات والأرض.

وقد تقدم ذكر حديث عبدالله بن عمرو: " إن اللـه قـدر مقـادير الخلائـق، قبل أن يخلق السـماوات والأرض بخمسـين ألـف سـنة، وكـان عرشـه علـى الماء" وهو في "صحيح مسلم".

كما في هذه النصوص، وصف العرش بأنه عظيم، وأنه كريم، وأنه مجيد.

وكثيراً ما يمدح الله -تعالى- نفسـه بـأنه ذو العـرش، كمـا قـال -تعـالى-: {قل لو كان معه آلهة كمـا يقولـون إذا لابتغـوا إلـى ذي العـرش سـبيلاً (42) سبحانه وتعالى عمـا يقولـون علـواً كـبيراً (43) تسـبح لـه السـموات السـبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده لكـن لا تفقهـون تسـبيحهم إنه كان حليماً غفوراً} [1114].

ص 375

وقال -تعالى-: { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ } [1115]، وقال – جل وعلا-: { وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ {14} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ} [1116]، وقال -تعـالى-: { فَـإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَـرْشِ الْعَظِيـمِ } [1117]، إلى غير ذلك.

كما جاء في الحديث الصحيح ما يدل على أنه أثقل الأوزان، كما في قوله –صلى الله عليه وسلم- لجويرية: " لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضـا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته" [1118].

كما في النصوص المتقدمة أنه سقف أعلى الجنان، وهي الفردوس، وأن له قوائم، وغير ذلك مما بينته النصوص التي جاءت بها الرسل، وكل ذلك يدل على أن الله فوق العرش مستوٍ عليه، وقد اتفق على هذا الأنبياء كلهم، وذكـر في كل كتاب أنزل على كل نبي، واتفق عليه سلف الأمـة وأئمتهـا مـن جميـع الطوائف، إلا من ضل الحق واتبع غير سبيل المؤمنين من الجهمية والمعتزلة والأشعرية وغيرهم.

[1113]() الآية 7 من سورة هود.
[1114]() الآيات 42و 43و 44 من سورة الإسراء.
[1115]() الآية 15 من سورة غافر .
[1116]() الآيتان 14 و 15 من سورة البروج.
[1117]() الآية الأخيرة من سورة براءة.
[1118]() "صحيح مسلم" (4/2090).

قال: " باب قول اللـه -تعـالى-: { تَعْـرُجُ الْمَلائِكَـةُ وَالـرُّوحُ إِلَيْـهِ } [1119]، وقوله – جل ذكره-: {من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلـم الطيب } [1120].

قال الأزهـري: فـي عـرج: " قـال اللـه – جـل وعـز -: { تَعْـرُجُ الْمَلائِكَـةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ }، أي: تصعد، يقال: عرج، يعرج، عروجاً.

ص 376

وقـوله – جـل وعـز -: { مِّـنَ اللَّـهِ ذِي الْمَعَـارِجِ } [1121]، قـال قتـادة: ذي المعارج: ذي الفواضل، والنعم، وقيل: معارج الملَائكة، وهي مصـاعدها الـتي تصعد وتعرج فيها، ذكر ذلك أبو إسحاق.

وقال الفراء: ذي المعارج، من نعـت اللـه؛ لأن الملائكـة تعـرج إلـى اللـه، فوصف نفسه بذلك[1122].

وقال الليث: عرج يعـرج، عروجـاً، ومعروجـاً، قـال: والمعـرج: المصـعد، والمعرج: الطريق الذي تصعد فيه الملائكة.

قـال: والمعـراج: يقـال: شـبه السـلم، أو درجـة، تعـرج فيـه الأرواح، إذا قبضت"[1123].

وقال الجوهري: " عرج في الدرجة، والسلم، يعرج، عروجاً: إذا ارتقى.

والمعراج: السلم، ومنه: ليلة المعراج، والجمع: معارج، ومعاريج"[1124].

وقال الراغب: " العروج: ذهاب في صعود، قال: { تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } [1125]، {فظلوا فيه يعرجون} [1126]، والمعارج: المصاعد، قـال: { مِّـنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ } [1127]، وليلة المعراج، سميت لصعود الـدعاء فيهـا، إشـارة إلى قوله: {إليه يصعد الكلم الطيب} [1128]".

قوله: سميت، لصعود الدعاء فيها، يعني: المعارج سميت لذلك، ولا يعني ليلة المعراج.

ص 377

[1119]() الآية 4 من سورة المعارج.
[1120]() الآية 10 من سورة فاطر .
[1121]() الآية 3 من سورة المعارج .
[1122]() انظر : " معاني القرآن " للفراء (3/184).
[1123]() "تهذيب اللغة" (1/355).
[1124]() "الصحاح" (1/328)..
[1125]() الآية 4 من سورة المعارج .
[1126]() الآية 14 من سورة الحجر.
[1127]() الآية 3 من سورة المعارج.
[1128]() "المفردات" (ص 329).

وقال الطبري، في قوله -تعالى-: {ولو فتحنا عليهم باباً من السماء}[1129]: " وأما قوله: {يعرجون}، فإن معناه: يرقون فيه، ويصعدون، يقال منه: عرج يعرج، عروجاً: إذا رقي وصعد"[1130].

وقال في قوله -تعالى-: {ذي المعارج}: يعني: ذا العلو، والدرجات، والفواضل والنعم" – ثم روى ذلك عن ابن عباس، وقتادة، وروى عن مجاهد، قال: معارج السماء.

ثم قال: " وقوله -تعالى-: { تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ }: يقول –تعالى ذكره- تصعد الملائكة، والروح – وهو جبريل – عليه السلام {إليه} يعني: إلى الله – جل وعز- والهاء في قوله: {إليه} عائدة على اسم الله "[1131].

قوله: {والروح} هو: جبريل هذا هو الظاهر من سياق الآية، فيكون من عطف الخاص على العام.

وقوله تعالى: {إليه يصعد الكلم الطيب} قال مجاهد: " العمل الصالح يرفع الكلم الطيب".

قال الحافظ: " وصله الفريابي من رواية ابن نجيح، وأخرج البيهقي من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: " الكلم الطيب: ذكر الله، والعمل الصالح: أداء فرائض الله فمن ذكر الله، ولم يؤد فراضه، رد كلامه"[1132] ورواه ابن جرير.[1133]

قلت: أثر مجاهد، رواه ابن جرير في "تفسيره"، ولفظه: " الكلام الطيب: ذكر الله، والعمل الصالح: أداء فرائضه، فمن ذكر الله في أداء فرائضه، حمل عليه ذكر

ص 378

الله، فصعد به إلى الله، ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه، رد كلامه على عمله، فكان أولى به ".

وقال ابن جرير: {إليه يصعد الكلم الطيب} يقول –تعالى ذكره -: إلى الله يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه، وأداء فرائضه، والانتهاء إلى ما أمر به "[1134]

ثم روى عن ابن مسعود أنه قال: " إذا حدثناكم بحديث، أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله -تعالى-، إن العبد المسلم، إذا قال: سبحان الله وبحمده، الحمد لله، لا إله إلا الله والله أكبر، تبارك الله، أخذهن ملك، فجعلهن تحت جناحيه، ثم صعد بهن إلى السماء، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة، إلا

[1129]() الآية 14 من سورة الحجر .
[1130]() "تفسير الطبري" (14/11) ط. الحلبي.
[1131]() "تفسير الطبري" (29/70).
[1132]() "الفتح" (13/416).
[1133]() "تفسير الطبري" (22/121) ط. الحلبي ، وانظر : " الأسماء والصفات" (ص 426).
[1134] "تفسير الطبري" (22/120).

استغفروا لقائلهن، حتى يجيء بهن وجه الرحمن – ثم قرأ عبد الله: { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } [1135]".

ثم روى قول مجاهد الذي ذكره البخاري، وروى عن الحسن، وقتادة: " لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، من قال وأحسن العمل، قبل الله منه"[1136].

ومقصود البخاري بهذا الباب: ذكر بعض الأدلة على علو الله -تعالى-، وبيان أن ذلك ثابت بكتاب الله -تعالى- وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم-، وبالعقل، والفطرة، فقد فطر الله تعالى العباد على الإيمان بذلك، وآمن الصحابة به، واتبعهم عليه كل من سلك طريق الرسل.

فالإيمان بعلو الله -تعالى- وفوقيته، فطري عقلي شرعي، ومن خالف ذلك فقد انحرف عن طريق الرسل، وسلك في ذلك غير سبيل المؤمنين.

ولبيان أن الإيمان بذلك فطري، عقلي، ذكر قول أبي ذر، قبل أن يسلم، أنه قال لأخيه: " أعلم لي علم هذا الرجل، الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء " كما يأتي بيانه.

ص 379

ومعلوم أن الخبر، لا يأتي إلا من مخبر، والمخبر الذي يرسل الرسل بأوامره، ونواهيه، هو الله – جل وعلا – وهو في السماء، أي في العلو، بائن من خلقه.

وهذه المسألة من كبار مسائل العقيدة الإسلامية، ومع ظهورها، وكثرة الأدلة عليها وتنوعها، واتفاق الرسل والكتب وأتباع الرسل عليها، ضل فيها طوائف كثيرة كالجهمية، والمعتزلة، وأكثر الأشعرية، ولا يزال على الضلال فيها خلق كثير ممن يتبنى مذهب الأشعرية، والماتريدية، معتقدين أن ذلك الضلال هو الحق وأنه مذهب أهل السنة، وأن أدلة كتب الله ووحيه إلى رسله ظواهر تدل على التشبيه بظاهرها، فلهذا يجب صرفها عن ذلك الظاهر.

ويرى هؤلاء من اعتقد ما دل عليه القرآن والسنة بظاهرهما، أنه مشبه ومجسم، مع أن العقل والفطر السالمة من الانحراف، يتفقان على ما دل عليه وحي الله -تعالى-، ولهذا ترمي الأشعرية كل من اعتقد علو الله واستواءه على عرشه على الحقيقة، بالتشبيه، والتجسيم، وأحياناً يصرحون بكفرهم كما هو عقيدتهم في قرار نفوسهم، ومع هذا ترى كثيراً منهم رافعاً عقيرته داعياً إلى الاتفاق والوئام، وهذا لن يكون أبداً ما دام في الأرض معتقد للحق؛ لأنه لا اتفاق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، وكيف يكون اتفاق مع من يرى أن من اعتقد ما دلت عليه النصوص الصريحة، الواضحة الكثيرة، أنه ضال ومشبه؟ كما سيأتي بيانه، إن شاء الله تعالى.

[1135]() المرجع السابق .

[1136]() "الطبري" (22/121).

قوله: " وقال أبو جمرة: عن ابن عباس، لما بلغ أبا ذر مبعث النبي – صلى الله عليه وسلم- فقال لأخيه: أعلم لي علم هذا الرجل، الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء ".

هذا التعليق قد تقدم تاماً موصولاً، في " المناقب"، وفي "الفضائل"[1137].

ومقصوده من ذلك: بيان أن علو الله -تعالى- على خلقه، أمر مفطور عليه الخلق، ومعلوم بالعقل، والوحي جاء مؤيداً لذلك، وموضحاً له.

[1137]() انظر : " الفتح" (6/549) و (7/173).

ص 380

57-قال: " حدثنا إسماعيل، حدثني مالك، عن أبـي الزنـاد، عـن الأعـرج، عن أبي هريرة- رضي الله عنـه – أن رسـول اللـه –صـلى اللـه عليـه وسـلم- قال: " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهـار، ويجتمعـون فـي صـلاة العصر، وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكـم فيسـألهم، وهـو أعلـم بهـم، كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون".

"يتعاقبون": التعاقب: إتيان فريق، عقب فريق، ثم يعود الأول، بعد إتيـان الثاني.

و إنما يكون التعاقب بين طائفتين، أو رجلين، ومنه: تعقيب الجيوش، بأن يرسل طائفة من الجيش إلى مدة، ثم يرسل مكـانهم طائفـة أخـرى، ويرجـع الأولون.

والضمير في قوله "فيكم" يعود إلى المخاطبين، وهـم الأمـة المسـتجيبة للرسول –صلى الله عليه وسلم -.

والأظهـر أن هـؤلاء الملائكـة غيـر الحفظـة، كمـا قـاله القرطـبي، وأيـده الحافظ، بأنه لم ينقل أن الحفظة يفـارقون العبـد، ولا أن حفظـة الليـل، غيـر حفظة النهار، وبغير ذلك. [1138]

"ويجتمعون في صلاة العصر، وصلاة الفجر" أي: يجتمع في صلاة العصـر الهابطون ليبيتوا مع العباد، والذين كانوا معهم في النهار، فالفريقان يحضران صلاة العصر، وصلاة الفجر، فيصعد الذين صحبوا العبـاد بالنهـار، عقـب صـلاة العصر، ويبقى الذين يبيتون معهـم ليلاً، ثـم بعـد اجتمـاع الفريقيـن أيضـاً فـي صلاة الفجر يصعد الذين باتوا مع العباد، ويبقى الذين نزلوا فـي صـلاة الفجـر من السماء. والله -تعالى- يسأل كل فريق عـن العبـاد، كيـف تركتـم عبـادي، أي: على أي حال تركتموهم؟- وهو جل وعلا – أعلم من الملائكة المصـاحبين لهم بهم، ولكن يسأل –تعالى- الملائكة عنهم؛ لإظهـار كرامتهـم، فضـلاً منـه، وإحسـاناً إليهـم، وبهـذا يعلـم أهميـة المحافظـة علـى هـاتين الصـلاتين فـي الجماعة.

ص 381

قوله: " ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم – وهـو أعلـم – كيـف تركتـم عبادي؟ فيقولون: تركناهم يصلون، وأتيناهم، وهم يصلون".

تقدم معنى العروج، وأنه: الصعود، والارتفاع، والذهاب إلـى العلـو، وهـذا هو محل الشاهد من الحديث؛ لأن السؤال حصل بعد صعودهم، حيث يصـلون إلى المكان المحدد لهم، والله –تعالى- فوقهم، وهو –تعالى- يخاطبهم بـذلك،

[1138]() انظر : " الفتح" (2/34-35).

بدون واسطة، كما هو ظاهر النص، ولو كان ذلك بوحي لـم يكـن هنـاك فـرق بين كونهم في السماء، أو في الأرض.

وهـذا الحـديث يتفـق فـي المعنـى مـع قـوله -تعـالى-: { تَعْـرُجُ الْمَلائِكَـةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } وكأن البخاري يشير بذلك إلـى تفسـيرها، وأن عـروج الملائكـة المذكور في هذا الحديث، داخل في مدلولها.

ودل قوله: " وهم أعلم بهـم" أن المقصـود مـن السـؤال: إظهـار كرامـة المؤمنين من بني آدم، بطاعتهم لربهم، وعبادتهم إياه، والتنويه بفضـلهم عنـد الملائكة الذين في السماء، والملائكة المسؤولون فهموا من الله-تعالى- مـا أرادوه، ولهـذا قـالوا فـي الجـواب: " تركنـاهم وهـم يصـلون، وأتينـاهم وهـم يصلون".

وفي هذا دليل على أن من جلس في مصلاه، يذكر الله ويدعوه، أنـه فـي صلاة، لأن الملائكة يحضرون الصلاة معهم، وبعد الفراغ منها يصعدون.

قال الحافظ: " ويستفاد منه أن الصـلاة أعلـى العبـادات؛ لأنـه عنهـا وقـع السؤال والجواب، وفيه الإشارة إلى عظم هـاتين الصـلاتين؛ لكونهمـا تجتمـع فيهما الطائفتان، وفي غيرهما طائفة واحدة، والإشـارة إلـى شـرف الوقـتين المذكورين، وقد ورد أن الرزق يقسم بعـد صـلاة الصـبح، وأن الأعمـال ترفـع آخر النهار، فمن كان حينئذ في طاعة، بورك في رزقه، وفي عمله.

ويترتب عليه حكمة الأمر بالمحافظة عليهما، والاهتمام بهما.

وفيه تشريف هذه الأمة على غيرها، ويستلزم تشريف نبيها على غيره.

وفيه الإخبار بالغيوب، ويترتب عليه زيادة الإيمان.

وفيه الإخبار بما نحن فيه، من ضبط أحوالنـا، حـتى نـتيقظ، ونتحفـظ فـي الأوامر والنواهي، ونفرح في هذه الأوقات بقدوم رسل ربنا، وسؤال ربنا عنا.

ص 382

وفيه إعلامنا بحب ملائكة اللـه لنـا، لنـزداد فيهـم حبـاً، ونتقـرب إلـى اللـه -تعالى- بذلك.

وفيه كلام الله -تعالى- مع الملائكة، وغير ذلك من الفوائد "[1139].

وفيه كثرة الملائكة، وأن لكل منهم وظائف مكلفـون بهـا، وبيـان نصـحهم لبني آدم، وحبهم الخير لهم، وأن استقرارهم في السماء، وإنمـا ينزلـون إلـى الأرض حسب أوامر الله لهم.

[1139]() "الفتح" (2/37).

ص 383
58-قال: " وقال خالد بن مخلد: حدثنا سليمان، حدثني عبدالله بن دينار، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: "من تصدق بعدل تمرة، من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل ".
" الصدقة: ما يخرجه الإنسان من ماله، على وجه القربة، كالزكاة، لكن الصدقة –في الأصل – تقال للمتطوع به، والزكاة للواجب، وقد يسمى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبها الصدق في فعلها "[1140].
وسميت صدقة، من الصدق؛ لأنه تدل على صدق إيمان المتصدق غالباً.
قوله: " بعدل تمرة" بفتح العين، قال القاضي عياض: " العدل – بالفتح – المثل وما عادل الشيء، وكافأه، من غير جنسه، وبالكسر: ما عادله من جنسه وكان نظيره، وقيل: الفتح والكسر لغتان فيها، وهو قول البصريين"[1141].
والمعنى: من تصدق بقدر تمرة، أو بقيمتها.
قوله: " من كسب طيب " أي: تصدق بمال حلال، جيد، وإن كان قليلاً.
" ولا يصعد إلى الله إلا الطيب" تقدم هذا الحديث في الزكاة بسند متصل غير هذا، وفيه "ولا يقبل الله إلا الطيب"[1142].
فالذي يقبله الله -تعالى- يصعد إليه، فيبارك به لصاحبه، وينميه.
وهذه الجملة من الحديث هي المقصود منه هنا، حيث دل على علو الله -تعالى- وأنه فوق، وما قبله الله من الأعمال، فإنه يصعد إليه، وقد تقدم أن الملائكة تصعد إلى الله -تعالى- وتعرج إليه، والصعود والعروج سواء في المعنى، كما تقدم في كلام ابن جرير.
وقد اختار البخاري بعض النصوص في هذا الباب، التي فيها ذكر الصعود والعروج ونحوهما؛ لوضوح الدلالة في ذلك على علو الله –تعالى- كما أنه نوع
ص 384
الأدلة في ذلك كما تقدم للإيضاح، وأدلة علو الله -تعالى- كثيرة جداً ومتنوعة، كما ستأتي الإشارة إلى ذلك.
قوله: " فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه"، أي: أن الله -تعالى- يقبلها من صاحبها، فيأخذها بيده اليمنى، وكلتا يديه يمين، فينميها لصاحبها، ويبارك فيها، ويعتني بها عناية بالغة، كما يعتني أحدنا بأغلى ما لديه من المال، وأنفسه، وهو ولد الفرس، الذي يعد لمدافعة

[1140]() "المفردات " للراغب (ص 278).
[1141]() "المشارق" (2/69).
[1142]() انظر : " الفتح" (3/378).

الأعداء وقتالهم، وحماية الأعراض، والنفوس، والأموال، حتى يصير ما هو بقدر التمرة – لشدة عناية الله تعالى به – مثل الجبل.

وقد تخبط شراح الحديث ممن سلك طريق الأشاعرة، في شرح هذه الجملة، وجاؤوا بما ليس له وجه، مع أن المتكلم به قد أعطي من الفصاحة والبيان والنصح للسامع، والحرص على وصول الخير إليه، ما ليس عليه مزيد، فيجب أخذ كلامه على ظاهره، والإيمان به، وإحسان الظن به، فهو – صلوات الله وسلامه عليه – أقدر على إيضاح ما يريد من هؤلاء، كما أنه –صلى الله عليه وسلم- أعلم بالله منهم، فليس كلامه بحاجة إلى تلك التأويلات الباردة[1143]، والتمحلات المتكلفة، كالتي ذكر ابن حجر – عفا الله عنا وعنه -.

[1143]() انظر : بعض ما قاله هؤلاء المؤولة في "فتح الباري" (3/280).

ص 385
59-ثم ذكر حديث ابن عباس: في دعاء الكرب.
وقد تقدم في الباب قبل هذا، وفيه اختلاف في سنده ومتنه، كما هي عادته.
والمقصود منه هنا قول: " رب العرش العظيم" وقوله: " رب العرش الكريم"، وقد تقدم أن العرش هو سقف المخلوقات كلها، وليس فوقه مخلوق، وقد وصفه -تعالى- بأنه عظيم، وبأنه كريم، وأضافه -تعالى- إليه مما يدل على أن له خصوصية دون غيره من السماوات والأرض، كما تقدم.
وقد أخبرنا -تعالى- بأنه استوى عليه فهو من دلائل علوه -تعالى- فوق خلقه.

ص 386
60-قال: " حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن أبيه، عن ابن أبي نعم – أو أبي نعم، شك قبيصة -، عن أبي سعيد، قال: بعث إلى النبي –صلى الله عليه وسلم- بذهيبة، فقسمها بين أربعة ".
وحدثني إسحاق بن نصر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن أبيه، عن ابن أبي نعم، عن أبي سعيد الخدري، قال: " بعث علي، وهو في اليمن، إلى النبي –صلى الله عليه وسلم- بذهيبة في تربتها، فقسمها بين الأقرع بن حابس الحنظلي، ثم أحد بني مجاشع، وبين عيينة بن بدر الفزاري، وبين علقمة بن علاثة العامري، ثم أحد بني كلاب، وبين زيد الخيل الطائي، ثم أحد بني نبهان، فتغيظت قريش، والأنصار، فقالوا: يعطيه صناديد أهل نجد، ويدعنا –؟ قال: " إنما أتألفهم"، فأقبل رجل، غائر العينين، ناتيء الجبين، كث اللحية، مشرف الوجنتين، محلوق الرأس، فقال: يا محمد: اتق الله، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم-: " فمن يطيع الله إذا عصيته؟ فيأمنني على أهل الأرض، ولا تأمنوني؟" فسأل رجل من القوم قتله – أراه خالد بن الوليد – فمنعه النبي –صلى الله عليه وسلم- فلما ولى، قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: " إن من ضئضئ هذا قوماً يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام، ويعدون أهل الأوثان لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد ".
أرسل النبي –صلى الله عليه وسلم- علي بن أبي طالب إلى اليمن، يدعو الله -تعالى- ويقبض الزكاة من أصحابها، ويقضي في المنازعات، وكان ذلك قبل حجة الوداع، كما ذكره البخاري في آخر المغازي، ثم إن علياً وافى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بمكة، في حجة الوداع راجعاً من اليمن، وكان قد أرسل بذهيبة، تصغير ذهبة، أي قطعة من الذهب، فقسمها رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بين هؤلاء الأربعة المذكورين رجاء إسلامهم، وكانوا رؤساء قبائلهم، فإذا أسلموا، أسلم تبعاً لهم خلق كثير، ولهذا أعطاهم النبي –صلى الله عليه وسلم- المال ترغيباً لهم في الإسلام، وتأليفاً لقلوبهم عليه، كما بينه –صلى الله عليه وسلم- في جوابه للصحابة، الذين قالوا: " يعطيه صناديد أهل نجد، ويدعنا".
وقوله: " في تربتها" أي: أنها لم تخلص من ترابها، فليست ذهباً خالصاً؛ لأنها مختلطة بالتراب.
ص 387
قيل: أنها من الخمس، واستبعد ابن حجر أن يكون من أصل الغنيمة، ويمكن أن تكون زكاة.

قوله: " فتغيظت قريش، والأنصار " من الغيظ، أي غاظها ذلك، حيث لم يعطهم منها، وفي رواية: " فغضبت" من الغضب.
"فقالوا: يعطيه صناديد أهل نجد، ويدعنا" الصناديد: جمع صنديد، وهو: الرئيس، وفي "القاموس": الصندد {بفتح الصاد، وإسكان النون، وكسر الدال الأولى } [1144]: السيد، الشجاع، أو الحليم، أو الجواد، أو الكريم " اهـ.
قوله: " إنما أتألفهم" أي: أعطيهم ليألفوا الدين، ويجتمعوا على حبه، والرغبة فيه، فأرغبهم فيه على طريق الإحسان إليهم بالدنيا حتى يصل إلى قلوبهم، فيحبوه ويرغبوا فيه، أو لأجل ما يتحصلون عليه من الدنيا، ثم بعد ذلك لما يرجونه من جزاء الله وثوابه في الآخرة.
والتأليف من الإلف، وهو الإجتماع والالتئام مع الحب.
والمعنى: إني أعطيهم؛ ليكون ذلك داعياً لهم إلى حب الإسلام، والرغبة فيه والإجتماع عليه، حتى يكونوا من أنصاره، ويتبعهم على ذلك أقوامهم وعشائرهم، فيحصل بذلك عز الإسلام، ونصره، فهذا العطاء مما يحبه الله ويثيب عليه، وهو من الإنفاق في سبيل الله –تعالى- بل من أفضله.
ووصفه الرجل المعترض على رسول الله –صلى الله عليه وسلم- هي أمور اتفقت فيه، وليست هذه الأوصاف الظاهرة في هذا الهالك مذمومة لذاتها.
وقوله: " فمن يطيع الله إذا عصيته؟" يعني: أنه –صلى الله عليه وسلم- هو أحق الناس وأولاهم بطاعة الله –تعالى- وتقواه.
وهذا هو الضلال؛ أن يتصور الإنسان الطاعة معصية، فهذا الرجل المعترض تصور أن فعل رسول الله –صلى الله عليه وسلم- معصية، وأنه من الجور، فنصب نفسه آمراً بتقوى الله، فقال للرسول –صلى الله عليه وسلم-: " اتق الله" مع أن فعل رسول الله –صلى الله عليه وسلم- هو تقوى، ومن أعظم الطاعات له، فهو يعطي الله، ولنصر دينه، وهداية عباده.
ص 388
قوله: " فيأمنني على أهل الأرض، ولا تأمنوني" أي يأمنني الله -تعالى- على الرسالة التي أرسلني بها إلى الأرض، ولا تأمنني أنت أيها المعترض، ومن على شاكلتك ممن ضل طريق الرشد، لا تأمنوني على حطام الدنيا أن أضعه حيث يجب أن يوضع، على وفق أمر الله -تعالى-.
والرواية التي ذكرها في "المغازي": "فقال: ألا تأمنوني، وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً"[1145].
وهذا اللفظ أظهر، وأوضح في المقصود، من الرواية المذكورة هنا.

[1144]() ما بين المعقوفتين من حاشية "القاموس" (1/309).
[1145]() انظر "الفتح" (8/67).

قال الحافظ: " وبهذا تظهر مناسبة هذا الحديث للترجمة، لكنه جرى على عادته في إدخال الحديث في الباب، للفظة تكون في بعض طرقه هي المناسبة لذلك الباب، يشير إليها، ويريد بذلك شحذ الأذهان، والبعث على كثرة الاستحضار"[1146].

قلت: ولا يخلو اللفظ المذكور من الدليل على المقصود، الذي هو علو الله -تعالى-؛ لأن قوله: " فيأمنني على أهل الأرض" يدل على أن الآمن الذي هو الله –تعالى- في السماء.

ومعنى قوله: " من في السماء" أي: الله الذي في السماء، و"في" هنا بمعنى "على" كما ذكر البيهقي، عن أبي بكر، أحمد بن إسحاق الضبعي: " أن العرب قد تضع "في" بموضع "على" قال الله -تعالى-: {فسيحوا في الأرض} [1147]، وقال: {ولأصلبنكم في جذوع النخل} [1148] ومعناه: على الأرض، وعلى جذوع النخل.

فكذلك قوله: " في السماء" أي: على العرش، فوق السماء، كما صحت الأخبار عن النبي –صلى الله عليه وسلم- "[1149].

ص 389

وهذا الحديث مثل قول الله -تعالى-: { أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ {16} أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا } [1150].

فإما أن تكون "في" بمعنى "على" كما تقدم، أو يقصد بالسماء: العلو، أي: أأمنتم من في العلو، وكلاهما صحيح سائغ في اللغة والمعنى.

قوله: " فسأله رجل من القوم قتله، أراه خالد بن الوليد، فمنعه النبي –صلى الله عليه وسلم- " أي: استأذن الرسول –صلى الله عليه وسلم- في ذلك، وقد تقدم في المناقب أن السائل هو عمر بن الخطاب. [1151]

قال الحافظ: " لا تنافي بين الروايتين، إذ يجوز أن يكون كل واحد منهما طلب ذلك"[1152].

وقد جاء أن سبب منعه من قتله، خوف أن يقال: إن محمداً يقتل أصحابه، فيصير بذلك تنفيراً عن الدخول في الإسلام.

[1146]() "الفتح" (13/418).
[1147]() الآية 2 من سورة التوبة .
[1148]() الآية 71 من سورة طه.
[1149]() " الأسماء والصفات " (ص 421).
[1150]() الآيتان 16 و 17 من سورة الملك .
[1151]() انظر : "الفتح" (6/618).
[1152]() المرجع السابق (6/618).

قوله: " إن من ضئضئ هذا، قـوم يقـرؤون القـرآن، لا يجـاوز حنـاجرهم" قال في "النهاية": "الضئضئ: الأصل، يقال: ضئضئ صدق، وضؤضـؤ صـدق، يريد أن يخرج من نسله وعقبه "[1153]

وفي "اللسان": "الضئضئ، والضؤضؤ: الأصل، والمعدن"[1154].

والمقصود، الإخبار بأنه يأتي من جنس هذا الرجل الضال، قـوم يسـلكون مسلكه، يقرأون القرآن، ولكن لا يصل إلى قلوبهم، فهم لا يفهمـونه علـى مـا أريد، بل يضعونه في غير موضعه؛ لأنهم ضالون، وجاهلون، ولهذا يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية، أي: يخرجون من الإسلام بسرعة وسهولة، غير متأثرين به، كأنهم لم يدخلوه، وهذا يدل علـى أنهـم دخلـوا فـي الإسـلام، ولكن لم يتمكن

ص 390

الإيمان في قلوبهم، ولم يفهموه على وجهه، ولهـذا صـار مـن أوصـافهم: أنهم يقتلون أهل الإسلام، ويدعون الكفار عباد الأوثان، ومن أجل ذلك قـال – صلى الله عليه وسلم-: " لئن أدركتهم، لأقتلنهم قتل عـاد" أي لا أبقـي منهـم أحداً، يشير بذلك إلى قوله -تعالى- في وصف هلاك عاد: {فهل ترى لهم مـن باقية} [1155]ولم يرد أنه يقتلهم بالشيء الذي قتلت به عاد بعينه.

ويحتمل أن يكون من الإضافة إلـى الفاعـل، ويـراد بـه: " القتـل الشـديد القوي، ويكون في ذلك إشارة إلى وصفه بالشدة والقوة، ويؤيده أنه وقع في طريق أخرى "قتل ثمود"[1156].

[1153]() "النهاية" (3/69).

[1154]() "لسان العرب" (2/503) المرتب.

[1155]() الآية 8 من سورة الحاقة .

[1156]() قاله الحافظ في "الفتح" (6/377).

ص 391
61-ثم ذكر حديث أبي ذر الذي تقدم في الباب قبل هذا فقال:
"حدثنا عياش بن الوليد، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، قال: سألت النبي –صلى الله عليه وسلم- عن قوله: { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ }؟ قال:: " مستقرها تحت العرش".
قد تقدم شرحه والشاهد منه هنا: أن الشمس في ارتفاعها،وأبعد ما تكون عن الأرض التي عليها المخاطبين آنذاك، تكون تحت العرش، فالمخلوقات كلها تحته، والله –تعالى- فوق العرش، فهو عالٍ على خلقه كلهم وفوقهم.
في هذا الباب والذي قبله قصد البخاري – رحمه الله تعالى – إثبات علو الله، واستواءه على العرش، كما هو ثابت في نفس الأمر، وتضافرت عليه أدلة الوحي، والعقول والفطر، وكما هو مذهب السلف من الصحابة، وأتباعهم إلى اليوم.
والنصوص التي ذكرها البخاري ظاهرة الدلالة على ذلك، وهي نزر يسير جداً من النصوص الكثيرة المتنوعة في ذلك.
قال ابن أبي العز: " ومن سمع أحاديث الرسول –صلى الله عليه وسلم-، وكلام السلف، وجد منه في إثبات الفوقية ما لا ينحصر.
ولا ريب أن الله – سبحانه – لما خلق الخلق، لم يخلقهم في ذاته المقدسة، فإنه الأحد الصمد، فتعين أنه خلقهم خارجاً عن ذاته.
ولو لم يتصف – سبحانه – بفوقية الذات، مع أنه قائم بنفسه، غير مخالط للخلق؛ لكان متصفاً بضد ذلك؛ لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده، وضد الفوقية: السفول، وهو مذموم على الإطلاق.
فإن قيل: لا نسلم أنه قابل للفوقية، حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها.
قيل: لو لم يكن قابلاً للعلو، والفوقية، لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها، فمتى أقررتم أنه موجود قائم بنفسه، ليس وجوده ذهنياً، بل وجوده خارج الأذهان قطعاً، يتعين أن يكون متميزاً عن خلقه، عالياً عليهم.
وقد علم العقلاء كلهم بالضرورة، أن ما كان وجوده خارج الأذهان، فهو إما أن يكون داخلاً في الخلق، أو بائنا منهم خارجاً عنهم.
ص 392
وإنكار ذلك إنكار لما هو أجلى وأظهر من الأمور البديهيات الضرورية، بلا ريب، فلا يستدل بدليل على وجوده، إلا كان العلم بالمباينة أظهر منه، وأوضح وأبين.

و إذا كانت صفة العلو والفوقية صفة كمال، لا نقـص، ولا تسـتلزم نقصـاً، ولا محذور فيها، ولا تخالف كتاباً، ولا سنة، ولا إجماعـاً، فنفـي حقيقتهـا يكـون عين الباطل والمحال، الذي لا تأتي به شريعة أصـلاً، فكيـف إذا كـان لا يمكـن الإقرار بوجوده -تعالى-، وتصديق رسله، والإيمان بكتابه، وما جاء به رسـوله، إلا بذلك؟

فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السـليمة، والفطـر المسـتقيمة، والنصوص الواردة، المتنوعة في الدلالة، على علو الله –تعالى- علـى خلقـه، وكونه فوق عباده، التي تقرب من عشرين نوعاً:

أحدها: التصريح بالفوقية، مقروناً بأداة "مـن" المعينـة للفوقيـة بالـذات، كقوله -تعالى-: { يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ } [1157].

الثاني: ذكر الفوقية، مجردة عـن الأداة، كقـوله -تعـالى-: { وَهُـوَ الْقَـاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } [1158]

الثالث: التصريح بالعروج إليه، كقوله -تعالى-: { تَعْـرُجُ الْمَلائِكَـةُ وَالـرُّوحُ إِلَيْهِ } [1159]، وقوله –صلى اللـه عليـه وسـلم-: " فيعـرج الـذين بـاتوا فيكـم، فيسألهم، وهو أعلم" كما تقدم.

الرابـع: التصـريح بالصـعود إليـه، كقـوله -تعـالى-: {إليـه يصـعد الكلـم الطيب} [1160].

الخامس: التصريح برفعه -تعالى- بعض خلقه إليه، كقوله -تعالى-: { بَـل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ } [1161]، وقوله: {إني متوفيك ورافعك} [1162].

ص 393

السادس: التصريح بالعلو المطلق، الدال على جميع مراتب العلوم، ذاتـاً وقدراً، وشرفاً، كقوله -تعالى-: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ }[1163]، وقـوله -تعـالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}[1164]، وقوله -تعالى-: { إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}[1165].

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منـه، كقولـه -تعـالى-: { تَنزِيـلُ الْكِتَـابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}[1166]، وقوله: { تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [1167]، وهو كثير.

[1157]() الآية 50 من سورة النحل.
[1158]() الآية 18 و 61 من سورة الأنعام.
[1159]() الآية 4 من سورة المعارج.
[1160]() الآية 10 من سورة فاطر.
[1161]() الآية 158 من سورة النساء.
[1162]() الآية 55 من سورة آل عمران .
[1163]() الآية 255 من سورة البقرة .
[1164]() الآية 23 من سورة سبأ.
[1165]() الآية 51 من سورة الشورى.
[1166]() الآية الأولى من سورة الزمر.
[1167]() الآية 2 من سورة غافر.

الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات، بأنها عنده، وأن بعضها أقرب إليه من بعض، كقوله -تعالى-: {إن الذين عند ربك }[1168]، وقوله -تعالى-: {وله من في السموات والأرض ومن عنده}[1169]، ففرق تعالى بين من عنده عموماً، وبين من عنده من الملائكة، وقد تقدم قوله –صلى الله عليه وسلم-: " إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً، فهو عنده فوق عرشه".

التاسع: التصريح بأنه -تعالى- في السماء، كقوله تعالى: { أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ }[1170]، وتقدم أن ذلك، على وجهين، إما أن تكون "في" بمعنى "على" أو يراد بالسماء العلو، لا يجوز غير ذلك.

العاشر: التصريح برفع الأيدي إلى الله -تعالى-: كقوله –صلى الله عليه وسلم-: " إن الله يستحي من عبده، إذا رفع إليه يديه، أن يردهما صفراً"[1171].

ص 394

الحادي عشر: التصريح بالاستواء، مقروناً بأداة "على" مخصوصاً بالعرش الذي هو أعلى المخلوقات.

الثاني عشر: التصريح بنزوله -تعالى- كل ليلة إلى سماء الدنيا، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى أسفل.

الثالث عشر: الإشارة الحسية إليه في العلو، كما فعل ذلك رسول الله –صلى الله عليه وسلم- في خطبته في حجة الوداع، حيث قال: " إنكم مسئولون عني، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت، فرفع إصبعه إلى السماء، وقال: اللهم اشهد"[1172].

الرابع عشر: سؤال الرسول –صلى الله عليه وسلم- بلفظ "أين الله؟" وإخباره عمن قال: " الله في السماء" بأنه مؤمن[1173].

الخامس عشر: اتفاق الكتب المنزلة من الله والرسل على أن الله فوق عباده عالٍ عليهم، كما قال -تعالى- عن فرعون: {وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب (36) أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً}[1174]؛ لأن موسى عليه السلام أخبر فرعون أن الله في السماء، فقال هذا القول ليموه على السذج أتباع كل ناعق بدون بصيرة.

[1168]() آخر آية من سورة الأعراف.

[1169]() الآية 19 من سورة الأنبياء.

[1170]() الآية 16 من سورة الملك.

[1171]() أخرجه أبو داود في "السنن" (2/165) رقم (1488) ، والترمذي في الدعوات (5/217)، وابن ماجه في "السنن" (2/1271) الحديث رقم (3865).

[1172]() رواه مسلم في "صحيحه" وغيره ، انظر : "مسلم" (2/890) الحديث رقم (1218) ، وهو حديث جابر الطويل في صفة الحج.

[1173]() انظر : " صحيح مسلم" (1/382) الحديث رقم (537).

[1174]() الآيتان 36 و 37 من سورة غافر.

السادس عشر: عروج النبي –صلى الله عليه وسلم- إليه -تعالى- وإخباره أنه تردد بينه -تعالى- وبين موسى، يطلب التخفيف من عدد الصلوات"[1175].

وقد غلط أكثر المتكلمين في مسمى السماء، حيث ظنوا أن السماء يقصد به مكان معين محاط، فتوهموا أن من قال: إن الله في السماء، أن مكاناً يحيط به أو يحويه – تعالى وتقدس-.

ص 395

قال شيخ الإسلام: " من توهم أن كون الله في السماء أن السماء تحيط به، أو تحويه، فهو كاذب أن نقله عن غيره، وضال إن اعتقده في ربه.

وما فهم هذا أحد من النصوص، ولم ينقل عن أحد، ولو سئل سائر المسلمين: هل تفهمون من قول الله ورسوله: إن الله في السماء، أن السماء تحويه؟ لبادروا إلى القول: بأن هذا شيء ما خطر بالبال.

فمن الضلال أن يجعل ظاهر نصوص الكتاب والسنة في ذلك دالة على الباطل والتشبيه.

بل عند الناس قولك: إن الله في السماء، وقولك: الله فوق العرش، سواء، إذ السماء إنما يراد به العلو، فالمعنى: أن الله في العلو، لا في السفل.

وقد علم المسلمون أن كرسيه – سبحانه وتعالى – وسع السموات، والأرض، وأن الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وأن العرش خلق من مخلوقات الله، لا نسبة له إلى عظمة الله تعالى.

فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقاً يحصره أو يحويه؟ وقد قال –تعالى-: {ولأصلبنكم في جذوع النخل} [1176]، وقال –تعالى-: {فسيروا في الأرض} [1177]، بمعنى: على الأرض، وهو كلام عربي حقيقة لا مجازاً، وهذا يعلمه من عرف حقائق الحروف"[1178].

وعلو الله -تعالى- ظاهر جداً، وقد تقدم أن البخاري – رحمه الله – أشار بما ذكره في هذا الباب، إلى أن علو الله -تعالى- وفوقيته ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطر.

أما ثبوته بالكتاب والسنة فواضح.

و أما الإجماع: فأشار إليه بقصة زينب: أنها كانت تفتخر على أزواج النبي –صلى الله عليه وسلم- تقول: " زوجكن أهاليكن، وزوجني الل ه من فوق سبع سماوات" فهذا يدل

[1175]() "شرح الطحاوية" بتصرف (ص 256-260) الطبعة الثالثة.

[1176]() الآية 71 من سورة طه.

[1177]() الآية 137 من سورة آل عمران ، و الآية 36 من سورة النحل .

[1178]() "مجموع الفتاوى" (5/106).

ص 396
على الإجماع؛ لأن ذلك متقرر عندهم، ولم ينكر ذلك أحد، بل يذكر في كل مناسبة، ومن ذلك هذا الذي قالته زينب، فالإجماع عليه ظاهر، والإجماع لا يكون على خلاف المعقول، ومن أيمان العرب قولهم: " لا والذي يراني من فوق سبعة أرقعة"[1179].
و أما الفطرة، فأشار إليها بما ذكره عن أبي ذر أنه قال لأخيه، قبل أن يسلم: " أعلم لي علم هذا الرجل، الذي يأتيه الخبر من السماء" أي: يأتيه الخبر من الله الذي في السماء؛ لأنه يقول للناس: أنا رسول الله إليكم.
قال شيخ الإسلام: " تبين وجوب إثبات العلو لله -تعالى- من وجوه:
أحدها: أن القرآن، والسنن المستفيضة، المتواترة، وغير المتواترة، وكلام السابقين والتابعين وأهل القرون الثلاثة، مملوء بما فيه إثبات العلو لله، وأنه مستوٍ على عرشه، بأنواع من الدلالات.
فالله -تعالى- يخبرنا تارة، أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش.
وتارة يخبر بعروج الأشياء، وصعودها، وارتفاعها إليه، كقوله -تعالى-: { بَل رَّفَعَهُ اللَّـهُ إِلَيْهِ }[1180]، {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [1181]، { تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } [1182]، { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [1183].
وتارة يخبر بنزولها منه، أو من عنده، كقوله -تعالى-: { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ } [1184]، { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ } [1185]،
ص 397
{ حم {1}تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [1186]، { تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } [1187].
وتارة يخبر بأنه العلي الأعلى، كقوله -تعالى-: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى [1188]، وقوله -تعالى-: وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [1189].

[1179] () انظر :" أيمان العرب" للنجيرمي (ص 15).
[1180] () الآية 158 من سورة النساء.
[1181] () الآية 55 من سورة آل عمران .
[1182] () الآية 4 من سورة المعارج.
[1183] () الآية 10 من سورة فاطر .
[1184] () الآية 114 من سورة الأنعام.
[1185] () الآية 102 من سورة النحل .
[1186] () فاتحة سورة فصلت.
[1187] () فاتحة سورة الجاثية والأحقاف.
[1188] () فاتحة سورة الأعلى .
[1189] () الآية 255 من سورة البقرة ، و الآية 4 من سورة الشورى .

وتارة يخبر بأنه في السماء، كقوله -تعالى- أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ {16} أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ[1190]، فذكر السماء دون الأرض، وكقوله –صلى الله عليه وسلم-: " ألا تأمنوني، وأنا أمين من في السماء؟" وقوله للجارية: " أين الله؟" قالت: في السماء، قال: " اعتقها، فإنها مؤمنة" ولم يعلق ذلك بألوهية أو غيرها، كما في قوله –تعالى- وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله [1191]، وقوله: وهو الله في السماوات وفي الأرض [1192]، أي: هو المألوه المعبود في السموات والأرض.

وتارة يجعل بعض الخلق عنده، دون بعض، كقوله وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته} [1193].

فلو كان موجب العندية معنى عاماً، كدخولهم تحت قدرته، ومشيئته، ونحو ذلك، لكان كل مخلوق عنده، ولم يكن أحد مستكبراً عن عبادته.

و أما الأحاديث، والآثار عن الصحابة، والتابعين فلا يحصيها إلا الله -تعالى-.

ص 399

فلا يخلو أن يكون ما اتفقت عليه هذه النصوص، من إثبات علو الله -تعالى- على خلقه هو الحق، أو الحق نقيضه، إذ الحق لا يخلو عن النقيضين.

فإذا كان نفي العلو هو الحق، فمعلوم أن القرآن لم يبين هذا، لا نصاً، ولا مفهوماً، وكذلك الرسول –صلى الله عليه وسلم-، ولا أحد من الصحابة وأتباعهم، ولا أحد من أئمة المسلمين، ولا يمكن أحد أن ينقل عن واحد منهم شيئاً من ذلك، بل نقيضه هو المستفيض عنهم، كما هو الموافق للكتاب والسنة.

ويلزم على ذلك أن يكون الله ورسوله والمؤمنون، لم ينطقوا بالحق في هذا الباب، بل تكلموا بما يدل على الضلال، إما نصاً، أو ظاهراً.

فإن قيل: هذه النصوص ما أريد بها إثبات علو الله على خلقه، وإنما أريد بها علو المكانة والقدر.

قيل: فكان يجب على المتكلم بها أن يبين للناس الحق، الذي يجب أن يؤمن به ويعتقد، ظاهراً وباطناً، وأنه لم يرد بهذا الكلام مفهومه، ومقتضاه.

فإن قيل: إنه تكلم بالمجاز، المخالف للحقيقة.

قيل: من المعلوم باتفاق العقلاء: أن المخاطب المبين إذا تكلم بمجاز، فلا بد أن يقرن بخطابه ما يدل على إرادة المعنى المجازي، فإذا كان

[1190]() الآيتان 16 و 17 من سورة الملك .

[1191]() الآية 84 من سورة الزخرف.

[1192]() الآية 3 من سورة الأنعام.

[1193]() الآية 19 من سورة الأنبياء.

الرسول –صلى الله عليه وسلم- الذي بين للناس ما نزل إليهم – يعلم أن المراد بالكلام خلاف مقتضاه وظاهره، وجب عليه أن يقرن بخطابه ما يصرف القلوب عن فهم المعنى الذي لم يرده، ولا سيما إذا كان ذلك المعنى باطلاً، ولا يجوز اعتقاده في الله -تعالى-، وهذا يجب ولو لم يخاطبهم بما يفهم منه خلاف الحق، الذي يجب اعتقاده، إذا كان مخوفاً عليهم، فكيف إذا كان في كلامه ما يفهم منه خلاف الحق"[1194].

فلا عذر لمن أنكر علو الله، ونفاة العلو والصفات، يقولون: إن هذه النصوص لم يرد بها الحقيقة والظاهر المفهوم منها، والقرينة الصارفة عن ذلك هي دلالة العقل، فاكتفى المتكلم بهذه القرينة؛ لأنها عقلية، عند كل عاقل.

ص 399

فيقال لهم: إذا كان ما تكلم به الله ورسوله، إنما يفيد مجرد الضلال، والهدى إنما يستفاد من العقول، فلماذا ينزل الله الكتاب، ويرسل الرسول؟ للعناء والشقاء؟ فإن تركهم على جاهليتهم خير لهم من أن ينزل عليهم الكتاب، ويرسل إليهم الرسول، هذا هو لازم هذا القول الباطل.

ويقال أيضاً: الرسول جاء بإثبات العلو، والصفات، وذلك أظهر في العقل من قولكم.

ثم الرسول –صلى الله عليه وسلم- أما أن يتكلم بالهدى، أو بالضلال، أو يسكت عنهما.

ومعلوم أن السكوت عنهما خير من التكلم بالضلال.

وبذلك يعلم بالعقل، أنه لم يسكت عن بيان الحق، والهدى، والتحذير من اعتقاده الباطل، وبذلك يتفق ما جاء به الرسول –صلى الله عليه وسلم- مع العقل الصحيح، الذي لم تفسده الشياطين، والهوى المضل.

فالعقل يوافق ما جاء به الرسول –صلى الله عليه وسلم- لا ما يقوله نفاة الصفات، وليس بين العقل الصريح والنقل الصحيح تناقض أصلاً، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: درء تعارض العقل والنقل، وغيره.

فقولهم: إن القرينة الصارفة عن الظاهر، هي العقل، خطأ محض، إذ العقل يوافقها لا يخالفها كما توهموه، كما أن إثبات الصفات ليس فيه تشبيه كما زعموا، ولكن الأوهام وسوء الظن بالله ورسوله أرداهم.

ومن حججهم الباطلة التي حملتهم على صرف النصوص عن ظاهرها، ورأوا وجوب تأويلها لذلك، هي قاعدتهم في أن جميع الأجسام حادثة لملازمتها للأعراض التي هي الصفات، فوجب تنزيه الرب -تعالى- عن كل صفة تستلزم التركيب، أو الجسمية؛ لأن الأعراض لا تكون إلا في جسم،

[1194]() "مجموع الفتاوى" (5/164-168) ملخصاً.

والجسم لا بد أن يكون مركباً من الجواهر – كما زعموا-، ولهذا قالوا: إن الاستواء والعلو، يلزم منهما النقلة، والمكان، والحركة، وهذه من صفات الأجسام.

فيقال لهم: الحياة، والعلم، والسمع، والبصر – مما جوزتم لأنفسكم أن تصفوه به- لا يعقل أن تقوم إلا بجسم، مع أنكم تسمون الصفات: أعراضاً، ولا فرق بين ما أثبتموه وما نفيتموه في المعنى، ألا يجوز لغيركم أن يصف الله -تعالى- بما وصف

ص 400

به نفسه، ووصفته به رسله بأنه -تعالى- مستوٍ على عرشه، وعالٍ على خلقه، وبأن له وجهاً ويدين حقيقة، ونحو ذلك مما تسمونه: أبعاضاً، تستلزم التركيب، والجسمية؟ كما افتريتموه على رب العالمين، ورميتم من وصف الله –تعالى- بما وصف به نفسه، بالتشبيه، والتجسيم، مع أنهم أقرب إلى المعقول منكم، وقد سلم لهم المنقول بدون تحريف.

قال شيخ الإسلام: " ولا ريب أن الله موجود، قائم بنفسه، وترفع إليه الأيدي عند الدعاء، كما فطر على ذلك جميع عباده، ولا ريب أنه تجوز رؤيته في الآخرة، كما أخبر بذلك في كتابه، فإذا سموا هذه المعاني تجسيماً، فلا ينبغي لنا أن نترك ما أخبر الله به عن نفسه في كتابه، ونذهب إلى تأويلها، لمجرد هذه التسميات الحادثة المبتدعة"[1195]

وقال أيضاً: " ولفظ الظاهر فيه إجمال، واشتراك، فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين، أو ما هو من خصائصهم، فلا ريب أن هذا غير مراد.

والسلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها، ولا يرتضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفراً، وباطلاً.

والله سبحانه – وتعالى – أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذي وصف به نفسه، لا يظهر منه إلا ما هو كفر، أو ضلال.

والذين يجعلون ظاهرها ذلك، يغلطون من وجهين:

أحدهما: أنهم جعلوا المعنى الفاسد، هو ظاهر نص كلام الله وكلام رسوله، ولذلك أوجبوا تأويله، ليخالف الظاهر الذي زعموا، وليس الأمر كذلك.

الثاني: أنهم ردوا المعنى الصحيح الذي هو ظاهر اللفظ؛ لاعتقادهم أنه باطل، كقولهم في الحديث: " قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن "، قالوا: لا يجوز أن يراد به الظاهر، فليس في قلوبنا أصابع.

ص 401

[1195]() "مجموع الفتاوى" (3/43-45) ملخصاً.

ومعلوم أنه ليس ظاهره أن القلوب متصلة بالأصابع، ولا مماسة لها، ولا أن أصابع الرحمن في جوف العبد، ولا يفهم من قول القائل: هذا بين يدي، ما يقتضي مباشرته ليديه.

و إذا قيل: إن السحاب بين السماء والأرض، لم يقتض أن يكون مماساً للسماء، أو الأرض، ونظائر ذلك كثيرة "[1196].

وقال أبو نصر السجزي في "الإبانة": "وأئتمنا، كسفيان، ومالك، والحمادين، وابن عيينة، والفضيل، وابن المبارك، وأحمد بن حنبل، وإسحاق، متفقون على أن الله فوق العرش، وعلمه في كل مكان، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا، وأنه يغضب، ويرضى، ويتكلم بما يشاء"[1197].

وقال ابن عبد البر في شرحه لحديث النزول: "وفيه دليل على أن الله – عز وجل – في السماء على العرش، من فوق سبع سماوات، كما قالت الجماعة، وهو من حجتهم على المعتزلة والجهمية، في قولهم: إن الله – عز وجل – في كل مكان، وليس على العرش، والدليل على صحة ما قال أهل الحق: قوله – تعالى -: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [1198]وقوله -تعالى-: {اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ } [1199]، وقوله -تعالى-: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ } [1200]، وقوله -تعالى-: {إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً} [1201]، وقوله -تعالى-: {إليه يصعد الكلم الطيب} [1202]، وقوله -تعالى-: { تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ } [1203]، وقوله -تعالى-: { أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ } [1204]، وقوله -تعالى-: {سبح اسم ربك

الأعلى}، وهذا من العلو، وكذلك قوله -تعالى-: {العلي العظيم} [1205]، وقوله -تعالى-: {الكبير المتعال} [1206]، وقوله -تعالى-: { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ } [1207]، وقوله -تعالى-: { يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ } [1208]، والجهمي يزعم أنه أسفل.

[1196]() المصدر السابق .
[1197]() ذكره الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (17/656).
[1198]() الآية 5 من سورة طه.
[1199]() الآية 4 من سورة آلم السجدة.
[1200]() الآية 11 من سورة حم فصلت .
[1201]() الآية 42 من سورة الإسراء.
[1202]() الآية 10 من سورة فاطر.
[1203]() الآية 143 من سورة الأعراف.
[1204]() الآية 16 من سورة الملك.
[1205]() الآية 255 من سورة البقرة ، و الآية 4 من سورة الشورى.
[1206]() الآية 9 من سورة الرعد.
[1207]() الآية 15 من سورة غافر.
[1208]() الآية 50 من سورة النحل.

وقال – جل ذكره -: { يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْـرُجُ إِلَيْـهِ }[1209]، وقال -تعالى-: تعرج الملائكة والروح[1210]، وقال -تعالى- لعيسى: إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ[1211]، وقال -تعالى-: بَـل رَّفَعَـهُ اللّـهُ إِلَيْـهِ[1212]، وقـال -تعالى-: فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَـبِّحُونَ لَـهُ بِاللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ[1213]، وقـال -تعـالى-: وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ[1214]، وقال تعالى: لَيْـسَ لَهُ دَافِعٌ {2} مِّنَ اللّهِ ذِي الْمَعَارِجِ[1215]، والعروج: الصعود.

و أما قوله -تعالى-: { أَأَمِنتُم مَّن فِـي السَّـمَاء أَن يَخْسِـفَ بِكُـمُ الأَرْضَ }[1216]، فمعناه: من على السماء، يعني على العرش، وقد يكون "في" بمعنـى "على" ألا ترى إلـى قـوله -تعـالى-: {وَلأصَـلِّبَنَّكُمْ فِـي جُـذُوعِ النَّخْـلِ}[1217]، وقوله -تعالى-: {فَسِيحُواْ فِي

الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}[1218]؟ أي: علـى الأرض، وهـذا كلـه يعضـده قـوله – تعالى-: {تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالـرُّوحُ إِلَيْـهِ}[1219]، ومـا كـان مثلـه ممـا تلونـا مـن الآيات في هذا الباب"[1220]ا.هـ.

وقال أيضاً: " وما روي عن ابن عباس في قوله –تعـالى-: الرَّحْمَـنُ عَلَـى الْعَرْشِ اسْتَوَى[1221]، أنه قال على جميع بريته، فلا يخلو منه مكان".

فالجواب: أنه منكـر، ونقلتـه مجهولـون، وضـعفاء، وهم لا يقبلـون أخبـار الآحاد العدول، فكيف يحتجون بمثل هذا الأثر الساقط؟ وأما تعلقهـم بقـوله – تعالى-: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ}[1222]، وقـوله –تعـالى-: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَـةٍ إِلاَّ هُـوَ رَابِعُهُـمْ} الآيـة[1223]، وزعمهـم أنـه اللـه – تبارك وتعالى – في كل مكان بنفسه وذاته. فيقال لهم: أنتم لا تخـالفون بـأنه ليس في الأرض دون السماء، بذاته، فيجب حمل هذه النصوص على المعنـى الصحيح المجمع عليه، وهو أنه في السماء إله معبود من أهـل السـماء، وفـي الأرض إله معبود من أهل الأرض، وهو الذي قاله أهل العلم بالتفسير.

[1209]() الآية 5 من سورة آلم السجدة.
[1210]() الآية 4 من سورة المعارج.
[1211]() الآية 55 من سورة آل عمران .
[1212]() الآية 158 من سورة النساء.
[1213]() الآية 38 من سورة فصلت .
[1214]() الآية 19 من سورة الأنبياء.
[1215]() الآيتان 2 و 3 من سورة المعارج.
[1216]() الآية 16 من سورة الملك.
[1217]() الآية 71 من سورة طه.
[1218]() الآية 2 من سورة التوبة .
[1219]() الآية 4 من سورة المعارج .
[1220]() "التمهيد" (7/129-130).
[1221]() الآية 5 من سورة طه.
[1222]() الآية 84 من سورة الزخرف.
[1223]() الآية 7 من سورة المجادلة.

وقوله -تعالى-: {مَا يَكُونُ مِـن نَّجْـوَى ثَلاثَـةٍ إِلاَّ هُـوَ رَابِعُهُـمْ} [1224] الآيـة، ليس فيها حجة لهم؛ لأن علماء الصحابة والتابعين، الذين روي عنهم التفسير، قالوا في هذه الآية: هو على العرش، وعلمه في كل مكان. ولم يخالفهم فـي ذلك من يعتد به.

ثم ذكر عن ابن مسعود: قال: " الله فوق العرش، لا يخفـى عليـه شـيء من أعمالكم" وذكر عن الضحاك، وسفيان الثوري مثله"[1225].

ص 404

فتبين بما ذكره أن هذه الآيات التي تعلق بها نفاة العلو، تدل على عكـس قولهم، فهي متفقة مع النصوص الصريحة في الدلالة على علو الله -تعالى-.

من الحجج القاطعة أن الله تعالى فوق السماوات علـى عرشـه: أن كـل داع يدعو الله -تعالى- يجد في نفسه دافعاً إلى الاتجاه إلـى اللـه فـوقه، وهـو أمر ضروري وقطعي، فلا يمكن لأي سائل يسأل الله ويطلب منه إلا – رفـع – يديه، واتجه بقلبه إلى من يستغيث به، الذي هو عـال فـوق جميـع مخلوقـاته، مستو على عرشه، فالعلم بـذلك فطـري ضـروري عقلـي، ونصـوص الشـرع جاءت مؤيدة ذلك مقررة له.

قال شيخ الإسلام:" ذكر محمد بن طاهر المقدسـي، عـن الشـيخ الجليـل أبي جعفر الهمداني، أنه حضر مجلس أبي المعالي الجويني، وهو يقول: كـان الله، ولا عرش {ولا مكان} وهو على ما {كان} عليه {قبل خلـق المكـان}، أو كلام من هذا المعنى، فقال: يا شيخ، دعنا من ذكر العرش، أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط: يا الله، إلا وجـد مـن قلبـه ضـرورة بطلـب العلـو، ولا يلتفـت يمنـة ولا يسـرة، فكيـف نـدفع هـذه الضرورة عن قلوبنا؟.

فصرخ أبو المعالي، ولطم رأسه، وقال: " حيرني الهمداني"[1226].

وقد تعلق نفاة العلو أيضاً: بأن اللـه -تعـالى- لـو كـان فـي مكـان، لأشـبه المخلوقات؛ لأن ما أحاطت به الأمكنة فهو مخلوق.

فيقال: هذا نشأ عـن القيـاس الفاسـد، والتشـبيه المسـتكن فـي نفـوس هؤلاء، إذ لو آمنوا بأن الله على كل شيء قدير، وأنـه ليـس كمثلـه شـيء، مـا انطلت هذه الشبه وهذا الهراء على نفوسهم.

ويقال أيضاً: ألستم تقرون بأن الله -تعالى- موجود قبل خلق الكون، فهـو -تعالى- كما قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: " كان اللـه، ولـم يكـن شيء معه"[1227]

[1224]() الآية 7 من سورة المجادلة.

[1225]() "التمهيد" (7/133-139) ملخصاً.

[1226]() "الاستقامة" (1/167).

[1227]() تقدم هذا الحديث مشروحاً ، وبين أن هذا اللفظ مروي بالمعنى ، و أن الصواب :"ولم يكن شيء قبله".

ص 405
ونحن وأنتم وكل العقلاء، لا نعقل وجود أحد منا، إلا في مكـان، ومـا ليـس في مكان، فهو عدم، والله بخلاف ذلك، فلا يجوز أن يقاس بخلافه كما فعلتم، قلتم: لو كان في مكان لأشبه خلقه.
فإن زعموا أنه يلزم من كونه -تعالى- في العلو، التغيـر، والانتقـال؛ لأنـه، كان ولا مكان، فلما خلق المكان صار في العلو، فـزال عـن صـفته فـي الأزل وصار في مكان.
قيل: وأنتم يلزمكم أقبح من ذلك، وهو زعمكم أنـه -تعـالى- كـان، لا فـي مكان، ثم صار في كل مكان، فقد تغير عندكم معبودكم، وانتقل من لا مكان، إلى كل مكان، وهذا لازم لكم، لا انفكاك لكم منه.
وقولهم: كان اللـه، ولا مكـان، وهـو الآن علـى مـا كـان عليـه قبـل خلـق المكان، كلام فاسد، متناقض، وذلك أن النفاة للاستواء والعلو، وغيرهما، على قسمين:
قسم يقول: إن الله لا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شـمال، ولا أمـام، ولا خلف، ولا داخل العالم، ولا خارجه، وهذا لا يفهم منه إلا العدم المحض، فليس له وجود فعلي على هذا الوصف، فهو إذاً ليس له مكان أصلاً، إذ لا وجود له.
وقسم يقول: إنه في كل مكان، فيلزم أنه كان في كل مكان، قبـل خلـق المكان، فهو إذا في هذا الكون كله، قبل خلقه له، وهذا قول ظاهر الفساد، إذ معناه: كان في الأمكنة، قبل خلقها.
فالحق " أن الله -تعالى- ليس كمثله شيء، لا في نفسـه، ولا فـي فعلـه، ولا فـي صـفاته، ولا فـي مفعـولاته، فـإذا رام الإنسـان أن ينفـي شـيئاً ممـا يستحقه؛ لعدم نظيره في الشاهد المحسوس، صار مـا يثبتـه بـدل نفيـه أبعـد عن المعقول، والمشهود"[1228].
ومن الحجج المشهورة على وجوب علو الله -تعالى-: مـا تقـدم فـي كلام ابن أبي العز: وهو أن يقال: لما خلق الله الخلـق، لا بـد أن يكـون خلقـه بائنـاً منه، فلا يجوز أن يكون الخالق –جل وعلا- في المخلوق، وأن يكون المخلـوق حاوياً له، تعالى عن
ص 406
ذلك، فلا بد أن يكون بائناً عنه، ولا يجوز أن يكون المخلوق فوق الخالق – تعالى وتقدس – فلا بد أن يكون عالياً فوق خلقه.
قال شيخ الإسلام:" معرفة القلوب، وإقرارها بفطـرة اللـه الـتي فطرهـا عليها، أن ربها فوق العالم، ودلالة الكتاب والسنة على ذلك، وظهور ذلك فـي

[1228]() "بيان تلبيس الجهمية" (1/147).

خاصة الأمة وعامتها، وكلام السلف في ذلك، أعظم من كونه -تعالى- يرى بالأبصار يوم القيامة، أو أن رؤيته بالأبصار جائزة.

ويشهد لهذا أن الجهمية، أول ما ظهروا في الإسلام، في أوائل المائة الثانية، وكان حقيقة قولهم في الباطن: تعطيل الرب -تعالى- من الصفات كلها، ولا يصفونه -تعالى- إلا بالسلوب المحضة، التي لا تنطبق إلا على المعدوم، وكانوا في الباطن ينكرون أن يرى، أو يتكلم، أو أنه فوق العرش، أو أن يكون موصوفاً بالصفات التي جاءت بها كتب الله، أو دلت عليها مع ذلك الدلائل العقلية، لكن ما كانوا يظهرون من قولهم للناس، ما هو ظاهر البطلان، وما ليس فيه شبهة، مثل نفي العلو المعروف، المتيقن من الدين بالضرورة عند العامة والخاصة، وإنما يظهرون ما فيه شبهة، ولهم عليه حجة، ويكونون فيه أقل مخالفة لما يعلمه الناس من الحجج الفطرية، الشرعية، وهذا شأن كل من أراد أن يظهر خلاف ما عليه أمة من الأمم من الحق، فإنهم لا ينقضون الأصول العظيمة الظاهرة ابتداء"[1229].

ومن المؤسف أن بعض ضلالات الذين ذكرهم الشيخ، قد ورثها كثير من علماء المسلمين، كالأشعرية الذين يزعمون أنهم أعداء لهم وخصوم، مع أنهم يتفقون معهم على إنكار علو الله تعالى، واستوائه على عرشه، ومجيئه لفصل القضاء بين عباده، ونزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة، كما أخبر به رسول الله –صلى الله عليه وسلم-.

كما أنهم يؤولون الصفات إلا قليلاً، تأويلاً يؤول إلى الإنكار، مثل اليدين، والرجلين، والوجه، والرحمة، والمحبة، والضحك، والرضا، والغضب، والسخط، والمقت، وغير ذلك.

ويوافقون الجهمية في كون القرآن مخلوقاً، فإنهم يجعلون الكلام قسمين: نفسي، وهو المعنى القائمة بالنفس، وهذا هو الذي يصفون الله به، ولفظي حرفي وهو

ص 407

المكتوب في المصاحف، وهو ليس كلاماً لله عندهم، بل هو عبارة عن كلام الله، وهو مخلوق، وهذا قول الجهمية الذين كفرهم السلف من أجله.

والمقصود: أن علو الله -تعالى- واستواءه على عرشه ثابت بنصوص الكتب المنزلة على رسل الله، وأما العلو فهو ثابت بذلك، وبالفطر التي عليها عباده، وبالعقول التي لم تنتكس بفعل الشياطين، وبإجماع أهل العلم والإيمان من جميع الأمم، كما تقدمت الإشارة إليه، ولم يعرف خلاف في هذه المسألة، ونحوها إلا بعدما دخل كثير من الزنادقة في الإسلام نفاقاً، وقصداً

[1229]() "بيان تلبيس الجهمية" (2/78-79) بتصرف.

لإفساد الدين، بعد المائة الأولى للهجرة، وإن كـان قـد وجـد قبـل ذلـك بعـض المفسدين المتطرفين، الذين كان لهم الأثر السيء في الأمة.

قال شيخ الإسلام: " افترق الناس، في علو الله واستوائه، أربع فرق:

الأولى: الجهمية، النفاة، يقولون: ليس داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوق، ولا تحت، وجميع الطوائف، من أهل البدع يتمسكون بنصوص، إلا الجهمية.

وقسم ثان منهم يقولون: إنه بذاته في كل مكان، ويدخل فيهم الأشاعرة، وهؤلاء هم الفرقة الثانية.

الثالثة: من يقول: إنه فوق العرش، وهو في كل مكان، ويزعم أنـه بـذلك يجمع بين النصوص.

الرابعة: المتبعون للكتاب، والسنة، الذين أثبتوا ما أثبته الله ورسوله، من غير تحريف، فآمنوا بالله فوق سماواته، مستوٍ على عرشه"[1230].

وقد تقدم ذكر بعض الآيات الدالة على علوِّ الله -تعالى- صـراحة، وبعـض الأحاديث مما ذكره البخاري وغيره.

ومما لم يذكره: قصة معراج الرسول –صلى الله عليـه وسلم- إلـى ربـه فوق السماوات كلها، وهي ثابتة ثبوتاً قطعياً بدون ريب.

وفي حديث الرقية:" ربنا الله الذي في السماء، تقدس اسمك"[1231].

ص 408

وفي حديث الأوعال: " والعرش فوق ذلك، والله فوق عرشه، وهـو يعلـم ما أنتم عليه"[1232]

وفي "سنن أبي داود"، عن جبير بن مطعم قال: أتى رسول اللـه –صـلى الله عليه وسلم- أعرابي فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وجاع العيـال، وهلك المال، فادع الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، فسبح رسول اللـه –صـلى اللـه عليـه وسـلم-، حـتى عـرف ذلـك فـي وجـوه أصحابه وقال:" ويحك! أتدري ما الله؟ إن الله لا يستشفع بـه علـى أحـد مـن خلقه، شأن اللـه أعظـم مـن ذلـك، إن اللـه علـى عرشـه، وإن عرشـه علـى سماواته وأرضه هكذا، وقال بأصابعه مثل القبة"[1233].

وفي خطبته –صلى الله عليه وسلم- في عرفة، في أعظم جمع اجتمع له –صلى الله عليه وسلم- بعـدما أمـر، ونهـى، جعـل يقـول: " ألا هـل بلغـت؟"

[1230]() "مجموع الفتاوى" (5/229-231) ملخصاً.

[1231]() رواه أبو داود في "السنن" (4/218) رقم (3892) ، و أحمد في "المسند" (6/21).

[1232]() رواه أبو داود (5/93) والترمذي وقال: حسن غريب (5/424) رقم (3320) ، وابن ماجه (1/69) و أحمد في "المسند" (1/206-207) وغيرهم.

[1233]() أخرجه أبو داود في "السنن" (5/94) ، و أبو سعيد الدارمي في "الرد على الجهمية" (ص 272) ، وفي الرد على المريسي (ص 447).

فيقولون: نعم، عند ذلك يرفع إصبعه إلى السماء وينكبها إليهم، ويقول: " اللهم اشهد" – غير مرة -[1234].

والنصوص في ذلك كثيرة جداً، والحق في هذه المسألة واضح جلي، بل وفي كل ما يجب لله -تعالى- وما يمتنع عليه، ومعلوم أن الله -تعالى- قد أكمل لهذه الأمة دينها على لسان رسولها، وأتم عليها النعمة بذلك، وأنزل كتابه فيه تبيان كل شيء، ومعرفته -تعالى- بما له من الأوصاف، ومعرفة ما يمتنع عليه، هي أجل أمور الدين وأعظم أصوله، فلا بد أن يكون هذا قد بين غاية البيان.

ثم إنه ليس بين علو الله -تعالى- على جميع خلقه، ومعيته لخلقه، وقربه من عباده، منافاة، فعلوه -تعالى- واستواؤه على عرشه، ثابت ثبوتاً قطعياً، كما وضح ذلك -تعالى- في كتابه، وبينه رسوله –صلى الله عليه وسلم- وكذلك معيته -تعالى- لخلقه، قد وضحها وبينها رسوله، فوجب الإيمان بذلك، فكما أنه تعالى مستوٍ على عرشه، وعالٍ على خلقه، حقيقة، فهو كذلك موصوف بالقرب والمعية على الحقيقة.

ص 409

قال شيخ الإسلام: " لا يخالف ما ثبت من علو الله، وأنه فوق العرش، معيته لخلقه، الثابت بمثل قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [1235].

وقوله – صلى الله عليه وسلم-: " إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فإن الله قبل وجهه"[1236] ونحو ذلك.

وذلك أن الله معنا حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة، كما جمع الله بينهما في قوله -تعالى-: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [1237]، فأخبر -تعالى- أنه فوق العرش، يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم- في حديث الأوعال:" والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه"[1238].

وذلك أن كلمة "مع" في اللغة، إذا أطلقت، لم يكن ظاهرها، في اللغة إلا المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسة، أو محاذاة، عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني، دلت على المقارنة في ذلك المعنى، فإنه

[1234]() تقدم أنه أخرجه مسلم.

[1235]() الآية 4 من سورة الحديد.

[1236]() رواه البخاري في الصلاة ، باب 33 (ص 75) وفي أماكن متعددة ، ومسلم.

[1237]() الآية 4 من سورة الحديد.

[1238]() تقدم تخريجه.

يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، ويقال: هذا المتاع معي، لمجامعته لــك، وإن كان فوق رأسك، فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة.

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسـب المـوارد، فقـوله -تعـالى-: {وَهُـوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [1239] دل ظاهر الخطاب أن حكم هذه المعية، ومقتضاها: أنه مطلع عليكم شهيد عليكم، ومهيمن، عالم بكم، وهذا معنى قول الســلف: إنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته.

وقوله: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا} [1240]، حق على ظاهره، ودلت الحال

ص 410

على أن حكم هذه المعية: الاطلاع، والنصر، والتأييد، ومثلها قوله: {إِنَّنِـي مَعَكُمَـا} [1241]، وقــوله -تعــالى-: {إِنَّ اللّــهَ مَــعَ الَّــذِينَ اتَّقَــواْ وَّالَّــذِينَ هُــم مُّحْسِنُونَ} [1242]حق، وحكمها النصر، والتأييد"[1243].

والمعية نوعان: عامة وخاصة.

فالأولى: هي المذكورة في مثل قوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَـا كُنتُـمْ} [1244].

والثانية: هي المذكورة في مثل قوله تعالى: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْــمَعُ وَأَرَى} [1245]، فهذه خاصة بأنبيائه وأوليائه، وعباده المؤمنين، فهو -تعالى- معهم دون أعدائهم، ومعهـم بسـمعه ورؤيتـه، ونصـره وتأييـده، كمـا أنـه -تعـالى- معهـم بإحاطته وقبضته.

والمعية لا تدل على المخالطة، والممازجة، وإنمـا تـدل علـى المصـاحبة، كما قال رسول الله –صـلى اللـه عليـه وسـلم-: " اللهـم أنـت الصـاحب فـي السفر، والخليفة في الأهل"[1246].

فهو – سبحانه – مع المسافر في سفره، ومع أهله في وطنـه، وهـو فـوق عرشه، وكل ذلك على ظاهره، غير محتاج إلى تأويل، ولا يلزم منـه أن تكـون ذاته مختلطة بذوات خلقه –تعالى الله وتقدس عن ذلك –؛ وذلك لأن المفهوم من المعيـة فـي اللغـة العربيـة: المصـاحبة والمقارنـة، حكمهـا حسـب مـورد الخطاب، فقوله –تعالى-: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّـذِينَ مَعَـهُ} [1247] أي: علـى الإيمان، لا أن ذواتهم حالة في ذاته، بل هم مصـاحبون لـه ومتبعـون لـه علـى

[1239]() الآية 4 من سورة الحديد.
[1240]() الآية 40 من سورة التوبة .
[1241]() الآية 46 من سورة طه.
[1242]() الآية 128 من سورة النحل .
[1243]() "مجموع الفتاوى" (5/102-104).
[1244]() الآية 4 من سورة الحديد.
[1245]() الآية 46 من سورة طه.
[1246]() رواه مسلم في "الصحيح" (2/978) الحديث رقم (1342) ورواه غيره.
[1247]() الآية 29 من سورة الفتح.

الإيمان، وقوله: {فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} يـدل علـى مـوافقتهم فـي الإيمـان، وموالاتهم.

فالله -تعالى- مع عباده، يراهم، ويسمع كلامهم، وهو محيط بهـم، وعلمـه بهم من لوازم معيته لهم، وليست المعية هي العلم كما يتوهمه بعض النـاس، فعلمه –

ص 411

تعالى – محيط بكل شيء ولا يختلف أو يتغير، ولذلك صـارت المعيـة إلـى خاصة، وعامـة، وكـل واحـدة لهـا مقتضـاها وحكمهـا، فمـن مقتضـى العامـة: المراقبة، والتخويف، والاطلاع على جميع التصرفات، وما تكنه الصدور.

ومن مقتضى الخاصة: النصر، والتأييد، والحفظ.

وتفسير من فسرها بالعلم من السلف، يقصد بيان أن الله ليس مختلطـاً بخلقه أو حـالاً فيهـم، أو أن شـيئاً مـن مخلوقـاته تحـويه، أو تظلـه، أو تقلـه – تعالى وتقدس-.

و أما القرب، فقد جاء على صيغتين: الإفـراد، نحـو قـوله -تعـالى-: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ فَلْيَسْـتَجِيبُواْ لِـي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [1248]، وكما في حديث أبي موسـى المتقـدم:" إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته".

وهو -تعالى- فوق عرشه، ويقرب ممن يشاء من خلقه، كيف يشـاء، كمـا قـرب مـن موسـى – عليـه السـلام – حيـن كلمـه، وهـو فـوق عرشـه، فـوق السماوات كلها، فلا تنافي بين علوه، وقربه ومعيته؛ لأنه تعالى أكـبر مـن كـل شيء، وأعظم من كل شيء، وهو محيط بكل شيء، وهو بكـل شـيء عليـم، وعلى كل شيء قدير، تعالى الله عن ظنون السوء الكاذبة.

فعلو الله العلي العظيم، واستواؤه على عرشه، ومعيته وقربه، كـل ذلـك ثابت له، حق على ظاهره، كما أخبر به -تعالى- عن نفسه، وأخبرت به رسله، فالكل ثابت لله -تعالى- في الكتب الإلهية، وفي نصوص الأنبياء.

و أهل الفطـرة العقليـة السـليمة، مـن الأوليـن والآخريـن، يقولـون: إنـه -تعالى- فوق عرشه، عالٍ علـى خلقـه، وهـو معهـم، بعلمـه ورؤيتـه، وسـمعه وإحـاطته، وقبضـته وهيمنتـه عليهـم. ومـع أنبيـائه وأوليـائه بـذلك، وبنصـره، وتأييده، وحفظه. ومعيته -تعالى- من صفاته الخاصة به.

ص 412

و أما الصيغة الأخرى للقرب: صيغة الجمع، كقوله -تعالى-: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [1249]، وهذا يقصد به لغة العرب: الواحد العظيم، الـذي

[1248]() الآية 186 من سورة البقرة .

[1249]() الآية 16 من سورة ق.

له عبيد يطيعونه، ويسارعون في أمره، وإذا وقع الفعل منهم عن أمـره قـال: نحن فعلنا، كما يقول الرئيس: نحن أمرنا بكذا، واللـه -تعـالى- رب الملائكـة، وخالقهم، وخالق أفعالهم، وهم ممتثلون لأمره: {لا يَعْصُـونَ اللَّـهَ مَـا أَمَرَهُـمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [1250]، {لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُـونَ} [1251]، مع أنه -تعالى- غني بذاته عن ملائكته، وجميع خلقـه، وهـو الـذي أقـدر خلقـه على ما يفعلون، وأعطاهم القدرة على ذلك، وإذا شاء سلبهم ذلك، فإذا قـال -تعالى-: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِـن لاَّ تُبْصِـرُونَ} [1252]، إذا كـان المـراد الملائكة، كان من هذا الباب.

والمقصود: أن علو الله -تعالى- ثابت له بالفعل، وأدلة الكتاب، ومـا بلغـه الرسول –صلى الله عليه وسلم- أمتـه، وثـابت بالضـرورة الفطريـة، والأدلـة عليـه لا تحصـى، ومنكـره منكـر للمعلـوم بالضـرورة مـن الـدين، والمعلـوم بالضرورة العقلية الفطرية، وليس بين علو الله واستوائه على عرشـه، وبيـن معيته لخلقه، ولأوليائه وأنبيائه، وقربه منهم تعارض.

تم الجزء الأول من الشرح ويليه الجزء الثاني وأوله:

باب قول الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ {22} إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}

[1250]() الآية 6 من سورة التحريم.

[1251]() الآية 27 من سورة الأنبياء.

[1252]() الآية 85 من سورة الواقعة.